المجلة العراقية لعلم النفس الاجتماعي والسياسي

مجلة علمية تصدرعن **الجمعية العراقية لعلم النفس السياسي**

IAPP

2021 2

المجلة العر اقية لعلم النفس الاجتماعي والسياسي

مجلة علمية تصدرعن الجمعية العر اقية لعلم النفس السياسي

رئيس التحرير

البروفيسور الدكتور **لؤي خزعل جبر**

علم النفس الاجتماعي السياسي

هيئة التحرير

البروفيسور المُساعِد الدكتور **جاسم محمد عيدي**

علم النفس الإرشادي

البروفيسور المُساعِد **علي عبد الرحيم صالح**

علم النفس المعرفي

الدكتور **مازن حاتم**

علم النفس الاجتماعي السياسي

الهيئة الاستشاريَّة

البروفيسور الدكتور **خليل إبراهيم رسول**

القياس النفسي

البروفيسور الدكتور **فارِس كمال نظمي**

علم النفس الاجتماعي السياسي

البروفيسور الدكتور **يوسف حمه صالح**

علم نفس الشخصيَّة

البروفيسور الدكتور **علي جواد وتوت**

علم الاجتماع السياسي

البروفيسور الدكتور **علي عبود المحمداوي**

الفلسفة السياسيَّة

2021 2

الجمعيَّة العر اقيَّة لعلم النفس السياسي

Iraqi Association For Political Psychology (IAPP)

الجمعية العراقية لعلم النفس السياسي، جمعية مدنية عراقية غير حكومية، ذات شخصية قانونية مستقلة، تعمل ضمن رؤية: "**نحو ثقافة سياسية إنسانية تحقق كرامة المجتمع وعقلانية الدولة**"، تهدُف إلى (1) دراسة وتحليل المشكلات والظواهر النفسية الناتجة عن تبادل التأثير بين السياسة والمجتمع، بهدف التوصل إلى استنتاجات وتوصيات تتيح إمكانية ممارسة الضغط الديمقراطي على المؤسسات التشريعية والقضائية والتنفيذية في الدولة بما يكفل أن يكون لمخرجات هذه المؤسسات ونشاطها تأثير إيجابي في بناء الشخصية العراقية، و(2) تقديم المشورة العلمية للمؤسسات الرسمية وغير الرسمية ذات التأثير الحيوي في تشكيل شخصية الفرد، وتبصيرها بالأسس النفسية للسلوك السياسي، وكيفية التحكم به إيجابياً بما يحقق الثقة الاجتماعية المتبادلة بين المواطن والدولة، ويرسخ مفاهيم العدل والحرية، ويعزز النسيج المجتمعي، و(3) نشر ثقافة سياسية مجتمعية إنسانية قائمة على تنمية وعي الإنسان بمسؤوليته عن شؤون الوطن، وتنشيط دوافع المشاركة السياسية السلمية لديه، وتبصيره بحقوقه الدستورية والسياسية والاجتماعية والإنسانية، وتحفيز قيم التسامح والسلام والتعددية وقبول الرأي الآخر، و(4) تبصير الإنسان بمشكلاته الانفعالية والادراكية ذات الأساس السياسي والاجتماعي، وزيادة وعيه بحقوقه النفسية المتضررة جراء ذلك، وتنمية تصورات متماسكة لدية عن هويته الوطنية وعن معنى إنساني للحياة يستحق منه الكفاح والمحاولة، عبر إرشاده إلى الوسائل الموضوعية الكفيلة بتحسين صحته النفسية وترصين شخصيته الفردية والاجتماعية والحضارية، و(5) إقامة أواصر تنسيقية وتفاعلية مع مراكز الأبحاث وأقسام العلوم الاجتماعية في الجامعات، بما يسهم في نشر التفكير العلمي وثقافة المساواة، ونبذ التمييز والعنف، وتفتيت بعض الصور النمطية السلبية العالقة في أذهان المكونات الاجتماعية عن بعضها البعض، و(6) تنشيط العمل الأكاديمي المشترك في اختصاصات علوم النفس والاجتماع والسياسة والتأريخ، بما يؤصل العلاقة البحثية بينها، سعياً لإجتراح تصورات فكرية أكثر عمقاً عن مجمل التأريخ السياسي والاجتماعي للعراق. تأسَّسَت الجمعيَّة في 1 – 5 – 2017، بهيئة تأسيسيَّة تألَّفَت مِن: الدكتور فارس كمال نظمي (رئيس الجمعيَّة)، والدكتور لؤي خزعل جبر، والدكتور جاسم محمد عيدي، وأُعلِن التأسيس في بغداد بتاريخ 30 – 7 – 2017، ومنذ تلك اللحظة انطلَقت في بناءِ نشاطاتٍ علميَّة نوعيَّة.

البريد الإلكتروني للجمعيَّة: **iraqiapp@hotmail.com**

البريد الإلكتروني لرئيس الجمعيَّة: **fariskonadhmi@hotmail.com**

البريد الإلكتروني لرئيس تحرير المجلَّة: **luaibrhr@yahoo.com**

صفحة الجمعيَّة على الفيسبوك: **الجمعية العر اقية لعلم النفس السياسي**

https://www.facebook.com/IraqiAssociationforPoliticalPsychologyIAPP

قواعد النشر في المجلَّة

1. يُشتَرَط فيما يُنشَر في المجلَّة أن يتصِف بالعمق والدقَّة **العلميَّة والمنهجيَّة**، والصِلَة بالإشكاليَّات المجتمعيَّة، وضمن علم النفس الاجتماعي والسياسي، وما يتصِل بهِ من مقاربات علميَّة. ويتمُّ تقييم النصوص العلميَّة بطريقة سريَّة مِن متخصصين رصينين.
2. تُشتَرَط **أصالة البحث**، وكتابته للمجلَّة بالخصوص، وأن لا يكون منشوراً – كلياً أو جزئياً – في موضِعٍ آخر، مع إمكانية استثناء بعض الدراسات ذات الأهميَّة الخاصَّة.
3. **المجلَّة منفتحة** على كل التخصصات، وكل الاتجاهات، ضمن المواصفات والضوابط والأخلاقيَّات العلميَّة، وكل ما يرد يعبر عن رأي كاتِبِهِ، ولا يعبر – بالضرورة – عن رأي الجمعيَّة أو المجلَّة.
4. لغة المجلَّة هي **العربيَّة**، مع ضرورة تثبيت المصطلحات الانكليزية بدقَّة، كما يمكن نشر نصوص بلغاتٍ أجنبيَّة عند الضرورة.
5. يُعتَمَد **اسلوب APA Style** ، الموثَّق في الطبعة السادسة مِن دليل النشر للجمعيَّة النفسيَّة الأمريكيَّة Publication manual of the American Psychological Association (2010)، في كتابة البحوث، والأساليب المنهجية الموثقة للتخصصات الأخرى عند الضرورة، وكذلك البند الثامِن من **أخلاقيَّات البحث والنشر**، الوارِدة في المبادئ الأخلاقيَّة لعلماءِ النفس ونظام التصرُّف Ethical Principles of Psychologists and Code of Conduct (2017) للجمعيَّة النفسيَّة الأمريكيَّة.
6. يُرسَل البحث، أو المُساهمة، بصيغة **مطبوعة** على Word، بنوعية Sakkal Majalla، وحجم (16 غامق) للعنوان الرئيس، و(13 غامق) للعناوين الداخليَّة، و(13 عادي) للمتن، و(11 عادي) للهامش، مع إرفاق **سيرة ذاتيَّة** موجزة للكاتِب، تتضمَّن تخصصه وشهادته ولقبه وعمله، واهتماماته ومنجزاته العلميَّة، على **البريد الإلكتروني**: (luaibrhr@yahoo.com) أو (ali.salih@qu.edu.iq).
7. يخضع **ترتيب البحوث** في المجلة لضرورات فنيَّة أو موضوعيَّة، ولا صلة لذلك بمكانَة الباحِث.
8. المجلَّة **إلكترونيَّة مجانيَّة**، لا تدفَع – ولا تتقاضى – مبالِغ مقابِل الدراسات المنشورة.

المحتويات

❖ **المشاركة في الانتخابات العراقية بين هيمنة الأحزاب السياسية والخيارات الذاتية** 5
ماجد حسن **علي**

❖ **الأبوانيَّة القهريَّة: خطاب الوصاية وسرديَّاته الدينية في العراق** 27
جعفر نجم **نصر**

❖ **العنف في العراق وتأثيراته في الصحة النفسية: دراسة استكشافية** 47
فارس كمال **نظمي**

❖ **الأسس النفسية والسلوكية للأصولية الإسلامية** 80
ماكس **تايلور** وجون **هورغان** (ترجمة: لؤي خزعل جبر)

❖ **الظاهرة الكورونيَّة**

التسلطية والظاهرة الكورونيَّة: مُجمَلُ دراسات عالميَّة واسِعَة 108
ديناميات التسلطية خلال الجائحة الكورونية
التسلطية اليمينية والتسلطية اليسارية والتسلطية التخفيفية الوبائية
الديمقراطية والتسلطية وإدارة الظاهرة الكورونية

مقاومة الإلزامات الصحية على مستوى الجماعة أثناء الجائحة الكورونية 135
دونيلسون **فورسيث** (ترجمة: علي عبد الرحيم صالح)

العمليَّة التعليميَّة والجائحة الكورونية 158
سوميترا **بوكريل** وروشان **شيتري**

❖ **علماء مؤسسون منسيون**

بارتليت وويتمر وهولزكامب 167
أبطال مجهولون في الذاكرة الأكاديمية النفسية

❖ **حوارات**

العراق – عبر تاريخِهِ – لم يحكمه أهله 197
حوار مع البروفيسور الدكتور **مصطفى حجازي**

تغيير النظام التعليمي الحل الوحيد لأزمة الأكاديميَّة العراقيَّة 207
حوار مع البروفيسور الدكتور **خليل إبراهيم رسول**

❖ **قراءات**

نظام التفاهَة لـ آلان دونو 213

التفاؤل المُكتَسَب لـ مارتن سيلغمان 216

المشاركة في الانتخابات العر اقية
بين هيمنة الأحزاب السياسية والخيارات الذاتية
دراسة في آليات وتأثيرالأحزاب الكردية على ناخبي الأقلية الإيزيدية (٢٠٠٥-٢٠١٤)

ماجد حسن علي[1]

بموجب مستجدات حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ انقسم مجتمع الأقلية الإيزيدية في العراق بين الحكومة المركزية وإقليم كردستان، ولم يتمكن الإيزيديون من تشكيل أحزاب سياسية في العراق بسبب طبيعة النظام السياسي حتى عام ٢٠٠٣. وفي المناطق الكردية أيضا لم يؤسس الإيزيديون أي حزب سياسي بسبب نفوذ وسيطرة الأحزاب الكردية ذو التوجهات القومية على الساحة التي تبنت في برامجها وفعالياتها السياسية، الانتماء الإيزيدي الى القومية الكردية، ونتيجة لذلك لم تكن هناك ضرورة من وجهة نظرها لتأسيس حزب خاص بالإيزيديين على أسس دينية في وقت كانت هناك عدة أحزاب دينية إسلامية. ونتيجة للمستجدات السياسية ما بعد حرب الخليج الثالثة عام ٢٠٠٣، أسس الإيزيديون أحزاباً سياسية، وشاركت في قوائم انتخابية منذ إجراء أول انتخابات في العراق عام ٢٠٠٥، وفازت قائمة الحركة الإيزيدية للإصلاح والتقدم بمقعد الكوتا بينما فاز ثلاث نواب إيزيديين من قائمة التحالف الكردستاني المكون من عدد من الأحزاب الكردية الذين دخلوا الانتخابات في قائمة واحدة. وكذلك الحال في انتخابات مجالس المحافظات التي حصد فيها الإيزيديون سبع مقاعد. وفي انتخابات ٢٠١٠ فاز الإيزيديون بسبعة مقاعد، ستة منها كانت للأحزاب الكردية وواحد للكوتا الإيزيدية. وفي انتخابات ٢٠١٤ خسر الإيزيديون خمس مقاعد وأصبحت الكوتا من حصة الحركة الإيزيدية وكوتا النساء من حصة التحالف الكردستاني. إن موضوع خسارة الإيزيدية لمقاعدهم يشكل نقطة مهمة للوقوف حول حيثيات تراجع المصوتين للمرشحين الإيزيديين. ولعل عامل استراتيجية الأحزاب السياسية التي رشحت أعداداً كبيرة وصلت

[1] **ماجد حسن علي** باحث وعضو مشارك في قسم الدراسات الإيزيدية، معهد جيورجي تسيريتيلي للدراسات الشرقية، جامعة إيليا الحكومية، تبليسي، جورجيا. يعمل باحث مختص في القسم العلمي للمجلس المركزي الإيزيدي في المانيا. نشر العديد من البحوث والدراسات باللغات العربية والإنكليزية حول: الإرهاب والتسامح الديني، والهجرة القسرية، وقضايا الأقليات، والإبادة الجماعية، والهوية الإيزيدية، والدراسات الكردية. majidhassan.ali@gmail.com.

الى ٧٣ مرشح إيزيدي في الوقت الذي لا تسمح نسبة الإيزيدية ممن لهم حق التصويت في إيصال ما بين سبعة الى ثمانية نواب. فهذا العدد الكبير من المرشحين، سبب عائقاً تجاه فوز أي منهم، لذلك فشل الإيزيديون في هذه الانتخابات في الفوز بعدد المقاعد التي تتناسب مع ثقلهم السكاني. وفي ضوء ذلك سوف نركز في هذه الدراسة على الآليات التي استخدمتها الأحزاب السياسية الكردية من خلال هيمنتها وتكتيكاتها الإعلامية والايديولوجية في ترشيح أكبر عدد من المرشحين الإيزيديين حسب خلفيات كل مرشح وانتماءاته القبلية، والحزبية وكيفية التأثير في خيارات الناخب الإيزيدي للتصويت حسب الانتماءات القبلية. والنتيجة أدت الى تشتت أصوات الناخبين لصالح القوائم الحزبية الكردية وايصال نواب غير إيزيديين الى البرلمان بأصوات الناخبين الإيزيديين حسب نظام الانتخابات المعمول به في العراق. وقد اتبعت نفس تلك الآليات في انتخابات برلمان إقليم كردستان الذي لم يسمح بوصول غير نائب واحد بعد تخلى نائب آخر من مقعده.

المقدمة والإطار النظري

شهد العراق ثلاثة انتخابات عامة لمجلس النواب ومجالس المحافظات منذ احتلال العراق ٢٠٠٣ حتى ٢٠١٤، وقد رافقت هذه الانتخابات تغيرات كبيرة على مختلف الأصعدة، وحدثت صراعات وتحديات جديدة ساهمت في زيادة الترويج للقضايا القومية والدينية والمذهبية والطائفية والعشائرية، وكل ذلك كان من شأنه أن يؤثر على السلوك الانتخابي للأفراد والمجتمعات العراقية أثناء الانتخابات. ومن الصعب دراسة الانتخابات وأنماط التصويت، والسلوك الانتخابي للناخبين بشكل دقيق أو مطلق في العراق. ومع وجود عدة تفسيرات تاريخية وجغرافية واقتصادية واجتماعية من بينها التفسيرات النفسية التي تشغل حيزاً مهماً في دراسة السلوك الانتخابي، فإن بيئة العراق منذ ٢٠٠٣ قد أصبحت بيئة صعبة بسبب عدم الاستقرار الأمني والسياسي، والتجربة الديمقراطية الناشئة، وعدم وجود إحصاءات للتعداد السكاني، والأهم سطوة أحزاب ايديولوجية ذات أبعاد دينية أو مذهبية أو قومية أو طائفية معظمها ذات هياكل تنظيمية سلطوية سيطرت على المشهد السياسي.

إن التفسير النفسي لمعرفة السلوك الانتخابي، أي دراسة آليات التأثير على الناخب والنتائج بالاعتماد على معطيات وتحليلات العوامل النفسية التي تشكل شخصية الناخب، وكذلك العوامل المحددة لسلوك الناخب وتوجهاته، قد يسهم في فهم آليات التأثير في سلوك الناخب المستهدف في الدراسة الحالية (الفئة المستهدفة هي الأقلية الإيزيدية). وفي هذا الصدد يرى التفسير النفسي "أن العلاقات العائلية والبيئة الاجتماعية هي العناصر الأساسية التي تتولى تشكيل هذه الشخصية [المواطن الناخب]" (تهامي، 2013). ومع أن هناك مدارس ونظريات لعلم النفس وعلم الاجتماع لتفسير ودراسة السلوك الانتخابي، تؤكد على أهمية تأثير العوامل النفسية والاجتماعية على السلوك الانتخابي، لكن هناك تباين في تطبيقاتها أو الاهتمام بها أكاديمياً بين دول الشرق الاوسط والعالم الإسلامي من جهة وبين الدول الغربية (Visser, 1994,

(p.43، من حيث المتغيرات مثل الدوافع، والاتجاهات والميول السياسية، والحاجات، والمستوى الاقتصادي، والتعصب، والتدين، والصفات الشخصية، والمستوى الثقافي، والدعاية والاعلام، ومتلازمة الشهرة، والشجاعة والجرأة. وترى بعض هذه المدارس بأن السلوك الانتخابي محكوم بمجموعة من الاتجاهات والقيم والرغبات والمعتقدات (الأعرجي، 2010، ص٥٣١-٥٣٢)، فالمعتقدات هنا من المتغيرات النفسية التي لها تأثير متتابع في السلوك، فالمعتقدات التي يكونها الفرد عن نفسه بشكل عامل بمثابة محدد وموجه مهم لسلوكه بشكل عام ولسلوكه الانتخابي بشكل خاص، لكون تلك المعتقدات تعبر عن أفكار يشعر الفرد بأنها صحيحة، ما تجعله يتصرف وفقها في المواقف التي يواجهها (الأعرجي، 2010، ص٥٣٢؛ Visser, 2004, p. 43.)، وبالتالي فالسلوك الانتخابي هنا هو وحدة سلوك متعاقب وموجه نحو هدف ينتهي بشكل متكامل لمصلحة حزب أو مرشح ما (الأعرجي، 2010، ص536). وبناءً على ذلك ينفي العديد من علماء النفس طابع الاستمرارية في السلوك الانتخابي عند الفرد، لأن الفرص المتاحة لظهوره ترتبط بشكل دائم بالانتخابات والتي عادة ما تجري على فترات متباعدة قد تمتد لسنوات حسب نظام الانتخابات لكل بلد. وقد أكد "ڤيسر" Visser، بأن هناك عدة عوامل تحدد السلوك الانتخابي التي يجب التعامل معها ككل متكامل لتشكيل ما يعرف بالمجال[1]، وبالتالي بحسب ذلك المجال يمكن فهم سلوك الناخب عند التصويت، لكون هذا المجال يتكون من الفرد والبيئة كما يراه الناخب، وعندها يكون هناك تفاعل مستمر بين العمليات المعرفية الادراكية والدوافع. وهذا التفاعل الديناميكي هو الذي يحدد السلوك الانتخابي للفرد أو الناخب، الأمر الذي يعني أن هذا السلوك محكوم بمجال الحياة والبيئة السيكولوجية التي يعيشها.

وبما أن الأقلية الإيزيدية في العراق وإقليم كردستان هي الفئة المستهدفة من حيث حدود البحث فانه يمكن تصنيف الإيزيدية كأقلية دينية منتشرة في مراكز ديموغرافية ذات مناطق جغرافية فيها كثافة سكانية نقية ومركزة، فهم متوزعون في المناطق المتنازع عليها بشكل رئيسي، في كل من سنجار وسهل نينوى في محافظة نينوى التي تتبع إداريا للحكومة المركزية، وهناك تجمعات ديموغرافية بشكل اقل في مناطق جنوب وغرب محافظة دهوك التابعة لإقليم كردستان منذ عام ١٩٩١ مثل مجمعات وبلدات شاريا وخانكي وباعدره وديربون. بعد احتلال العراق عام ٢٠٠٣، ومنذ بداية تشكيل مجلس الحكم في العراق كانت المشاركة السياسية للإيزيدية غير فعالة؛ بسبب رفض بعض التيارات الدينية في العراق السماح لهم بالمشاركة، حيث سبق وتم منعهم من المشاركة في مؤتمرات المعارضة العراقية في الخارج، لاتهامهم بموالاة "نظام البعث"، والاشتراك في قمع انتفاضات عام ١٩٩١ ضد الشيعة (Makiya, 1993, p.97) في الجنوب والكرد في الشمال، لكن هذه الاتهامات قد جاءت بناءً على اشاعات مبالغ فيها لأهداف سياسية (Ali, 2017, p.268-269). اما المستجدات العملية السياسية منذ عام ٢٠٠٥، قد سمح للإيزيديين بالمشاركة في الدورات الانتخابية الثلاثة لمجلس النواب ومجالس المحافظات، وفيها حازوا على مقاعد تمثيلية، ومع ذلك فأن

[1] المجال هو نظرية نفسية صاغتها بعض المدارس النفسية لتفسير السلوكيات المختلفة من بينها السلوك الانتخابي للأفراد وذلك من خلال ما يمتلكه من خصائص وميزات، والبيئة السيكولوجية المحيطة بالشخص، والمنطقتان معا يطلق عليهما بمجال أو حيز الحياة.

مسالة الترشيح والتصويت تبقى قابلة للجدل وهناك مطالبات إيزيدية بضرورة منحهم المقاعد المستحقة بناءً على كثافتهم السكانية.

لا يمكن معرفة تعداد سكان الإيزيديين في العراق بشكل دقيق رغم وجود بيانات رسمية في وزارة التخطيط التي اعتمدت على احصاءات عام ١٩٩٧ التي جرت في العراق وشملت جميع إيزيدي العراق عدا الذين اصبحوا ضمن إقليم كردستان منذ عام ١٩٩١، حيث قدر بيان وزارة التخطيط عدد الإيزيديين حتى ١٥ شباط ٢٠٠٣ بـ (٢٨١،٩٨٤) الف نسمة (الإحصاء الرسمي لوزارة التجارة العراقية ووزارة التخطيط)، وبحسب قانون منح مقعد للكوتا لكل مئة الف نسمة للأقليات المعترفة بها، فقد منح مقعد واحد للإيزيدية، وان الاعتماد على هذا الاحصاء الذي يعود الى ١٩٩٧، فان ذلك يعني ان الإيزيديون يستحقون على الأقل مقعدين للكوتا، ومما لا شك فيه ان تعدادهم أكبر من هذا العدد الان (تقدر الإحصاءات غير الرسمية عدد الإيزيديين في العراق ما بين ٥٠٠-٦٠٠ الف نسمة)، لأنه في انتخابات عام ٢٠١٠ حصل الإيزيديين على (٧) مقاعد لمجلس النواب العراقي وبأصوات أيزيدي المناطق المتنازع عليها فقط عدى المناطق التابعة لإقليم كردستان، مما يفسر ان عددهم اكبر من العدد المعلن. ولم يتمكن الإيزيديون من تقديم أنفسهم كأقلية مستقلة ذات "خصوصية" تستند على معايير هوية اثنو-دينية، بسبب سيطرة وهيمنة التيارات السياسية للجماعات الكبرى على مناطقهم، لاسيما الأحزاب الكردية الرئيسة مثل الحزبين الديمقراطي الكردستاني (ح.د.ك) والاتحاد الوطني الكردستاني (أ.و.ك)، وكذلك التفكك الاجتماعي الداخلي وفقدان القيادة الدينية والدنيوية لنفوذها. ومع كل ذلك وخارج نطاق تلك الهيمنة والتفكك الداخلي، فقد أسس الإيزيديون أحزاب سياسية لأول مرة، بعد عام ٢٠٠٣. تلك التطورات جعل المجتمع الإيزيدي غير متجانس من الناحية السياسية الامر الذي لا بد ان يترجم أو ينعكس في شكل تمثيلهم كأقلية في مؤسسات الدولة وفي المشاركة الانتخابية. وبناءً على ذلك فانه هناك ضرورة طرح تساؤلات تحتاج إلى اجابات علمية لمعرفة السلوك الانتخابي للأفراد وللمجتمع الإيزيدي من وجهة نظر تأثيرات سيكولوجية مبنية على أسس الأيديولوجيات الحزبية السياسية، الذي يشكل قضية لهذه الدراسة.

منهجية البحث واهدافه

من الصعب تفحص مزاج الناخب الإيزيدي بشكل دقيق وموضوعي في هذه الدراسة، لذلك تطلب الامر اتباع منهجية البحث النوعي الكيفي، عن طريق الاعتماد على المصادر والبيانات التي تمّكن الباحث في تفسير ظاهرة المشاركة في الانتخابات العراقية، وتحليل المحتوى ثم الاسترشاد والاطلاع على أكثر من نظرية ومفهوم علمي (Chobra, 2011) حول السلوكيات الانتخابية والتصويت واليات ووسائل التأثير على الناخب الإيزيدي. وهنا لابد من عرض ارقام حول المرشحين والعدد التقريبي للمصوتين، واجراء مقابلات شخصية من خلال توجيه أسئلة إلى عينات مختارة من المرشحين والناخبين الإيزيديين في أماكن مختلفة داخل العراق وخارجه، حول الجهة التي تقوم بترشيحهم وماهية دوافعهم وآرائهم حول المشاركة، وذلك لغرض المقاربة في المعلومات. ورغم انهم عكسوا وجهات نظر مختلفة، لكنها تشكل بيانات مهمة ومصدرا للمعلومات يندر أن يتوفر في المصادر الاخرى. اجريت معظم المقابلات بين شهر كانون الثاني وشباط عام ٢٠١٨ واستفاد الباحث من وسائل التواصل الحديثة في اجراء تلك المقابلات.

الهدف من هذه الورقة البحثية هو تقديم تصور واضح على أساس علمي حول المشاركة الإيزيدية والسلوك الانتخابي واليات انتخاب المرشحين الإيزيديين وكيفية التأثير على الناخب الإيزيدي في عملية التصويت، ومدى أهمية تمثيل الأقلية الإيزيدية في مؤسسات الدولة التشريعية والتنفيذية، كالبرلمان ومجالس المحافظات على مستوى العراق وإقليم كردستان.

الخريطة السياسية للأقلية الإيزيدية في العراق

لم يتمكن الإيزيديون في الفترة ما بين ١٩٩١-٢٠٠٣ من تأسيس حزب أو كيان سياسي مستقل في العراق أو في إقليم كردستان بسبب سيطرة حزب البعث على وسط وجنوب العراق، وهيمنة الأحزاب الكردية في إقليم كردستان العراق التي اعتبرت أن الإيزيديون يشتركون مع الاكراد المسلمين في الانتماء الاثني القومي، الأمر الذي أثر على الخيارات الذاتية للفرد الإيزيدي في جميع الانتخابات. وبحكم الامر الواقع بعد عام ١٩٩١ فقد تشجع الإيزيديون للانتماء الى الأحزاب الكردية في المناطق التابعة لمحافظة دهوك، وتوزع الإيزيديون في انتماءاتهم السياسية على الأحزاب ذات الطابع القوموي أو العلماني. وفي غمار مستجدات ما بعد تغير نظام الحكم في العراق في ٢٠٠٣، أسس الإيزيديون أحزاب وتيارات سياسية ذات توجهات جديدة. ففي ظل قرارات السلطة المؤقتة ومجلس الحكم، أعلن بعض الإيزيديون حزبا سياسيا باسم الحركة الإيزيدية من اجل الاصلاح والتقدم (ح.أ.أ.ت) برئاسة كل من امين فرحان چيچو وحمد مطو، انشق الأخير عنه وشكل حزبا جديدا باسم (حزب التقدم الإيزيدي)[1].

حركة الاصلاح (ح.أ.أ.ت) أعلنت عن توجهاتها الايديولوجية واعتبرت الإيزيدية هي قومية ودين مستقل ومنفصل عن القوميات الكردية والعربية، وهذا بطبيعة الحال يتعارض نظرية الأحزاب القومية الكردية وخاصة الـ (ح.د.ك)، الذي يعتبر الإيزيدية من القومية الكردية ولديه قواعد تنظيمية واسعة بينهم، وأن وجود أحزاب إيزيدية قد يشكل تنافسا له على النفوذ في مناطق الإيزيديين لاسيما في سهل نينوى وسنجار. لذلك لم يسمح الـ (ح.د.ك) لهذه الحركة بممارسة نشاطاته وفعالياته في مناطق الإيزيدية في مناطق سهل نينوى والشيخان لاسيما المناطق الخاضعة لسلطة الاقليم المباشرة حسب اقوال قادة الحزب[2]. كما شكل بعض الإيزيديين تنظيمات سياسية أخرى منها (التجمع الديمقراطي الإيزيدي)، الذي أعلن في مدينة هانوفر بألمانيا، برئاسة ميزرا حسن علي دناي. اعتبر هذا التنظيم جميع مناطق الإيزيدية جزءً من إقليم كردستان (بيان الهيئة التأسيسية للتجمع الديمقراطي الإيزيدي). دخل هذا الحزب انتخابات ٢٠١٠ و٢٠١٤، لكنه لم ينجح في الحصول على أي مقعد لأنه لم يتمكن من توسيع قاعدته الجماهيرية رغم قربه لتوجهات الأحزاب الكردية. هذا التنظيم حظي بدعم الاتحاد الوطني الكردستاني لان رئيس التجمع كان عضو نشط في الـ (أ.و.ك). أيضا تم تأسيس الحركة الديمقراطية الإيزيدية الحرة (تَقدا-TEVDA)، في مدينة الموصل بتاريخ ٢

[1] فقدت الاخبار عن رئيس حزب التقدم حمد مطو بعد احتلال داعش لسنجار في ٣ آب ٢٠١٤، ولا يعرف شيئا عن مصيره حتى الان. ويقود الحزب نائبة سعيد بطوش منذ ٢٠١٤، وتم فتح مقرات الحزب من جديد بعد تحرير سنجار ٢٠١٧.

[2] مقابلة شخصية مع عدد من نشطاء الحركة في المانيا في كانون الثاني ٢٠١٨.

كانون الثاني ٢٠٠٤ (الحركة الديمقراطية الإيزيدية الحرة). هذه الحركة أقرب الى أيديولوجية وفكر رئيس حزب العمال الكردستاني (پ.ك.ك)، واتخذ من العراق المركز الرئيسي لنشاطاتها، حيث توسع قاعدته بعد احتلال "داعش" لسنجار وأصبح حلقة الوصل لتشكيل قوات مقاومة سنجار (ي.ب.ش-YBS)، التي تتهم من قبل خصومهم بانها فرع تابع لحزب العمال الكردستاني (پ.ك.ك-PKK)، رغم ان معظم أعضائها هم من الإيزيديين في سنجار. تجدر الإشارة ان أحزاب جديدة تأسست مثل الحزب الديمقراطي الإيزيدي عام ٢٠١٧، بقيادة حيدر ششو قائد قوات حماية إيزيدخان (HPÊ)، الذي هو أيضا كان عضوا قياديا في الـ (أ.و.ك) ومقرهم الرئيسي في السليمانية.

الانتخابات العر اقية بين هيمنة الأحزاب الكبيرة والخيارات الذاتية

هناك أحزاب كبيرة تمثل المجموعات الثلاث الكبرى -الشيعة والسنة والاكراد- على صعيد العراق وإقليم كردستان، والأحزاب الكردية الرئيسية كانت تسيطر وتهيمن أمنيا وسياسيا بشكل شبه كامل على معظم مناطق الإيزيديين بين (٢٠٠٣-٢٠١٤)، لاسيما الـ (ح.د.ك) كما أسلفنا، وبالتالي فان تأثيرهم كان العامل الحاسم على الناخب والمرشح الإيزيدي في المشاركة الانتخابية. لقد كانت هذه الأحزاب تختار المرشحين وفق اتجاهاتها وتحالفاتها السياسية، وبالتالي فأنها لم تكن تراعي في اولوياتها أو في برمجها السياسية القضايا ذات الاهمية للأقلية الإيزيدية من بينها قضايا الخدمات، التعليم، الارزاق، البطالة والفقر...وغيرها، بكلمة أخرى أن اختيار المرشحين الإيزيديين من قبل هذه الأحزاب كانت من اجل زيادة شعبيتها والحصول على أصوات الناخبين لصالحها. وكل ذلك اضعفت الخيارات الذاتية عند الناخب الإيزيدي، تجدر الإشارة إلى أن بعض المرشحين الإيزيديين كان لديهم القدرة على إدراك وفهم اللعبة السياسية، في الوقت الذي كان المجتمع أو عامة الناس خاضع لتلك اللعبة، مما دفع هؤلاء الى استغلال تلك النقطة لصالحهم من خلال الترشيح ضمن قائمة حزبية[1].

وفي سياق الهيمنة وضعف الخيارات الذاتية، يمكن وصف الأحزاب السياسية الحاكمة في إقليم كردستان بالقوة الناعمة[2]، وذلك بما يمتلكون من مؤسسات تنظيمية وامنية ووسائل إعلامية هائلة ومصالح اقتصادية، ربطت نفسها من خلال تلك المؤسسات بمختلف فئات المجتمع، وبالتالي تسهيل السيطرة عليهم والمسير بهم والحصول على الولاءات الشخصية التي يتم نسجها عبر استخدام تلك المؤسسات القائمة، ويدخل ضمن ذلك ممارسة أساليب المحسوبية (neopotism) والزبائنية (clientelism)

[1] برزت هذه الحالة في انتخابات عام ٢٠١٤ عندما رشح عدد من المرشحين من هذا النمط لاسيما وانه لم يكن لديهم حتى مركز حزبي.

[2] وهي مصطلح ابتكره جوزيف ناي عام ١٩٩٠، ويقصد بها القدرة على كسب العقول والقلوب لتحقيق الأهداف السياسية المطلوبة. ومع انه أطلق هذه المصطلح على الدولة التي تملك قوة روحية ومعنوية من خلال ثقافتها وما تجسدها من أفكار ومبادئ واخلاق ومن خلال الدعم في مجالات حقوق الانسان والبنية التحتية والفن، وأطلق المصطلح أيضا على وسائل الاعلام الموجه لخدمة فكر ما. وتعتبر القوة الناعمة إعلاميا من أفضل الاسلحة الناعمة اذ يمكن السيطرة على الاخرين من خلاله وان تجعلهم يتضامنوا معه. ينظر (ناي، 2007، ص18).

(علي، ص٢٦-٤٩)، والعصا والجزرة، الترغيب والترهيب، وحتى مؤسسات المجتمع المدني تقع تحت هيمنة تلك الأحزاب بشكل غير مباشر، وكل ذلك يزيد من تلك القوة الناعمة.

عن طريق جميع الوسائل والأساليب المتاحة، استطاعت الأحزاب الكردية فرض نفسها وهيمنتها السياسية الى حد كبير، من خلال بناء شبكة معقدة من العلاقات الحزبية عبر تشكيل مجموعات مصالح وتبادل الموارد المؤسسية والاقتصادية والسياسية مقابل ضمان الولاءات ودعم اشخاص الذين يصبحون اتباع أو موالين للحزب خاصة هؤلاء الاشخاص ذو المكانة الاجتماعية من كل عشيرة او قبيلة ومن مختلف المناطق جغرافياً. ووفقاً لهذا المنظور يمكن تفسير هكذا تفاعلات داخل معظم الأحزاب السياسية المهيمنة في عموم العراق. وبالتالي فالنتيجة هو أن الخيارات الذاتية للأفراد والمجتمع ومن ضمنهم مجتمع الأقلية الإيزيدية مرهون بهذا النوع من الهيمنة. وحتى تشكيل الإيزيدية أحزاب خاصة بها فأن ذلك أدى بهم إلى المزيد من التشتت والانقسامات المجتمعية بين هذه الأحزاب والتيارات. وفي سياق المشاركة الانتخابية، فانه بعد اجراء انتخابات الجمعية الوطنية التأسيسية (الانتقالية) للعراق في ٣٠ كانون الثاني ٢٠٠٥، تم اختيار ثلاثة ممثلين بأسم الإيزيديين في الجمعية الوطنية التأسيسية وهم كل من عادل ناصر (من مجمع شاريا)، وحيدر ششو (من سنجار)عن الـ (أ.و.ك) وكاميران خيري سعيد (من شيخان) عن الـ (ح.د.ك)،[1] فهم بذلك مثّلوا احزابهم السياسية فيها. بينما في أول انتخابات للمجلس الوطني العراقي (البرلمان) التي أجريت في ١٥ كانون الاول لدورة ٢٠٠٥-٢٠١٠، دخل المرشحين الإيزيديين الانتخابات ضمن قوائم انتخابية مختلفة، فقد فازت قائمة الـ (ح.أ.أ.ت) بمقعد واحد في البرلمان (Katzman, 2005)، مثلها رئيسها أمين فرحان چيچو[2]. بعد أن حصل قائمتهم على (٢١،٩٠٨) صوت[3]. فيما لم يصل أي إيزيدي من القوائم الكردستانية الى ذلك المجلس. وفي انتخابات مجالس المحافظات لعام ٢٠٠٩، فازت قائمة نينوى المتأخية الكردية في مناطق سنجار وسهل نينوى في محافظة نينوى بـ (٢٥.٥٪) من مجموع الأصوات للمقاعد العامة الـ (٣٤)[4] المخصصة لمجلس المحافظة، وحصل الإيزيديين المنضوية تحت تلك القائمة بـ (٣)[5] مقاعد فقط، والبقية أصبحت من حصة الكرد المسلمين، في وقت التي كانت فيه الغالبية العظمى من المصوتين للقائمة في تلك المناطق هم من

[1] أسماء الفائزين في الجمعية الانتقالية متاح في http://www.ihec.iq/ftpar/election2004/other/name2.pdf.

[2] اعضاء مجلس النواب المنتخبون في انتخابات ١٥ كانون اول ٢٠٠٥، متاح في:
http://www.ihec.iq/ftpar/regulation2005/other/The_names_of_the_members_of_the_House_of_Representatives_ar.pdf

[3] مقابلة شخصية مع امين فرحان چيچو بتاريخ ٢٠١٨/١/١٦ في المانيا.

[4] انظر نتائج المفوضية العليا المستقلة للانتخابات في العراق لعام ٢٠٠٥. أسماء الفائزين في الانتخابات الاولى، الجمعية الوطنية ومجالس المحافظات، في: http://www.ihec.iq/ftpar/election2004/other/name2.pdf

[5] الفائزون الثلاث هم كل من: ميرزا سليمان من قضاء تلكيف وقاسم صالح مراد من قضاء سنجار وهما من مرشحي الـ (ح.د.ك)، وعلي درويش علي من قرية ختارة التابعة لتلكيف من مرشحي الـ (أ.و.ك).

الإيزيديين بحكم كثافتهم السكانية. بينما حصل قائمة الـ (ح.أ.أ.ت)، على مقعد الكوتا المخصص للإيزيدية على نسبة (٥٤.٨٪)، على منافسة حزب التقدم الإيزيدي[1]. والمرشحين الاخرين من الأحزاب الكردية.

اما في انتخابات المجلس الوطني العراقي لعام ٢٠١٠ فقد فازت قائمة الـ (ح.أ.أ.ت) بمقعد الكوتا المخصص للإيزيدية (WikiLeaks. 2010)، ومثلها مرة أخرى رئيسها أمين فرحان چيچو، بعد ان حصد نحو (١٠،١٧١) من أصوات الناخبين في محافظة نينوى، اما الإيزيديون في قائمة التحالف الكردستاني فقد حصلوا على (٦) مقاعد برلمانية، اثنان منهم لـ (أ.و.ك) وأربعة لـ (ح.د.ك)[2]. وبذلك حاز الإيزيديين في مجلس النواب العراقي على أكبر عدد من المقاعد لأول مرة في تاريخهم السياسي في العراق والذي يصل العدد مع مقعد الكوتا الى (٧) مقاعد، هذا وفي انتخابات مجالس المحافظات لعام ٢٠١٣، حاز الإيزيديين ضمن قائمة نينوى المتأخية أيضا على (٧) مقاعد[3]. في حين فاز قائمة الـ(ح.أ.أ.ت) بمقعد الكوتا حازها المرشح خديدة خلف عيدو، وهو من سنجار[4].

الجدول (١) قائمة للنواب الإيزيدية في مجلس النواب العراقي، دورة (٢٠١٠-٢٠١٤)،

	النائب	محافظة	قائمة	الحزب	الاصوات
١.	امينة سعيد حسن	نينوى	التحالف الكردستاني	ح.د.ك	٥،٣٣٩
٢.	ڤيان دخيل سعيد	نينوى	التحالف الكردستاني	ح.د.ك	١٧،٢٧٥
٣.	شريف سليمان علي	نينوى	التحالف الكردستاني	ح.د.ك	١١،٢٠٥
٤.	محما خليل قاسم	نينوى	التحالف الكردستاني	ح.د.ك	١١،٥٤٦
٥.	قاسم حسين برجس	نينوى	التحالف الكردستاني	ح.د.ك	١٥،٩٨٥
٦.	حسين حسن نرمو	نينوى	التحالف الكردستاني	أ.و.ك	١١،٥٣٤
٧.	امين فرحان چيچو	نينوى	حركة الاصلاح	ح.أ.أ.ت	١٠،١٧١

بينما في دورة ٢٠١٤ دخل الإيزيديون الانتخابات بأكبر عدد ممكن من المرشحين؛ وخرجوا منها أكبر خاسر، حيث تنافست قائمتين على مقعد الكوتا الوحيد، وهما قائمة الـ (ح.أ.أ.ت) التي فازت بالمقعد وحصل على (١٣،١٠٤) ألف صوت ومثلها (حجي كندور سمو)[5]. اما القائمة الأخرى المنافسة فقد تم تشكيلها من قبل (محما خليل – عضو في الـ ح.د.ك) باسم قائمة الجبهة الديمقراطية الإيزيدية التي تحظى بدعم الـ (ح.د.ك)، وحصل على (٥،٤٣٣) من أصوات الناخبين. تجدر الإشارة ان محما خليل كان قد سبق وأن

[1] النتائج الاولية ٢٠٠٩/٢/٥ متاح في: http://www.ihec.iq/ftpar/provinces2009/result/naynua.pdf.

[2] المفوضية العليا المستقلة، نتائج انتخابات عام ٢٠١٠، متاح في: http://www.ihec.iq/ftpar/nenawa.pdf

[3] أسمائهم مذكورة في الموقع التالي: http://www.ihec.iq/ihecftp/political-entities/candidate-names.pdf

[4] مقابلة شخصية معه بتاريخ ٢٠١٨/١/١٧، من العراق.

[5] حجي كندور سمو من مواليد ١٩٦٩ من سنجار، فاز ب (٩،٤٦٠) صوت في الانتخابات وجميع أصوات القائمة وصل الى (١٣،١٠٤).

حصل على (١١،٥٤٦) من أصوات الناخبين الإيزيديين في انتخابات عام ٢٠١٠، لكن في هذه الانتخابات تراجع المصوتين له ولبقية المرشحين الإيزيديين الذين تم ترشيحهم من قبل الأحزاب الكردية[1].

الجدول (٢) قائمة للمرشحين الإيزيديين في القو ائم المختلفة لمجلس النواب العراقي، دورة (٢٠١٤-٢٠١٨)،

الأحزاب	القائمة	عدد المرشحين لبرلمان العراق	عدد المرشحين لبرلمان إقليم كردستان	الفائزين	الكوتا	مجموع الأصوات محافظة دهوك	مجموع الأصوات محافظة نينوى	المجموع الكلي للاصوات
ح.د.ك	التحالف الكردستاني	٢٨	١	-	١	٨،٥٨٣	٥٨،٩٠٧	٦٧،٤٩٠
أ.و.ك	التحالف الكردستاني	٢١	١	-	-	٢،٠٣٩	٢٥،٢٧٩	٢٧،٣١٨
الحزب الشيوعي العراقي	التحالف المدني الديمقراطي	١٢	-	-	-	-		٧،٥٠٨
	ائتلاف العربية	١			-	-		٦٧٣
ح.أ.أ.ت	الكوتا	٢	-	-	١	-		١٣،١٠٤
الجبهة الديمقراطية الإيزيدية	الكوتا	٢	-	-	-	-		٦،٤٩٨
	قائمة متحدون للإصلاح	١	-	-	-	-		٧٩٥
	ائتلاف الوطنية	٣	-	-	-	-		٣،٩٥
	ائتلاف الرماح الوطني	٣				-		٧٦٠
اجمالي أصوات الإيزيديين لانتخابات ٢٠١٤								١٢٧،٢٤١

يتبين من نتائج انتخابات عام ٢٠١٤ بان المرشحين الإيزيديين المنضوية في القوائم الأخرى من غير الكوتا، بانه لم يفز أحد من مرشحيها الإيزيديين باستثناء (فيان دخيل) التي هي فازت بالمقعد على حساب مقاعد كوتا المرأة بأصوات بلغت (٥،٤٦٧). اما في انتخابات إقليم كردستان لدورة ٢٠٠٩ - ٢٠١٣، فقد فاز حازم تحسين بك (نجل امير الإيزيدية)، بينما في دورة ٢٠١٣ لم يستطع أي إيزيدي للحصول على عضوية برلمان الاقليم، الامر الذي أدى الى استياء كبير في الاوساط الإيزيدية، مما دفع ذلك بال (ح.د.ك) الى تسهيل دخول المرشح (الشيخ شامو شيخو) عن قائم الحزب الى البرلمان والذي حصل على نسبة من الأصوات مهدته ليكون ضمن الاحتياط في تسلسل المرشحين الفائزين من الاكراد المسلمين، فلما تم ترشيح احد الفائزين من الاكراد المسلمين من كتلة ال (ح.د.ك) لمنصب وزاري، فان ذلك اسهم في تأهيل المرشح (شيخ شامو شيخو) للدخول الى البرلمان "باسم أو ممثل" الإيزيدية عن قائمة ال (ح.د.ك). أيضا في انتخابات

[1] انظر قائمة رقم (٢).

مجالس المحافظات في الاقليم لعام ٢٠٠٩ فاز مرشحين اثنين لمحافظة دهوك، وفي انتخابات ٢٠١٣ فازت مرشحة إيزيدية واحدة بعضوية مجلس المحافظة عن القائمة المذكورة.

السلوك التصويتي واليات التأثير للناخبين الإيزيديين في العراق

ومع أن الانتخابات في حالة العراق حديثة العهد ولا توجد صورة واضحة للمواطن العراقي عن المرشحين لذلك غالبا ما يحدد لهم الأحزاب السياسية اسم المرشح ويحثهم في يوم الاقتراع إلى اختيار ذلك المرشح رغم عدم وجود أي تقارب أو معرفة تامة بين الاثنين الناخب والمرشح، لذلك لا يمكن للمواطن تقيم المرشح الذي سيمثل بأسمه في مؤسسات الدولة، ففي الحالة العراقية غالبا لا توجد ما يربط بين المواصفات التي قد يرغب أو لا يرغب فيها الناخب في أوصاف المرشح، فهو يقع تحت تأثير الالة الدعائية والتنظيمية والأيديولوجية للأحزاب والتيارات السياسية.

ففي سياق الأحزاب الكردية نرى أن حالة الناخب والمرشح الإيزيدي فأنه يؤثر على عملية التصويت وفي سلوك المواطن الانتخابي، مسالة استخدام هوية الانتماء القومي، دون مراعات معايير الجوانب السلبية أو الايجابية للشخص، وهو بذلك أمر بعيد عن الوعي الذهني والاختيار حسب المقارنات بين المرشحين لاختيار الافضل بينهم. وبما أن معظم الأحزاب المهيمنة في وسط وجنوب العراق تستخدم القضايا الدينية والمذهبية والطائفية، فأن الأحزاب الكردية تستخدم المسألة والدعاية القومية، التي تتنازع على هوية الإيزيدية المحددات القومية التي تروج لها تلك الأحزاب. ومع وجود صراعات حول محددات هوية الإيزيدية القومية أو الأثنية مثل اعتبارهم كُرد أو عرب أو إيزيدي القومية، فأن ذلك يترك أثره على مشاركتهم وطريقة تصويتهم وسلوكهم الانتخابي في الانتخابات العراقية، ويصبح الناخب الإيزيدي مسير سواء إذا توفرت معايير إيجابية أو سلبية في المرشح، وأنه لا يستطيع إعادة صياغة معايير للمرشح لكي يمثلهُ بل الحزب وفق اعتبارات مصلحية أو أيديولوجية هو الذي يحدد ما يجب على الناخب ان ينتخبهُ به.

بما أنه في معظم الانتخابات فأن المرشحون والناخبون الإيزيديون غير موحدون في ميولهم السياسية، بل خاضعين لإرادات الأحزاب والكتل السياسية الكبيرة المهيمنة على مناطقهم، مثلا أن غالبية إيزيدي المناطق التابعة لمحافظة دهوك هم من مؤيدي أو أعضاء للأحزاب الكردية الرئيسية ذات التوجهات القومية لاسيما الـ (ح.د.ك)، بسبب اخضاع مناطقهم ضمن اقليم كردستان منذ ١٩٩١. اما إيزيدي المناطق المتنازع - سهل نينوى وسنجار- منذ ٢٠٠٣ والذين يشكلون الأغلبية السكانية فيها، وبسبب الصراع على مناطقهم التي جعلتهم خاضعين لضغوطات بين الأحزاب الكردية والحكومة المركزية، حيث بسبب عدم الاستقرار الأمني وغياب وجود مؤسسات تهتم بمناطقهم من الناحية الثقافية والتعليمية باستثناء نشر الثقافة الحزبية والتنظيمية فأن ذلك قد ترك أثره على مستوى وعي الفرد الإيزيدي، ومن ثم سلوكه التصويتي في الانتخابات وفي اختيار المرشحين لتمثيلهم سياسيا في جميع المؤسسات.

ومن المفيد أن نذكر إنه هناك عاملان مهمان يحددان السلوك التصويتي للفرد الإيزيدي وميوله السياسية، منها (١) مسالة التميز الديني باعتبارهم أقلية دينية يفرض على الكثير منهم هذا الاختلاف أن يكون لهم سلوك خاص للتصويت حسب الميول الشخصية للفرد، فكل من يشعر بالتميز الديني من المسلمين سوى من الكُرد السنة أو من العرب (شيعة وسنة)، يختار جانب الـ (ح.أ.أ.ت)، كتيار قد يمثلهم،

لاسيما وأن هناك إيزيديين لا يعتبرون انهم من العرق الكردي بل يعتبرون أنهم دين وقومية مستقلة على غرار بقية القوميات في العراق، فكلمة الكرد عندهم تشكل كلمة مرادفة دينية تعني لهم الإسلام. (٢) أما الاخرين فانهم يعتبرون انهم كُرد من الناحية القومية، ويخضعون تحت تأثير الخطاب القوموي والإعلامي والأيديولوجي للأحزاب الكردية، وبالتالي فانهم يصوتون لقوائم تلك الأحزاب، ونتيجة هذه الثنائية في ميول الفرد الإيزيدي فأنه اثرت بشكل مباشر في سلوكه التصويتي، وهذا التقسيم الحاد ينعكس على التصويت في الانتخابات الأمر الذي أدت بهم في النهاية إلى التشتت بين الانتماءات والاتجاهات والتي جعلتهم منقسمين على أسس قومية ودينية. بعبارة أخرى ان الناخب الإيزيدي لديه خياران فقط، "مع أو ضد"، ويبقى بين هاتين المتضادتين، مضطراً أن يختار أحداهما حتى وأن خالف معتقدهِ أو حتى أنه من غير المعتنقين لأيديولوجيات المتضادتين. وفي إطار التنافس على الانتخابات، فأن الإيزيديون المنادون بالقومية الإيزيدية يواجهون ضغوطا كبيرة من قبل الأحزاب الكردية، لاسيما من الـ (ح.د.ك)[1]. والنائب الإيزيدي في الكوتا (أمين فرحان چيچو) اتهم الأحزاب الكردية بالتزوير في الانتخابات والوقوف ضد مصالح الإيزيدية لأن الإيزيديون حسب اقواله: "يرفضون تبني الهوية القومية الكردية، وأن معظم مناطق الإيزيدية (بعشيقة، شيخان، سنجار) تخضع للسيطرة الكردية خاصة لـ(ح.د.ك)، منذ ٢٠٠٣، وشملت سيطرتهم على جميع مؤسسات السلطة (الشرطة، رؤساء البلديات، الخ)، ولا يوجد إعادة الاعمار في مناطق الإيزيدية ولا وظائف، ويفرض الكُرد القيود على سفر الإيزيدية الى إقليم كردستان، وأنه سوف يكون امراً سيئا إذا خضعت مناطق الإيزيدية لإقليم كردستان [حسب وصفهِ]. وفي الوقت نفسه فقد [أعترف چيچو بأنه هناك انقسامات داخل المجتمع الإيزيدي] والكثير منهم يعتبرون أنفسهم كرد، ففي محافظة نينوى في بلدة مثل عين سفني يعتبر الإيزيديون أنفسهم انهم من مؤيدي الكرد في حين ينظر الإيزيديون في سنجار غرب نينوى أنهم معادون للكرد، ومع ذلك نجد بأن الغالبية العظمى من الأصوات ذهبت للأكراد رغم أنها من أكثر المناطق التي تتعرض للإرهاب والحرمان من الحقوق لذلك فالتزوير قد يكون هو السبب" (Wikileaks 2006).

أقدم الـ (ح.د.ك) على تشكيل قائمة منافسة لقائمة الـ (ح.أ.أ.ت) على مقعد الكوتا الإيزيدية التي أصبحت في الدورات السابقة من نصيب الـ (ح.أ.أ.ت)، ففي انتخابات عام ٢٠١٠ أعرب امين فرحان چيچو عن قلقه إزاء استهداف والاستحواذ على مقعد الكوتا من قبل الأحزاب الكردية وذلك عن طريق ترشيح شخص إيزيدي من قبلهم ووضع الكثير من الاموال للدعاية لصالحه، والخشية من توجيه الكرد المسلمين للتصويت لصالح ذلك المرشح الذي رشحه الـ (ح.د.ك) لجعله الفائز على حساب في مقعد الكوتا، وقال: "انه يخشى من القيود التي تفرضها البيشمركة ومن المرشح المدعوم من الكرد الذي قد ينجح في الاستيلاء على مقعد الكوتا بسبب سيطرتهم التامة على مناطق سهل نينوى" (Wikileaks 2010). ومن المفيد أن نذكر هنا بأن السبب الرئيسي في جعل الإيزيديين القاطنين في تلك المناطق باعتبارهم عمق جماهيري وتنظيمي لـ (ح.د.ك)، وكذلك أنهم من ضمن مناطق (المتنازع عليها) والتي تعدها إقليم كردستان ضمن حدودها. ومما يثبت ذلك أن قائمة التحالف الكردستاني في سنجار حصل على أكثر من ٧٠٪ من أصوات الناخبين، في

[1] مقابلة شخصية مع أحد قادة الحركة: الشيخ حجي كندور سمو في ١٦ كانون الثاني ٢٠١٨.

انتخابات عام ٢٠١٠، وبلغ معدل المشاركة في سنجار ٨٥٪ من السكان المسموح لهم بالتصويت، والنسبة الأخرى للأصوات وزعت لقائمة الكوتا الإيزيدية والقائمة العراقية (WikiLeaks 2013).

وإلى جانب الهيمنة الحزبية والأمنية، واستخدام المحسوبية والزبائنية، وسياسة "العصا والجزرة"، والترغيب والترهيب، وكذلك التزوير، هناك آليات ووسائل فعالة تستخدم للتأثير على راي الناخب الإيزيدي منها الاعلام، رجال الدين، الوجهاء من رؤساء العشائر والمخاتير. أن معظم وسائل الاعلام في إقليم كردستان وبمختلف اصنافها هو حزبي أهمها التلفزيون والتي ينتهجها الأحزاب الكردية في التأثير على رأي الناخب الكردي بشكل عام والإيزيدي بشكل خاص -بقدر ما يتعلق الامر بالإيزيدية-. ويعتبر التلفزيون حسب الباحثين المختصين بالأعلام بانه معلم بدون نظير، وهي الوسيلة والنافذة التي ينظر عن طريقها الناس الى العالم، لاسيما القضايا السياسية التي تحيط بهم (Iyengar & Kinder, 1987; Kubey & Csíkszentmihályi, 1990). ففي الانتخابات أن تغطية التلفزيون لها تأثير على المشاهدين من حيث تغير تصوراتهم العامة حول مختلف القضايا والمشاكل التي يتناولها التلفزيون (Altheide, 1976)، وبعبارة أخرى يعتبر التلفزيون الوسيلة الأقوى في تشكيل الرأي العام حول أية قضية التي تراها الجهة التي تبثها من ضمن أولوياتها واستراتيجياتها من بينها قضية الانتخابات. ففي الكثير من الدول المعاصرة يعتبر التلفزيون المصدر الأساسي للمعلومات، بل أن مشاهدتها تلعب دوراً كبير في الديمقراطيات الناشئة خاصة في أوقات الانتخابات (Lawson & McCann, 2005). وفيما يتعلق بالعالم العربي والاسلامي نادراً ما تجد دراسات حول مسالة تأثير التلفزيون على الرأي العام بشأن الانتخابات، فحتى وقت قريب معظم أنظمة الحكم فيها كانت دكتاتورية، ولا تجري فيها انتخابات ديمقراطية، اما في العراق بعد ٢٠٠٣ وتطبيق نظام قائم على الانتخابات، ورغم أنه لا توجد دراسات مختصة تحلل مدى تأثير وسائل الاعلام على الراي العام العراقي حول مختلف القضايا من بينها الانتخابات، لكن بحسب دراسة استطلاع للراي جرى في عام ٢٠١٠ كشف أن معظم العراقيين يحصلون على اخبارهم من محطات التلفزة الفضائية العراقية الى جانب الاستماع ومشاهدة أو قراءة الوسائل الإعلامية الأخرى كالراديو والانترنيت والصحف (International Research and Exchanges Board, 2010). مما يعني في حالة الحملات الانتخابية سيكون للتلفزيون التأثير الأعظم على سلوك المواطن الانتخابي. ورغم وجود ضوابط محددة وضعت من قبل هيئة الاعلام والاتصالات في العراق، للحملات الانتخابية منذ عام ٢٠٠٤ (في الموقع الرسمي)، من أجل السيطرة على وسائل الاعلام في خرق شروط الدعاية الانتخابية، من حيث الانصاف وتغطية الكيانات السياسية والدعاية الاعلامية للمرشحين حسب الوقت المخصص لكل مرشح، لكن ومع ذلك لا يمكن لهذه الهيئة السيطرة على وسائل الاعلام والمحطات التلفزيونية التي تبث بعضها من الداخل وأخرى من الخارج والتي تخاطب العراقيين، ومعظمها خارج سيطرة السلطة الحكومية.

ومن جانب ثاني فان معظم وسائل الاعلام والقنوات التلفزيونية في العراق هي ذات طابع حزبي وتتبع الأحزاب والتيارات السياسية، ولا تلتزم معظم تلك المحطات بضوابط هيئة الاعلام بل معظمها تعمل متحيزة لصالح قوائمهم الحزبية اثناء الحملات الانتخابية، ولا يستثنى من هذه القاعدة المحطات التلفزيونية

الكردية التي جلها محطات حزبية[1]. كما وانه يتم استدراج الصحفيين خلال موسم الانتخابات من قبل السياسيين والأحزاب ويتم منحهم المكافأة المالية. يذكر الصحفي الإيزيدي خضر كلو دوملي[2] أن معظم السياسيين يقومون بالبدء بتقديم وعود للجماهير، ولإيصال تلك الوعود فهم بحاجة الى وسائل اعلام وصحفيين للتعبير عن وعودهم، فهناك الكثير من الصحفيين يقومون بتلك الأدوار ويصبحون ضمن اليات التأثير للأحزاب، وان الكثير من الصحفيين هم أعضاء في الحزب، وبذلك فهم يبتعدون عن المهنية الصحفية في تغطياتهم للانتخابات، وغالبية المحطات والصحفيين العاملين فيها يمتنعون عن الانتقادات أو اجراء التحقيقات ضد الحكومة اثناء فترة الانتخابات.

ويشمل الخطاب الإعلامي الكثير من القضايا للتأثير على رأي الناخب حيث يتم استخدام الدين والمذهب في التأثير على سلوك الناخب في وسط وجنوب العراق، بينما في إقليم كردستان والمناطق المتنازع عليها يستخدم الخطاب القوموي والموسيقى والاغاني الحماسية مع الإيزيديين وغيرهم، حيث يركز الدعاية الانتخابية في اقناع الناخب الإيزيدي على قضايا الخلافات السياسية والفدرالية ضمن حقوق الكرد القومية مع الحكومة المركزية، دون تقديم وعود جدية في توفير الخدمات، ونادراً ما يتم ذكر قضايا الفساد والإرهاب والتزوير في الانتخابات.

وعلى الرغم من أنه لا يمكن اتهام الاعلام بالتحيز بدون تقديم ادلة وفق منهجية علمية لقياس ذلك التحيز، لكن مجرد تبعية المحطات ووسائل الاعلام للأحزاب التي هي بنفسها تقدم ادلة على انها تتبع الخط الايديولوجي للأحزاب (القيسي، 2018)، وعليه فكل حزب يحاول عن طريق خطها السياسي في تصوير الانتخابات كأداة للحصول على الحقوق الدينية أو القومية. فمع ظهور مشكلة استخدام الدين والرموز الدينية من قبل بعض الأحزاب السياسية خلال حملاتهم الانتخابية مثل استخدام قائمة التحالف الوطني (الشيعية) لأسماء وصور المراجع الدينية وعدد من القنوات التلفزيونية كانت تبثُ هذه الدعايات، فأن المحطات الكردية توجه في اعلامها استخدام صبغة قومية. وباستثناء الأقلية الإيزيدية التي لم تمتلك أي محطة مستقلة خاصة بها فقد اتجه المحطات التلفزيونية للمسيحيين (الاشورية والكلدانية) والتركمان (شيعة وسنة) نحو التحيز تجاه مجموعتها العرقية والدينية.

اثناء الحملات الدعائية للانتخابات الثلاثة كان هناك قائمة كردية كبيرة باسم قائمة التحالف الكردستاني، وكان هناك العشرات من القنوات الفضائية التي تمتلكها الحزبين الكرديين الرئيسيين الـ(ح.د.ك) والـ(أ.و.ك)، وكلها كانت قريبة لبعضها البعض في نشر الدعاية والقصص لكسب الناخب الإيزيدي وغيرهم، وهذه القنوات كانت الأداة الإعلامية التي استخدمتها أصحابها للجمهور الإيزيدي المستهدف وذلك بتقديم الوعود بضم المناطق المتنازع إلى إقليم كردستان، وتقديم الخدمات الكبيرة لها

[1] محطات مثل (KurdistanTV, Zagros TV, Rudaw, Kurdistan 24,) بالإضافة الى عشرات المحطات المحلية مرتبطة بالـ(ح.د.ك)، وكذلك (KurdSAT, Geli-Kurdistan, Al-Hurria) وغيرها مرتبطة بالـ(أ.و.ك). ينظر أيضا: (Media Sustainability Index 2009, p. 147-153).

[2] مقابلة شخصية معه بتاريخ ١٩ كانون الثاني ٢٠١٨.

وازدهارها اقتصادياً، لكن في الواقع فقد كانت هدفها فقط الترويج للمرشحين والكتلة السياسية التابعة لها. وتم ملاحظة بانه كلها كانت تؤكد على أن الإيزيديين هم "الكرد الاصلاء"[1]. ولتعزيز سياسات الحزبين الرئيسيين وكسب الناخب الإيزيدي أبدت محطاتهم التلفزيونية بأجراء مقابلات شخصية مع المرشحين الإيزيديين واظهار الاهتمام بهم وجعلهم يتحدثون عن برامجهم الانتخابية، وبالتالي فقد كان لذلك تأثير على المشاهد الإيزيدي وسلوكه الانتخابي. فالمعروف أن المقابلات التلفزيونية لها تأثير أكبر على المشاهدين من الوسائل الإعلامية الأخرى كما اسلفنا، لأنه يعطي أهمية للمرشح عندما يتم عرضه على شاشة التلفزيون (Grabe & Bucy, 2009; King & Morehouse, 2004; Gunter, 1979). ومن الوسائل الاخرى للتأثير، ينبغي الذكر أن المجتمع الإيزيدي في غالبيتهِ مجتمع ريفي يفتقد إلى الثقافة السياسية وبالتالي من السهل التأثير عليه نفسياً عكس مجتمع المدينة التي فيها تنافس حزبي شديد وثقافة سياسية، فالأرياف تمثل المخزون الاستراتيجي للحزبين الكرديين تنظيماً وكذلك في الانتخابات، لا سيما وأن معظم القرى والبلدات الإيزيدية فقيرة تعليماً ومادياً، وينطبق عليهم نظرية الديموغرافيا السياسية في فهم السلوك التصويتي حيث عن طريق هذه المدرسة النظرية يمكن فهم قادة الرأي ودور رجال الدين، أو رجال العشائر في تحديد السلوك التصويتي للمجتمع[2]. فالحزب هنا يلجأ في هذه المناطق الى اثارة استخدام القضايا العشائرية، أو الأثنية أو الدينية أو القومية ويسهل استمالة رجال الدين وزعماء العشائر والنخب الاجتماعية، حيث أن طبيعة الاوضاع السياسية فرض نوع من سيطرة أمر الواقع عليهم. فالحزب المسيطر على مناطق الإيزيدية تنظيمياً وامنياً وعسكرياً من خلال أجهزة الامن والمخابرات فهو يسيطر أيضا عن طريق تنظيم وانتماء رجال الدين ورؤساء العشائر إلى الحزب عن طريق ربط مصالهم الشخصية بالحزب من خلال تقديم الرواتب والاغراءات المادية، لذلك نرى أن معظم رؤساء الإيزيدية والعشائر تنقسم بين الحزبين الرئيسين في ولاءاتها التنظيمية، وبعض أعضاء المجلس الروحاني الإيزيدي أيضا لهم ولاءهم الحزبي مثل غالبية أبناء عائلة أمير الإيزيدية موالين لد (ح.د.ك)، بينما غالبية أبناء عائلة المرجع الديني الأعلى (عائلة باباشيخ ختو) موالين لد (أ.و.ك)، وبالتالي فانتماء الناخب العادي الريفي إلى عشيرة معينة عليه أن يتبنى ما يدعوا الحزب من خلال رئيس العشيرة، وهكذا فقد طغى تأثير هذا الأمر على سلوك الناخبين الإيزيديين وارتباط مصيرهم بما يأمرهُ الحزب. وغالبا ما تم استغلال تأثير نفوذ الأمير الإيزيدي بمختلف الوسائل من بينها القيام بترشيح أحد افراد عائلته، أو حث الأمير أو وكيله بالتدخل لتشجيع الإيزيديين للتصويت لحزبهم أو قائمتهم الانتخابية عن طريق استخدام النغمة القوموية من خلال التركيز أن الإيزيديين هم كُرد اصلاء.

[1] سجل الباحث نفسه هذه الملاحظات اثناء مراقبة الدعاية الإعلامية للمحطات التلفزيونية لانتخابات عام ٢٠١٤.

[2] لجأ بعض رجال الدين الإيزيدين في دعوة الناس للتصويت لقائمة حزبية معينة اثناء انتخابات عام ٢٠١٤، يمكن أن نذكر حالة حصلت في مجمع شاريا عندما نادي أحد رجال الدين بنداء صوتي جميع الإيزيديين بالتصويت لصالح قائمة التحالف الكردستاني، وقال بانه واجب قومي وديني. نشر فيديو مسجل له حينذاك بواسطة أجهزة الموبايل.

تجدر بالذكر أن الأحزاب الكردية نجحت في جعل الناخب الإيزيدي أن يعتبر التصويت هو حق وواجب وطني وقومي، عن طريق إثارة الدوافع العاطفية وجعله يشعر بالأهمية على ضرورة التصويت للحزب والمرشح الأمر الذي يشكل عاملاً وحافزاً سيكولوجياً للتصويت من خلال جعل الناخب أن يشعر بأن التصويت هو واجب قومي عليهِ وعكس ذلك يدخلهُ في خانة الخيانة، مما قد يشكل عاملاً لارتفاع المشاركة في الانتخابات[1]. ومن خلال طرح الباحث سؤال على (٧٦) ناخب إيزيدي ممن شاركوا في الانتخابات التي جرت في العراق (٢٠١٠ - ٢٠١٤) لماذا تصوتون في الانتخابات؟ فان حوالي ٨٠٪ منهم قالوا تم اقناعنا من خلال مختلف الوسائل من بينها الاعلام بأن التصويت هو حق وواجب[2]. يقول عالم الاجتماع السياسي "سيمور مارتن ليبست" Seymour Martin Lipest، في فرضية وضعت محل الاختبار أن الطبقة العاملة والمجموعات الأكثر فقرا والمهمشين أكثر ميلا للتصويت لصالح الأحزاب السلطوية وتبني مواقف اقل ليبرالية من الحقوق والديمقراطية البرلمانية (ألفى، 2015). وبطبيعة الحال فان هذا التأثير له جذور لها علاقة بالقضية السلطوية للأحزاب والأشخاص، الإيزيديون كمجتمع ريفي يتأثرون بالمحيط الاجتماعي الكردي وخاصة الديني، لذلك فهم في بيئة تجعلهم الإذعان تحت تأثير الأحزاب التي تروج بانها تقوم بحمايتهم وبالمقابل للحزب حقوق عندهم. وهذه بمرور الزمن جعلت من شخصية الفرد الإيزيدي أن يكون مستعداً للخضوع والتبعية. ومن الوسائل الأخرى التي تم الترويج لها مثل اتهام من لا يدلي بصوته لصالح القائمة بالخيانة القومية، واحيانا يتم بث الاشاعات لتخويف الناس بانه سيتم الغاء اسم الشخص من البطاقة التموينية الذي لا يصوت في الانتخابات، مما يعني قطع حصته من الارزاق خاصة وان إيزيدي المناطق المتنازع عليها يعتمدون بشكل رئيسي على البطاقة التموينية في معيشتهم، وبالطبع انها كانت مجرد وسيلة للتأثير ودفع الناس للتصويت، واحيانا تم الترويج بانه الشخص الذي لا يشارك في الانتخابات سوف يفصل عن الوظيفة، أو الذي يريد أن يحصل على التعين والوظيفة فعليه أن ينتمي إلى تنظيم حزبي في تلك المناطق وهكذا يضمن صوته[3]. ويدخل في هذه المسالة وسيلة وعلاقة الزبائنية والمحسوبية التي لها دور كبير في دفع الناخبين -الذين هم قد لا ينتمون لأي توجه سياسي- للتصويت من اجل المصلحة الشخصية، وهي علاقة تقوم على المكاسب الخاصة التي يتوقع الناخب والمرشح أن يحصل من بعضهم البعض، هذه العلاقة عرفه هنتكتون بأنها: "علاقة تنتشر في المجتمعات التقليدية حيث توفر أدوات لتعبئة النخبة للأشخاص الأقل مكانة [فقراء وغير متعلمين]، حيث يقوم الشخص بالتصويت مقابل منافع مادية مختلفة"[4] أي بما معناه أن هذه العلاقة تقوم على الاستفادة المتبادلة لعلاقات النفوذ والقوة والمال. وبذلك هذا ينطبق كثيرا على حالة المجتمع الإيزيدي الذي هو في حالة فقر يعتمد على نمط الحياة التقليدية، وهكذا حصلت الكثير من

[1] مقابلات مع عدد من الناخبين الإيزيدين الذين شاركوا في انتخابات عام ٢٠١٠ و٢٠١٤.

[2] مقابلات واتصالات شخصية مع ٧٦ مواطن إيزيدي ممن شاركوا في التصويت في العراق وألمانيا ٢٠١٧-٢٠١٨

[3] مقابلات شخصية مع عدد من الناخبين الإيزيديين، وملاحظات الباحث نفسه في انتخابات الدورة السابقة.

[4] مقابلة شخصية مع دلشاد نعمان فرحان بتاريخ ٢٠١٨/١/٢ في بريمن بألمانيا.

الحالات أن يقوم الناخب ببيع صوته مقابل مصالح مادية مباشرة مثل الحصول على بعض الاموال أو "البطانيات" والمواد العينية الأخرى من المرشحين أو الحزب.

مناقشة وتحليل

استناداً إلى ما سبق فأن الهيمنة والتدخل عن طريق استخدام النفوذ والسلطة من قبل الأحزاب المسيطرة على مناطق الإيزيدية لهُ تأثير فعلي من خلال اختيار ودعم المرشحين، فالأحزاب الكردية القومية التي دخلت الانتخابات العراقية سوى بقوائم موحدة أو مستقلة اتبعت جميعها مع الأقلية الإيزيدية أسلوب الدعاية القوموية، ففي كل دورة انتخابية، تقوم القيادات المحلية لتلك الأحزاب بتوجيه مركزي بتبليغ سكان القرى والبلدات الإيزيدية بوجوب التصويت لأحدى القوائم الانتخابية أو للمرشحين الموالين لها دون غيرهما، حتى وأن لم يكن المرشح أيزيدي[1]. ولم تتبع تلك الأحزاب في اختيار المرشحين معاير معينة مثل المركز الحزبي، وانما المركز الاجتماعي و العشائري للمرشح كان الأهم لضمان كسب الأصوات لهم، وحول ذلك وعلى سبيل المثال لا الحصر يمكن ذكر أحد المرشحين الإيزيديين الذي تم مقابلته وهو النائب حسين حسن نرمو الذي تم ترشيحه في الدورة الانتخابية الثانية ٢٠١٠، عن طريق الـ(أ.و.ك) ضمن تنظيمات الحزب في محافظة نينوى حيث قال: "لم يكن ترشيحي بناءً على مركزي الحزبي، حيث كنت عضواً عادياً في الحزب، وانما كان ترشيحي على اعتباري من عائلة ناضلت في صفوف الثورة الكردية وكان والدي الشهيد عضو في مجلس محافظة نينوى، حيث كان أيضا من الاوائل الذين انتموا الى صفوف الـ (أ.و.ك) عام ١٩٧٦ في سوريا"[2].

وحول دوافع الترشيح تقول احدى المرشحات الإيزيديات التي فازت في دورة ٢٠١٠ - ٢٠١٤، النائب أمينة سعيد حسن بأنه تم ترشيحها من قبل الـ (ح.د.ك): "أن الهدف من موافقتي للترشيح كان من اجل أن يكون هناك توازن لمشاركة المرأة الإيزيدية في مجلس النواب العراقي، وأن كل شخص يمكن أن يأخذ دوره في تمثيل مجتمعه وكوني امرأة كان دافعي ابراز دور المرأة الإيزيدية، وكنت أتوقع الفوز بمقعد برلماني بسبب مكانة العائلة لدى الناس [في سنجار] ودعم الحزب أيضا"[3].

اما المرشح عن الـ (أ.و.ك)، حسين حسن نرمو أكد بانه اعتمد على الضمان الحزبي للفوز في انتخابات ٢٠١٠ وقال: "وعدني قادة الحزب بأن غالبية تنظيمات الاتحاد [أ.و.ك] في حدود مركز تنظيمات الموصل سيصوتون لصالحي مع التصويت الخاص من القوة المسلحة [البيشمركة] للاتحاد في نينوى، كنت اعتقد أيضا ومن خلال المكانة العائلية سأحصل على الأصوات وهذا ما حصل بالفعل عندما دعمني الحزب إعلاميا، وانا بدوري أيضا اتبعت أسلوب طرق الأبواب في كسب اصوات الناخبين من خلال الزيارات الميدانية لهم في دورهم"[4].

[1] مقابلات شخصية مع عدد من المواطنين الإيزيديين في العراق وإقليم كردستان، وألمانيا.

[2] مقابلة شخصية مع حسين حسن نرمو بتاريخ ٢٠١٨/١/٤ في المانيا.

[3] مقابلة شخصية مع امنة سعيد حسن بتاريخ ٢٠١٨/١/٧ في العراق.

[4] مقابلة شخصية مع حسين حسن نرمو، بتاريخ ٢٠١٨/١/٤ في المانيا.

أن الأحزاب الكردية قد دخلت انتخابات عام 2014 بقوائم منفصلة ومتنافسة، حيث ضمت كل قائمة منها عددا كبيرا من مرشحي الإيزيدية، (كما هو مبين في شكل قائمة رقم (٢) اذ بلغ مجمل عدد المرشحين الإيزيديين ب (٧٣) مرشح لمجلس النواب العراقي، (٢٨) مرشح لد (ح.د.ك) و(٢١) لد (أ.و.ك) و (١٢) للتحالف المدني الديمقراطي، (١) لائتلاف العربية و(١) لقائمة متحدون للإصلاح و(٣) لائتلاف الوطنية و (٣) لائتلاف الرماح الوطنية و(٢) لقائمة (ح.أ.أ.ت) و(٢) لقائمة الجبهة الديمقراطية الإيزيدية. هذا العدد الكبير من المرشحين، سبب عائقا تجاه فوز أي مرشح منهم عدى مقعد الكوتا، لذلك فشل الإيزيديون في الفوز بعدد المقاعد التي تتناسب مع كثافتهم السكانية، يمكن الاعتقاد بأن السبب بالدرجة الاولى هو لعدم وجود كيان جمعي سواء كان كياناً سياسياً أو اجتماعياً يمثل الإيزيديين، ولعدم التنسيق بين التيارات والأحزاب الإيزيدية في ترشيح ودعم عدد يتناسب مع كثافتهم السكانية. وحول اليات الترشيح للمرشحين الإيزيديين فان المرشح لدورة الانتخابات عام ٢٠١٤ دلشاد نعمان فرحان قد أكد بان الـ (ح.د.ك) وعدتهُ بعدم ترشيح أي مرشح آخر في المنطقة (شيخان) لمنافسته وقال: "ما دفعني للاعتقاد بأن فرص فوزي أكثر من غيري (كنت المرشح الوحيد في المنطقة في بادي الامر)، ولكن بعد ذلك خانوا [الحزب] عهدهم لي، ورشحوا شخصين إيزيديين اخرين من داخل شيخان، ما دفعني لأقدم استقالتي من الحزب والقائمة أيضا، (والتي لا زلت احتفظ بنسخة منها [كتاب الاستقالة]) جراء تصرفهم هذا، وقد حاولوا مرارا التواصل معي للعدول عن قراري دون جدوى، ما دفعهم للضغط على العائلة والتأكيد على دعمهم لي واخيراً اضطررتُ بسبب الضغوط المستمرة على العائلة قبول أمر الواقع، مع التأكيد لهم بانني لن أقوم بالحملة الانتخابية التي خططتُ لها في السابق لأني كنت على دراية بانني ولا غيري سيفوز في الانتخابات وقلتها للكثير من المرشحين آنذاك واخبرتهم بان لعبة ترشيحنا جميعا ما هي الا لعبة لكسب الأصوات من قبل الحزب وتشتيت اصواتنا لفوز الاخرين، وبسبب كلامي المستمر عن هذه المؤامرة وخاصة مع المرشحين فقد ركز الحزب في منطقتنا على مرشحين اثنين (احدهما مسلم والأخر إيزيدي) رغم أن المرشح المسلم لم يكن مرشحا من قبل دائرتنا الحزبية (منطقتنا)"[1].

يتبين مما سبق الاحزاب التي رشحت الإيزيديين في قوائمها السياسية، مارست سياسة التمييز في دعم المرشحين الاخرين من غير الإيزيديين، حيث تم تركيز الجهود من قبل الحزب في دعم مرشحين مسلمين على حساب المرشحين الإيزيديين في مناطق الإيزيدية، وهناك الامثلة حول هذه المسالة التي ظهرت جليا في انتخابات عام ٢٠١٤ عندما لم يفوز أي مرشح إيزيدي بينما فاز مرشحين مسلمين بدلا عنهم وبأصوات الإيزيديين، وأكد هذا الامر دلشاد نعمان فرحان وقال: "لقد دعم فرع الشيخان لد (ح.د.ك)، المرشح المسلم (فارس بريفكاني) كثيرا اثناء حملته في الشيخان، ونال ما يقارب (٤٠٠٠) صوت فقط من الشيخان، رغم انه كان مرشحا لفرع نينوى للحزب، وكانت مساحة الحملة الانتخابية له أكبر بكثير من حملة أي مرشح إيزيدي اخر، وكذلك حصل نفس الامر مع مرشحين مسلمين في سنجار أيضا"[2]. وفي سياق ترشيح الاعداد الكبيرة

[1] مقابلة شخصية مع دلشاد نعمان فرحان بتاريخ ٢٠١٨/١/٢ في بريمن بألمانيا.

[2] المصدر نفسه، فاز في سنجار شخصان كرديان مسلمان بأصوات الإيزيدية.

للمرشحين في انتخابات ٢٠١٤ فهناك من يحمل الإيزيديين أيضا المسؤولية لأنهم لم يقدروا الموقف ووافقوا على ترشيح أنفسهم بدون معرفة ما إذا كانوا سيفوزون وبهذا الصدد تقول المرشحة (النائب) أمنة سعيد حسن بان الترشيح لهذا العدد: "كانت خطة غير مدروسة من قبل المرشحين الإيزيديين أيضا [وليس الحزب فقط]، لان عدد كبير من المرشحين يعني تقليل فرص الفوز للمرشح وجلب أصوات أكثر للقائمة"[1]. ويساند رأيها مرشح آخر ويبرر ترشيح الأحزاب والكتل الكردية في ترشيح اعداد كبيرة ويقول: "كل حزب يبحث عن مصلحته وكسب أكبر عدد من الأصوات بالطريقة المناسبة التي يعرفها. وان ترشيح العدد الكبير كانت مجرد خطة من الأحزاب، والإيزيدية بسبب عدم وجود مرجع فكري أو سياسي أو توعوي كان من أكثر المتضررين في الانتخابات"[2].

فالعدد الأكبر للمرشحين كانوا أعضاء في الـ (ح.د.ك)، وأحيانا تم اختيار المرشحين بناء على مكانتهم الثقافية والاجتماعية والعشائرية، وعن سبب قبول المرشحين لترشيح أنفسهم فهناك دوافع أخرى منها يعتقد أحدهم بان سبب انتماءه للحزب هو كان لخدمة الأقلية الإيزيدية وليس العكس ويقول بان الهدف الرئيسي للترشيح: "كان إيصال صوت الشارع الإيزيدي إلى مصادر القرار من خلال البرلمان العراقي، وسواء في كردستان أو العراق، بالإضافة إلى ضعف دور الموجودين في الساحة من السياسيين الإيزيديين، وعدم معرفتهم بأسس العمل السياسي، لكونهم قد وصلوا إلى ما وصلوا إليه لاعتبارات أخرى غير الامكانيات السياسية"[3].

أن انتخابات عام ٢٠١٤ تشير الى تراجع في دعم المجتمع الإيزيدي بشكل عام للمرشحين الإيزيديين ضمن القوائم المتنوعة، مثلا حصلت النائب فيان دخيل في انتخابات عام ٢٠١٠ على (١٧،٢٧٥) صوت، بينما في انتخابات عام ٢٠١٤ تراجع عدد المصوتين لها الى (٥،٤٦٧). في حين ازداد نسبة التصويت لصالح الحركة الإيزيدية (ح.أ.أ.ت)، اذ وصلت نسبة التصويت لصالحها الى (١٣،١٠٤) في عام ٢٠١٤، بينما كان نسبة المصوتين للحركة (١٠،١٧١) في عام ٢٠١٠.[4] وحتى ترشيح المرأة الإيزيدية للكوتا، فقد تم استخدامها كوسيلة في الانتخابات ليس لإشراكها فعلا في البرلمان، وانما من اجل الحصول على الأصوات لصالح القائمة الحزبية، يمكن الاسترشاد بحالة ترشيح احدى الإيزيديات ضمن محافظة دهوك[5]، حيث من المعلوم أن معظم الإيزيديين الذين لديهم الحق في التصويت ضمن المحافظة لا يتجاوز (١٠،٦٢٢)[6] الف صوت، وهذا

[1] مقابلة شخصية مع امنة سعيد حسن بتاريخ ٢٠١٨/١/٧، في العراق.

[2] مقابلة شخصية مع أحد المرشحين لثلاثة الدورات الانتخابية دون فوز، احتفظ في عدم نشر اسمه في المقابلة.

[3] مقابلة شخصية مع دلشاد نعمان فرحان بتاريخ ٢٠١٨/١/٢ في بريمن بألمانيا.

[4] قارن بين قوائم الدورتين ٢٠١٠ و٢٠١٤، رقم (١ و٢).

[5] مقابلة مع ناهدة خلف كوتي بتاريخ ٢٤ كانون الثاني ٢٠١٨ في المانيا، تم ترشيحها لانتخابات ٢٠١٤، مع دعم قليل للحزب الهدف من ترشيحها هو لجمع الأصوات لصالح القائمة كما اثبت ذلك بعد الانتخابات، لان الامر كان واضحا إذا لم يصوت لها أعضاء الحزب من المسلمين وكان من المستحيل ان تحصل على عدد الأصوات المطلوبة سوى للكوتا او ضمن القائمة، لهذا لم تستطيع ان تفوز بالانتخابات.

[6] العدد هو بموجب عدد المصوتين لمرشحة الـ (ح.د.ك) ومرشح الـ (أ.و.ك) في محافظة دهوك في انتخابات ٢٠١٤.

العدد يستحيل إيصال أي مرشح إيزيدي إلى البرلمان في ظل وجود منافسة حزبية للأخرى ممن لهم أيضا مرشحين بين الإيزيديين، وبحسب نظام الانتخابات المعمول به في العراق فان كل مرشح حتى للكوتا يحتاج الى عشرات الالاف من الاصوات للفوز في المحافظة ومقارنة الإيزيدية بالمرشحين المسلمين الذين يحصلون على أصوات اكثير بكثير بسبب الكثافة السكانية للمسلمين الكرد، وبذلك ترجع اصوات الإيزيديين إلى قائمة الحزب ولصالح المرشحين المسلمين.

الخاتمة

أن غالبية مناطق الإيزيدية هي جزء من المناطق المتنازع عليها في محافظة نينوى والتي تتبع إداريا إلى الحكومة المركزية لكنها كانت خاضعة سياسيا لإقليم كردستان، والفاعل المسيطر امنيا وتنظيما كان الحزب الديمقراطي الكردستاني بين عام ٢٠٠٣ - ٢٠١٤، وأستخدم الاخير مختلف وسائل الكسب والتأثير على سلوك الناخب الإيزيدي، مع قلة مراعات معايير الثقافية أو الكفاءة، بل تم استخدام العشائرية والمكانة الاجتماعية أو اختيار من لدية متلازمة الشهرة للترشيح، أو المصالح الحزبية أو الشخصية، فضلا عن الانتماء والطاعة للحزب أكثر من الحرص على المصالح العامة للأقلية الإيزيدية، وعدم الخروج من الخطوط المرسومة وفق مصالح التيار أو القائمة التي ترشحه. بكلمة أخرى أن المرشحين والفائزين ضمن القوائم الحزبية لا يعتبرون ممثلين عن الإيزيدية كأقلية دينية ذات خصوصية، رغم انهم إيزيديون لكنهم مثلوا احزابهم في البرلمان. رغم حصول تطور إيجابي في انتخابات الدورة الثانية ٢٠١٠ لكن حصل تراجع كبير في الانتخابات اللاحقة، وتم ترشيح اعداد كبيرة من المرشحين من اجل جمع الأصوات معظم من تم ترشيحهم لم يكونوا ملمين بمشاكل الإيزيدية ولم يملكوا الجرأة أو التواضع أو القدرة على الخطابة والاقناع، فغالبيتهم إما ذو مظهر حسن أو ينتمي الى عائلة رئيس عشيرة أو قبيلة.

استخدمت الأحزاب الكُردية عدة طرق ووسائل في التأثير على الناخب الإيزيدي للتصويت من خلال الاعلام واستخدام رجال الدين ورؤساء العشائر وأصحاب المصالح والولاءات الشخصية والوسطاء الفاعلين والمحسوبية والمتنفذين المستفيدين في ترشيح الاخرين من غير الإيزيديين كما يسوقه الحزب، وبهذه الطريقة تم إعادة انتاج اصوات الناخبين الإيزيديين للحزب، والنتيجة كانت الإبقاء على نفس الكتل ونفس المنظومة المرسومة ولكن بقى صوت الناخب الإيزيدي شكلي فقط دون احداث تغيير فعلي، بل ساهم ذلك بالنتيجة في المزيد من التشتت والتفكك الاجتماعي، حيث أن انخراط أو انتماء الرموز الدينية في المجالات السياسية عن طريق ربطهم بالإغراءات المادية والتدخل في شؤون الأقلية الإيزيدية الداخلية التي هي ضعيفة بالأصل ولا تمتلك إمكانيات ذاتية وإعلامية لتنظيم ذاتها وترشيح ابناءها لمصالحها الداخلية في جميع مؤسسات الدولة العراقية وفي إقليم كُردستان، وكل ذلك أدى الى فقدانهم حيادتهم بعد تغيير نظام الحكم في العراق، ودخلت الأقلية الإيزيدي في ازمة قيادة ماتزال اثارها مستمرة.

المراجع

"المفوضية العليا المستقلة، نتائج انتخابات عام ٢٠١٠"، (اخذ في ٢٠١٧/١٢/٢٢)، متاح في: http://www.ihec.iq/ftpar/nenawa.pdf

أسماء المرشحين لمجلس محافظة نينوى، (اخذ في ٢٠١٧/١٢/٢٥)، متاح في: http://www.ihec.iq/ihecftp/political-entities/candidate-names.pdf

ألفى، أكرم، *"السلوك التصويتي للمصريين: نحو إنهاء القطيعة مع النظريات السياسية ٢-٢"*، نشر ٢٠١٥/١٠/١٢، (اخذ في ٢٠١٨/١/١٦)، متاح في: http://acpss.ahram.org.eg/News/5450.aspx

الاعرجي، إبراهيم مرتضى، السلوك الانتخابي وعلاقته بالاعتقاد بعدالة العالم لدى طلبة جامعة بغداد، دراسة عن الانتخابات النيابية في العراق عام ٢٠١٠، *مجلة كلية الآداب*، جامعة بغداد، (٩٨).

اعضاء مجلس النواب المنتخبون في انتخابات ١٥ كانون اول ٢٠٠٥، (اخذ في ٢٠١٨/١/٣)، متاح في: http://www.ihec.iq/ftpar/regulation2005/other/The_names_of_the_members_of_the_House_of_Representatives_ar.pdf

الإحصاء الرسمي لوزارة التجارة العراقية ووزارة التخطيط للبطاقات التموينية حول تعداد سكان العراق لغاية ١٥ شباط ٢٠٠٣، (اخذ في ٢٠١٨/١/١٦)، متاح من: http://www.wata.cc/forums/archive/index.php/t-22683.html

الحركة الديمقراطية الإيزيدية الحرة (TEVDA)، البيان التأسيسي في ١ شباط ٢٠٠٤. (وثيقة بحوزة الباحث)

النتائج الاولية ٢٠٠٩/٢/٥، (اخذ في ٢٠١٨/١/٤)، متاح في: http://www.ihec.iq/ftpar/provinces2009/result/naynua.pdf

بيان الهيئة التأسيسية للتجمع الديمقراطي الإيزيدي، بيان سياسي، أيار ٢٠٠٣، هانوفر المانيا. (وثيقة بحوزة الباحث)

ناي، جوزيف، *القوة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الدولية*، ترجمة: محمد البيجرمي، (الرياض: مكتبة العبيكان ٢٠٠٧).

القيسي، كهلان، *"التلفزيونات الطائفية المصدر الرئيسي للأخبار في العراق"*، (اخذ من الموقع بتاريخ ٢٠١٨/١/١٤)، متاح في: https://goo.gl/7GFMqr

تهامي، محمد، *"السلوك الانتخابي المفهوم والتفسير"*، الحوار المتمدن-العدد: 4163 - 2013 / 7 / 24، (اخذ في ٢٠١٧/١٢/٢٩)، متاح في: http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=370023

علي، منى محمود، "القوة الناعمة والزبائنية الاجتماعية والسياسية إعادة انتاج الناخب التقليدي العراقي"، *مجلة المستنصرية للدراسات العربية والدولية*، بغداد، العدد ٤٦، ص٢٦-٤٩.

نتائج المفوضية العليا المستقلة للانتخابات في العراق لعام ٢٠٠٥. "أسماء الفائزين في الإنتخابات الاولى - الجمعية الوطنية ومجالس المحافظات"، (اخذ في ٢٠١٧/١٢/٢٧)، متاح في: http://www.ihec.iq/ftpar/election2004/other/name2.pdf

Ali, Majid Hassan, *Religious minorities in early republican Iraq (1958-1968): betwen granting rights and discrimination*, Ph.D. dissertation, Bamberg University 2017.

Altheide, David L. *Creating Reality: How TV News Distorts Events*. Beverly Hills, CA: Sage 1976.

Grabe, Maria and Bucy, Erik. *Image Bite Politics: News and Visual Framing of Elections*. New York: Oxford University Press, Inc 2009.

Gunter, Barrie. 1979. *'Recall of Television News Items: Effects of Presentation Mode, Picture Content and Serial Position'*. Journal of Education Television, Vol. 5. https://wikileaks.org/plusd/cables/10BAGHDAD185_a.html

International Research and Exchanges Board IREX. 2010. *'Iraq Media Study: National Audience Analysis'.* April 21, p- 9. Retrieved on May 22, 2010. http://www.irex.org/newsroom/news/2010/0428_ iraq_media_survey_national.pdf

Iyengar, Shanto and Kinder, Donald R. *News That Matters: Television and American Opinion*. Chicago: The University of Chicago Press 1987.

Kubey, Robert & Csíkszentmihályi, Mihály. *Television and the Quality of Life: How Viewing Shapes Everyday Experience*. Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum Associates 1990.

Kanan Makiya, *Cruelty and Silence: War, Tyranny, Uprising, and the Arab World*. New York, London: Library of Congress Cataloging in Publication Data, w. w. Norton and Company 1993.

King, David C & Morehouse, David. "Moving Voters in the 2000 Presidential Campaign: Local Visits, Local Media". In *Lights, Camera, Campaign: Media, Politics, and Political Advertising.* David A Shultz (ed.). New York: Peter Lang Publishing 2004, pp. 301–318.

Kristen Chorba, A review of qualitative research: Studying How Things Work, *the qualitative report*, Vol.16, No.4, July 2011.

Lawson, Chappell and McCann, James. "Television News, Mexico's 2000 Elections and Media Effects in Emerging Democracies". *British Journal of Political Science* 2005, Vol. 35, pp. 1-30.

Media Sustainability Index 2009, *"Violations of journalists' rights have increased, particularly among private and independent media outlets, and private and independent media outlets have suffered different types of attacks and violations".* pp. 147-153. https://www.irex.org/sites/default/files/pdf/media-sustainability-index-middle-east-north-africa-2009-iraq-kurdistan.pdf

Visser, Max, (1994) *The Psychology of voting action, on the Psychological Origins of Electoral Research*, 1939–1964, Journal of the History of the Behavioral Sciences, Volume 30, January.

Wikileaks 2006. *"Lone Yezidi parliamentarian criticizes Kurdish treatment of minorities"*. 06BAGHDAD736_a. Iraq Baghdad. https://wikileaks.org/plusd/cables/06BAGHDAD736_a.html

WikiLeaks 2013. *"[OS] IRAQ-Senjar: Kurdistan alliance gets more than 70% of votes"*. Iraq. Retrieved on January 10, 2018. https://wikileaks.org/gifiles/docs/32/321918_-os-iraq-senjar-kurdistan-alliance-gets-more-than-70-of.html

WikiLeaks. 2010. *"Opportunities and perils for minorities in national elections"*. 10BAGHDAD185_a. Iraq Baghdad. January 25, Retrieved on January 7, 2018. https://wikileaks.org/plusd/cables/10BAGHDAD185_a.html

الأبو انيَّة القهريَّة
خطاب الوصاية وسرديَّاته الدينية في العراق

جعفر نجم نصر[1]

على الرغم من ان المجتمع العراقي دشن ومنذ عقود خلت مرحلة الدخول في عصر الحداثة، ولاسيما وان سمات المجتمع التقليدي بدأت تنحسر شيئا فشيئا من الفضاءات المجتمعية بنحو او باخر وان ظلت بعض جيوبها المقاومة ثقافيا وبنيويا، امثال قوة وسطوة القبيلة والقبائلية، الا انه وبوجه عام شهد المجتمع الكثير من التحولات والممارسات الحضرية والحداثوية التي تشير الى ان المجتمع ومنذ أواخر خمسينيات القرن الماضي وستينياته بدأ يدخل في عصر الحداثة على المستوى السياسي والقيمي والتقني والتعليمي. ولكن ظل جانب مهم وأساسي عصي على ولوج الحداثة والمضي قدما على وفق توجهاته العقلانية المتسارعة، الا وهو الجانب الديني لاسيما السلطة الدينية للفقهاء التي ظلت عصية على التحديث من جهة، فضلا عن استمرار تغولها وتمددها على حساب الدولة ، وهذا ما لمسناه في فترات متباعدة، ولكنه اخذ بالصعود وبقوة مفرطة بعد عام 2003، وتنظيميا وحتى سياسيا في كثير من الاحيان عن الدولة وقوانينها، وانها استخدمت في سبيل توطيد اركانها بين اتباعها ومريديها الكثير من النصوص الدينية او لنقل الكثير من السرديات التي تثبت فيها شرعيتها التي تقول بها، والتي تقدم على اثرها خطاب الوصاية المطلقة على المجتمع. الا ان ذلك قد واجه متغيرات سياسية ومجتمعية عصفت بها وحدت منها الى حد كبير ولاسيما في بدايات القرن العشرين الذي شهد بروز وصعود الايديولوجيات العلمانية المتعددة، والتي سلبت الكثير من هيمنة الفقهاء وهيبتهم . الا ان ما تلى عام2003 أعاد لهذه الأبوانية(البطريركية) الدينية وصايتها المطلقة في ظل التماهي/المتناقض بين نظام ديمقراطي/علماني(كما يفترض) والفقهاء. ولعل الاشكالية المحورية ان هذه الأبوانية بدأت تأخذ منحى القهر عبر فرض وصايتها على المجتمع عبر عدة قنوات (سياسية، اقتصادية، اعلامية).

---

[1] البروفيسور الدكتور **جعفر نجم نصر**، باحث وكاتِب عراقي متخصص في علم اجتماع الدين، مهتم بالحركات الاجتماعية والانثروبولوجية الدينية وعلم اجتماع المعرفة، من مؤلفاتِهِ: "مقدمة في أنثروبولوجية العولمة" (2011)، "الانثروبولوجية التاريخيَّة" (2013)، "اللاهوت المزيَّف: الإسلام والسياسة وفخ الإيديولوجية" (2017)، "الإسلام الكوني والإسلام العربي" (2020)، "الوالي والولي: التشيع السياسي ومجتمع اللادولة" (2020).

بوجهٍ عام اخذت الأبوانية هذه تفرض نفسها على كل قطاعات المجتمع عبر القهر الديني (المشرعن) الذي تمتلكه او بالأحرى الذي تدعيه، وفي ظل حماية الدولة واحزابها وقواها الجماهيرية(المغيبة الوعي)، جعل حتى من العلمانيين او الفئات اللادينية ترضخ لاشعوريا تحت وطأة هذه الأبوانية، لأنها على وفق ما تقدم كله، وتأسيسا وبالدرجة الاولى على سرديات دينية لا يمكن معارضتها او نقدها او الرد عليها او انتاج زعامات بديلة عنها، لأنها تمثل المقدس وبالمطلق، مما جعلها تتغول وتصبح اشبه بالخطبوط ذو الايدي او الاذرع المتعددة، ولكنها تمسك الدولة وكل فئات المجتمع، وهي بذلك تمارس القهر الديني الذي لا يمكن الهروب منه. ونقترح لورقة العمل المحاور الاولية الاتية لاستيعاب كل الاطروحات التي تقدم ذكرها: (1) التأطير النظري للأبوانية والهيمنة والسلطة الدينية(مدخل سوسيولوجي)، و(2) السرديات الدينية وصناعة الأبوانية الفقهية(تشكيل القداسة)، و(3) خطاب الوصاية وتجسيداته الاجتماعية (نماذج القهر).

التأطير النظري للأبو انية والهيمنة والسلطة الدينية (مدخل سوسيولوجي)

ان المنهج الجينالوجي في هذا السياق يمثل منطلقاً لأية عملية بحث في البدايات عن جذور الاشياء وتشكلها وتصيّرها الذي انطلق من منابع خاصة رسمت وحددت خطى العوالم التي صنعتها، اي ان الحديث عن البداية التاريخية لكل الاشياء والافكار او المعارف او التوجهات الانسانية، هي عبارة عن عملية ازاحة للطبقات المتراكمة في فعل التاريخ والجغرافيا، والكشف عن الوجه الاول عن ذلك الارث المختبئ حول عناوين او تشكلات ثقافية او اجتماعية جديدة تتحرك في فضاءات انسانية مختلفة، وهذا الامر لا يمكن الكشف عنه وسبر أغواره الا عبر المنهج الجينالوجي الذي يبين اصول حقائق الامور بمعزلٍ تام عن الاهواء والمصالح والمعرفة السائدة وهيمنة السلطة(فوكو، 2008، ص66-67، نيتشة، 2010، ص20-25). انطلق مفهوم البطرياركية (النظام الابوي) "Patriarchy" في جذوره الاولى لأجل توصيف النظام الاجتماعي للعلاقات بين الجنسين (الرجال والنساء) حيث لا مساواة بينهما، وهو يشير إلى العلاقات المضمرة التي تحكمها السلطة الذكورية (الابوية) ضمن سياقات المؤسسة الاجتماعية والبنى الاجتماعية (سكوت، 2009ب، ص73-74). ولكن استخدامات المفهوم فيما بعد جرت عليها الكثير من التعديلات لأجل ان تغطي خصائص مجتمعات سادت بها زعامات توارثت السلطة الابوية او الابوانية ضمن عدة مجالات، ولاسيما تلك المجتمعات التي ما زالت تتصارع بناها مع الحداثة واشتراطاتها الحياتية الجديدة. وهذا الامر هو ما التفت اليه الكاتب هشام شرابي عندما تحدث عن مصطلح (الابوية المُستحدثة) او الجديدة "Heopatriarcy"، إذ يقول حوله: يشير مفهوم النظام الابوي المستحدث على السواء إلى بنى كبرى (المجتمع، الدولة، الاقتصاد)، وبنى صغرى (العائلة او الشخصية الفردية) وتاريخياً وبحسب رأيه: تستمد ظاهرة النظام الابوي المستحدث معناها من تعبيرين او واقعين يؤلفان بنيتها المادية، هما الحداثة والنظام الابوي (شرابي، 1988، ص30). تلك الابوانية هي وريثة بيئة اجتماعية عربية اسلامية استمرت طوال قرون متتابعة، وهي تستطيع اعادة تشكيل نفسها تحت ظلال زعامات وسلطات متعددة، فلهذا يمكن لها ان تتجاوز بل وتتداخل مع النسق الحداثوي، ولهذا قال شرابي بوجود نوعين لها (ابوانية تقليدية) و(أبوانية مستحدثة)، ولعل الامر المسؤول عن كليهما هو هشاشة الدولة وتراجع دورها، ولهذا يقول شرابي: يستمد المجتمع الابوي في شكليه التقليدي والحديث قوته من مقدرته على تلبية حاجاته الاساسية، أن البنى

الاجتماعية الاولية للبشرية - العائلة، العشيرة، الطائفة هي التي توفق في مواجهة احتياجاتها الرئيسية: الاهتمامات المادية، الامن، الهوية (شرابي، 1988، ص78). ولما كان الدين هو البعد المهيمن داخل المنظومة الثقافية ضمن عدة انساق (سياسية، اقتصادية، تربوية)، كانت الابوانية ذات السمة الدينية (الفقهاء) حصراً هم الممثلين لتلك الابوانية التي استطاعت ان تكيّف نفسها مع الحداثة واشتراطاتها، فجاءت بصيغة (الابوانية المستحدثة) ومن ثمّ غدت هي الشريان المغذي لسائر الاحتياجات آنفة الذكر (الاهتمامات المادية، الامن، الهوية)، فهي تملك الشريعة والشرعية والشرعنة التي تستطيع استيعاب شتى احتياجات افراد المجتمع المنضويين تحت زعاماتها. وعليه، فإذا كان هناك اختلاف في اللحظة التأسيسية للمذهب الامامي عبر التاريخ، بين من يعده معاصراً لعصر النبي، وبين من ينظر اليه بوصفه مذهب ظهر بعد احداث كربلاء عام 61هـ، الا انه يوجد شبه اتفاق على اللحظة التأسيسية لأنبثاق المؤسسة الدينية الامامية بوصفها مالكة للفتيا والمعرفة والتنظيم على عدة صُعد.

أخذت المرجعية الدينية (والتي هي التعبير المرادف للمؤسسة الدينية ولكنهُ هو الشائع في الاوساط الامامية) بالتبلور والبروز بشكل مؤثر منذ عام 328هـ إذ ازدادت مكانة المجتهدين الدينيين كمراجع للتقليد والافتاء، وتوسعت لتتجاوز الزعامة الدينية إلى الزعامتين الاجتماعية والسياسية وربطت قاعدة التقليد والاجتهاد بين الجمهور والمرجعية الدينية ربطاً عقائدياً قوياً من خلال الوجوب الشرعي على المكلفين الشيعة بتقليد المجتهد (سلمان، 2010، ص19). ان سلطة العلماء في المذهب الشيعي تستمد مصادرها من سلطة الائمة الاثنى عشر المنحدرين عن الأمام علي بن ابي طالب،...، ان وظائف [الائمة] المحددة طبقاً للنموذج المحمدي، تتمثل في: إمامة صلاة الجماعة وقيادة الحرب المقدسة (الجهاد) وتقسيم الغنائم، وتلقي الزكاة، والقضاء، وفرض القصاص الشرعي، ولكن [الائمة] لفقدانهم السلطة السياسية، ولقناعتهم بعد ذلك، فقد تكلفوا بالإرشاد الديني وبتعليم [الشريعة] الاسلامية، وبعد الغيبة النهائية [الامام] الثاني عشر في عام 941م (الموصوفة بأنها الغيبة الكبرى)، فقد علقت وظائفه،...، ولكن بغيابه اضطر فقهاء الامامية التصدي للأمور الارشادية التي ليس لها بُعد سياسي، وركزوا على المعرفة وانتاج الفتيا التدريس، والادارة المالية (جمع اموال الخمس)، الذي هو المورد المالي الرئيس الذي لديهم للتفرغ العلمي لهم ولتلاميذهم الذين توزعوا بعدئذ في مدارس فقهية هائلة انبثق عنها ما اصطلح عليه بـ(الحوزة العلمية) (هاشم، 2015، ص16-17).

وعلى ماذا تستند الابوانية الفقهية التي نقول بها؟ ولماذا كانت المعرفة الدينية والمال المقدس هما عماداها الاثنين؟ بعبارة أخرى لماذا كان المال المقدس هو العنصر الابرز في تلك الابوانية؟ إذن ما هي موارد المؤسسة الدينية (المرجعية) المالية؟ أي من تقوّم وتقوم بأدوارها وأعبائها؟ أي ما هو المال المقدس الذي نتحدث عنه، وما صلته بتلك المؤسسة من ناحية وصفه كـ(ضريبة دينية)، الفقهاء (المراجع) مسؤولون عن جمعه وأدخاره، ومن ثم توزيعه واقامة المشاريع الاقتصادية التي يريدونها؟ وما هي مسوغاتهم او مرتكزاتهم الدينية (الفقهية) التي منحتهم امكانية تحصيل تلك الضريبة وتوزيعها او تبادلها مع اتباعهم المعروفون بـ(المقلدين)؟ بعبارة اخرى ما هي النصوص الدينية التي أباحت لهم كل هذه الممارسات المالية (الاقتصادية)؟ أعتقد اننا نستطيع الاجابة عن كل تلك التساؤلات ضمن اعادة موضعة المؤسسة الدينية والمال المقدس ضمن المجال الاجتماعي او الفضاء الاجتماعي الذي اشتغل عليه "بورديو"، على اعتبار ان هذه الموضعة

ستسهم في كشف البُعد الجينالوجي لموضوعة الدراسة من جهة، وتكشف مسارات وتداخلات البُعد الديني ضمن مديات البُعد الاقتصادي (المال المقدس/ الخمس).

يندرج تحليل بورديو للحقل الديني كما يوجزهُ الهرماسي ضمن نظرية عامة للحقول منظور اليها كفضاءات مهيكلة لمراكز ترتبط خصائصها بمواقعها ضمن تلك الفضاءات، ويمكن بالتالي تحليلها بأستقلال عن مميّزات من يحتلّونها بأعتبارهم محددين جزئياً بها. هكذا تشتغل الثقافة او التعليم او السياسة او الفن او الدين، الخ... كحقول تجري في صلب نزاعات بين المهيمنين او المهيمن عليهم. ويشتمل كل حقل على رهانات ومصالح مخصوصة بحيث تتشكل بنية حقل ما في لحظة ما كحالة من علاقة القوى بين الفاعلين Agents المنخرطين في الصراع، وتكون هذه الحالة متطابقة مع شكل توزيع الرأسمال المخصوص (رأسمال اقتصادي او ثقافي او سياسي او ديني، الخ...) الذي تمت مراكمته خلال الصراعات السابقة والذي يوّجه الاستراتيجيات المستقبلية (الهرماسي، 2012، ص57). صاغ بورديو المجال الاجتماعي وجدلية الرساميل الثلاثة فيه، الرأسمال الاقتصادي، الثقافي، الرمزي، اذ المجال بالنسبة له: هو الفضاء الذي تتم فيه عمليات انتاج وتوزيع واستهلاك واستثمار مختلف اشكال الموارد الرمزية والمادية او بعبارة أخرى هو بالنسبة له حقل الصراع للتحكم في الموارد والوصول إلى المصالح ، والمرتكز الجوهري لديه لفهم داينيميكية المجال هو: الاهتمام بعلاقات الفاعلين الاجتماعيين، والتي تحكمهم علاقات القوة داخل المؤسسة التي تضمهم في لحظة تاريخية خاصة بهذا المجال(Calhoun, 2009, p.291-292) . وبطبيعة الحال علاقات القوة تلك تكون مرتهنة لمن يملك الرساميل المتعددة، ويدخل في عملية تنافس داخل المجال الاجتماعي، ولعل هذا الامر يمثل بالنسبة لنا هنا (المؤسسة الدينية) اي فقهاء او مراجع الامامية الذين يمتلكون الرساميل المتعددة التي تحدد سلطتهم او هيمنتهم. فلقد بنى بورديو العالم الاجتماعي من خلال المجال الاجتماعي الذي يتكون من مواقع (Positions) يشغلها الافراد، هذه المواقع متمايزة فيما بينها، بمعنى انها تتوزع إلى مواقع مهيمنة وأخرى مهيمن عليها تبعاً لأحجام وبنيات رأس المال الذي راكمه كل فاعلٍ خلال حياته (احجيج، 2018، ص107).

ولهذا نجد ان العلماء (الفقهاء - المراجع) يستمدون سلطتهم من ثلاثة مصادر رئيسة مترابطة: (1) معرفة النص المقدس، و(2) احتكار تفسيره ونقله من خلال المدرسة الدينية، و(3) التصرف بالضرائب الدينية (ينطبق هذا على فقهاء الامامية عبر استحصال اموال الخمس) (عبد الجبار، 2010، ص241). وعملية احتكار تفسير النص الديني من خلال نشره وتعليمه للطبقات الدنيا (المتعلمين) داخل المؤسسة الدينية (الحوزة الدينية) الموجودة في المدن المقدسة الشيعية حصراً (النجف، كربلاء، قم، مشهد)، فهو يمثل الرأسمال الثقافي؛ لأنه يبين الملكات المعرفية العالية ليس لهؤلاء الفقهاء (المراجع) فحسب، بل للطلبة الدارسين او الساعين للوصول إلى مرتبة الاجتهاد (اي استنباط الحكم الشرعي من مصادره المقدسة الاصلية) التي يحملها هؤلاء المراجع، وهم بذلك اي هؤلاء الطلبة يدخلون في تنافس مع بعضهم البعض بالدرجة الاولى لأجل الوصول إلى هذه المرتبة او دخول الطبقة الدينية العليا - طبقة الفقهاء او المراجع الكبار. فالإدارة المالية (التوزيع والتبادل) ومن ثم (الانتاج) عبر مشاريع استثمارية انما كانت من الخمس، اذ يرى الفقهاء الامامية انه: "من الفرائض، وقد جعلها الله تعالى لمحمد وذريته عوضاً عن الزكاة اكراماً لهم،

ومن منع منه درهماً او اقل كان مندرجاً في الظالمين لهم، والغاصبين لحقهم، بل من كان مستحلاً لذلك كان من الكافرين" (سبحاني، 1420، ص12). لقد كان الخمس، شأنه شأن الزكاة أيضاً، فرضاً دينياً على اوائل المسلمين غير ان الخمس بخلاف الزكاة يستمد كنسبة من غنائم الحرب (الغنائم او الانفال) ومن جميع الضرائب التي يدفعها غير المسلمين لقاء الهدنة (تفادياً للقتال) وهي ضريبة الفيء، ولقد خصصت الاحكام لتوزيع غنائم الحرب هذه للمقاتلين في سبيل الله اربع حصص من اصل خمس واستبقت حصة خاصة (الخمس) للنبي محمد (عبد الجبار، 2010، ص245).

ويستند فقهاء الامامية إلى النص القرآني (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (الانفال/47). ففي هذه الآية يتضح ان الخمس من الغنائم الحربية او غير الحربية بحسب رأيهم للنبي ومن ثمّ لذريته (الائمة)، وبغيابهم تكون للفقيه/ المرجع لكي يستلمها ويوزعها بين بقية الاصناف الاجتماعية التي بينتها آية. واستناداً إلى هذه الالية وضع فقهاء الشيعة تقسيماً سداسياً للحصص الخمس تكون الحصص الثلاثة الاولى منها لـ(ألائمة) بصفتهم يمثلون الله والنبي واقرباءه، اما الحصص الثلاث الاخرى فإنها تؤول إلى الفقراء واليتامى وابناء السبيل من بني هاشم (عشيرة النبي)، بصفتهم (سادة) او (اشرافاً)، وهذا هو السبب الذي يجعل (المجتهدين) الشيعة الحديثين يطلقون على حصتهم بصفتهم رجال دين، اسم (سهم الامام) وهي ما يعادل نصف الخمس، ويستطيعون كذلك أخذ النصف الثاني اذا كانوا (سادة)، أي من سلالة بني هاشم (عبد الجبار، 2010، ص245-246). ان الأبوانية الفقهية تجد تجسيداتها في مجالين مهمين (المعرفة الفقهية) و(الاقتصاد الديني) المتمثل بالخمس، ولقد ركزنا على موضوعة الخمس بدرجة كبيرة هنا لأنها تمنح تلك الأبوانية الاستمرارية والقوة وتديم المؤسسة الفقهية برمتها، اذ هي عماد تلك الأبوانية إلى جانب التعاطي مع النصوص الدينية الذي ينتج فضاء المعرفة الدينية الفقهية والتي منحتهم كذلك سطوة وشرعية مطلقة.

السرديات الدينية وصناعة الأبو انية الفقهية (تشكيل القداسة)

ان عمليتي انتاج السرديات وتمثل الافراد لها فيما بعد يعد حقل اجتماعي او خطاب اجتماعي، بوصفها حمولات وموجهات ثقافية في الوقت نفسه، وهي في المآل النهائي عملية اعلان (هوية جمعية) خاصة بهؤلاء الافراد الذين تبنوا هذه السرديات واعتنقوها، فالفاعلين الاجتماعيين ما هم الا حاملين لهذه السرديات لاسيما السرديات الدينية التي بدأت تمايزهم عن سائر الجماعات الاخرى داخل المجتمع، وبذلك تتكون هنا ما اصطلح عليه بول ريكول بـ(الهوية السردية).

بطريقة موجزة يعرض بول ريكور تجربته الشخصية الفكرية في نحت ما أصطلح عليه بـ(الهوية السردية) قائلاً: "ان مفهوم الهوية السردية الذي أدخلته في المجلد الثالث من كتابي: "الزمان المروري" كان استجابة لإشكالية اخرى: في نهاية رحلة طويلة عبر السرد التاريخي والسرد القصصي الخيالي تساءلت ان كانت هنالك من بنية للتجربة كفيلة بأن تستوعب الصنفين الكبيرين للسرد. عندها قلت بفرضية الهوية السردية بشخص واحد والجماعة بأكملها، وهذه الهوية تصبح بحسب هذهِ الفرضية مكان القلب والتبادل والتمازج بين التاريخ والخيال والقصص. وبحسب المعرفة الحدسية السابقة للمعرفة الحقيقية التي عندها

لحالة الاشياء، أو لسنا نعتقد بأن حياة البشر تصبح أسهل للقراءة وأمتع حين تؤول بحسب الحكايات التي يرويها الناس عنها؟ وهذه الحكايات نفسها عن الحياة ألا تصبح أسهل للفهم حين نطبق عليها النماذج السردية، اي مع ايجاد حبكات مقتبسة من التاريخ الفعلي او من مصنفات الخيال (الدراما او الرواية)؟ بدا لي عندها انه من الممكن جداً ان نقبل السلسلة التالية من التأكيدات على انها صحيحة. ان فهم الذات هو عملية تأويل، وتأويل الذات بدوره يجد في السرد واسطة بأمتياز مفصلاً إياها على بقية الارشادات والعلاقات والرموز، والسرد يقتبس من التاريخ بقدر ما يقتبس من القصص الخيالية، جاعلاً من تاريخ حياة قصة خيالية، او اذا شئنا قصة تاريخية، شابكاً أسلوب العمل التاريخي الحقيقي للسير بالاسلوب الروائي للسير الذاتية الخيالية، ان ما كان ينقص مثل هذا الادراك الحدسي لمشكلة الهوية السردية هو فهم واضح لما هو موضع الرهان في السؤال عينه عن الهوية، حين نطبقها على الاشخاص او الجماعات، إن مسألة التقاطع والتشابك بين التاريخ والرواية الخيالية كانت تبعد، بمعنى ما، الانتباه عن الصعوبات الجمّة المتعلقة بمسألة الهوية بما هي هوية" (ريكور، 2005، ص251).

لعلهُ اقتباس طويل ولكنه له دلالات ومعاني كثيرة خاصة بالسرديات الدينية، والتي لا نستطيع الوصول إلى مغزاها في بحثنا هذا من دون فهم موضوعة (الهوية السردية)، التي هي بنظر ريكور تتوسط السرد التاريخي والسرد القصصي، فهي كانت بالنسبة له بمثابة ذات فاعلة (ساردة) تتمظهر بهوية خاصة تجعل الفرد او الجماعة الحاملة لها متمايزين عن الجميع. فالأفراد والجماعات على حدٍ سواء يستطيعون ان يعبّروا عن خصوصيتهم التاريخية والدينية والثقافية عبر تقنيات السرد واشكاله المختلفة التي تتناوب بين بعد السرد التاريخي (الزمن) والسرد القصصي او الروائي (اللغة)، والذي يحيلُ دائماً إلى تلك الهوية السردية الخاصة لهذه الجماعة او تلك. ان الهوية هنا بمثابة الصورة الاجمالية العاكسة لسائر التشكلات والتشكيلات الثقافية والاجتماعية والدينية التاريخية التي مرت بها الجماعات او الطوائف او المذاهب الدينية، فهي بمثابة المواريث العامة لها، ولهذا وجدنا ان الهوية تميل بالضرورة إلى الذاكرة الجمعية، فهي تستمد مادته السردية من ذلك المخزون الثقافي/ الاجتماعي الذي يمايزها عن سائر الهويات السردية التي تحملها المذاهب او الطوائف الدينية الاخرى.

ومما ينبغي التأكيد عليه هنا، هو ان السرديات الدينية تمتلك قابلية كسر دورة الزمن عبر التسيد عليه، فهي لا تعترف باختلاف الازمان، وذلك لكونها تستمد شرعيتها الوجودية والاستمرارية في التأثير من طبيعة الدين ذاته، فهي ان صاغت او شكلت مؤسسات اجتماعية او دينية فأنها واستناداً إلى الدين ذاته تمارس هيمنة مطلقة لا حد لها، لكون تلك السرديات الدينية تمثلُ تجلٍ للإرادة الالهية على الأرض عبر الجماعة او المذهب الديني المشكل لها. ولهذا وجد ان عالم الاجتماع المعروف بيتر برجر يقول في هذا السياق: ان الدين يبرر المؤسسات الاجتماعية بأن يمنحها حكماً انطولوجياً وصلاحية أعلى بمعنى انه ينزّلها في إطار مرجعي مقدسي وكوني، وهكذا ينظر إلى منشآت النشاط البشري التاريخية انطلاقاً من مركز مرجعي مفيد بصورة خاصة يتعالى تعريفاً، في الآن نفسه على التاريخ وعلى البشر يتسنى انجاز ذلك بطرائق شتى (برجر، 2003، ص68).

وتأسيساً على ما تقدم، نستطيع القول ان السرديات الشيعية التي صاغت الأبوانية الفقهية، قد اشتغلت في محورين متلازمين فهي مرةً جاءت جراء مخاضات في حركة التاريخ والعالم القصصي واحتاجت إلى هوية سردية تمايزها وتبين حدود معالمها، ومرة أخرى تلازمت مع البعد الديني كيما تكسب الشرعية المطلقة في سياقات تشكلها وسيرورتها التاريخية، وهي تحركت في مدارين: (1) هوية سردية موغلة بالقدم ارتبطت بسياقات تأسيس المذهب الشيعي وسائر سردياته الشفاهية التي انتقلت من مدينة الكوفة إلى مدينة بغداد، و(2) هوية سردية مدونة ارتبطت بعصر تأسيس مدينة بغداد، ومرحلة تدوين الارث السردي الروائي الشيعي واقتطعت لنفسها خانة سردية خاصة بها من ذلك العصر. ومما ينبغي الاشارة اليه هنا، هو ان الهوية السردية الشيعية ولاسيما في جانب الهوية السردية الصانعة لـ(الأبوانية الفقهية) اي السلطة اللامحدودة للفقهاء، لم تكن تعتمد كما سنرى لاحقاً على المرويات الدينية عن اهل البيت فحسب، بل انها ذهبت نحو النص القرآني لتصنع في ظلال بعض نصوصه مداراً شرعياً اوسع لسلطتها (الأبوانية) تلك.

ان الحديث عن تفاصيل السرديات الدينية والهوية السردية التي تشكلت في ظلالها بالنسبة للشيعة الامامية، يعد امراً واسعاً إلى حدٍ كبير، ولكننا سنركز على مسألة محورية رئيسة وهي السرديات الخاصة بتشكيل الأبوانية الفقهية ومنحها هذه السلطة الدينية اللامحدودة. وعلى الرغم من ذلك ينبغي التأكيد على ان تلك السرديات الدينية لم تستقر وتأخذ مفاعيلها وتأثيرها الواسع داخل المنظومة الدينية، الشيعية وتتولد في ظلالها (المؤسسة الدينية) اي (الحوزة) و(سلطة الفقهاء) انما جاء في عصر ما بعد الغيبة الكبرى (للإمام الثاني عشر) الذي يعتقد بغيبته الشيعة وانه سيظهر في آخر الزمان، إذ بغيبته تلك فقدت الشيعة امامها وموجهها الفقهي الرئيس الذي كان عبر (النواب الاربعة) يقوم بنقل رؤيته الدينية الفقهية، أي ابان ما يعرف بعصر (الغيبة الصغرى).

لقد تناول هذا الموضوع وبالتفصيل الباحث اللبناني وجيه قانصو الذي تحدث عن تأسيس المذهب الاثنى عشر عبر بداية مرحلة التدوين النهائي لإقرار المذهب وسردياته الدينية بنحو قطعي، والتي جرت بعد الغيبة الكبرى للإمام الثاني عشر، فلهذا كان من الضروري ان يرافق التدوين ظهور زعامة دينية، كارزمية بديلة عن الامام الغائب، وهذا يعني في المآل النهائي دخول المذهب وكافة سردياته عصر (مأسسة المذهب)، وهي بالنسبة لقانصو كانت على مستويات ثلاثة مستقلة: الشعيرة، والعقيدة، والتنظيم (قانصو، 2016، ص422). وبحسب رايه عمد التأسيس والتمأسس للمذهب الاثنى عشري إلى حسم جملة امور خاصة بكافة سردياته الدينية ولأجل صناعة، هوية سردية متكاملة استناداً إلى سرديات كبار الفقهاء (الكليني والصدوق)، واعتماداً على المصنفات الكلامية والفقهية كذلك (من عصر المفيد وحتى الشيخ الطوسي) وكانت السرديات الدينية تمارس الآتي بحسب رأيه (ونوجزها على النحو الآتي): (1) حسمت الجدل الداخلي بين الامامية بوجود امام ثاني عشر، و(2) رسمت الفروق الجلية مع الجهات غير الشيعية، أي اصبح الشيعة جماعة دينية متمايزة كلياً داخل دائرة الإسلام، و(3) بناء مرجعية نصية مستقلة وخالصة، أي بناء منظومة روائية - سردية عبر رجال الدين الشيعة فقط، تورد عن طريق الائمة الاثنى عشر حصراً لا غير، و(4) إخراج الامور العقائدية من التداول العام، وحصرها بيد نخبة متخصصة او طبقة (محترمين)، فلا يعود لعامة الشيعة الامامية ابداء الرأي والنظر (أي بداية عصر الابوانية) التي لا يمكن جدالها، او زحزحتها

من مراتبيتها الدينية العليا، و(5) اقرار دور الامام المهدي وصلاته بتلك الابوانية من جهة التمثيل والنيابة والاستعداد لعودته، و(6) بناء سردية جديدة للتاريخ: فبناء المذهب لا يقطع مع ما سبقه، بل يحتويه ويحوله ويهضمه في داخله، أي اننا لسنا امام تاريخ جديد بل امام سرد جديد لتاريخ ماض يقطع مع كل الحكايات الاخرى ويفهمها ويقدم سردية خاصة به، لا تعود إلى عصر النبوة، بل تعود إلى بداية الخليقة(قانصو، 2016، ص424-428).

ان الذي يعيننا في ما تقدم ذكره هو الاشارات المهمة عن انبثاق او انبجاس عصر (الابوانية الفقهية) أي السلطة الواسعة للفقيه بوصفه نائباً عن المعصوم، والذي أخذ يصنع سردية دينية خاصة بسلطته داخل الفضاء العام للسرديات الدينية/ الشيعية العامة. ويعد الباحث عادل رؤوف أفضل من تناول هذه السرديات وحاول تفكيكها ومن ثم نقدها في جملة اعمال كثيرة لعل ابرزها هو كتاب (صناعة العقول بين التقليد الفقهي وثقافة التقليد) والذي سنستعرض بعض مداخلاته المهمة حول صناعة ما اطلقنا عليها بـ(الابوانية الفقهية) واعتمادها على سرديات أولت او صيغت بظروف خاصة وظلت حاكمة وناظمة للمجتمع الشيعي إلى يومنا هذا، وسنتوقف عند ملاحظاته وانتقاداته على نحو الايجاز بطبيعة الحال. من الواضح ان الابوانية الفقهية استندت على السرديات الدينية الخاصة بمحورين مهمين هما: (1) النيابة المطلقة عن الائمة الاثنى عشر، وهذا الامر صيغ بعد عصر الغيبة الكبرى، و(2) التقليد الخاص بأفراد المجتمع الشيعي، غذ لا وود لهذه الابوانية اذا لم يكن هنالك (اتباع) يطلق عليهم فقهياً (مقلدون) أي يتبعون اجتهادات الفقيه وآرائه، وطاعته في الصغيرة والكبيرة، لأنه نائب المعصوم.

وحول المسألة الاخيرة يقول عادل رؤوف: "الذين قالوا بمشروعية التقليد أوردوا أربعة أدلة حول المشروعية، وهي دليل الكتاب ودليل السنة ودليل السيرة العقلائية ودليل العقل، وخضعت هذهِ الأدلة إلى أدلة علمية او أدلة عقلية وأدلة نقلية، وحينما يتعلق بدليل الكتاب، فقد استدل على مشروعية التقليد بالقرآن الكريم من خلال بعض الآيات ذات العلاقة، وهي آيات محدودة جداً، وأشهرها آية النفر (... فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) (التوبة: آية:122)...، ويعقب رؤوف على هذه الآية قائلاً: والواقع ان صحة هذا الدليل او بطلانه يتوقف على ما يمكن ان يفاد من الآية في الدلالة على صحة الاجتهاد،...، وظاهر الآية ليس هو الاطلاق اللفظي من حيث وجوب الحذر واتباع اخذ الفتوى من الفقيه علماً وظناً، بل ظاهرها هو التقليد بالعلم، لأن خطاب الآية ليس منفصلاً عن سائر النصوص الأخرى، التي تحث على العلم وتنهي عن الظن، وهو امر يؤكده الحال الذي كان عليه، التعامل في عصر النص، لذلك لا مجال للتعميم والتعويل على الإطلاق اللفظي" (رؤوف، 2007، ص92-93). لطالما نظر الفقهاء إلى هذه الآية القرآنية بوصفها حجة وبرهان على تخصص معرفي لفئة معينة في الفقه، ومن ثمّ الواجب اتباعها والتقيد بأوامرها، وهي تمثل قراءة مجتزئة من سياق قرآني أرحب وأشمل ولكن السرديات الدينية/ الفقهية تحاول دائماً ان تلوي عنق النصوص لصالح صناعة تلك الأبوانية الفقهية.

وبطبيعة الحال هذهِ اشهر الآيات التي تم الاستعانة بها، وتوجد آيات أخرى كثيرة تم من خلالها الاستدلال على الركن الثاني المكمل للأبوانية الفقهية الا وهو عنصر (التقليد)، وفي السياق ذاته تأتي

المرويات لتصوغ وتصنع تلك الأبوانية عبر سردياتها، وبهذا الصدد يقول رؤوف: وقد اختلفت في دلالات هذهِ الروايات، وخدش بسند الكثير منها، إذ اهم هذه الروايات هي ما عرفت بتوقيع الحجة (وأما الحوادث الواقعة فأرجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنهم حجتي عليكم وانا حجة الله عليهم) والتي رواها اسحاق بن يعقوب، وتلك الرواية الوحيدة التي ورد فيها مصطلح التقليد والمنسوبة إلى الأمام العسكري (فإما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه فـ(للعوام) ان يقلدوه، وذلك لا يكون الا لبعض فقهاء الشيعة جميعهم) وهاتان الروايتان ضعيفتان فضلاً عن أن الاولى لا علاقة لها بالرجوع إلى الفقهاء المجتهدين، بل أي رواة الحديث، والثانية أقرب في دليلها إلى ما يفيد العلم وليس الاجتهاد القائم على الظن (رؤوف، 2007، ص108).

ولما كانت هنالك مصلحة دينية واجتماعية وسياسية في تشكيل السردية الدينية الخاصة بالابوانية الفقهية (للفقهاء) ومنحهم سلطة مطلقة، في ظل غيبة الأمام الثاني عشر وتزاحم المذاهب والتيارات الاسلامية فضلاً عن أن الشيعة عاشوا قروناً طويلة في ظل دور المعارضة مما فرض عليهم عزلة من عدة انواع، كل هذه الامور والسياقات الحياتية فرضت عليهم صياغة زعامة دينية خاصة بهم حتى ولو استندت على آراء أو مرويات ضعيفة السند او استندت على تأويلات خاطئة ومفتعلة لآيات قرآنية. وبهذا الصدد يقول رؤوف: "وبين معالجة بعض النماذج القسرية (يقصد المرويات والاحاديث وآيات القرآن كذلك) لربطها بالتقليد، او على الاقل مناقشة نموذج من نماذج هذه القسرية،...، فإن كلمة التقليد لم ترد الا في حديث واحد اعتمد كأساس له من قبل الجميع مع الاختلاف حوله... بين من يراه مقبولاً وبين من يعترف بأنه ضعيف ومرسل وهو الحديث الذي ذكرناه آنفاً: (من كان من الفقهاء..... فللعوام ان يقلدوه).... اما الأحاديث الاخرى التي وردت فيها كلمة التقليد موضوعة فأكثر الفقهاء لا يأخذون بها ويناقشونها نقاشاً مسهباً، ولا يقرون بصحتها... الا انه بعدما رسخ التقليد كثابت معرفي تاريخي لا أصل له في الاسلام.... وفي الوقت نفسه فرض نفسه على واقع المسلمين كان لابد لكل (فقيه) جديد ان يخوض فيه ويناقش ويدحض... الا انه وفي نهاية المطاف (يمرر) العمل به، لأن التاريخ امضاه وفرضه كقدر حتى على (الفقيه) الذي أصبح مصيره مرهوناً بهِ بفعل عوامل تاريخية سياسية ومذهبية أصلت هذا التقليد في الواقع الاسلامي، فأستقرت آفاق النقاش على مبحث (أدلة التقليد) المكرورة في كتب (الفقهاء)... وعندما يصطدم (الفقيه) من خلال نقاشاته وتحقيقاته بأن التقليد منهى عنه في القرآن، ولا وجود دلالة في الحديث، يضطر إلى ان يهرب به إلى (العقل) تارةً، والى (السيرة العقلائية) تارة أخرى" (رؤوف، 2007، ص112).

وعلى هذا النحو صيغت الابوانية الفقهية لضرورات مذهبية او طائفية، اكثر من كونها ابوانية فعلية ملزمة، لها سندها الشرعي الذي لا يمكن تجاوزه او التصدي له، وهي بذلك النحو استطاعت التسلل في متغيرات المجتمع وتكون ضمن ما اطلق عليه هشام شرابي بـ(الابوانية المستحدثة) في ظل الحداثة، على الرغم من ان الابوانية الفقهية/ التقليدية ظلت تمارس صيغها التقليدية، ولكنها استطاعت بفضل تلك الابوانية المستحدثة ان تكون جزءاً من النظام السياسي كموجه او رادع بنحو او بآخر كما في التجربة العراقية الراهنة.

ولقد تحدث عبد الاله بلقزيز عن اشكالية تلك الوساطة الفقهية التي أسماها بـ(الكهنتة)، عاداً اياها بأنها امر عرضي/ تاريخي ليست من اصول الدين، وان الاصل هو الفهم الفردي المباشر للنص الديني بلا وصاية، إذ يقول: "نميزّ... بين حالتين من العلاقة بين المؤمنين والنص الديني، حالة فردية، فكرية هي حالة الفهم، وأخرى مؤسسية، هي حالة التوسط الفقهي او العلمائي بين المؤمنين والنص، الحالة الاولى طبيعية، وتكمن في أساس كل علاقة بين الناس والنص الديني الذي يعتنقون تعاليمه، وهي توجد في الاديان كافة: التوحيدية وغير التوحيدية، بما فيها الاديان التي لا كتاب فيها، وانما تعاليم اخلاقية كمعظم الاديان الاسيوية، أما الثانية فكهنوتية ليست من تعاليم الاسلام، لكنها من حقائق تاريخه الديني التي فرضت نفسها على يوميات المسلمين، حتى باتت عند اكثرهم من اصول الدين! (بلقزيز، 2017، ص33).

ولقد كانت التأطيرات النظرية الانثروبولوجية لـ(عبد الله حمودي) في خطاطته حول الشيخ والمريد، و(ماري دوغلاس) في خطاطتها حول: الشبكة – الجماعة، بمثابة حقول نظرية ساعدتنا لفهم تلك الابوانية وصناعتها. ان براديغم حمودي ينطلق من تسرب خطاطة ثقافية من مجال الصوفية والولاية إلى المجال السياسي، وهذه الخطاطة (بحسب رأيه) التي استندت إليها علاقات السلطة واستمدت منها ديناميتها هي في (نظره) علاقة الشيخ بالمريد (حمودي، 2010، ص11-12)، وهي علاقة جوهرية يرد بها على منتقديه الذين يرشحون بديل (الابوية) أو (البطركية)، قائلاً: "ان الاب ووظيفته الابوية لا يضيفان على اي وضع صبغه دينية أو ربانية، واكثر من هذا، فإن تلك الوظيفة (اي وظيفة الاب) لا تقوم مقام الوظيفة الامومية،...، الولي (بنظره) هو الوحيد الذي يجسد الوظيفتين رمزياً، وبهذا التجسيد يحدث نوعاً ثالثاً (بين المؤنث والمذكر) يضمن اعادة انتاج المجتمع وتسلسله على اساس قيم تحجب تساوي النوعين الاوليين في ضمان اعادة انتاج المجتمع (بإنجاب الاولاد)" (حمودي، 2010، ص12). وبطبيعة الحال نحن غير معنيين بتسلسل تلك الخطاطة داخل سائر المؤسسات والبنى الاجتماعية محددة فيها العلاقات السلطوية، كما درسها في المغرب، إذ نحن نريد تركيزهُ على الدينامية السوسيوثقافية لتشكل السلطوية ضمن النسق الثقافي لعلاقة الشيخ بالمريد، ولكنهُ يقدم المايزة الجوهرية بين زعامة عادية وزعامة روحية مهيمنة (حمودي، 2010، ص12).

ان تبيئة اطروحات حمودي في خطاطته تلك مع المؤسسة الدينية (المرجعية الشيعية) في العراق عبر رصد قوتها وسطوتها التي تمارسها على مقلديها كما يفعل الولي مع مريديه. وهي تأخذت في العراق لبوساً خاصاً بها، وذلك لقوة المؤسسة الدينية – الفقهية وتاريخها العميق ومصادر شرعيتها التي تقول بها، والتي تجعلها تملي ارادتها ومشيئتها في سائر شؤون الحياة العامة والخاصة. ان أهمية الخمس كضريبة دينية عند افراد المجتمع الشيعي لا تخرج عن دائرة المكانة الاجتماعية التي تمنح للفرد الذي يخمس دائماً وبمبالغ مالية طائلة، مما يجعله يحوز درجة قرب من الوكيل العام للمرجع/الفقيه، ومن ثم يصل الامر إلى القرب الاجتماعي إلى الفقيه ذاته، مما يجعله في كثير من الاحيان أحد أعمدة المؤسسة الدينية من الناحية المالية. وأياً كانت هذه الممارسات فهي تظل تسعى لنيل رضا المقدس، ولكن عبر (وساطة) الفقيه – المرجع كما في حالة المجتمع الشيعي، ولكنها تتم ضمن سياقات ضبط وتنظيم وتفاعل خاصة "بالجماعة الشيعية" المتبعة أو المقلدة لهذا الفقيه أو ذاك، وذلك لأن المجتمع الشيعي يشهد وجود فقهاء كُثر وكل واحد منهم ينتج ويصوغ جماعته الخاصة على فوق ادارته التنظيمية الفقهية المميزة له.

ولا يمكن ان نوزع ملاحظاتنا ومن ثم نقوم بتحليلها من دون الاستعانة بـ(تحليل أو تصنيف) الشبكة – الجماعة Grid – Group، والتي قالت به ماري دوغلاس، إذ ترى ان الناس قد طورت التصنيفات التي يقومون بها من اجل حل أو على الاقل التغلب على مشكلات المنظمة التي يواجهونها. فهذه المشكلات برأيها هي نتاج لعمليات المؤسسات تلك، إذ يفكر الناس في أي مجتمع بصورة مؤسساتية، وتفسر الاختلافات في أساليب التفكير من خلال الاختلافات في الاشكال البسيطة لمؤسساتهم (سكوت، 2009أ، ص171). بالتأكيد ان ارث دوركهايم كان حاضراً وطاغياً في معالجات دوغلاس، ولاسيما مسألة التصنيفات الاجتماعية التي طورتها لفهم انظمة التحكم داخل المؤسسات المتنوعة إذ تقول: "وأحتاج إلى انتاج مقارنة بين انظمة التحكم التي سوف تتناقض مع الشكل الشخصي تماماً من العلاقات، اي نظام يعادل مكانة العائلة، فيمكننا ان نركز على ما يبدو، على تفاعل الافراد في اطار بعدين اجتماعيين، اولهما: النظام، فالتصنيف، والنظام الرمزي، والآخر هو: الضغط وتجربة عدم وجود خيار سوى الموافقة على المطالب الضاغطة لأشخاص آخرين، فالنظر في النظام اولاً يتطلب توضيح العلاقات الاجتماعية وفئاتها ومسألة اعطاء التوجيهات، فالنظام هو المطلب الاساسي للاتصال" (Douglas, 2004, p.61). فلهذا وجدناها تتحدث عن بعد الجماعة والتي تشير إلى مدى اندماج الفرد في وحدات متماسكة، فكلما زاد الاندماج خضع اختيار المرء بقواعد مفروضة من الخارج، وكلما كان نطاق تلك القواعد شاملاً وملزماً تقلص مساحة التفاوض المتاحة في الفرد، وكما تشرح دوغلاس، فإن بعد الجماعة يتناول مدى تأثير عضوية الجماعة في استغراق حياة الفرد ودعمها، فالمرء الذي يرتبط مع آخرين في الاقامة المشتركة والعمل المشترك والموارد والترويج المشترك، سوف يعطي معدل ارتباط مرتفعاً بالجماعة (تومسون وآخرون، 1997، ص37-38). فالجماعة بهذا المعنى تشير إلى مدى التماسك، والى القدرة على الغاء الفوارق بين النوازع الذاتية والانصهار في بوتقة الجماعة وتوجهاتها، حيث ان مسألة الضغط كأسلوب موجه لأنظمة التحكم داخل الجماعة بحسب رؤيتها. ان القيود المفروضة من الخارج على تفاعلات الجماعة، انما هي ما تعني بـ(الشبكة) لدى دوغلاس، فهي مجموعة القواعد والمعايير والاشتراطات الثقافية التي تلزم الفرد ضمن نطاق صارم، ومن ثمّ فهي تكون مسؤولية عن ضبط السياقات التفاعل الاجتماعي داخل (الجماعة).

ان هذا النموذج أو المصفوفة (الجماعة – الشبكة) يساعدنا على فهم خصوصية الجماعة الدينية الإمامية/ الفقهية التي ينتمي إليها افراد المجتمع، اذ انها تسهم في تضامنهم وتماسكهم، وتمنح امكانية تعريف انفسهم عبر تشكيل هوية جماعاتية دينية متمايزة عن سائر الجماعات الاخرى داخل المجتمع الاوسع، ولكنها في الوقت نفسه واستناداً إلى بُعد (الشبكة) تخضع إلى ضغوطات ملزمة وموجهة، إذ علها ان تسير على ما خط لها من معايير وقيم دينية لا تحدد آليات أو تقنيات دفع الضريبة المالية (الخمس) فحسب، بل وكيف تحافظ عليها عبر روزمانة سنوية، وهذا الامر يعني ضمناً استبطان الهيمنة الزعاماتية/الشاملة التي تحدث عنها حمودي في (الشيخ والمريد). فمن جهة الجماعة تعد مجرد العضوية داخل الجماعة الخاصة بهذا الفقيه أو ذاك ولادة روحية/ اجتماعية للفرد، فكأنما دخل ضمن اجواء تكريسية خاصة منحته شرف العضوية، وهذا هو عبارة عن شعور افتراضي – داخلي، يتبدى لنا من خلال شعور الفرد بالطهارة الدينية والتفرد بخصوصية هوياتية يحملها عبر الانتماء لهذه الجماعة، مما جعله منصهراً مع بقية الافراد

المنضوين تحت هذه الجماعة الفقهية، ومن ثم فأنه يحمل كافة الدلالات الرمزية المميزة له داخل هذه الجماعة من لغة دينية/ فقهية اصطلاحية خاصة، ومن نطاقات تواصلية/ تفاعلية خاصة، عبر (انشطة جمعية موحدة) خلف الفقيه الاعلى أو خلف من يمثله من الوكلاء الكبار أو الطلبة الحوزويين الصغار.

ولكن مما ينبغي التنويه عليه هنا، هو ان مصفوفة دوغلاس لا يمكن ان تنطبق داخل المجتمع الامامي بحذافيرها، فعلى سبيل المثال ان الحديث عن (الشبكة القوية) التي تمارس دقة عالية في قواعدها والزاماتها قبالة (الشبكة الضعيفة) التي تكون فيها القواعد والالزامات ضمنية وليست مهيمنة، والتي وضحتها دوغلاس خلال رسم بياني مستندة في ذلك إلى ثلاثة انواع من البيئة الاجتماعية: "التصنيف العالي" "المجموعة الصغيرة" "الشبكة القوية"، والتي فيها تتحدث عن التماسك والهيمنة إلى غير ذلك (Douglas, 2004, p.64-65)، لا يمكن له ان ينطبق على قوة وهيمنة وسطوة الشبكة القوية للمؤسسة الدينية (الفقهاء/المراجع) التي تمتلك شرعية وقداسة لا حد لها داخل المجتمع الشيعي، مما يجعلها تهيمن وتفرض اشتراطاتها التنظيمية بلا قيود أو ممارسات فردية منعزلة أو سلبية.

خطاب الوصاية وتجسيداته الاجتماعية (نماذج القهر)

أولاً: الوصاية من الاعلى: اعادة انتاج الدولة

شيعياً، كانت الدولة الوطنية مفهوماً (مدنساً) يخالف أوليات الرؤية الطهرانية الشيعية (بوصفهم اتباع اهل البيت وأركانها الثلاث الامامة - والسلطة الدينية والسياسية؛ والعصمة (أي انهم معصومون من الزلل) والغيبة (غيبة الامام الثاني عشر الذي ينتظرون عودته) فالدولة خارج نظام الامامية الذي يفترض كمالاً اخلاقياً ومعرفياً يتمحور حول (أهل البيت) فحسب، تمثل اغتصاباً وتعدياً على وظيفة الامام الغائب،...، إذ لا مكان للدولة البشرية في المنظومة العقائدية الشيعية، بسبب استبدالها بنظرية الامامة التي تقوم على نفي الدولة، فالغيبة في الرؤية الشيعية التقليدية، تعبير احتجاجي على الدولة القائمة يستبطن حجب مشروعيتها (عباس، 2019، ص214). ولكن هذا الامر شهد تحولاً كبيراً على ارض الواقع، إذ ان التكيف الاهم مع الوطنية العراقية والدخول على نحو جدي في تجربتها بإيجابياتها وسلبياتها وتحدياتها كلها، جرى بعيداً من افتراضات الصواب المطلق والانعزال عن (المدنس) و(الدنيوي) في المدونة الطهرانية الشيعية او المحاولات الخطابية في تكيف(المدنس) مع (الطهراني)، وجاء عبر ارادة شعبية واسعة في الاوساط الشيعية، تولدت في الواقع وعبره، وليس من خلال النصوص او الحسابات الطهرانية (عباس، 2019، ص224).

ان عملية التكيف مع الدولة جرت تحت يد المرجع السيستاني، إذ برزت المرجعية مجدداً بوصفها صاحبة الكلمة العليا في تحديد مسار الجماعة الشيعية في اطار الكيان الوطني العراقي، لكن هذا البروز حصل في سياق الصدام بين تيارين: الاول جسّدته، على نحو أساسي الحركية الراديكالية التي مثّلها التيار الصدري،...، اما التيار الثاني فكان يعكس موقفاً براغماتياً ونزعة لتأكيد سلطة الطائفة من حيث هي جماعاته هوياتية، بدلاً من تجسيد المقولات الايديولوجية، وهو موقف عبرت عنه قوى المنفى العائدة، مثل المجلس الاعلى الاسلامي ومعظم أجنحة حزب الدعوة (حسن، 2020، ص278). فمن الواضح ان هنالك تعارض كبير بين توجهات الاحزاب الوافدة إلى العراق بعد عام 2003 وبين الاحزاب المنبثقة والصاعدة والتي كان التيار الصدري على رأسها، فهي دخلت في تنافس على امرين مهمين: (1) وراثة الطائفة الشيعية دينياً

وتزعمها سياسياً، و(2) قيادة المرحلة الجديدة لأدارة شيعية للدولة المتشكلة حديثاً. سمح هذا التنافس ببروز مرجعية السيستاني بوصفه حكماً أعلى يتجاوز الخصومات السياسية، ويستند إلى ما يكفي من الشرعية، ليحدد سقوف الحراك السياسي داخل (الطائفة) والمبادئ الناظمة علاقتها بالدولة الوطنية (حسن، 2020، ص279).

ولكن ما كان لهذه المرجعية ان تظهر بثقلها لولا أسباب متعددة هائلة وهي: (1) عودة المكبوتات الدينية الشيعية التي تعرض أصحابها للتعذيب والقسوة السياسية أبان النظام السابق، و(2) ضعف المجتمع المدني الذي انهار كلياً خلال فترات متلاحقة امتدت من عام 1958 وصعود الايديولوجيات البديلة بمؤسساتها الهشة/ المصلحية، و(3) ضعف احزاب المعارضة وعدم وجود أرضية وطنية صلبة لها في ارض العراق، مما جعل جمهورها من العجائز والمنفيين او المنتفعين، و(4) لعل العنصر الابرز هو تلك الشرعية الدينية التي يُعتقد بها داخل الوسط الشيعي، مما يمنحها ولاءً لا حد له. فمن الواضح ان الاحزاب الدينية بعد عام 2003 لم تستطع ان تمارس تأثيراً كبيراً السلطة الحاكمة بعد غزو العراق (سلطة بول بريمر)، ولا على الشعب العراقي بكل طوائفه وأديانه وقومياته. فلهذا كانت المرجعية تمتلك رصيد ديني واجتماعي كبير أسهم في توجيه العمل السياسي إلى حدٍ كبير، وكما يقول ولي نصر: في العراق، طرح السيستاني نموذجاً بسيطاً للحُكم قميناً بأن يقبله الجميع انطلق من موقفه حيال مبدأ حُكم الغالبية وطالب بحكومة خاضعة للمساءلة وتمثيلية من شأنها ان تعكس الهوية الشيعية وتصونها. وكل شطر من هذه المعادلة دعم الشطر الآخر، فأن تكون الحكومة خاضعة للمسألة وتمثيلية معناه تمكين الشيعة من امتلاك السلطة، بينما عنت الهوية الشيعية تحصين تلك السلطة وترسيخها في الدولة والمجتمع (نصر، 2007، ص171). بطبيعة الحال كان هنالك دوراً إيجابياً كبيراً أدته المرجعية، ولعل الانظار تتجه عند الحديث عن مصطلح (المرجعية) إلى السيد السيستاني، على الرغم من المتعارف عليه في المجتمع الشيعي وجود مرجعيات كُثر، وهذا الأمر هو الحاصل فعلاً إذ يوجد ما يقارب الخمس مراجع مع السيد السيستاني وهذا الامر له مغزى جوهري في سياقات بحثنا هذا، فينبغي التوقف عنده ملياً.

يرى الباحث الاسلامي عز الدين البغدادي: "ان مصطلح المرجع الاعلى الذي يلتف حوله وعي المجتمع الشيعي البسيط ويعتبره مقدساً هو مصطلح معاصر لم يكن له وجود من قبل، وهذا ما أكده الشيخ محمد مهدي شمس الدين حيث يقول: هذا المصطلح (مرجع اعلى) لا أساس له اطلاقاً بالشرع. ولا أساس له قبل الشرع الاسلامي في الفكر الاسلامي، أصلاً لا يوجد في الفكر الاسلامي ولا الشرع خارج نطاق المعصومين خارج نطاق النبي (ص) ولا المعصومين الائمة (ع) لا يوجد مرجع أعلى على الاطلاق" (البغدادي، 2020، ص80). فنحن بأثر ذلك عندما نتحدث عن "مرجعية دينية" انما نتحدث عن مجموعة فقهاء مجتهدين كبار بالنجف، وبعضهم يوجد في كربلاء أمثال السيد صادق الشيرازي، وغيرهم الكثير من يقول بأنه فقيه ومجتهد وانه مرجع حتى يزداد العدد على العشر، ولكن الذي يهمنا هو امرين مهمين: (1) ان مرجعية السيد السيستاني اطلت للمشهد السياسي والاجتماعي بنحو اعلامي كبير وغدت واجهة كبرى، و(2) ان الوصاية الفقهية لا ترتبط بعنوان مرجع او فقيه محدد، بل ان المراد هو (الأبوانية الفقهية) للفقهاء بالمطلق، ولكن

لأن المشهد هيمنت عليه مرجعية واحدة، فكأنما المتلقي يستشعر او يفهم ان المراد فقيه بعينه وهذا الامر لا نقصده بنحو مجمل بطبيعة الحال.

والسؤال الذي يطرح هنا هو هل الخلل في نظام الوصاية وخطابه الذي يرتبط بالابوانية الفقهية ام الخلل بعدم وجود جهة مدنية (محايدة) تسهم في اعادة انتاج الدولة العراقية بعد عام 2003؟ ام ان الامر يرتبط بوعي الجماهير الذي لا يتحرك او يترك مفاعليه التأثيرية في المشهد السياسي الجديد الا بعد اشارت او خطابات الابوانية الفقهية أياً كانت؟ اعتقد ان الاجابة عن هذهِ التساؤلات يمكن من خلال التركيز على التمدد الدائم للأبوانية الفقهية داخل حقول متعددة تتجاوز الحقل الديني الذي هو مدار انبثاقها واشتغالاتها. يقول الباحث كونستاس ارمينجون هاشم: "يمارس السيستاني نفوذاً ملحوظاً في تشكيل المؤسسات السياسية بالعراق، بينما يلتزم العزلة عن الحقل السياسي، فإن النفوذ السياسي الذي يمارسه بالغ الدلالة على وظيفة (المرجع) الأخلاقية" (هاشم، 2015، ص312)، ويقول أيضاً: "منذ غزو العراق في 2003 من قبل التحالف الذي قادته الولايات المتحدة، قام آية الله السيستاني بدور مركزي في تحديد المؤسسات السياسية الناجم عن انهيار النظام العراقي" (هاشم، 2015، ص312).

ان النتائج المترتبة على تدخل السيد السيستاني في العملية السياسية لاسيما في مراحلها الاولى كانت تعبر عن حجم الفراغ الاجتماعي والثقافي او لنقل الخواء المدني الهائل لدى الاحزاب العراقية الدينية والعلمانية التي لم يستمع لها الجمهور او الغزاة الامريكيين، ولكنها في الوقت نفسه منحت مساحة واسعة لسلطة الاغلبية الشيعية وفي هذا الصدد يقول المؤرخ الامريكي خوان كول "Juan Cole": كان رجال الدين الشيعة مقتنعين بأن (السيادة الشعبية) متوافقة مع الشريعة الاسلامية في تلك المرحلة من التاريخ العراقي، لأنهم متأكدين من ان الجماهير الشيعية في الجنوب، التي تشكل نحو 60 بالمائة من السكان سوف تصوّت لصالح الاحزاب الاسلامية، الامر الذي سيضمن انتصار الشريعة. ولهذا فإن رؤيتهم للديمقراطية تنطوي على مفهوم ممزوج للسيادة، إذ تقوم السلطة الدينية بتوفير الواقي بالضد من عدم المسؤولية المحتملة لدى الجماهير المقترعة، وعلى الرغم من تبني لغة (التعددية) والتعبير بثقة بأن حقوق الاقليات سوف تحظى بالحماية، فقد بدأ رجال الدين على نحو ملحوظ عبر هيابين من عواقب طغيان الاغلبية الشيعية (كولن، 2019، ص68-69). فهل الذي جرى في العراق بعد عام 2003 إلى يومنا هذا هو (ديمقراطية) ام (دينو - قراطية) كما يقول المفكر العراقي الراحل متعب مناف، ام هي ديمقراطية وصائية/ فقهية؟. إذ يقول في أحد الحوارات المهمة ان السيد السيستاني كان لا يقول بولاية الفقيه، وذلك جراء الخشية من تباعتها، ولكنه بنظره غدا (فقيه الولاية) الذي هو عنده: بمثابة صانع الملوك او صانع رؤساء الجمهوريات، يصنعهم ولا يصنعونه ولا يدخل بلعبتهم، يملكهم ولا يملكونه، يشرعنّهم ولا يشرعنونه (مناف، ص14-15).

ونرجع للجمهور الذي يريدون الدولة الحديثة العادلة (الديمقراطية) (التي هي بنظر جميع الفلاسفة السياسيين وغيرهم من الضروري ان تستبطن العلمانية)، ولكنهم في الوقت عينه يريدون طائفتهم ومراجعه (الابوانية الفقهية)، والسؤال هنا هل يمكن الجمع بين النقيضين لاسيما من جهة الممارسة السياسية بطبيعة الحال؟ ان ما نريد ان نقوله هنا هو ان الدولة الحديثة/ المعاصرة هي وليدة مشروع الحداثة، وفي

مشروع الحداثة لا ينظر الفقهاء او يقودون الامم او المجتمعات لتناقض الرؤيتين وتعارضهما بطبيعة الحال، فوصاية المقدس (النصوص) لا تستقيم بضرورة وصاية (الشريعة الإنسانية).

إن جل ما نريد ان نقوله هنا هو ان مشروع الحداثة الذي كان من الضروري ان يترافق مع الدولة الحديثة، وبذلك تنتصر برجوازية المدن على من يقوم بترييفها قد فشل تماماً، ارتد القهقري، ليتقدم النصوصيون المتحالفون مع العشائريين، في ظل وحدة الموضوع الجامع (عقائد الطائفة وطقوسها)، فضلاً عن تسليم الميدان او القيادة المعنوية والمادية للجيل الصاعد من التنظيمات الايديولوجية الشيعية (وهذا عين ما قاله كول قبل قليل)، وبذلك يكون الفقهاء بنحو أو بآخر اختزلوا العقيدة الايديولوجية، والنص بالطقس، والمدينة بالترييف الديني (الشعبي)(نصر، 2020، ص230). ولهذا وجدان الاستاذ متعب مناف يقول: السيستاني يشبه الخوئي، لكنه لا يشبه البقية لا الصدريين ولا الخميني.... والمرجعية على نمط السيستاني هي المرجعية القادرة على الاستمرار وهي المناسبة للحفاظ على الطائفة، بل هي تعني بالمحافظة على الطائفة اكثر من عنايتها بالمحافظة على الدولة....، والمرجعية تقف في المنطقة الوسطى وعلى مسافة واحدة بين الشيعتين (شيعة الدولة وشيعة العراق). وهنا يكمن ذكاؤها لأنها اذا اقتربت من شيعة الدولة احترقت واذا اقتربت من شيعة المجتمع افلست وضاعت (مناف، ص19-20).

ثانياً: الوصاية من الاسفل: اعادة انتاج المجتمع

تأسيساً على ما تقدم، يتبين لنا ان قوة المؤسسة الدينية الشيعية انما مستمدة من ثلاث امور جوهرية وهي: (1) النيابة عن ائمة اهل البيت (الاثنى عشر) في قيادة المجتمع الشيعي، و(2) انتاج المعرفة الدينية/ المتعددة، تقع على رأسها انتاج الفتيا وادارة شؤون الفقه الاسلامي، و(3) ادارة وتنظيم الشؤون المالية، او ما يعرف بـ(المال المقدس) الذي يقدم كضرائب دينية لأجل التواصل مع المقدس.

ولقد تحدث الكاتب عادل رؤوف المعروف برؤيته النقدية عن الحقوق المتكثرة او السلطات المتعددة للفقيه/ المرجع ضمن سياقات المجتمع الشيعي، والتي نوجزها على النحو الآتي: (1) بالإضافة إلى "الحق المعرفي"... فإن الامر انتهى بحق الواسطة بين عالم المقلدين (الجهلة) وبين الله سبحانه وتعالى، (2) وبالإضافة إلى الحقين المتقدمين (الحق المعرفي) و(حق الواسطة) فإن هنالك حقاً ثالثاً لـ(المجتهد) فقط، وهو (حق الاعفاء من العقوبة الالهية) وفق الحديث المشهور بأن (المجتهد اذا اصاب فله حسنتان، وأن اخطأ فلهُ حسنه)، و(3) وكتحصيل حاصل وكحق رابع، سوف تكون لهُ القيادة بغض النظر عن كونها (دينية او سياسية)، و(4) اما الحق الخامس من حقوق القيادة (المجتهد، المرجع، المرجع الاعلى) فيتمثل بالمال بعدما ربط المال بالتقليد قسراً، فـ(المجتهد) الذي يُقلد سيكون دائماً وأبداً المستلم لـ(الحقوق الشرعية والاخماس) (رؤوف، ص329-331)

السؤال المحوري الذي يطرح في ظل هذه السياقات: هل أسهمت المؤسسة الدينية عبر المعرفة الدينية والمال المقدس (الخمس) في اعادة انتاج المجتمع الشيعي بوجه خاص والمجتمع العراقي عموماً؟ لعل منطلق الاجابة عن هذا التساؤل يكمن في الحديث عن مسائل متعددة جوهرية: (1) البنية الطبقية والسلطوية للمؤسسة الدينية ودورها في انتاج المعرفة الدينية والتبادلية الاقتصادية لـ(المال المقدس والخمس)، و(2) سياقات وحدود السلطة الدينية للفقهاء وادارتها المالية ازاء أو قبالة سلطة الدولة،

بوصفها سلطة موازية لسلطة القانون الرسمي وعملياته المالية، و(3) ممارسة الرعاية "Patronage" والزبائنية "Clientelism" بين الفقيه او المؤسسة الدينية وبقية افراد المجتمع الشيعي عبر عمليات تواصل وتقنين ادوار ومكانات اجتماعية عبر صيغ عمودية للتواصل، يحركها المال المقدس ويضبط ايقاعاتها التفاعلية.

من الواضح ان هناك تراتبية اجتماعية نجمت عن وجود المؤسسة الدينية وهي على النحو الآتي: (1) الفقيه/ او المرجع الاعلى زعيم المؤسسة الدينية، مع الانتباه لوجود عدد كبير من المراجع يزيد على خمسة ولكل واحد مؤسسته وحوزته وتلاميذه ومقلديه، و(2) طلاب بحث الخارج (وهي الحلقة المعرفية الاخيرة في الدرس الحوزوي) وهم يمثلون في الوقت نفسه المرشحين المستقبلين لأن يكونوا مراجع، و(3) الخطباء او الملالي الذين يمثلون الجناح المعرفي الشعبي والذي يمثلون فئة اجتماعية اكثر التصاقاً بالفئات الشيعية الفقيرة والمعدمة، و(4) المقلدون: وهم يمثلون عامة الشيعة، والذين يتبعون فتيا وتعليمات الفقيه الذي يقلدون بالحرف الواحد، ويؤدون ضريبة الخمس.

لقد استعملت الزبائنية على نحو عام لوصف العلاقات غير الرسمية التي يجري فيها تبادل الخدمات بين افراد ينتمون إلى مراتب غير متساوية. ولهذا الامر مغزى وأهمية عالية اذ يسهم في انجاز روابط محددة عبر جمع قوى متباينة داخل المجتمع، وهي تمثل نموذج للتبعية العمودية/ التشاركية. وهي بوجه عام تتصارع في الاصل على موارد الحكومة والمجتمع عبر علاقات عمودية، تتداخل فيها المواقع الاجتماعية مع المواقع السياسية، وتسهم في انتاج بناء طبقي جديد (Chalmers, 2003, p.33-34). فالبعد الديني (المؤسسة الدينية) والبعد السياسي (الحكومة والاحزاب السياسية) كلاهما يحاولان السيطرة على دورة المال وتبادليته داخل المجتمع بين وصاية ورعاية (فقهية) مباشرة، وبين تبعية أو زبائنية افراد يسعون لأن يستمرون في مواقعهم ويحصلون بأستمرار على مكاسب مادية. اننا نتحدث هنا عن الزبائنية بوصفها نموذج تبادلي تخادمي تجري تحت ظلاله الكثير من عمليات التبادل للمال المقدس على نطاق واسع تبدأ بـ(التقليد) أي تأدية دور التابعية للفقيه ثم تنتقل إلى المرحلة الوسطى (دفع الضريبة المالية/ الخمس)، حتى تصل ذروتها إلى افق مصلحي اوسع تتداخل فيه السياسة والدين.

وتطل علينا هنا، اطروحات "بورديو" حول انعدام وجود ممارسات اجتماعية او افعال اجتماعية لا تحكمها المصلحة، بوصفها المنطق الاقتصادي/العقلاني الذي يحكم سائر الظواهر الاجتماعية، والواقع انه كان مدركاً إلى حد ما لمخاطر الاختزال الاقتصادي، كما عبر في فترة ما عن عدم ارتياحه لأستخدامه لمفهوم المصلحة، ولئن فوّت على نفسه فرصة مراجعة موجهة لنسقه المفاهيمي عندما عزا للمشكلات المتولدة عنه إلى التأويلات الخاطئة، الا انه حاول مع ذلك فتح منافذ اعتقد انها تسمح له بالتحرر من سياج الحتمية الاقتصادية الصارمة (الهرماسي، 2012 ص58). وهو يشير إلى ان المعرفة الدينية وانتاجها من قبل رجال الدين تكون هي محكومة كذلك لمنطق المصلحة الاقتصادية التي تتمظهر تحت غطاءات روحانية/ معنوية (صرفة)، ولهذا وجدناهُ يقول: "توجد مصلحة دينية صرف يمكن تعريفها كـ(مصلحة) تجدها مجموعة او طبقة من صنف محدد من الممارسات او المعتقدات الدينية، وتجدها بخاصة في انتاج صنف معين من متعلقات الخلاص، منها الرسالة الدينية ذاتها، واعادة انتاجها وتوزيعها واستهلاكها، تنشد تلك

الفئة الاجتماعية شرعنة الممتلكات الرمزية والمادية في البنية الاجتماعية" (ديانتايل ولوري، 2018، ص226). ويرفض الانثروبولوجيون بطبيعة الحال التفسيرات الاقتصادية لعالم التبادل (الهبات) التي يرون ان البحث عن المعنى والالتزام الاخلاقي المجرد، فضلاً عن البُعد الروحي للتواصل مع المقدس والدخول في مجاله القدسي (كما يقول موس) يعد امراً باعثاً للهبات بشتى انواعها وكما يشير إلى ذلك بعضهم: "وطالما رفض انثروبولوجيون كثر التقليد النفعي الذي لا يستطيع ان يدرك كيفية تشكل (التفضيلات) التي تُشكل السلوك الاقتصادي في المجتمع، وكيف انها خاضعة بالضرورة للتنظيم المعياري المصمم لتلطيف الانانية العقلانية" (هان وهيث، ص225). وبالنسبة للحالة العراقية فلقد مرت تلك المصلحية او لنقل الزبائنية التابعية (المتداخلة) بأطوار متعددة، تفاوتت من عصر سياسي إلى آخر، يمكن ذكره عبر ايجاز مكثف بالمراحل الثلاثة الآتية:

المرحلة الاولى: تشابهت بها الحالة العراقية كمؤسسة دينية وتبادلية اقتصادية (المال المقدس) مع سائر البلدان العربية التي أنفصلت عن حاضنتها الاقتصادية والاجتماعية الكبرى (الاقطاع) متحولةً إلى النظام الرأسمالي الذي أستتبع ذهنية اقتصادية/اجتماعية/ دينية خاصة، وكانت المؤسسة الدينية تعاني الامرين في كل ذلك، وذلك لأنها بنظر فالح عبد الجبار: "كمؤسسة انتاج فكري، تخضع للطبقة المهيمنة على الانتاج المادي، من جهة، وتتميز بمصالح مادية مغايرة لمصالح الجماهير الشعبية وتنخرط المؤسسة الدينية في علاقات الملكية القائمة بالضرورة، ونجدها (هنا او هناك) او مالكاً اقطاعياً (أراضي الاوقاف والحبوس) او طرفاً منخرطاً في العلاقات الرأسمالية" (عبد الجبار، 1990، ص69). ان اجتهادات محمد باقر الصدر (كمرجع وفقيه اسلامي معروف) في مؤلفاته المعروفة: (اقتصادنا) (فلسفتنا) (البنك اللاربوي في الاسلام)..الخ، شكلت السلاح الفكري - الايديولوجي لجناح من المؤسسة الدينية في العراق، اواخر الخمسينات وبداية الستينات، وكان موجهاً للدرجة الاساسية ضد الثورة الوطنية الديمقراطية (تموز 1958) من مواقع ملاك الارض شبه الاقطاعيين والتجار التقليديين (عبد الجبار، 1990، ص29). و**المرحلة الثانية**: وهي مرحلة امتدت من اواسط السبعينيات من القرن العشرين إلى عام 2003، والتي تمثلت بقبضة حديدية ضد المؤسسة الدينية جراء النزعة العلمانية لحزب البعث الحاكم آنذاك، ومن ثم كانت الموارد المالية التي تصل المؤسسة الدينية تكاد تكون ضعيفة إلى حدٍ ما. و**المرحلة الثالثة**: وهي مرحلة ما بعد 2003 والذي وصل فيه الشيعة إلى سدة الحكم، وجاء عصر التبادلية الدينية للإموال الشرعية المتعددة، وعلى رأسها الخمس، كما وشهد هذا العصر ذروة الزبائنية والمصلحية التي تحدثنا عنها آنفاً.

ويشير احد الكتاب إلى ذلك قائلاً: "وفي ظل هشاشة الحكومة العراقية وتنامي قوى المرجعية العليا في ادوار مختلفة، تصاعد دور العتبات الاستثماري وبالخصوص في كربلاء والنجف، ليشكل هذا التصاعد دوراً تنافسياً حاداً للقطاع الخاص في الاستثمار وفي مجالات مختلفة، وبهذا الدور التنافسي ابتعدت كثيراً عن الدور المساند الذي كان يُفترض ان تتباه لاكتساب مزاياه العديدة" (الجبوري، 2020). ولقد أُضيف إلى القوة المالية للمؤسسة الدينية اموال العبتين الحسينية والعباسية في كربلاء اللتين تمثلان مورداً مالياً ضخماً عبر الاموال المقدسة التي تمنح بطرق عدة من المجتمع الشيعي العراقي او من سائر البلدان التي بها اقليات شيعية او اكثرية كحالة (جمهورية ايران). وتتمتع العتبات الشيعية بثقلٍ رمزي ومادي كبير يمكن ان

يساهم في تعزيز المكانة السياسية والاجتماعية لمن يتولون مسؤوليتها، كما ان خطب الجمعة التي يلقيها ممثل السيستاني في كربلاء تحولت إلى مناسبات لنقل تعاليمه إلى الجمهور وبسط سلطته أبعد من الحوزات الدينية في النجف، تبعاً لذلك، وعبر إقصاء مختلف رجال الدين الاخرين من المنبر الديني الاهم، جرى تقنين سلطة المرجع الاعلى رسمياً. لهذه الاسباب، من الممكن ان تمارس شبكات المكانة والمصلح التي أنشئت من خلال الترتيبات المؤسسية الجديدة للاوقاف الشيعية، نفوذاً قوياً في اختيار المرجع الاعلى العتيد مستقبلاً وفي درء المحاولات الهادفة إلى احداث تغير جذري في الترتيبات القائمة لأدارة الاوقاف الاسلامية، تلك الادارات التي تقدم مثالاً عن التدخل بين الرسمي (ديوان الوقف الشيعي التابع للدولة، وهو المسؤول الاداري عن هذه العتبات) وغير الرسمي (المرجع الاعلى)، هي التجسيد الامثل للآليات الفريدة التي اصبحت السلطة الدينية الشيعية من خلالها لاعباً أساسياً في اعادة تشكيل المنظومة السياسية (حسن، 2020).

ان الأبوانية الفقهية في ظل جدلية العلاقة بين المؤسسة الدينية والمعرفة الدينية والمال المقدس (الخمس)، ينكشف في سياقات التبادل، بل وفي الاصل في بواعثه التي اصبحت مرتهنة إلى المصلحة والى نسق الزبائنية العمودي الذي يسهم في تقديم خدمات جمة للفاعلين الاجتماعيين - الدينيين الذين يبحثون عن تثبيت مراكزهم الاجتماعية وحتى السياسية، او البحث عن مراكز اعلى يديرون بها شؤون المجتمع عموماً.

المراجع

احجيج، حسن (2018) *نظرية العالم الاجتماعي: قواعد الممارسة السوسيولوجية عند بيير بورديو*. المغرب، مؤمنون بلا حدود للدراسات والابحاث.

برجر، بيتر (2003) *القرص المقدس: عناصر نظرية سوسيولوجية في الدين*. ت: مجموعة من الباحثين، مركز النشر الجامعي، تونس.

البغدادي، عز الدين (-) صعود المرجع الاعلى. *مجلة مدارك* ع(15-16)، تصدر عن مؤسسة مدارك، بغداد.

بلقزيز، عبد الاله (2017) *مقدمات في اصلاح المجال الديني*. ورقة عمل في الندوة الفكرية الموسومة: في اصلاح المجال الديني، التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية والمعهد السويدي بالاسكندرية، بيروت.

توملسون، مايكل وآخرون (1997) *نظرية الثقافة*. ت: د. علي سيد الصاوي، مراجعة وتقديم: د. الفاروق زكي يونس، الكويت، سلسلة عالم المعرفة.

الجبوري، حامد عبد الحسين الجبوري (2018) *دور العتبات الدينية في الاقتصاد العراقي مساند ام منافس؟ الواقع والمفترض*. مركز الفرات للتنمية والدراسات الستراتيجية، شوهد في 2020/2/8 على الرابط الالكتروني: www.fcdrs.com .

حسن، حارث (2020) *السلطة الدينية وسياسة الاوقاف الاسلامية في العراق*. مركز كارنيغي للشرق الاوسط، شوهد في 2020/2/8 على الرابط الالكتروني: www.carnegie-mec.org .

حمودي، عبد الله (2010) *الشيخ والمريد: النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة*. ت: عبد الحميد جحفة، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر.

ديانتايل، أردوان ولوري، مايكل (2018) *سوسيولوجيا الدين*. ت: يوسف الصديق، المنامة، هيئة البحرين للثقافة والاثار.

رؤوف، عادل (2007) *صناعة العقول بين التقليد الفقهي وثقافة التقليد*. المركز العراقي للإعلام والدراسات، بغداد، بيروت.

ريكور، بول (2005) *الذات عينها كآخر*. ت: جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت.

سبحاني، جعفر(1420) *الخمس في الشريعة الاسلامية الغراء*. قم، مطبعة اعتماد.

سكوت، جون (2009أ) *خمسون عالماً اجتماعياً أساسياً: المنظرون المعاصرون*. ت: محمود محمد حلمي، مراجعة: جبور سمعان، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

سكوت، جون (2009ب) *علم الاجتماع: المفاهيم الاساسية*. ت: مجيد عثمان، الشبكة العربية للأبحاث والدراسات، بيروت.

سلمان، حيدر نزار (2010) *المرجعية الدينية في النجف ومواقفها السياسية*. بيروت، دار احياء التراث العربي.

شرابي، هشام (1988) *النظام الابوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي*. ت: محمد شريح، دار نلسن، لندن.

عبد الجبار، فالح (1990) *بنية الوعي الديني والتطور الرأسمالي: دراسات أولية*. دمشق، نيقوسيا، مركز الابحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي.

عبد الجبار، فالح (2010) *العمامة والافندي: سوسيولوجيا خطاب وحركات الاحتجاج الديني*، ت: امجد حسين، بيروت - بغداد، منشورات الجمل.

فوكو، ميشيل (2008) *جينالوجيا المعرفة*. ت: احمد السلطاني وعبد السلام بنعبد العالي، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر.

كولن، خوان (2019) *آيات الله والديمقراطية في العراق*. ت وتعليق: د. نهار محمد نوري، دار الرافدين، بيروت.

مناف، متعب (-) فقيه الولاية. *مجلة مدارك* ع(15-16)، مؤسسة مدارك، بغداد.

نصر، جعفر نجم (2020) *الوالي والولي: التشييع السياسي ومجتمع اللادولة*. مؤسسة الانتشار العربي، بيروت.

نصر، ولي (2007) *صحوة الشيعة: الصراعات داخل الاسلام وكيف سترسم مستقبل الشرق الاوسط*. ت: سامي الكعكي، دار الكتاب العربي، بيروت.

نيتشه، فريدريتش (2010) *في جينالوجيا الاخلاق*. ت: فتحي المسكيني، تونس، دار سناترا، المركز الوطني للترجمة.

هاشم، كونستاس ارمينجون (2015) *المذهب الشيعي والدولة: رجال الدين واختبار الحداثة*. ت: محمد احمد صبح، دمشق، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع.

الهرماسي، عبد اللطيف (2012) *في الموروث الديني الاسلامي: قراءة سوسيولوجية تاريخية*. بيروت، دار التنوير.

وجيه قانصو، *الشيعة الإمامية بين النص والتاريخ: دراسة في مراحل التكوين الاولى*، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2016.

Calhoun, C. (2009) *Contemporary sociological theory*. London, Blackwell publishing.

Chalmers, D. A. (2003) *The New Politics of Inequality In Latin America: Rethinking Participation*. New York, Published by Oxford University Press.

Douglas, M. (2004) *Natural Symbols: Explorations in cosmology*. New York, Published in the Taylor & Francis e-library.

العنف في العراق وتأثير اته في الصحة النفسية

دراسة استكشافيَّة[1]

فارس كمال نظمي[2]

مقدمة مفاهيمية

تشير الأدبيات النفسية المتراكمة، إلى وجود علاقة قوية بين التعرض للعنف Violence وبين ظهور أعراضٍ لاعتلالات نفسية وسلوكيات عدوانية. فسواء كان الفرد ضحية للعنف أو شاهداً عليه، فإن ذلك يرتبط لديه بعدد من المخرجات الانفعالية والسلوكية ذات الطابع الإشكالي، كالقلق والغضب والاكتئاب وتفكك الشخصية والعدوان والجنوح (Flannery et. al., 2007). وتعد خبرة معايشة العنف معضلة عامة ذات عواقب نفسية واجتماعية مدمرة، لدى الأفراد أو لدى مجتمع بأكمله، إذ يغطي العنف مدى واسعاً من حالات التهديد والتخويف، وأعمال الشغب، وحروب العصابات، والهجمات الإرهابية، والتعذيب، وسماع الانفجارات، ومعايشة الصراعات المسلحة. وإلى جانب الموت والإصابات البدنية، فإن معايشة العنف كضحية أو مراقبته كشاهد، يرتبط بعواقب انفعالية وسلوكية واجتماعية سلبية في المدى البعيد (Al-Nuaimi et. al., 2015).

وقد تعرض العراق بشكل ثابت إلى أحداث صدمية جسيمة، بدءً من الحروب المستمرة منذ 1980م، وما أعقبها من عقوبات اقتصادية دولية في تسعينات القرن الماضي، ثم مرحلة العنف الأهلي والإرهاب بعد 2003م. وقد مارست هذه الأحداث تأثيراً سلبياً على الحالة النفسية لعموم المجتمع العراقي، بضمنهم الأطفال والمراهقين. فالعراقيون شهدوا عدداً لا يحصى من السيارات الملغّمة، والعنف الجمعي، والعمليات العسكرية، إلى جانب مواجهتهم لخطر الأوبئة، والمجاعة، والموت، والصدمات النفسية، والخوف، والقلق، والاكتئاب، والكوابيس (Al-Nuaimi et. al., 2015). وباحتلال تنظيم الدولة الإسلامية (داعش)[3] لمدينة

---

[1] هذه الدراسة تم تقديمها إلى مؤتمر «**فرنسا والشرق الأوسط (العراق، سوريا، لبنان): من العنف إلى الأمل**»، الذي انعقد في جامعة الكوليج دي فرانس- باريس في 22 آذار/ مارس 2019.

[2] البروفيسور الدكتور **فارس كمال نظمي**، دكتوراه علم النفس الاجتماعي السياسي. بروفيسور يحاضر في عدد من الجامعات العراقية. باحث وكاتب مختص بموضوعات الاحتجاج والحرمان والعدالة الاجتماعية والهوية الوطنية وسيكولوجيا الدين السياسي. رئيس الجمعية العراقية لعلم النفس السياسي. fariskonadhmi@hotmail.com.

[3] أصبح العراق منذ 2003م أرضاً لأنماط متشعبة من التنظيمات السلفية الجهادية التي مارست أقصى أنماط العنف الموجه إلى الدولة والمجتمع معاً. فبعد مقتل "**أبو مصعب الزرقاوي**" زعيم تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين نهاية سنة 2006م، قام "**أبو عمر البغدادي**" بتأسيس ما سمي بدولة العراق الإسلامية، ثم قُتل في عملية للقوات الأمريكية في منطقة الثرثار في 19 نيسان/ إبريل 2010م. وفي 9 نيسان/ إبريل 2013م أعلن "**أبو بكر البغدادي**"

الموصل في 9 حزيران/ يونيو 2014م، وما أعقبه من تداعيات أمنية وسياسية واجتماعية ونفسية فريدة من نوعها في التاريخ المعاصر للعراق والشرق الأوسط، تكون الذاكرة التاريخية لهذه المجتمعات قد ابتدأت عصراً جديداً مكتظاً بشواهد غير مألوفة من العنف والقسوة والتنكيل الاستباحي بكل القواعد والأعراف والتعاقدات الإنسانية المتفق عليها عبر الزمان والمكان.

ودون الخوض في الأسباب السياسية والثقافية والدينية الموضوعية التي مهدت لظهور هذا التنظيم وتمكينه وانتشاره، فإن سيطرته المفاجئة على مسرح الأحداث شكلت صدمة نفسية حادة طالت عموم العراقيين الواقعين تحت حكمه أو خارجه، إذ بات هذا الخطر ماثلاً بعمق في أغوار العقول والمشاعر بوصفه حدثاً هادماً لكل المسلّمات النفسية المتعارف عليها في الحياة البشرية. ومن هنا يمكن القول أن المنظومة النفسية المجتمعية برمتها أمست في حالة تشوش وارتباك وتصدع بهذه الدرجة أو تلك حسب المتغيرات الديموغرافية والمناطقية، وحسب مقاومة الأفراد وستراتيجياتهم في التعامل مع الضغوط المستجدة العنيفة.

إن التأثيرات النفسية للعنف يمكن أن تمتد إلى الأجيال القادمة من العراقيين. ويترافق ذلك مع مشكلة أساسية هي الافتقار إلى دراسات محلية واسعة وإحصائيات توثق التأثيرات المباشرة وغير المباشرة الناتجة عن معايشة الحروب والعمليات العسكرية والعنف ضد المدنيين، فضلاً عن الافتقار لبرامج علمية لتنمية المجتمع، ولخطط ستراتيجية علاجية على المستويات الرسمية أو المحلية أو الدولية. ولذلك تبرز حاجة ملحة إلى القيام بأبحاث محلية واسعة لاستكشاف التأثيرات بعيدة المدى للعنف على المجتمع العراقي. كما تبرز الحاجة إلى تطبيق برامج لبناء طاقة التحمل لدى الجماعات الأكثر تعرضاً للعنف كالأطفال والشباب والنساء من خلال التعاون مع المنظمات المحلية والدولية المعنية بهذا الشأن، وتأسيس مراكز للدعم النفسي والاجتماعي خصوصاً في المحافظات التي تعرضت إلى درجة كبيرة من العنف والعمليات العسكرية (Al-Shawi, 2016). ولأن العنف هو واحد من أكثر الظواهر السلوكية شمولاً وامتداداً وتنوعاً في العراق، بسبب ارتباطه النشوئي بالاستبداد والحروب والحرمان الاقتصادي والطائفية والإرهاب والتفكك الدولتي، على مدى عقود، لذلك يتعذر إيجاد تعريف واحد وموحد له بسبب تعدد أنماطه ومضامينه وحقوله. فعلى المستوى المفاهيمي، نجد العنف البدني واللفظي والمعنوي والرمزي والوسيلي والعدائي. أما على مستوى الممارسة الحقلية فنجد العنف السياسي والديني والعسكري والاقتصادي والثقافي والجنائي والاجتماعي والأسري والمدرسي والجنسي.

تأسيس "الدولة الإسلامية في العراق والشام" (داعش) بعد أن دمج جبهة النصرة (فرع القاعدة في سوريا) بدولة العراق الإسلامية في مسمى واحد جديد. وبعدها بأسابيع أصبحت مدينة الرقة السورية تحت سيطرة داعش بالكامل. وفي 9 حزيران/ يونيو 2014م تمكن داعش من احتلال مدينة الموصل ثالث أكبر المدن العراقية، وبعدها بأيام احتل مساحات واسعة من محافظة نينوى وصلاح الدين والأنبار وديالى. ثم أعلن من الموصل في 29 حزيران/ يونيو 2014م قيام الخلافة بتسمية "الدولة الإسلامية". وقد تمكنت القوات الأمنية العراقية من استعادة الموصل في 10 تموز/ يوليو 2017م، كما جرى تحرير بقية المحافظات العراقية بحلول سنة 2018م. وسنستخدم التعبير المختصر "داعش" في الورقة الحالية لكونه الأكثر شيوعاً بالرغم من عدم مطابقته للأصل (الباحث).

وبسبب هذه السعة والتعددية في مضامينه، فإن الدراسة الحالية تتحاشى أياً منها، وتتبنى بدل ذلك مفهوم العنف Violence في إطاره العام حسب تعريف منظمة الصحة العالمية: «**الاستخدام القصدي للقوة المادية** physical force، **بطريقة تهديدية أو فعلية، ضد الذات أو ضد شخص آخر أو ضد جماعة أو مجتمع، بما يسبب – أو يزيد من احتمالية تسبيب- الجرح أو الموت أو الأذى النفسي أو تعطيل النمو أو الحرمان**» (World Health Organization, 2002). كما إن هذه الدراسة لا تختص ببحث فلسفة العنف أو سيكولوجيته النشوئية سببياً أو تفسيرياً، لا في الإطار البشري العام ولا في الإطار العراقي الخاص، بل تتجه إلى تقصي عواقبه ونتائجه حصراً بافتراض أن له تأثيرات نفسية سلبية، فردياً ومجتمعياً، استناداً إلى تراث واسع من الدراسات النفسية الامبريقية المتواترة بهذا الشأن، والتي تؤكد على وجود علاقة مستديمة بين تعرض المجتمعات الكبيرة منها والصغيرة للعنف بأنواعه، وبين نشوء أزمات الصحة النفسية فيها. ويقف اضطراب **الاكتئاب الأساسي**، ومجموعة **اضطرابات القلق**، **واضطراب الضغوط ما بعد الصدمة**[1]، في مقدمة الاعتلالات النفسية الأكثر حدوثاً في الأسرة والمجتمع بعد التعرض للعنف الناتج عن الحروب والصراعات السياسية والإبادة الجماعية. ويحدث ذلك لدى الأشخاص في أعمار مبكرة ومتأخرة على حد سواء (Ahmad et. al., 2018) (Lindert & Levav, 2015) (Flannery, 2006) (Overstreet & Braun, 2000) (Ribeiro, 2009) (Fowler et. al., 2009).

وهكذا فإن الورقة الحالية تتبنى الفرضية القائلة: «***إن تعرض أي مجتمع للعنف بأنماطه المفاهيمية المتعددة وممارساته الحقلية المتنوعة، لمدة طويلة، يجعل أفراده وجماعاته مهيئين للإصابة - أو مصابين فعلياً- باضطرابات نفسية واجتماعية جدية تؤثر سلباً في الصحة النفسية الفردية***

---

[1] ضمن النسخة الخامسة من الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات النفسية DSM- 5 الصادر عن جمعية الطب النفسي الأمريكية، توصف أعراض **"اضطراب الاكتئاب الأساسي"**Major Depressive Disorder بمزاج اكتئابي معظم اليوم، وبتناقص شديد في مشاعر الاهتمام والمتعة، وهبوط واضح في الوزن، وإنهاك وفقدان في الطاقة كل يوم تقريباً، مع مشاعر بالذنب وانعدام القيمة، وتراجع في التركيز والقدرة على التفكير، مع تكرار التفكير بالموت والانتحار. أما "**اضطرابات القلق**" Anxiety Disorders فتصنف إلى مجموعة اضطرابات فرعية، منها: اضطراب القلق التعميمي Generalized Anxiety Disorder، واضطراب القلق الاجتماعي Social Anxiety Disorder، واضطراب الهلع Panic Disorder، ورهاب المجال Agora Phobia، واضطراب قلق الانفصال Separation Anxiety Disorder. ويقع "**اضطراب الضغوط ما بعد الصدمة**" Posttraumatic Stress Disorder (PTSD) ضمن مجموعة "**الاضطرابات المتصلة بالضغوط والصدمات**" Trauma And Stressor Related Disorders، ويقصد به الاضطراب الناشيء عن معايشة الفرد المباشرة والمتكررة لحادث صادم أو مشاهدة الآخرين يتعرضون له، ما ينتج عنه بعد مدة استرجاع متكرر وقهري للحادث الصادم في الذاكرة أو الأحلام الأمر الذي يجعل الفرد يشعر أو يتصرف كما لو أن الحادث الصادم يتكرر فعلاً، يرافقه رغبة بتجنب التفكير بذلك الحادث أو تجنب الناس الذي يمكن أن يكونوا سبباً للتذكير به، مع تغيرات سلبية في الجوانب الإدراكية والمزاجية المتعلقة بذلك الحادث، إلى جانب الغضب والاستثارة ونقص التركيز وسلوكيات عدوانية تجاه الآخرين والذات، وكل ذلك يؤدي إلى حالة من التعاسة والعجز في الجانب الاجتماعي والمهني من حياة الفرد (American Psychiatric Association, 2013).

والمجتمعية، وما يستتبع ذلك من تراجع في الوظيفة الحضارية لذلك المجتمع، وإخفاقه في تطوير معنى متقدم للحياة». وطبقاً لهذا الفرضية، تسعى هذه الورقة إلى استكشاف تأثيرات العنف في الصحة النفسية للمجتمع العراقي خلال الحقبة التي أعقبت سنة 2003م[1]، لدى فئات اجتماعية متنوعة، مع تركيز إضافي على حقبة داعش. وبالتأكيد أن هذه العواقب النفسية ليست بمنقطعة موضوعياً عن مجمل المراحل العنفية السابقة المأزومة التي عاشها العراقيون على عقود طويلة، ابتداءً بالحرب العراقية الإيرانية (1980-1988)م، مروراً بسنوات الحصار الاقتصادي في تسعينات القرن الماضي، وصولاً إلى حقبة نظام الإثنيات السياسية وما رافقها من تطرف وعنف أهلي بعد 2003م، إذ يقدر العدد الكلي للقتلى العراقيين المدنيين من جراء العنف الطائفي والعمليات العسكرية، منذ 2003م وحتى 31 آذار/ مارس 2018م، بـ 203,136 شخصاً (Statista, 2018).

أما عدد النازحين قسراً بتأثير العنف الديني والسياسي، حسب تقدير"المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين" UNHCR في عموم العراق حتى شباط/ فبراير 2017م، فقد بلغ 3,022,164 نازحاً، بينهم (1,226,305) نازحين تم إيوائهم في أماكن مؤقتة كالمخيمات وغيرها (United Nations High Commissioner for Refugees, 2017). كما قدرت "المنظمة الدولية للهجرة" IOM عدد النازحين داخل العراق منذ بداية 2014م وحتى نهاية أيلول/ سبتمبر 2015م بحوالي (3,206,736) نازحاً (International Organization for Migration, 2015).

وفي ضوء عدم وجود قواعد معلوماتية علمية مستقرة وشاملة يمكن الرجوع إليها لتقويم هذه الأوضاع النفسية، بسبب حالة التأزم والهشاشة التي تمر بها الدولة العراقية ومؤسساتها شبه المعطلة، فضلاً عن ضعف مساهمة المجتمع الدولي في مشاريع الأبحاث العلمية، وبرامج الرعاية والتأهيل النفسي والاجتماعي، فإن الدراسة الحالية ستكتفي بالاستفادة من عدد من الدراسات والتقارير والشهادات المحلية والدولية المتخصصة بهذا الشأن، سعياً لصياغة تصور ابتدائي عن طبيعة الاعتلالات النفسية التي أنتجتها سنوات العنف والقسوة في العراق.

أولاً: استدامة العنف في العراق وتدهور الصحة النفسية

إن سنوات القمع السياسي والاجتماعي، والحروب التي شهدها العراق، فضلاً عن الفترة اللاحقة على الحرب في سنة 2003م والتي توقفت فيها الخدمات الأساسية أو لم تعد كافية، قد تركت تأثيراتها القاسية على المجتمع. فلم تتمكن سوى قلة قليلة من العراقيين من النجاة من تأثير الصدمة المرتبطة بسنوات الاضطراب وانعدام الاستقرار. ففي "**مسح صحة الأسرة العراقية**" الذي أجرته وزارة الصحة العراقية بالتعاون مع منظمة الصحة العالمية 2007م، ظهرَ أن نسبة تجاوزت 35% من 9000 فرد من أفراد العائلات الذين جرت مقابلتهم يعانون من ضائقة نفسية عميقة. وذكر أكثر من 300 منهم (3,50%) أنهم فكروا

[1] قامت القوات الأمريكية باحتلال العراق في نيسان 2003م، واسقطت نظام البعث الذي قاده صدام حسين (1968- 2003)م.وقد اتبعت الإدارة الأمريكية في تأسيسها لنظام الحكم الجديد منهجاً يقوم على التمثيل الطائفي والعرقي للمكونات العراقية (الباحث).

بالانتحار، بينما اعتقد 8% أنهم أشخاص عديمو الجدوى في وقت ما من الشهر السابق على الدراسة (أطباء بلا حدود، 2013). وكشف **معهد غالوب** المتخصص بدراسات الرأي العام 2013م أن العراق في موقع الصدارة بين الشعوب الأكثر إحباطاً في العالم، متقدماً بذلك على 148 بلداً، إذ قال التقرير أن «العراقيين يلازمهم شعور بالسلبية في حياتهم اليومية» (Faulders, 2014).

وفي دراسة شملت 480 رجلاً عراقياً من بغداد والموصل 2014م، واستهدفت التحري عن استمرارية التعرض للعنف بأنواع متعددة على الصحة النفسية لدى الرجال العراقيين، اتضح أن 55,40% منهم كان شاهداً على أحداث العنف، وأن أكثر الأعراض شيوعاً بينهم هو القلق (72,90%)، وسرعة الغضب (65,40%)، والمعاناة من الصداع (62,70%)، والخمول (59,40%). وأظهر تحليل المشاعر والتغيرات السلوكية أن ثمة علاقة مؤكدة بينها وبين التعرض للعنف لدى المبحوثين كمشاهدتهم لحالات إطلاق النار، والطعن بالسكين، ومناظر الجثث، والتهجير القسري، ورؤية الأصدقاء والأقارب وهم يتعرضون للعنف، ما يعني أن هذا العنف قد يكون له تأثير سببي مدمر لصحتهم النفسية ولجودة حياتهم (Al-Nuaimi et. al., 2015) . وفي دراسة أخرى شملت 1000 شخص راشد من الجنسين، من مدينة بغداد 2017م، وجد أن 37,10% من المبحوثين مصابون بالاكتئاب، وأن هذا الاكتئاب مرتبط بتعرضهم للعنف. كما أظهر تحليل الانحدار الإحصائي أن التعرض للعنف المجتمعي يمكن أن يتنبأ بمستويات أعلى من القلق والاكتئاب (Lafta & Al-Shawi, 2017). وأظهرت دراسة أخرى في كربلاء 2007م تناولت عينة من الراشدين الناجين من انفجارين، أن 43,30% منهم يعانون من اضطراب الضغوط ما بعد الصدمة (Alobaidi, 2017) .

كما كان للعنف المتمثل بالحروب والاقتتال الأهلي تأثيره السلبي في الأداء الأكاديمي للجامعات العراقية. ففي دراسة أجريت سنة 2015م على 319 طالباً جامعياً، لوحظ انتشار اضطراب الضغوط ما بعد الصدمة بنسبة 21,90% من العينة. كما وجد أن التحصيل الأكاديمي المتدني متحقق لدى 32,90% من الطلبة المصابين بهذا الاضطراب. واتضح أن الطلبة ذوي التحصيل الجيد أقل تعرضاً للعنف من الطلبة ذوي التحصيل الضعيف (Al-Hemiary, 2017). أما الدراسة المسحية الأكثر أهمية واتساعاً وشمولاً بالمقايسة مع دراسات أخرى سبقتها أو أعقبتها، فكانت **"مسح الصحة النفسية في العراق"**، الذي أجرته منظمة الصحة العالمية في السنتين 2006م و2007م، بالتعاون مع وزارتي الصحة العراقية في بغداد وأربيل. فقد شمل هذا المسح عينة من البالغين عددهم 4332 فرداً من الجنسين، إذ كشف عن مستويات مرتفعة جداً من الضائقة النفسية لدى السكان في خضم عنف تلك المرحلة. فقد وصف التقرير الصادر عن تلك الدراسة وضعَ العراق الحديث بأنه مرّ بأربعة عقود من الحروب والعقوبات والصراعات الأهلية، إذ يعاني 56,02% من عدد السكان الذين شملتهم الدراسة من حادثة صادمة واحدة على الأقل. كما وجد أن معدل انتشار أي اضطراب لمدى الحياة- باستثناء الاضطرابات الذهانية -هو 18,80%. وكانت اضطرابات القلق Anxiety Disorder أكثر المجموعات انتشاراً (13,80%)، فيما كان اضطراب الاكتئاب الأساسي Major Depressive Disorder أكثر الاضطرابات انتشاراً (7,20%). وكان الاضطراب الأكثر خطورة في انتشاره خلال

إثني عشر شهراً هو "الثنائي القطبي" Bipolar Disorder (76,90%)[1]. كما وجد أن من المرجح أن تعاني واحدة من بين كل خمس نساء (19,46%)، وواحد من بين كل سبعة رجال (13,69%)، من اضطراب نفسي في حياتهم. وذكر 68,39% من المصابين بأي اضطراب نفسي أن أفكاراً انتحارية راودتهم. ولم يذكر سوى أقل من10% من هؤلاء أنهم تلقوا الرعاية. ووجد التقرير أيضًا أنّ اضطراب الهلع واضطراب الضغوط ما بعدَ الصدمة Posttraumatic Stress Disorder أظهرا تفشّياً طوالَ العمر بنحو 5,3 مرات أوسع في أعمار الفئة الأصغر سناً (18- 34) عاماً ممّا هو لدى الفئة الأكبر سنّاً (65 عاماً فما فوق) (Iraqi Mental Health Survey, 2009) (Al-Hasnawi et. al., 2009).

ثانياً: العنف ضد الأطفال والمراهقين[2]

طبقاً **لمنظمة الصحة العالمية**، فإن العامل الرابع المسبب للاعتلالات المرضية للأطفال العراقيين فوق سن الخامسة هو الاضطرابات النفسية التي تتفوق حتى على حالات الالتهابات لديهم (Hamid & Everett, 2007). ويعد هذا التدهور في الصحة النفسية لهؤلاء الأطفال مشكلة مستترة وكامنة، تنبع من كونهم ضحايا وشهوداً على العنف في الوقت نفسه، يشاهدون كيف أن ذويهم يجري تهجيرهم، وكيف تعصف الاضطرابات ببلادهم. وكل ذلك ليس بجديد، إذ أن العراقيين عانوا طويلاً من الفقر والحرمان وعدم الاستقرار وتدهور النظامين التعليمي والصحي بسبب الحروب والحصار الاقتصادي. ولذلك فإن هناك قلقاً شديداً حول العواقب المحتملة لكل تلك الصدمات والضغوط النفسية على المدى البعيد حين يصل هؤلاء إلى سن الرشد (Alobaidi, 2011).

فخلال حقبة الحصار الاقتصادي (1990-2003)م، عانى أطفال العراق من أسوأ أشكال العنف الجسدي والانفعالي والإساءة الصحية والإهمال، فضلاً عن الإيذاء النفسي وردود الأفعال العاطفية غير السوية، ومنها: العدوان، والشعور بالإحباط، والقلق، والشعور بالعجز والنقص، والصراعات الداخلية، والمشكلات النفسية والسلوكية الطويلة الأمد، إلى جانب أن صدمة الإساءة تظل قائمة ونشطة التأثير في

---

[1] حسب الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات النفسية DSM-5 الصادر عن جمعية الطب النفسي الأمريكية، يوصف "**الاضطراب الثنائي القطب**" بأنه يتضمن انتقالاً بين نوبتين متعاقبتين من الهوس والاكتئاب. يتضمن الهوس ارتفاعاً غير اعتيادي في الحالة المزاجية والنشاط والطاقة، وفي تعظيم الذات، ونقصان الحاجة إلى النوم، والإفراط في الكلام، وتطاير الأفكار، وتشتت الانتباه، والانخراط في نشاطات قد تكون لها عواقب مؤلمة. وتستمر هذه النوبة لعدة أيام، لتحدث بعدها نوبة الاكتئاب التي تتضمن مزاجاً كئيباً معظم اليوم، وتناقص شديد في الاهتمامات والمتعة، ونقصان واضح في الوزن، والأرق، وإنهاك وفقدان في الطاقة كل يوم تقريباً، مع مشاعر بالذنب وانعدام القيمة، وتراجع في التركيز والقدرة على التفكير، مع تكرار التفكير بالموت والانتحار (American Psychiatric Association, 2013).

[2] يعدّ العراق واحداً من أكثر المجتمعات شبابية في العالم. فقد بلغ عدد سكان العراق (38,124,128) نسمة حسب الإسقاطات السكانية لسنة 2018م، بنسبة 51% للذكور و49% للإناث. وبلغت نسبة السكان الذين تقل أعمارهم عن 15 سنة حوالي40%، والذين تقل أعمارهم عن 24 سنة حوالي60%، والذين تقل أعمارهم عن 29 سنة حوالي 67%، فيما نسبة السكان فوق عمر 65 سنة بلغت 3% فقط (الجهاز المركزي للإحصاء، 2018).

الصحة النفسية للطفل اذ تتبدى في مراحل عمرية لاحقة من خلال اضطراب الضغوط ما بعد الصدمة بما يتضمنه من أعراض الخوف الشديد والهلع والأحلام المزعجة والسلوك الانسحابي ووجود صور ذهنية أو ذكريات متكررة وملحة عن الصدمة (الجلبي، 2004). ثم ضاعفت الحرب الأخيرة في سنة 2003م وما أعقبها من حقبة الاقتتال الأهلي والتطرف العنفي، من مستويات المعضلة النفسية والعقلية، التي كانت سائدة سلفاً في العراق عشية الحرب، مسببة ازدياد أعداد الأطفال العراقيين الذين يعانون من حالات الصدمة، والخوف، والقلق، والإكتئاب، والضغط النفسي، والكوابيس، والتبول اللاإرادي، والتي يمكن أن تنعكس على شخصياتهم وتدوم لفترات طويلة، ومن نتائجها جنوح الأطفال، والسلوكية العدوانية، والعنف، وإنتشار الجرائم (نظمي، 2010).

وتشير منظمة الصحة العالمية بهذا الصدد أن ما يقارب 37,40%من أطفال المدارس العراقيين يعانون من اضطرابات نفسية (منظمة الصحة العالمية، 2011)؛ فيما قامت دراسة أجريت في بغداد 2005م، بتشخيص اضطرابات القلق بنسبة 22%، ومشكلات سلوكية بنسبة 18% لدى الأطفال العراقيين (Alobaidi et. al., 2010) . وبعدها بسنة واحدة (أي 2006م) وجدت دراسة أخرى أن 14% من الأطفال في بغداد و30% في الموصل مصابون باضطراب الضغوط ما بعد الصدمة (Razoki et. al., 2006). وفي السنة نفسها، أجريت دراسة في الناصرية، وجدت أن اضطراب فرط الحركة ونقص الانتباه Attention-deficit hyperactivity disorder (ADHD) منتشر بنسبة 15% بين تلاميذ المدارس (Sadik et. al., 2008). وفي دراسة لاحقة اجريت في الموصل 2007م، وجد أن 37% من الأطفال مصابون باضطرابات نفسية، منهم 10,50% مصابون باضطراب الضغوط ما بعد الصدمة. كما وجد أن 47% من تلاميذ المدارس الابتدائية في بغداد تعرضوا إلى أحداث صدمية كبرى (Alobaidi, 2013).

أما عن المراهقين، فقد قامت دراسة في الموصل 2006م بفحص 1090 مراهقاً من ثماني مدارسَ ثانوية بخصوص الاضطرابات النفسية، فوجد أن 30% منهم يعانون اضطرابات ما بعد الصدمة. وفي سنة 2011م كانت معدلات هذه الاضطرابات عالية إلى درجة 61% بين المراهقين الأكبر سناً في بغداد (برنامج الأمم المتحدة الأنمائي، 2016). وفي سنة 2010 وجدت إحدى الدراسات أن 55% من الأولاد في سن (13 – 19) سنة في بغداد يعانون من صدمات نفسية، من بينهم 17,10% مصابون باضطراب الضغوط ما بعد الصدمة (Alobaidi, 2013) . وجاء في آخر تقرير أطلقته منظمة الطفولة التابعة للأمم المتحدة (اليونيسيف) 2018م يتضمن نتائج المسح العنقودي الشامل لأحوال الأطفال العراقيين منذ سبع سنوات، أن الصراع واللامساواة لا يزالان يحددان ملامح الطفولة في البلاد. فلا يتلقى غالبية الأطفال الفقراء أي شكل من أشكال المساعدة الحكومية. وحتى عند تراجع أعمال الاقتتال، تعرض 80% من جميع الأطفال الى إلعنف إما في المنزل أو في المدرسة. وفي حين أن جميع الأطفال في سن الدراسة الابتدائية تقريباً (92%) ملتحقين بالتعليم الابتدائي، لا يتمكن سوى نصف الأطفال من الأسر الفقيرة، أو أكثر بقليل، من اكمال المرحلة الابتدائية من التعليم. وتتسع الفجوة في التعليم الثانوي، حيث لا يتخرج سوى أقل من ربع الأطفال الفقراء، مقارنة بثلاثة أرباع الأطفال من الأسر الغنية (اليونيسيف، 2018). وإلى جانب كل ذلك، يعمل العنف الاقتصادي وفقدان مصادر الدخل على إجبار العائلات على تشغيل أطفالهم أو تزويج بناتهم في سن

مبكرة . فقد بلغ عدد الفتيات اللواتي تزوجن قبل بلوغهن سن 15 في العراق أكثر من 975 ألف في سنة 2016م، وهو ضعف عدد الفتيات في سنة 1990م. وتشير التقديرات الى أن ثمة أكثر من 575 ألف طفل منخرطين في عمالة الأطفال، وهو أيضاً ضعف عدد الأطفال في سنة 1990م (اليونيسيف، 2016).

الاعتلالات النفسية في مرحلة داعش

تعاظمَ حجم العنف ونوعيته ضد الأطفال والمراهقين في المرحلة التي شهدت احتلال تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) لمدينة الموصل ولعدد من المحافظات العراقية، إذ يقدر أن 10% من أطفال العراق (أكثر من 1,50 مليون طفل) أجبروا على الفرار من ديارهم بسبب العنف. ثم تضاعف العدد بعد ذلك، إذ أشار تقرير اصدرته منظمة اليونيسيف 2016م أن 3,6 مليون من أطفال العراق - أي طفل من كل 5 أطفال في البلاد - معرضون لمخاطر الموت والاصابة والعنف الجنسي والاختطاف والتجنيد القسري في صفوف المجموعات المسلحة. وتكون الفتيات أكثر عرضة لخطر الاعتداء الجنسي لاسيما من الطوائف الدينية غير المسلمة. كما تم التوثيق لحالات استخدام العنف الجنسي والمعاملة الوحشية ضد النساء والفتيات وبيعهم كسبايا في سوق النخاسة وتعرضهن للاغتصاب والتعذيب. ولذلك من المرجح أن يكون لهذا العنف عواقب نفسية مدمرة على الأطفال يستمر تأثيرها مدى الحياة. فقد أبدى الأطفال الذين أجبروا على الفرار من ديارهم بسبب العنف، في كثير من الأحيان تغيرات سلوكية تثير القلق نابعة من تجاربهم. ووفقاً لتقييم أجري في اقليم كردستان، تم الابلاغ عن حدوث تغيرات سلوكية في 76% من الأطفال الذين شملهم التقييم. وكان أكثر السلوكيات المضطربة شيوعاً بين الفتيات هو البكاء غير العادي والصراخ، يلي ذلك الحزن والكوابيس والسلوك اللااجتماعي والسلوك العدواني. أما بين الأولاد، فقد كان البكاء غير العادي والصراخ أكثر السلوكيات شيوعاً، يليه الحزن والعنف ضد الأطفال الأصغر سناً (اليونيسيف، 2016). أما أسباب شعورهم بعدم الأمان فهي: القذائف والإطلاقات النارية، وانقطاع الكهرباء والظلام، وحرق الخيام، وخطر السقوط من البنايات غير المكتملة، والصراعات داخل المخيمات، والتحرش الجنسي، والتنمر، والاعتقالات، وهجمات تنظيم داعش (رشيد، 2017).

وحسب تقرير للمؤسسة العراقية للتنمية، فإن مواطنين موصليين ظلوا مقيمين في المناطق التي احتلها داعش، اشاروا إلى أن الكثير من أطفالهم صاروا يعانون من اضطرابات الأكل كفقدان الشهية، واضطرابات النوم كالأرق أو النوم المتقطع أو النوم لساعات طويلة والمشي والحديث أثناء النوم، إلى جانب قلة التركيز وضعف الحركة والحزن والخوف والتبول اللاإرادي والتوتر النفسي والعدوانية وايذاء الذات (المؤسسة العراقية للتنمية، 2016). ولم تقتصر آثار النزاع والنزوح على المشكلات الانفعالية والصحة العقلية فحسب، بل تعدتها الى تغييرات سلوكية بعضها ضار أو خطر، إذ تؤكد تقارير ودراسات صدرت عن منظمات دولية أن ظروف النزوح أدت الى زيادة التدخين وتعاطي الحبوب المهدئة والعنف الأسري والزواج المبكر وعمالة الاطفال والسرقة (رشيد، 2017). وأدت مشاهد العنف والقتل والتفجير التي يمارسها عناصر داعش على مرأى ومسمع الأطفال في الشوارع، مثل إعدام الذين يلقبونهم بـ"الكافر" أو معاقبة "المرتدين" ممن لا يطيعونهم بقطع الرؤوس أو رميهم من بناية عالية أو حرقهم أو إغراقهم، عبر تسجيل هذه المشاهد وعرضها في شاشات كبيرة في الأماكن العامة، أدت بهؤلاء الأطفال إلى التأثر على نحو لا إرادي بهذه

الأفعال التي قد تصبح جزءاً من سلوكهم. وقد قام مختصون نفسيون في أيار/ يونيو 2016م بمراقبة (50) طفلاً من الموصل يلعبون في الشارع فوجدوا أن (43) منهم يلعبون بطريقة وحشية باستخدام سكاكين أو مسدسات خشبية لمحاكاة عناصر داعش في عمليات القتل والذبح. كما تم اللقاء مع مجموعة من هؤلاء الأطفال الذي تم تحريرهم وإعادتهم إلى ذويهم، فوجد أن حالتهم النفسية والصحية مضطربة وأنهم بحاجة إلى رعاية نفسية لمعالجة أعراض الخوف والقلق والصدمة النفسية. فقد قام مختصون نفسيون باستقبال 128 طفلاً بين شهري كانون الثاني/ يناير وأيار/ يونيو 2016م، فوجدوا أنهم تعرضوا للصدمة النفسية بسبب عمليات القتل والذبح التي جرت أمامهم (المؤسسة العراقية للتنمية، 2016).

وفي دراسة سعت إلى استكشاف تأثيرات العنف والصراع والنزوح على الصحة النفسية للأطفال والشباب النازحين من الموصل بعد احتلال داعش لها، شملت 1025 طفلاً وشاباً وأشخاصاً كانوا يقومون بتقديم الرعاية للنازحين، اتضح أن هناك فروقاً في خبرات الصحة النفسية بين من عاش طويلاً تحت حكم داعش وبين من هرب منه في وقت مبكر. فالفريق الأول أبدى مشاعر شديدة من الخوف على الحياة ومن العقاب، إذ تراودهم الكوابيس وومشاهد القتل والدم. كما أبدوا حزناً عميقاً لفقدانهم من يحبون بمشاهدة عوائلهم وأصدقائهم يُقتلون أمامهم، ولكونهم عاجزين عن التصرف بوصفهم أطفالاً. كما اتضح أن هناك شعوراً بالصدمة الجمعية Collective Trauma لدى الجميع بلا استثناء، لكنه يتضح بشكل خاص لدى الأطفال إذ أبدوا استجابات عدوانية نحو البيئة، وانحلالاً بروابطهم الثقافية والاجتماعية معها. كما أبدوا حالة من التكيف مع العنف وعدم الأمان من خلال تطبيع Normalization علاقتهم بها بإنكار خبراتهم الصدمية، ما يشكل خطراً على صحتهم النفسية في المدى البعيد إذ قد يعانون من القلق والاكتئاب واضطراب الضغوط ما بعد الصدمة (Research team, 2017).

كما وجد تقرير لمنظمة العفو الدولية Amnesty عن حالة أطفال الموصل النفسية بعد بدء العمليات العسكرية لتحريرها في تشرين الأول/ اكتوبر 2016م، أن شح الموارد يجعل هؤلاء الأطفال لا يتلقون رعاية صحية نفسية كافية أو دعماً يمكن أن يساعدهم على تجاوز التجارب التي تسببت في أزماتهم، والعودة إلى الحياة الطبيعية. ففيما يتجاوز هؤلاء الأطفال الجروح الجسدية التي عانوها، إلا أنهم يشعرون بالندوب النفسية والصدمة العميقة التي لحقت بهم جراء العنف المفرط الذي تعرضوا له وشاهدوه. فمن بين آلاف الأطفال الذين تعرضوا للعنف المفرط المتواصل، لم يحظَ سوى قسط ضئيل من الأطفال بالرعاية والدعم النفسيين اللذينِ يحتاجون إليهما بصورة ماسة (منظمة العفو الدولية، 2016).

أشبال الخلافة: معضلة العنف الكامن

يقصد بأشبال الخلافة برنامج يُدِّرب من خلاله تنظيمُ داعش الأطفالَ على القتال. ويعدّ من أكبر التحديات التي ستستمر تداعياتها لسنوات طويلة بعد زوال داعش ما لم يتم ايجاد حلول جذرية لها. فقد كان من أولويات هذا التنظيم بناء جيل من الفتيان الذين يدعمون ايديولوجيته (رشيد، 2017).

فقد عمل داعش على فتح معسكرات لتدريب الأطفال والمراهقين في المدن التي استولى عليها، بتحويل المعاهد والمؤسسات وبعض المدارس إلى معسكرات تدريبية، الهدف منها تعليم الأطفال على القتال وترسيخ أفكار وعقائد التنظيم، وتلقينهم دروساً في القتل والتفجير سعياً لاستخدامهم في عمليات انتحارية. فحسب

احصائيات الأمم المتحدة فإن ما بين (800-900) طفلاً قد خُطفوا على يد داعش من مدينة الموصل 2015م وحدها لتدريبهم دينياً وعسكرياً بالقوة، حيث افتتحت مكاتب مهمتها تجنيد الأطفال تسمى "أشبال الخلافة". وإن 40% من هؤلاء الأطفال هم من الأقليات المختطفين، خصوصاً من الأيزيديين والشبك والتركمان الذين قُتلت أو سُبيت عوائلهم. وقام داعش بتقسيم هؤلاء الأطفال إلى مجموعتين: المجموعة الأولى تراوحت أعمارهم بين (5-10) سنوات، ووضعوا في مخيمات للتلقين الديني وتكفير الناس إذا لم يطبقوا تعليمات داعش؛ والمجموعة الثانية تراوحت أعمارهم بين (10-15) سنة، اقتيدوا إلى مخيمات تدريب عسكرية في معسكر "العزة" في منطقة الغزلاني جنوب الموصل، حيث جرى تدريبهم على زرع العبوات الناسفة وتفجير السيارات المفخخة وقتل الأشخاص (المؤسسة العراقية للتنمية، 2016) . وكانت واحدة من أشهر ممارسات أشبال الخلافة هو الشريط المصور الذي بثه داعش في تموز/ يوليو 2015م، ويُظهر عملية إعدام جماعية نفذها فتيان بحق 25 جندياً من القوات السورية الحكومية بالمسرح الروماني في تدمر. وتمت عملية الإعدام رمياً بالرصاص أمام عدد من المتفرجين من الرجال والأطفال الذين جلسوا على المدرج الروماني (الخليج اونلاين، 2015). وفي حالات أخرى اضطر بعض الأطفال لاسيما من فقدوا معيلهم إلى العمل في أوضاع صعبة لا تتناسب مع أعمارهم، فاندفعوا للانخراط في صفوف داعش للحصول على المال لإعالة عوائلهم إذ شاركوا في خدمات الدعم اللوجستي للتنظيم مثل نقل الذخيرة وإعداد الطعام وإصلاح وتنظيف العتاد والآليات وفي أعمال الحراسة (المؤسسة العراقية للتنمية، 2016) .

هؤلاء الاطفال الذين جُندوا هم ضحايا بالدرجة الاولى. وسيكون لتجنيدهم في القتال عواقب نفسية خطيرة على المدى البعيد على الاطفال أنفسهم، فضلاً عن خطورتهم على المجتمع. وتشكل مهمة إعادة دمجهم في المجتمع أولوية أساسية وخطوة بالغة التعقيد. ويتطلب ذلك الرصد والتوثيق والدراسة لحجم وعدد أولئك الاطفال وطرائق ودوافع مشاركتهم، عبر إعداد برامج علاجية وتأهيلية لاعادة دمجهم قبل أن يتحولوا إلى عناصر متطرفة في تنظيمات أكثر خطورة (رشيد، 2017).

نساء وأطفال الخلافة: معضلة النبذ الاجتماعي

تمثل جنسية الاطفال (أي حصولهم على هوية الأحوال المدنية العراقية) واحدة من أهم التحديات التي تواجه الأطفال المولودين اثناء سيطرة داعش، اذ تمتنع الحكومة العراقية عن اصدار أوراق ثبوتية لبعض هؤلاء الأطفال بحجة أنهم قد يكونون من عائلات داعش (رشيد، 2017). وفي حالات أخرى تم رصد حالات من الانتهاك والتمييز تعرض لها هؤلاء الأطفال عبر تسجيل الأب في هوياتهم بتسمية "إرهابي"، ما يجعلهم عرضة لانعدام الجنسية والتهميش والإيذاء والاستغلال والاتجار (بعثة الأمم المتحدة لمساعدة العراق، 2017). وقد أشارت إحدى الإحصائيات إلى أن هناك 31 ألف امرأة حامل في معاقل داعش. وتوجد إحصائية أخرى تقول أن نحو 300 طفل آباءهم أعضاء في داعش، هم بدون جنسية ولا يمكنهم الانضمام إلى المدارس في العراق. كما أشارت بحوث لـ"**وزارة الداخلية العر اقية**" أن نحو ثلث "النساء في سن الزواج" في معاقل داعش قد تم تزويجهن إلى عناصر من التنظيم المتطرف، والكثير من هؤلاء ليسوا من العراق (حوري، 2016)

إن مثل هذه الحالات وغيرها، تمثل تهديداً جدياً بأن يُترك هؤلاء الاطفال وأمهاتهم أمام مشكلات جمة تتمثل بحرمان الأطفال من حقوقهم في التعليم والرعاية الصحية والإرث، وسيصبحون من الناحية الاجتماعية أطفال غير شرعيين ويتعرضون للنبذ الاجتماعي ويعانون من الوصمة الاجتماعية بأنهم لقطاء، ما قد يجعلهم عرضة للاستغلال، ويهيئهم ليكونوا أشد عدائية وشعوراً بالظلم والكره للمجتمع والدولة، وهذا قد يهدد بانخراطهم في مجموعات متطرفة ما لم يتم إنصافهم قانونياً بما يمكّنهم من الحصول على حقوقهم الأساسية ويضمن لهم تنشئة اجتماعية سوية (رشيد، 2017).

ثالثاً: العنف ضد النساء

ساهمت الأوضاع الأمنية المتردية والعنف الأهلي الذي شهده العراق بعد سنة 2003م في تفاقم العنف ضد النساء[1]، إذ عززت هذه الأوضاع من سلطة الضبط الأبوية بكل ما تنطوي عليه من مبررات للعنف، وتدعيم ممارسته ضد المرأة. فقد تضاعفت حالات العنف الجسدي البليغ ضد النساء التي كانت تصل إلى الجهات الأمنية في سنة 2009م نحو تسع مرات عما كان عليه الحال في سنة 2003م، حسب تقارير وزارة الداخلية (رشيد، 2012 - أ).

العنف البدني واللفظي والمعنوي والرمزي ضد المرأة

كشف التقرير الصادر عن **"المسح المتكامل للأوضاع الاجتماعية والصحية للمرأة العر اقية 2011"** الذي غطى كافة محافظات العراق بواقع 10,620 أسرة، أن 44,50% من النساء العراقيات المتزوجات في عمر (15- 54) سنة قد تعرضن – خلال الإثني عشر شهراً السابقة للمسح- لعنف نفسي من الزوج، يتمثل في الإهانة والتخويف والتهديد والسيطرة ومراقبة التصرفات بصورة دائمة. وهذا العنف المعنوي يسبق في العادة العنف الجسدي، والذي ذكرت 5,50% من النساء تعرضهن له، وكذلك 9,30% تعرضهن للعنف الجنسي من الزوج. كما أشار المسح أيضاً إلى أن ثلاث فتيات تقريباً من بين كل عشر قد تعرضن للضرب أو الإهانة خلال الشهر السابق على المسح من قبل أحد الأبوين على الأقل. أما عن مصادر العنف ضدهن، فإن 73% منهم تقريباً ذكرن أن الزوج دائماً أو أحياناً يكون مصدراً للعنف، وأكثر من نصفهن ذكرن أن الأب دائماً أو أحياناً يشكل مصدرا للعنف ضد المرأة (المسح المتكامل للأوضاع الاجتماعية والصحية للمرأة

[1] جاء في في المادة الأولى من الإعلان العالمي لمناهضة العنف ضد المرأة، الذي اعتمد من الجمعية العامة للأمم المتحدة بموجب قرارها 104/48 المؤرخ في 20 كانون الأول/ ديسمبر 1993م، أن تعبير "العنف ضد المرأة " يعني: ***أي فعل عنيف تدفع إليه عصبية الجنس ويترتب عليه، أو يرجح أن يترتب عليه، أذى أو معاناة للمرأة ، سواء من الناحية الجسمانية أو الجنسية أو النفسية بما في ذلك التهديد بأفعال من هذا القبيل أو القسر أو الحرمان التعسفي ممن الحرية، سواء حدث ذلك في الحياة العامة أو الخاصة***. كما جاء في المادة الثانية منه أن العنف البدني والجنسي والنفسي هو ذلك الذي يحدث في إطار الأسرة بما في ذلك الضرب والتعدي الجنسي على أطفال الأسرة الإناث، والعنف المتصل بالمهر، واغتصاب الزوجة، وختان الإناث؛ وفي إطار المجتمع العام بما في ذلك الاغتصاب والتعدي الجنسي والمضايقة الجنسية والتخويف في مكان العمل وفي المؤسسات التعليمية، والاتجار بالنساء وإجبارهن على البغاء؛ وفي إطار العنف الذي ترتكبه الدولة أو تتغاضى عنه، أينما وقع (مكتب المفوض السامي لحقوق الإنسان، 1993).

العراقية، 2012). ووجد **"مسح صحة الأسرة العر اقية للمدة 2007-2016 (IFHS)"** أن واحدة من كل 5 نساء عراقيات تتعرض للعنف الأسري البدني، فيما توصلت دراسة لوزارة التخطيط صدرت سنة 2012م الى أن 36% على الأقل من النساء المتزوجات أبلغن بالتعرض لشكل من أشكال الأذى النفسي من الأزواج، وأبلغت 23% بالتعرض لإساءات لفظية، وأبلغت 6% بالتعرض للعنف البدني، و9% للعنف الجنسي (الطيار، 2017). وفي دراسة سابقة أجريت سنة 2007م في بغداد، وجد أن 57,60% من نساء العينة قد تعرضن للعنف من الزوج لمرة واحدة على الأقل في الشهور الخمسة التي سبقت الدراسة، وكانت 44% منهن يتعرضن للعنف بشكل مستمر. كما تعرضت 20% منهن للعنف من أشخاص عدا الزوج. وكان العنف البدني الصادر عن الزوج هو أكثر أنواع العنف انتشاراً (39,60%) فضلاً عن العنف اللفظي المصاحب له (66,40%) (رشيد، 2012 - أ).

أما في إقليم كردستان العراق، فقد وجدت دراسة أجريت سنة 2008م عن ظاهرة العنف الأسري في مدينة أربيل، أن 75,50% من نساء العينة قد تعرضن إلى الاعتداء داخل أسرهن، وأن نسبة 90,50% منهن جاء الاعتداء عليهن من الزوج. وفي دراسة أخرى في الإقليم نفسه سنة 2009م، اتضح أن ثلثي العينة يتعرضن للتحرش الجنسي والإهانات والتعليقات الجارحة من الذكور في الأماكن العامة، وأن 23,30% منهن تعرضن للاعتداء والإهانة من الزوج (رشيد، 2012- أ). وفي دراسة شملت 2100 إمرأة من مجتمع الأقليات في العراق في سنة 2007، وبواقع 300 إمرأة من كل طائفة (الصابئة، والشبك، والأيزيدية، والأرمن، والتركمان، والكرد الفيلية، والكلدو آشور)، اتضح أن انعدام الشعور بالأمن وتنامي مشاعر الخوف، أصبحت من أبرز التحديات التي تواجه هؤلاء النسوة بسبب حالات العنف التي استهدفت الأقليات. فقد وجد أن 76,80% من العينة يعشن حالة من الخوف والتهديد لحياتهن. وتزداد هذه الحالة بشكل خاص لدى الأرامل. كما أشارت38,90% منهن إلى أن نساء الأقليات أكثر عرضة للخطر من بقية نساء العراق. أما عن أنواع العنف الذي يتعرضن إليه، فقد اتضح أن العنف المعنوي المتمثل بالإهمال والتجاهل يقع في المرتبة الأولى بنسبة 50,07%، وجاء ثانياً العنف المتمثل بالتحرش والمضايقات بنسبة 47,82%. وأتى الحجز وتقييد الحركة بالدرجة الثالثة بنسبة 41,36%، ثم العنف اللفظي بنسبة 38,52%. وفيما يخص مصادر العنف اتضح أن أفراد المجتمع الذين يقعون خارج نطاق العائلة وخارج نطاق الأقلية يشكلون المصدر الأول للعنف ضد هؤلاء النساء، كما تمثل الجماعات المسلحة مصدراً للعنف من وجهة نظرهن. وتأتي العائلة مصدراً ثانياً للعنف. ويعدّ الشارع المكان الأكثر احتمالاً أن تتعرض فيه نساء الأقليات للعنف، فيما تحتل المؤسسات الأمنية المكان الثاني. وأشارت 30,40% من النساء إلى أن العنف الأسري قد ازداد داخل الأسرة بعد 2003م (رشيد، 2012- ب). وفي دراسة أخرى لقياس تأثير معايشة العنف أو مشاهدته على ظهور الاضطرابات النفسية لدى النساء العراقيات، شملت 500 إمرأة من مدينة الموصل 2013م، وُجد أن جميع المشاركات لديهن تاريخ من التعرض للعنف مرة واحدة على الأقل خلال الإثني عشر شهراً التي سبقت الدراسة، وأن أكثر من نصفهن جرى تصنيفهن كمصابات باضطرابات انفعالية قد تتطور إلى معضلات في صحتهم النفسية مستقبلاً (Al-Nuaimi, 2013).

العنف الجنسي[1] والصورة الدونية للمرأة في مرحلة داعش

في 3 آب/ أغسطس 2014م كان الأيزيديديون على موعد مع الموت والدمار والهجرة والرحيل، إذ غزا تنظيم داعش مدينة سنجار والبلدات والقرى التابعة لها، مرتكباً جرائم إبادة جماعية وضد الإنسانية ضد آلاف المدنيين من النساء والأطفال والرجال وكبار السن بعد الانسحاب السريع لقوات البيشمركة التي كانت تحمي المنطقة. ومن بين أكثر الصور المأساوية التي مرت بها سنجار كانت صور خطف النساء، إذ قام داعش باحتجاز آلاف النساء والفتيات والأطفال خلال ساعات قليلة. تمت تلك العملية وفق خطة ممنهجة بدقة تضمنت عدة مراحل أدت الى اختطاف أكثر من خمسة آلاف إمرأة وطفل أيزيدي وفقاً لشهادات ومعلومات جمعها نشطاء وناشطات عاملون في المنطقة. ثم جرى نقلهن تدريجياً إلى تلعفر والبعاج ومن ثم إلى الموصل. ومن هناك انطلقت عمليات السبي بما تضمنته من اغتصاب وتعذيب وبيع واعتناق قسري للإسلام وفصل الأمهات عن أطفالهن (دوملي، 2016).

وقد كشفت المقابلات التي أجريت فيما بعد مع بعض السيدات والفتيات الهاربات من داعش، عن تعرضهن لاغتصاب متعدد، وبيعهن كسبايا لعدة مرات، وتعرضن للضرب والإهانة الشفهية، واحتجازهن في ظروف شاقة. وظهر عليهن جميعاً دلائل الكرب الانفعالي الحاد. كما وصفن محاولاتهن للانتحار – حينما كنّ في قبضة داعش- أو محاولات غيرهن لتجنب الاغتصاب أو التزويج القسري أو تغيير الديانة قسراً. فوصفن قطع المعاصم بالزجاج أو الشفرات، أو محاولات شنق أنفسهن، أو صعق أنفسهن كهربائياً في مغطس الحمام، أو تناول ما اعتقدن أنه سم (هيومان رايتس ووتش، 2015) (هيومان رايتس ووتش، 2016).

ومن جانب آخر أشاع حكم داعش في المجتمعات المحلية التي سيطر عليها قيماً خاصة بعزل النساء ورؤية تراتبية للعلاقة ما بين الجنسيين تعزز وتكرس الهيمنة الذكورية التي كانت سائدة قبل سيطرته، إذ وِضِعت النساء في مرتبة أدنى بشكل يفوق ما كانت عليه من دونية في السابق. فعلى مدى حكم داعش، كانت المرأة موضوعاً مركزياً تتوجه له خطاباتهم عبر أساليب العزل والمراقبة، بهدف اخلاء الفضاء العام ليصبح فضاءً ذكورياً خالصاً يصعب على المرأة اختراقه من جديد. ومثل هذا العزل والحجب والاحتجاز سواء في اللباس أو المكان، أنتج قيماً أشد انغلاقاً حول النوع الاجتماعي (الجندر) بما قد يؤثر على مكانة المرأة ويقيد حصولها على فرص التعليم والعمل والمشاركة بل وحتى الرعاية الصحية. كما قد يلغي أو يضعف دورها ومشاركتها في بناء السلم وإعادة الاعمار بعد مرحلة النزاع (رشيد، 2017).

وقد اتضحت بعض هذه المؤشرات في دراسة شملت 200 إمرأة نازحة من الموصل بعد احتلالها من داعش، جرى مقابلتهن في مخيمات بين مدينتي النجف وكربلاء، إذ وجد أنهن يعانين من حدة الطبع وسرعة الغضب، والكوابيس، والأرق، والرعب على بناتهم من الاغتصاب، والشعور بالتهديد بسبب العنف

[1] يشير مُصطلح **العنف الجنسي** خلال النزاع حسب قرار مجلس الأمن الدولي رقم 1960 لسنة 2010 إلى الاغتصاب والعبودية الجنسية والإكراه على البغاء والحمل القسري والإجهاض القسري والعقم القسري والزواج القسري أو أي شكل آخر من اشكال العنف الجنسي التي تُرتكب ضد النساء أو الرجال أو الفتيات أو الأولاد التي تحدث بشكل مباشر أو غير مباشر خلال النزاعات (بعثة الأمم المتحدة لمساعدة العراق، 2017).

الجسدي، وافتقاد الانتماء إلى البلد، وفقدان الثقة بالمستقبل، والصداع والتقيؤ والإغماء، والشعور بالذنب، وفقدان الثقة بأقرب الناس، بنسب مئوية تراوحت بين (70–80) % (سلمان وغني، 2015).

"وصمة" الأطفال المولودين نتيجة الاغتصاب

إن الكثير من النساء والفتيات الأيزيديات الناجيات من الاستعباد الجنسي قد حُرمن من المساعدة النفسية والاجتماعية والمادية من عوائلهنّ إذ أصبحن يشكلن "وصمة عار" وفقاً لوجهة نظر مجتمعاتهن عند عودتهن إلى بيوتهن. كما يعدّ **الدعم النفسي والاجتماعي**[1] المقدم لهن في كردستان العراق قاصراً إلى حد كبير. فقد اتفقت منظمات دولية ومحلية على عدم كفاية أعداد المعالجين النفسيين الاجتماعيين المتاحين لهؤلاء النسوة لتلبية احتياجاتهن إذ ظهرت لدى جميعهن علامات الصدمة. وفي المدى القصير، يحتاج المختصون النفسيون والاجتماعيون، وخاصة من يتحدثون اللهجة الإيزيدية المحلية، إلى تدريب على أساليب تقديم الاستشارة، فضلاً عن الحاجة لتعيين معالجين نفسيين اجتماعيين للتعامل مع الحالات العاجلة. كما يتطلب الأمر بذل جهود إضافية لتشجيع وتثقيف الأشخاص المحتاجين إلى الخدمات بشأن قدرة الخدمات على مساعدتهم. ويقول ممثلو عدد من الوكالات الدولية والمنظمات غير الحكومية إن الأمر لا يقتصر على غياب الدعم النفسي الاجتماعي المتاح، بل إن المجتمع المحلي يتردد أيضاً في قبول تلك المساعدة (هيومن رايتس ووتش، 2015).

وقد أصدر "بابا شيخ"، وهو قائد ديني إيزيدي، تصريحاً في 6 أيلول/ سبتمبر 2014م يرحب بالسيدات والفتيات الأيزيديات الناجيات من داعش لإعادة دمجهن في المجتمع، ويقرر ضرورة امتناع الجميع عن إيذائهن. وفي 6 شباط/ فبراير 2015م أعاد إصدار النداء نفسه قائلاً: «إن هؤلاء الناجيات ما زلن إيزيديات طاهرات، ولا يجوز لأحد الطعن في إيمانهن بسبب تعرضهن لأمر خارج عن سيطرتهن... ومن ثم فإننا ندعو الجميع إلى التعاون مع هؤلاء الضحايا ودعمهن حتى يستأنفن حياتهن الطبيعية ويعاودن الاندماج في المجتمع». ويبدو أن تلك التصريحات ساعدت في حماية السيدات والفتيات الإيزيديات من الأذى، وشجعت عائلاتهن على التماس العلاج لهن (هيومن رايتس ووتش، 2015).

أما عن حالات الحمل لدى النساء الأيزيديات الناجيات، فلا توجد لدى حكومة كردستان الإقليمية أية خطة شاملة، قانونياً أو اجتماعياً، للتصدي لمشاكل الحمل والأطفال المولودين نتيجة الاغتصاب. ومع ذلك فإن الدوائر الصحية المحلية اتفقت على ضرورة قيام السلطات بحماية السيدات اللواتي يحتفظن بأطفالهن، بما في ذلك توفير المأوى لهن ولأطفالهن، إضافة إلى الرعاية الصحية بما فيها الدعم النفسي الاجتماعي والمالي وخدمات الصحة الإنجابية والجنسية أثناء الحمل وبعد الولادة. وفي الحالات التي لا ترغب المرأة فيها في رعاية طفلها، سيكون على محاكم الأحوال الشخصية أن تفصل في شأن مصير الطفل. أما في

[1] **الدعم النفسي والاجتماعي** Psychological and Social Support: مجموعة من الخدمات تقدم إلى الأفراد خلال حالات الطوارئ لمساعدتهم على التغلب على مثل هذه التجارب الصعبة. وتشمل هذه الجهود الأنشطة الثقافية المناسبة للفئات العمرية والأنشطة الآمنة والمحفزة مثل الرياضة والألعاب لتنمية المهارات الحياتية وآليات التكيف ودعم الصمود (منظمة الأمم المتحدة للطفولة، 2017).

الحالات التي تتخلى فيها الأم الطبيعية وأقاربها المقربين عن الطفل، أو يعجزون عن تقديم الرعاية اللائقة، يتعين على السلطات أن تضمن رعاية بديلة مناسبة، بالتعاون مع السلطات المحلية المختصة والمنظمات غير الحكومية المصرح لها (هيومن رايتس ووتش، 2015).

والمعروف أن الإجهاض غير مشرعن قانونياً في العراق ولا في إقليم كردستان حتى في حالات الاغتصاب، ما لم يعد ضرورة طبية بأمر من طبيب، كوجود خطر على صحة الأم. ولذلك توجد ضرورة عاجلة أمام الحكومة العراقية لتدرس تعديل قانون العقوبات لإباحة الإجهاض الآمن والقانوني للسيدات والفتيات اللواتي تعرضن لعنف جنسي. كما يتعين على مسؤولي حكومة كردستان الإقليمية أن يشجعوا قادة المجتمع والقادة الدينيين على الترحيب بالأطفال المولودين نتيجة الاغتصاب إذا اختارت الأمهات بإرادتهن تربيتهم في المجتمع الإيزيدي، وتوفير الدعم الاجتماعي الذي تحتاجه السيدات (هيومن رايتس ووتش، 2015).

رابعاً: الإدمان والانتحار لدى الشباب

رصد التقرير الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية زيادة في إدمان العقاقير لدى النساء والشباب العراقيين، بسبب رغبتهم بمواجهة الضغوط النفسية الناجمة عن الصراعات والحروب. ففي دراسة أجريت سنة 2009م، في مدينة بغداد، اتضح أن نسبة انتشار إستعمال الكحول مدى الحياة تبلغ 17,80%، فيما تبلغ نسبة استعمال العقاقير النفسية مدى الحياة 7,02% (Al-Hemiary et. al., 2014). كما كشفت مفوضية حقوق الانسان في العراق مؤخراً عن احصائية تظهر مستوى ادمان المخدرات في العراق، إذ أشارت إلى أن الذكور اكثر تعاطياً لها بنسبة 89,79% وبواقع 6672 موقوف في مراكز الاحتجاز، أما الأناث فتبلغ نسبتهم 10,2% بواقع 134 موقوفة. وأوضحت أن المخدرات في العراق أصبحت ظاهرة تهدد الاسرة والمجتمع بسبب آثارها الخطيرة التي بدأت تستهدف فئة الشباب، إذ أن الفئات العمرية الأكثر تعاطياً للمخدرات هي فئة الشباب، وتحديداً الفئة العمرية من (29-39 سنة) بنسبة 40,95%، تليها الفئة العمرية من (18-29 سنة) بنسبة 35,23% [1].

أما عن ارتباط العنف بازدياد معدلات الإدمان، فقد كشفت إحدى الدراسات المحلية عن الأسباب المؤدية إلى انتشار المخدرات من وجهة نظر عينة من الشباب العراقيين، إذ وجدت أن 40% منهم يرون في الحرب سبباً، بسبب طبيعتها المقوضة للأمن والاستقرار، ولأن الصراعات والنزاعات تكون فرصة مؤاتية لبروز أنماط عديدة من الأمراض الاجتماعية. كما أشار 44,60% منهم إلى ضعف أجهزة الأمن وعدم قدرتها على بسط اجراءات الضبط الداخلي وتطبيق القوانين على كل المرافق العامة للدولة. وعزا 21,50% منهم الأمر إلى أسباب سياسية تتعلق بضعف الرقابة والقانون وعجز أصحاب القرار عن الحد من تمرير المخدرات وادخالها، ما يجعلها سهلة الامتلاك والتداول (جابر، 2018). وفي دراسة ميدانية شملت محافظات ميسان وذي قار والبصرة جنوبي العراق 2017م, اتضح أن الكثير من عمليات العنف ولاسيما

[1] الإحصائية تُنسب إلى "فاضل الغراوي" عضو مفوضية حقوق الإنسان العراقية، ضمن بيان منشور في موقع بغداد، متاح في:https://baghdadtoday.news/news

العنف المسلح سواء على مستوى الأشخاص أو على مستوى العشائر يرتبط بتعاطي المخدرات، إذ سجلت الأجهزة الأمنية ارتباط عدد كبير من جرائم السرقة والسطو المسلح فضلاً عن الابتزاز والاختطاف بالمتعاطين أو تجار المواد المخدرة. كما وجد أن الشباب يشكلون الغالبية العظمى من المتعاطين للمخدرات والمؤثرات العقلية في المحافظات الثلاث، إذ بلغت نسبتهم 91,2% من الموقوفين. وينتمي قرابة 38% من هؤلاء الشباب إلى أسر فقيرة، فيما يتوزع المتبقون منهم (57%) على أسر فوق خط الفقر بقليل. وأظهرت المشاهدات الميدانية أيضاً أن المتعاطين في الغالب هم من منخفضي التعليم، إذ يكون 87,1% منهم ذوي تعليم ابتدائي فما دون. وأظهرت نتائج الحوارات والمشاهدات مع هؤلاء المتعاطين أن الكثير منهم يعاني شعوراً متزايداً بالضياع والخوف من المستقبل، وعدم جدوى حياتهم، وغيرها من المشكلات النفسية التي قد تجعلهم يهربون إلى المخدرات مرة أخرى فيما لو سنحت لهم الفرصة لذلك (ساجت، 2017).

أما عن حالات الانتحار، فيفتقر العراق إلى إحصائيات دقيقة ومستمرة عنه بسبب الضغوطات الاجتماعية والتعتيم الإعلامي، في ظل غياب البرامج الحكومية المختصة بالكشف عن أسبابها ووضع الدراسات لمعالجتها. وحتى الأرقام التي تُنشر ففي العادة أنها أقل من الحقيقة لأن حالات كثيرة لا يتم رصدها أو يمتنع ذوو المنتحرين عن تسجيلها كحالات انتحار، ويعزونها إلى حوادث عرضية، فضلاً عن غياب الإحصائيات الدقيقة الصادرة عن المؤسسات الصحية ودوائر الشرطة (دائرة البحوث في مجلس النواب العراقي، 2014). كما تنتشر حالات الانتحار بشكل ملفت للنظر بين الشباب والنساء في إقلي م كردستان العراق، وبأساليب قاسية وعدوانية. وتشير دراسات الاستقصاء لهذه الحالات التي يصعب تقييمها وتعقبها بسبب الافتقار إلى التوثيق والتسجيل، إلى أن الانتحار بات يشكل مشكلة جدية خصوصا بين النساء، تتطلب الإحاطة والمعالجة من السلطات المحلية والمنظمات الدولية (Hanna & Ahmad, 2009). ومن بين التوثيقات النادرة المتاحة، أشارت إحصائية لمجلس القضاء الأعلى، أن عدد حالات الانتحار الموثقة في العراق خلال المدة (2003–2013)م قد بلغ 1532 حالة، إذ سجلت 439 حالة في سنة 2013م، و276 حالة في سنة 2012م، ما يمثل أعلى معدل سنتين لحالات الانتحار (دائرة البحوث في مجلس النواب العراقي، 2014). كما أشارت دراسة وطنية واسعة شملت 13 محافظة عراقية عدا محافظات إقليم كردستان، أن نحو 290 حالة انتحار قد وقعت في سنة 2015م، و 357 حالة في سنة 2016م، وكان معدل الانتحار لكل 100 ألف نسمة هو 1,09 في سنة 2015م، و1,31 في سنة 2016م. أما عمرياً، فكانت حالات الانتحار بعمر 29 سنة أو أقل تمثل نسبة 67,90% من جميع الحالات. وكانت الطريقة الأكثر شيوعاً للانتحار هي الشنق (41%)، تليها الأسلحة النارية (31,40%)، والحرق (19,2%). وكان التشخيص الأكثر شيوعاً هو الاكتئاب (53,90%) (عباس وآخرون، 2018).

خامساً: صورة الحياة في نينوى تحت حكم داعش

دفع احتلال داعش لمدينة الموصل في 9 حزيران/ يونيو 2014م الى نزوح أكثر من نصف مليون شخص من محافظة نينوى خلال ذلك الصيف. وقد نفذ التنظيم حملة منظمة لإفراغ المنطقة من التنوع الديني والعرقي إذ واجه الأيزيديون والمسيحيون والشبك والتركمان وغيرهم عملياتِ القتل والاختطاف، وسبي النساء أو تزويجهن بالقوة، وتجنيد الأطفال قسرياً. وبحلول نهاية 2015م سجلت منظمة الهجرة الدولية

IOM أن عدد الأسر النازحة من الموصل قد وصل إلى 175,000 بينها 32,000 أسرة نزحت داخل المحافظة ذاتها (هيغل، 2016). وأظهرت نتائج "**المسح الوطني للنازحين**" 2014م أن محافظة نينوى جاءت في المرتبة الأولى من بين بقية المحافظات العراقية في عدد النازحين الذين تعرضوا للقتل أو القصف، وللاختطاف والاختفاء، وللإساءة والتعذيب، والاستغلال والأضطهاد، ولفقدان الوثائق الثبوتية الرسمية، طبقاً للنسب الآتية على التتابع: 28%، 36%، 43%، 63%، 50%. كما اتضح أن التهجير كانت له آثار نفسية مباشرة على نسبة كبيرة من النازحين، إذ بلغ عدد النازحين من مدينة الموصل الى مناطق العراق الأخرى عدا إقليم كوردستان ممن يعانون من اضطرابات نفسية بسبب النزوح - ما بين خفيفة وبالغة الصعوبة ومعيقة- حوالي 4016 نازحاً لغاية نهاية سنة 2014م، وهو عدد مرتفع من بين محافظات العراق الأخرى (الجهاز المركزي للإحصاء، 2015).

الاعتلالات النفسية الفردية في مجتمع النازحين

إن البيئة المأزومة التي يواجهها النازحون تجعلهم يعايشون مستويات مضاعفة من العوامل المسببة للضغوط النفسية ذات الطابع الفردي. وهذا الارتفاع في مستويات هذه الضغوط على الفرد من شأنه أن يستنزف طاقته النفسية، فضلاً عن تأثيرات معرفية كالنقص في شدة الانتباه والتركيز، واضطرابات الذاكرة، وقلة سرعة الاستجابة، وازدياد معدل الأخطاء العقلية الاضطرابات الفكرية والأوهام. أما التأثيرات الانفعالية فتشمل زيادة التوتر، واختفاء الإحساس بالصحة والسعادة، وزيادة معدلات القلق، ويصبح الفرد أكثر حساسية، ويظهر الاكتئاب والعجز، وينمو لديه شعور بعدم القيمة. وتبرز أيضاً تأثيرات سلوكية كالتلعثم بالكلام، والتخلي عن بعض الأهداف الحياتية، وزيادة استعمال الادوية وبالخصوص المهدئات، وانخفاض مستوى الطاقة، واضطراب عادات النوم، والشك بالآخرين، وربما التفكير في الانتحار. كما تسبب الضغوط النفسية الموت المفاجئ والذي يعرف بـ"الموت الودوني" Voodoo Death ، وهو أحد الأمثلة المتطرفة للتأثيرات السلبية التي تحدثها النفس في الجسم، إذ يحدث نتيجة شعور الفرد باليأس وانعدام الأمل، أو نتيجة الضغوط الشديدة التي لايستطيع الفرد مواجهتها (الكناني، 2010).

وفي هذا الصدد، وفي تقرير لشبكة الأنباء الإنسانية IRIN، قالت "الكترا نوتسو" المديرة السابقة لأنشطة الصحة النفسية في منظمة "أطباء بلا حدود"، أنه على الرغم من تجاربها الكثيرة بوصفها طبيبة نفسية في مناطق الحروب، إلا أنها صُدمت من حجم الاحتياجات وصراحة المرضى في العراق. ووصفت المرضى الذين كانوا يطرقون نافذة سيارتها في تكريت، التي وصل إليها الكثير من النازحين من مدينة الموصل، بقولها أنها كانت تظن أنهم يبحثون عن طبيب ممارس عام لعلاج إصابات جسدية، لكنها وجدتهم يقولون: «لا، نريد فقط التحدث إليك ... وجاري يود أن يراك أيضاً».كما أشار التقرير إلى إحدى المتطوعات في منظمة "أطباء بلا حدود" للتدرب على **الإسعافات الأولية النفسية**[1]، إذ قالت أن معظم الناس الذين

[1] **الاسعافات الأولية النفسية** Psychological First Aid: استجابة إنسانية داعمة لأشخاص يتعرضون للمعاناة، وقد يكونون بحاجة إلى الدعم. وتنطوي هذه الاسعافات على تقديم الرعاية والمساندة العمليتين دون تطفل، وتقدير الاحتياجات والمخاوف، والاستماع إلى الناس دون ممارسة الضغط عليهم كي يتكلموا، وحمايتهم من التعرض لمزيد من

يأتون إلى هنا قد حاولوا الانتحار فعلاً ومنهم امرأة شابة أشعلت النار في نفسها بسبب مشكلات عائلية مستمرة. وقالت أن العديد من المرضى يريدون الحديث عن الطلاق، والإجهاد، والاكتئاب: «بعض الأشخاص يتسمون بالخجل، وآخرون يحبون الحديث ويأتون إلى هنا للحصول على مساعدة من الأطباء النفسيين» (سليمرود، 2017).

وأنجزت "منظمة حمورابي لحقوق الإنسان" مسحاً ميدانياً في تموز/ يوليو 2015م تناول أوضاع النازحين العراقيين (المسيحيين والايزيديين والشبك والكاكائيين) في محافظتي دهوك واربيل، القادمين من محافظة نينوى، مشخصاً الأوضاع النفسية والاجتماعية والاقتصادية، ومستنتجاً 12 مؤشراً، من بينها أن جميع النازحين تتصدر لديهم فكرة أن لا فرصة حقيقية لمستقبلٍ يمكن أن يصون حياتهم إلا بالعودة إلى مناطقهم ومنازلهم مع وجود ضمانات أمنية من خلال موقف دولي ضامن لمناطق الأقليات بعيداً عن التجاذبات السياسية بين الحكومة الفيدرالية وحكومة إقليم كردستان. وأفاد مؤشر آخر أن كل النازحين الذين غادروا الموصل وأقضية وبلدات سهل نينوى وسنجار كان يسيطر عليهم شعور بالمهانة نتيجة تخلي السلطات الحكومية المركزية وحكومة الإقليم عنهم، وقد تعمق هذا الشعور بالمهانة عندما علموا أن داعش دخلت أغلب المناطق بدون أي قتال بعد الانسحاب المفاجئ للقوات العسكرية من مواقعها. كما عبّر النازحون عن شعور مؤلم بسبب الخسارات المادية الواسعة التي أصابتهم بعد فقدانهم لممتلكاتهم في المناطق التي اجتاحها داعش، وما تبع ذلك من سبي وتزويج بالإكراه والإجبار على تغيير الانتماءات الدينية وبيع النساء في سوق النخاسة. وعبّر معظمهم عن افتقادهم لما يسمى بالانتماء الروحي الذي كانوا يجدونه عند زياراتهم لمعابدهم ومزاراتهم الدينية التي دمّرها داعش (منظمة حمورابي لحقوق الإنسان، 2015).

الاعتلالات النفسية المجتمعية بعيدة المدى

تتضح تحديات الصحة النفسية الفردية في الاضطرابات النفسية السريرية المتنوعة - الوقتية أو الدائمة- التي سبق التطرق إليها في الفقرة السابقة، والتي باتت شائعة في مجتمع النازحين على وجه الخصوص، وتتطلب معالجات وإرشادات طبقاً للوسائل التقليدية في علم النفس السريري.

أما "الصحة النفسية المجتمعية" فهو مفهوم ذو رؤية شاملة وتفصيلية يتجاوز بمضامينه وآلياته أساليبَ العلاج والإرشاد النفسي الفردي التقليدية، إذ يدخل هذا المفهوم ضمن إطار ستراتيجية وطنية مطلوبة لتأهيل الصحة النفسية في مجتمع - بشقيه النازح والمقيم- عانى من ضغوط هائلة وتجارب نفسية واجتماعية ووجودية مريرة خلال ما يقارب العامين والنصف. فهذا المفهوم ينفتح لمعالجة الاعتلالات النفسية ذات الطابع السلوكي المجتمعي بما تتركه من تأثيرات سلبية في مجمل الحراك الاجتماعي الآني والمستقبلي. فلا يمكن حسبان ما حدث في الموصل انقلاباً في الحكم فحسب، رافقته بعض التغييرات في

الأذى. وهي أمر لا يقوم به إلا المحترفون، وتعدّ بديلاً عن التفريغ النفسي، إذ تحتوي على عوامل تبدو مفيدة للغاية في عملية تعافي الناس على المدى البعيد، منها الشعور بالأمان والارتباط بالآخرين والهدوء والأمل والإحساس بالقدرة على مساعدة الذات (منظمة الصحة العالمية، 2012).

القادة والمسؤولين، إنما هو انقلاب جذري على كافة المستويات. فبعد احتلاله للموصل، أصدر تنظيم داعش في 13 حزيران/ يونيو 2014م "وثيقة المدينة" التي أوضح فيها الخطوط العريضة للمرحلة المقبلة من الحكم، إذ ورد فيها فقرة تخاطب أهل الموصل بأنهم جربوا الأنظمة العلمانية والملكية والجمهورية، وأنهم سينعمون الآن بالعيش في كنف الدولة الإسلامية وسيخضعون للشريعة الإسلامية. تضمنت وثيقة المدينة 16 نقطة، أهمها التبشير بما يسمى الحكم الشرعي وأن الناس في ظل "دولتهم" يعاملون بناء على ما يظهر منهم، وأن جميع الأموال العائدة للحكومة العراقية باتت تعود إلى بيت مال المسلمين، وأن باب التوبة قد فُتح لعناصر الشرطة والجيش بعد أن وصفتهم الوثيقة بالمرتدين، كما أعلنت إزالة كل التماثيل والمنحوتات والنصب وتسويتها بالأرض، ودعوة النساء إلى التزام المنازل وأهمية اللباس الشرعي الذي هو النقاب الكامل لتغطية جسد المرأة بالكامل (الموصلي، 2016).

لقد أحدثت سيطرة تنظيم داعش ومارافقها من عمليات نزوح وتهجير قسري تحولاً كبيراً في حياة الناس. فقلة موارد العيش، والانقطاع عن الدراسة بكافة مراحلها، وعدم وجود فرص عمل، والعقوبات القاسية التي فرضها التنظيم المتشدد، وبيئة الخوف والتضييق على مساحات الترفيه والعزلة عن العالم الخارجي، كل هذه الظروف مرشحة أن تخلق تداعيات تشكل في مجملها تحديات خطيرة تواجه الحكومات المركزية والمحلية في مرحلة ما بعد داعش (رشيد، 2017). فقد شهدت الموصل انهياراً في المنظومة الأخلاقية لكثير من الناس البسطاء والمراهقين والأطفال، فبدأوا مثلاً بتداول المصطلحات الداعشية مثل "السبي" و"الغنائم" و"المكوس" بسبب كثرة تداولها في خطب الجمعة من أئمة المساجد التابعين للتنظيم. وهذا كان يعني ترسيخاً لهذه القيم في العقول، وما يمكن أن ينتج عنها من تداعيات مستقبلية خطيرة، إذ أصبح من المألوف الحديث عن "سبي" النساء الكافرات مثل الأيزيديات. كما أصبح من المألوف أن تتحدث داعش عن أن كل ما تسرقه من أموال المسيحيين والشبك والأيزيديين والشيعة وحتى أبناء السنّة ممن تركوا أملاكهم وهربوا، إنما هي غنائم يحق للتنظيم أخذها والتصرف بها. وكل هذا يعني أن هذه الأفكار تحتاج إلى مدة طويلة وبرامج موجهة لإزالتها من عقول هذه الفئة من الناس (الموصلي، 2016).

وعلى مستوى الطفولة، منع داعش مظاهر الاحتفال والابتهاج في المناسبات العامة والخاصة، وأغلق بعض المنتزهات، وقام بتطبيق التعليمات على الأطفال كما يطبقها على الكبار مثل عدم حلق الشعر وتقييد الإناث بلبس النقاب ومنعهن من التعليم، وحظر بعض الألعاب والأناشيد في حياتهم اليومية، ما خلق لدى أطفال الموصل الاكتئاب وجعلهم منعزلين حتى داخل عوائلهم ومع أصدقائهم. كما إن أصوات الانفجارات والقصف والإعدامات والرصاص اليومية خلقت لديهم الخوف وجعلت الكثيرين منهم غير قادرين عن الافتراق عن آبائهم وأمهاتهم ولو لوقت قصير. ويشاهد الأطفال يومياً وجوهاً غريبة بشعر طويل وملابس قصيرة قذرة ومدججين بالأسلحة يقتحمون البيوت بصورة عنيفة، كما يشاهدون آباءهم وهو خائفين ومذعورين طوال الوقت. يضاف إلى ذلك أن أعداداً غير محدودة من الأطفال فقدوا آباءهم وأمهاتهم جراء إعدام داعش لهم أو بسبب القصف الخاطئ لقوات التحالف، فأفقدهم الرعاية والحنان التي يحتاجونها في أعمارهم هذه، وهذا عبء نفسي آخر يضاف إلى الهموم النفسية الكثيرة التي يعانون منها (المؤسسة العراقية للتنمية، 2016).

وفي تقرير لـ"منظمة مراقبة حقوق الإنسان" Human Rights Watch فإن جميع النساء والفتيات بعمر 21 سنة اللواتي تمت مقابلتهن، أفدن بإجبارهن على ارتداء النقاب الذي يغطي الجسد كله، والوجه والرأس، مع غشاء على عيونهن وقفازات وجوارب، كلما خرجن من بيوتهن، وجميع الملابس يجب أن تكون سوداء دون أي زينة. وذكرن أيضاً أنهن كن يخشين التعرض للضرب في حال عدم الامتثال. وغالباً كان الأقارب الذكور هم الذين يُعاقَبون عند مخالفة قواعد الملبس بـ 30 جلدة أو غرامة 50 إلى 100 ألف دينار عراقي (45 إلى 90 دولاراً أمريكياً) أو بالعقوبتين معاً. وفي بعض المناطق، ومنها الحويجة، شاركت مقاتلات أجنبيات تابعات لداعش في أعمال "الحسبة" (أي شرطة الآداب في داعش)، فأشرفن على لباس النساء بالاستعانة بعصي معدنية. وكنّ يقمن أحياناً بوخز النساء أو صفعهن أو حتى عضّهن جراء مخالفة قواعد الملبس. قالت امرأة أن عناصر نسائية من الشرطة ألقت مياه مجاري على أوجه جاراتها لأنهن كن يجلسن أمام بيوتهن دون تغطية وجوههن. وقالت النساء أنهن لم يُسمَح لهن بالتنقل خارج البيت دون رفقة ولي أمر ذكر حتى في الزيارات العائلية القريبة من البيت (هيومن رايتس ووتش، 2016).

توظيف التعليم والإعلام في إنتاج التطرف

قام داعش بإلغاء عدد من الكليات بدعوى أنها شركية أو تعمل وفق قوانين وضعية مثل كلية الفنون الجميلة وكلية الحقوق، كما قام بنقل جميع طالبات كلية الهندسة إلى كلية الطب بدعوى عدم شرعية دراسة البنات للهندسة. وفي التعليم الابتدائي والثانوي قام بإغلاق معهد الفنون الجميلة، وفصل النساء عن الرجال في الكوادر التعليمية، وألغى مناهج الجغرافية والتربية الوطنية، وعمل على إصدار مناهج تعليمية جديدة تتضمن أفكاره. وكل ذلك أدى إلى امتناع الأهالي بأعداد مهمة عن إرسال أبنائهم إلى المدارس خوفاً من التطرف والتشوه الفكري الذي تتضمنه المناهج الجديدة (الموصلي، 2016). ومن بين المناهج الدراسية الجديدة المحرضة على العنف، ما يسمى بالتربية الجهادية التي تتضمن زرع أفكار التطرف، والتدريب على استعمال الأسلحة والتفخيخ وخوض الاشتباكات. وكذلك تم تحويل دروس الرياضة والفن إلى دروس اللياقة البدنية (المؤسسة العراقية للتنمية، 2016).

كما قام داعش حال سيطرته على مدينة الموصل بالاستيلاء على مقرات الصحف الرئيسة في المدينة، وقام باعتقال عدد كبير من الصحفيين العاملين فيها. وكان قبلها قد سيطر على القنوات الفضائية وسرق محتوياتها واعتقل وقتل عدداً من منتسبيها. كما أغلق الإذاعات والمجلات، وصادر أجهزة البث والإنتاج الفني والمطابع بضمنها مطبعة جامعة الموصل التي استغلها لطباعة الأوراق والملفات الخاصة به ومنها المناهج التعليمية الجديدة. وقد توقفت الحركة الثقافية في مدينة الموصل تماماً، إذ منع إقامة الندوات الفكرية والأدبية، ومنع إصدار الصحف ودخولها إلى المدينة، ما جعل مثقفي المدينة يعيشون في عزلة كبيرة خصوصاً مع قطعه لشبكة الانترنت. كما نجحت ماكنته الإعلامية في الترويج لأفكاره بصورة كبيرة لا سيما بعد عزله لرجال الدين المعتدلين (الموصلي، 2016).

إن هذه الستراتيجية المنظمة التي اتبعها داعش في مجالات التعليم والثقافة والإعلام وإعادة هيكلة الأنساق الثقافية والاجتماعية للمجتمع المحلي والمؤسسات الرسمية، قد أفرزت تأثيرات نفسية مجتمعية على المديين القصير والبعيد. فإفقار الحياة العامة فكرياً، وتوظيف مناهج التعليم لإنتاج التطرف والغلو

والعنف، وإفراغ المجال العام من أي آراء أو مبادرات سوى الفكر التكفيري الإقصائي، يعني أن مساعٍ جدية قد بُذلت لتقوية التفكير المتصلب والاتجاهات التعصبية والنزعات العدوانية، ولتقويض الثقة الاجتماعية، ولترسيخ مشاعر الشك والاضطهاد والريبة بين الناس. وكلها عواقب نفسية بالغة الخطورة تتطلب تشخيصاً ومعالجة جدية خلال المرحلة القادمة.

سادساً: نظام الرعاية الصحية النفسية في العراق

أصبح نظام الرعاية الصحية بمختلف تخصصاته أكبر المتضررين من بين جميع مجالات التنمية في العراق التي تأثرت بالغزو الذي قادته الولايات المتحدة الأمريكية 2003م، إذ جرى تدمير خدمات الرعاية والوقاية ومكافحة الأمراض والبنية الأساسية للبحوث الطبية، إلى جانب عوامل أخرى تعيق محاولات إحياء نظام الرعاية الصحية من بينها الأمن القومي الهش ونقص الخدمات العامة مثل المياه والكهرباء (Iraq's growing health crisis, 2014). فقد أظهر مسح أجرته "شبكة معرفة العراق" IKN 2011م أن جميع الأسر العراقية تقريباً (96,40%) ليس لديها تأمين صحي على الإطلاق، وأن 40% من السكان يرون خدمات الرعاية الصحية في مناطقهم سيئة أو سيئة جداً. وبلغت نسبة الأطباء الذين هاجروا خارج العراق بعد 2003م نحو (60-70)% من أصل العدد الكلي المسجل لدى نقابة الأطباء العراقيين البالغ 34 ألف طبيب، فضلاً عن هجرة أعداد غير معروفة للكوادر الطبية الوسطية، بحسب إحصائية رسمية لوزارة الصحة نشرت مطلع سنة 2012م. وكانت لجنة الصحة والبيئة بمجلس النواب قد كشفت في في سنة 2011م بأنّ نسبة الاطباء في العراق هي طبيب واحد لكل 40 ألف مواطن، يضافُ اليه النقصُ الواضح في الكوادر الطبية الساندة والثانوية الى جانب العدد الهزيل من أسرّة العلاج في المستشفيات بإزاء عدد المرضى الهائل، فضلاً عن نقص المعدات الطبية. ففي البلدان المتقدمة تبلغ النسبة طبيب واحد لما يتراوح بين (250–400) مواطن (المقدادي، 2015).

ويعاني قطاع الصحة النفسية من تدهور خاص بسبب النقص الحاد في تقديم خدمات الرعاية النفسية بأنواعها إلى المواطنين بسبب استمرار الأزمات السياسية والمجتمعية الحادة بوتائر عالية منذ فرض العقوبات الاقتصادية الدولية على العراق في أعقاب غزو الكويت 1990م وما أعقب سنة 2003م من تفاقم العنف والتطرف واندلاع الاقتتال الأهلي وتدفق النازحين داخل البلاد وخارجها بأعداد كبيرة.

فقد صدر قانون الصحة النفسية بالرقم (1) لسنة 2005م الذي ينص على تأسيس الهيئة الوطنية للصحة النفسية بهدف وضع الخطط لرعاية المصابين باضطرابات نفسية وضمن المنهاج الوطني للصحة النفسية المعتمد في وزارة الصحة بالتعاون مع منظمة الصحة العالمية، لتأمين رعاية مناسبة لهم والتخفيف من معاناتهم ومعالجتهم في وحدات علاجية متخصصة تتوافر فيها الشروط الملائمة بما يضمن تنظيم مكوثهم في الوحدات العلاجية المغلقة تحت الاشراف الطبي والقضائي ويؤمن حقوقهم الانسانية والاجتماعية ضمن برنامج علاجي تاهيلي منظم (قانون الصحة النفسية العراقي، 2017). إلا أن واقع نظام الرعاية الصحية النفسية الحالي في العراق يشير إلى إخفاق واضح لهذا القانون في تحقيق أهدافه. فعلى الرغم من الحاجة المستمرة والمتزايدة لتقديم الإسعافات النفسية الأولية والدعم النفسي والاجتماعي إلى المتضررين من العنف السياسي والديني، إلا أن هذه الخدمات الحيوية ما تزال تعاني من قصور ونقص في

حالات كثيرة بسبب قلة الكوادر المدربة وافتقار البلاد عموماً - الحكومة الفيدرالية أو حكومة اقليم كردستان على حد سواء- إلى ستراتيجية شاملة لتطويق هذه الأزمة النفسية المتعددة الأبعاد، وعدم كفاية الدعم الكمي والنوعي المقدم من المجتمع الدولي. فلا يوجد في العراق أطباء نفسيون مدربون في علم النفس السريري بما يكفي للتعامل مع مثل هذه الاحتياجات. وبالإضافة إلى فرق منظمة "أطباء بلا حدود" والأشخاص الذين يعملون مع وكالات المعونة الأخرى، لا يوجد سوى قرابة 80 شخصاً متخصصاً في علم النفس السريري في العراق وإقليم كردستان العراق، وفقاً للأرقام الرسمية. وهناك المزيد من الأطباء النفسيين – بعضهم مدرب على أساليب مثل العلاج السلوكي المعرفي – ولكنهم يتحملون أكثر من طاقتهم أيضاً (سليمرود، 2017).

فقد أشار مسح أجرته منظمة الصحة العالمية بالتعاون مع وزارة الصحة العراقية 2006م عن نظام الصحة النفسية في العراق، أن عدد الأطباء النفسيين في كل العراق لا يزيد عن 91 طبيباً، وأن 7% فقط من هؤلاء الأطباء، و1% فقط من الممرضات المختصات بالصحة النفسية داخل العراق، قد تلقوا تدريباً– لمدة يومين- لتنشيط خبراتهم في الرعاية النفسية. أما العدد الكلي للمشتغلين في قطاع الصحة النفسية فقد بلغ 1,60 لكل 100 ألف مواطن. وفي الوقت نفسه يتوفر (0,01) طبيب نفسي، و(0,38) ممرضة، لكل سرير في المستشفيات النفسية (World Health Organization, 2006). وهذا يعني أن كمية الكوادر التي من شأنها التخفيف من أزمات الحالات النفسية المستشرية لا تبدو متوافقة مع نسبة المرضى، إذ يعالج هؤلاء المرضى عددُ أطباء نفسيين لا يزيد على أربعة لكل مليون مريض، بحسب وزارة الصحة، أي بمعدل طبيب نفسي واحد لكل (250) ألف شخص، في حين يتوفر في دول العالم طبيب نفسي لكل عشرة آلاف شخص، وحتى أقل من ذلك بكثير (المقدادي، 2015).

كما وجدت منظمة الصحة العالمية 2011م، أن عدد الأسرة المخصصة للصحة النفسية في المستشفيات النفسية في جميع أنحاء العراق تبلغ 1340 سريراً، أي بمعدل 4,258 سرير لكل 100 ألف مواطن. أما عن الموارد البشرية لنظام الصحة النفسية، فإن عدد الأطباء النفسيين يبلغ 0,27، وعدد الممرضات 0,89، وعدد الباحثين النفسيين 0,15، وعدد العاملين الاجتماعيين0,10، لكل 100 ألف مواطن (World Health Organization, 2011).

وفي أحدث تقدير رسمي لعدد المشتغلين في قطاع الصحة النفسية في عموم العراق 2019، يوجد اليوم ١٣٨ طبيباً نفسياً، و60 باحثاً نفسياً واجتماعياً، و385 ممرضاً. أما عدد الأسرّة فيبلغ ١٤٤٣ سريراً في المستشفيات النفسية وأقسام الطب النفسي في المستشفيات العامة (وزارة الصحة العراقية، 2019). وهذه الأرقام تشير إلى تدهور واضح في مستوى الخدمات النفسية بالمقايسة مع سنة 2011، في ضوء ازدياد عدد السكان من جهة، وتفاقم الاعتلالات النفسية بعد مرحلة داعش من جهة أخرى.

وأشارت خطة الصحة الوطنية (2014- 2023)م الصادرة عن وزارة الصحة العراقية إلى أن نظام الصحة النفسية في العراق على الرغم من الجهود المبذولة من المانحين ومن السلطات المحلية لتطويره، ومع انعقاد العديد من المؤتمرات والملتقيات التي أقيمت لوضع ستراتيجيات وخطط لتنشيطه، إلا أن الستراتيجية الوطنية للصحة النفسية (2008- 2013)م باتت تتطلب مراجعة وتحديثاً. فنظام الرعاية

والدعم النفسي والاجتماعي مثلاً لحالات اضطراب الضغوط ما بعد الصدمة ما يزال غير مناسب إلى حد كبير في ضوء شدة الصدمات التي واجهها العراقيون منذ سنة 1980م. فنسبة انتشار الاضطرابات النفسية تصل إلى 35,50% من عموم المجتمع العراقي، فيما إن الفجوة بين هذه الاضطرابات والإمكانات المتاحة لمعالجتها تصل إلى نسبة 94% (Ministry of Health, 2014).

سابعاً: خلاصة وتوصيات

تشير الأدبيات النفسية المتراكمة، إلى وجود علاقة قوية بين التعرض للعنف وبين ظهور أعراض الاعتلالات النفسية والسلوكيات العدوانية. فسواء كان الفرد ضحية للعنف أو شاهداً عليه، فإن ذلك يرتبط لديه بعدد من المخرجات الانفعالية والسلوكية ذات الطابع الإشكالي، كالقلق والغضب والاكتئاب وتفكك الشخصية والعدوان والجنوح. وقد تعرّض العراق بشكل ثابت إلى أحداث صدمية جسيمة، بدءً من الحروب المستمرة منذ 1980م، وما أعقبها من عقوبات اقتصادية دولية في تسعينات القرن الماضي، ثم مرحلة العنف الأهلي والإرهاب بعد 2003م. وقد مارست هذه الأحداث تأثيراً سلبياً على الحالة النفسية لعموم المجتمع العراقي، بضمنهم الأطفال والمراهقين. فالعراقيون شهدوا عدداً لا يحصى من السيارات الملغّمة، والعنف الجمعي، والعمليات العسكرية، إلى جانب مواجهتهم لخطر الأوبئة، والمجاعة، والموت، والصدمات النفسية، والخوف، والقلق، والاكتئاب، والكوابيس. ثم شكّل احتلالُ تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) لمدينة الموصل في 9 حزيران/ يونيو 2014م، وما أعقبه من تداعيات أمنية وسياسية واجتماعية، صدمة نفسية حادة طالت عموم العراقيين الواقعين تحت حكم هذا التنظيم أو خارجه، إذ أمست المنظومة النفسية المجتمعية برمتها في حالة تشوش وارتباك وتصدع بهذه الدرجة أو تلك.

وقد سعت الدراسة الحالية إلى استكشاف تأثيرات العنف في الصحة النفسية للمجتمع العراقي خلال الحقبة التي أعقبت سنة 2003م، لدى فئات اجتماعية متنوعة، مع تركيز خاص على حقبة داعش، إذ يقدر العدد الكلي للقتلى العراقيين المدنيين من جراء العنف الطائفي والعمليات العسكرية منذ 2003م وحتى 31 آذار/ مارس 2018م، بـ 203,136 شخصاً. أما عدد النازحين قسراً بتأثير العنف الديني والسياسي في عموم العراق حتى شباط/ فبراير 2017م، فقد بلغ 3,022,164 نازحاً.

وفي ضوء عدم وجود قواعد معلوماتية علمية مستقرة وشاملة يمكن الرجوع إليها لتقويم هذه الأوضاع النفسية، بسبب حالة التأزم والهشاشة التي تمر بها الدولة العراقية ومؤسساتها شبه المعطلة، فضلاً عن ضعف مساهمة المجتمع الدولي في مشاريع الأبحاث العلمية، وبرامج الرعاية والتأهيل النفسي والاجتماعي، فإن الدراسة الحالية اكتفت بمراجعة عدد من الدراسات والتقارير والشهادات المحلية والدولية المتخصصة بهذا الشأن، سعياً لصياغة تصور ابتدائي عن طبيعة الاعتلالات النفسية التي أنتجتها سنوات العنف والقسوة في العراق.

وقد اتضح من مجمل هذه المراجعات أن استدامة العنف في العراق أدت إلى ارتفاع شديد في انتشار الاضطرابات النفسية لدى جميع الفئات العمرية في عموم المجتمع، وبشكل خاص اضطرابات القلق والاكتئاب واضطراب الضغوط ما بعد الصدمة، وأن هذه الاضطرابات تتفشى بشكل خاص في الفئات

الأقل عمراً (أقل من 34 سنة). ويترافق ذلك مع مشاعر الإحباط، وعدم الجدوى، وسرعة الغضب، والمعاناة من الصداع، والخمول، والتفكير بالانتحار.

أما في البيئة المأزومة لمجتمع النازحين، فتتضاعف العوامل المسببة للضغوط النفسية، ما أدى إلى ظهور اعتلالات إدراكية كالنقص في شدة الانتباه والتركيز، واضطرابات الذاكرة، وقلة سرعة الاستجابة، وازدياد معدل الأخطاء العقلية، والاضطرابات الفكرية والأوهام. أما التأثيرات الانفعالية فشملت التوتر، واختفاء الإحساس بالصحة والسعادة، وزيادة معدلات القلق والاكتئاب والعجز، والشعور بعدم القيمة، والتلعثم بالكلام، والتخلي عن بعض الأهداف الحياتية، وزيادة استعمال المهدئات، وانخفاض مستوى الطاقة، واضطراب عادات النوم، والشك بالآخرين، والتفكير في الانتحار.

وعن أوضاع الطفولة والمراهقة في عموم المجتمع، فإن الدلائل العلمية تشير إلى انتشار اضطرابات الصدمة، واضطراب فرط الحركة ونقص الانتباه، والخوف، والقلق، والحزن، والإكتئاب، والضغط النفسي، والكوابيس، والتبول اللاإرادي، والصراخ، والبكاء غير العادي، والسلوك اللااجتماعي، والسلوك العدواني. ويعاني الأطفال والمراهقون النازحون بسبب احتلال داعش لمناطقهم من اعتلالات إضافية تتمثل باضطرابات الأكل كفقدان الشهية، واضطرابات النوم كالأرق والمشي والحديث أثناء النوم، وقلة التركيز، وضعف الحركة، والتوتر النفسي وايذاء الذات. يضاف إلى ذلك أن طفلاً من كل 5 أطفال في البلاد كان معرّضاً لمخاطر الموت والاصابة والعنف الجنسي والاختطاف والتجنيد القسري في صفوف المجموعات المسلحة.

وتعدّ معضلة "أشبال الخلافة" من أكبر التحديات التي ستستمر تداعياتها لسنوات طويلة بعد زوال داعش ما لم يتم ايجاد حلول جذرية لها. هؤلاء الاطفال الذين جُندوا قسراً في صفوف داعش هم ضحايا بالدرجة الاولى. وتشكل مهمة إعادة دمجهم في المجتمع أولوية أساسية وخطوة بالغة التعقيد. ويتطلب ذلك الرصد والتوثيق والدراسة لحجم وعدد أولئك الاطفال وطرائق ودوافع مشاركتهم، عبر إعداد برامج علاجية وتأهيلية لهم قبل أن يتحولوا إلى عناصر متطرفة في تنظيمات أكثر خطورة.

كما تمثل معضلة الأطفال الذين ولدوا من زيجات مع مقاتلي داعش تحدياً جدياً آخر، اذ تمتنع الحكومة العراقية عن اصدار أوراق ثبوتية لهم. وهذا يعني حرمانهم من حقوقهم في التعليم والرعاية الصحية والإرث، وسيصبحون من الناحية الاجتماعية أطفالاً غير شرعيين ويتعرضون للنبذ الاجتماعي ويعانون من الوصمة الاجتماعية بأنهم لقطاء، ما قد يجعلهم عرضة ليكونوا أشد عدائية وشعوراً بالظلم والكره للمجتمع والدولة، وهذا قد يهدد بانخراطهم في مجموعات متطرفة ما لم يتم إنصافهم قانونياً.

أما عن العنف ضد النساء، فقد جرى توثيق زيادة كمية ونوعية كبيرة في معدلات العنف البدني واللفظي والمعنوي والرمزي طوال مرحلة ما بعد 2003م، بسبب العنف الأهلي وتردي الأوضاع الأمنية التي عززت من سلطة الضبط الأبوية بكل ما تنطوي عليه من مبررات للعنف ضد المرأة. كما وجد أن معايشة العنف أو مشاهدته يرتبط بظهور الاضطرابات النفسية لدى النساء العراقيات.

وأدى العنف الجنسي الواسع النطاق الذي مارسه داعش ضد آلاف النساء الأيزيديات، بما تضمنه من اغتصاب وتعذيب وبيع واعتناق قسري للإسلام وفصل الأمهات عن أطفالهن، إلى ظهور دلائل الكرب

الانفعالي الحاد، لديهن، وتكررت محاولاتهن للانتحار. أما عن حالات الحمل بسبب الاغتصاب، فلا توجد حلول قانونية تساعدهن على التخلص من هذا الحمل، ولا تتوافر خطط متكاملة لتوفير الدعم النفسي والاجتماعي لهن، فضلاً عن صعوبة إعادة دمجهن في مجتمعاتهن المحلية بسبب قسوة التقاليد الاجتماعية والدينية السائدة.

كما وجد أن النساء الهاربات من الموصل بعد احتلال داعش، يعانين من حدة الطبع وسرعة الغضب، والكوابيس، والأرق، والرعب على بناتهم من الاغتصاب، والشعور بالتهديد بسبب العنف الجسدي، وافتقاد الانتماء إلى البلد، وفقدان الثقة بالمستقبل، والصداع والتقيؤ والإغماء، والشعور بالذنب، وفقدان الثقة بأقرب الناس.

ومن جانب آخر أشاع حكم داعش في المجتمعات المحلية التي سيطر عليها قيماً خاصة بعزل النساء تعزز وتكرس الهيمنة الذكورية التي كانت سائدة قبل سيطرته، إذ وِضِعت النساء في مرتبة أدنى بشكل يفوق ما كانت عليه من دونية في السابق، بما قد يؤثر على مكانة المرأة ويقيد حصولها على فرص التعليم والعمل والمشاركة بل وحتى الرعاية الصحية. كما قد يلغي أو يضعف دورها ومشاركتها في بناء السلم وإعادة الاعمار بعد مرحلة النزاع

أما النازحون البالغون من الأقليات (كالمسيحيين والايزيديين والشبك والكاكائيين) فباتوا يعتقدون أن لا فرصة حقيقية لمستقبلٍ يمكن أن تصون حياتهم دون وجود ضمانات أمنية دولية لحمايتهم، إذ يسيطر عليهم شعور بالمهانة بسبب الانسحاب المفاجئ للقوات العسكرية من مناطقهم ودخول داعش إليها، وما تبع ذلك من سبي وتزويج بالإكراه والإجبار على تغيير الانتماءات الدينية وبيع النساء في سوق النخاسة، فضلاً عن افتقادهم لما يسمى بالانتماء الروحي الذي كانوا يجدونه عند زياراتهم لمعابدهم ومزاراتهم الدينية التي دمّرها داعش.

وعلى المستوى التعليمي والثقافي والإعلامي، اتبع داعش سياسة منظمة لإعادة هيكلة الأنساق الثقافية والاجتماعية للمجتمع المحلي والمؤسسات الرسمية، ما أدى إلى إفقار الحياة العامة فكرياً، وتوظيف مناهج التعليم لإنتاج التطرف والغلو والعنف، وإفراغ المجال العام من أي آراء أو مبادرات سوى الفكر التكفيري الإقصائي. وهذا يعني أن مساعٍ جدية قد بُذلت لتقوية التفكير المتصلب والاتجاهات التعصبية والنزعات العدوانية، ولتقويض الثقة الاجتماعية، ولترسيخ مشاعر الشك والاضطهاد والريبة بين الناس. وكلها عواقب نفسية بالغة الخطورة تتطلب تشخيصاً ومعالجة جدية خلال المرحلة القادمة.

أما عن سلوكيات الإدمان في عموم المجتمع، فجرى رصد زيادة في إدمان العقاقير والمخدرات لدى الشباب العراقيين، بسبب رغبتهم بمواجهة الضغوط النفسية الناجمة عن الصراعات والحروب، وتحديداً لدى الفئات العمرية الشبابية، إذ إن الفئة العمرية (18- 39) عاماً تشكل أكثر من 75% من مجموع المدمنين في العراق. كما وجد أن الكثير من عمليات العنف المسلح سواء على مستوى الأشخاص أم على مستوى العشائر ترتبط بتعاطي المخدرات والاتجار بها.

وفيما يخص حالات الانتحار، يفتقر العراق إلى إحصائيات دقيقة ومستمرة عنه. إلا أن هذه الحالات باتت تنتشر بشكل ملفت للنظر بين الشباب والنساء في إقليم كردستان العراق، وبأساليب قاسية

وعدوانية. وقد سجلت السنتان 2012م و2013م أعلى معدل سنتين لحالات الانتحار في عموم العراق. أما عمرياً، فكانت حالات الانتحار بعمر 29 سنة أو أقل تمثل أكثر من 67% من جميع الحالات.

وفي مقابل كل هذه الاعتلالات والتصدعات يقف نظام الرعاية الصحية النفسية في العراق عاجزاً، إذ يفتقر إلى الموارد البشرية والمالية الكافية. فعلى الرغم من صدور قانون الصحة النفسية بالرقم (1) لسنة 2005م الذي ينص على تأسيس الهيئة الوطنية للصحة النفسية، إلا أن واقع نظام الرعاية الصحية النفسية الحالي في العراق يشير إلى إخفاق واضح لهذا القانون في تحقيق أهدافه. كما أن كمية الكوادر التي من شأنها التخفيف من أزمات الحالات النفسية المستشرية لا تبدو متوافقة مع نسبة المرضى، إذ يعالج هؤلاء المرضى عدد أطباء نفسيين بمعدل طبيب نفسي واحد لكل 250 ألف شخص، في حين يتوفر في دول العالم طبيب نفسي لكل عشرة آلاف شخص، وحتى أقل من ذلك بكثير.

أما على مستوى الحاجة المستمرة والمتزايدة لتقديم "الإسعافات النفسية الأولية" و"الدعم النفسي والاجتماعي" إلى النازحين والناجين من داعش، فإن هذه الخدمات الحيوية ما تزال تعاني من قصور ونقص في حالات كثيرة بسبب بسبب قلة الكوادر المدربة وافتقار البلاد عموماً إلى ستراتيجية شاملة لتطويق هذه الأزمة النفسية المتعددة الأبعاد، وعدم كفاية الدعم الكمي والنوعي المقدم من المجتمع الدولي. فحسب خطة الصحة الوطنية (2014- 2023)م الصادرة عن وزارة الصحة العراقية، فإن نظام الرعاية والدعم النفسي والاجتماعي مثلاً لحالات اضطراب الضغوط ما بعد الصدمة ما يزال غير مناسب إلى حد كبير في ضوء شدة الصدمات التي واجهها العراقيون منذ سنة 1980م، إذ تصل نسبة انتشار الاضطرابات النفسية إلى 35,50% من عموم المجتمع العراقي، فيما إن الفجوة بين هذه الاضطرابات والإمكانات المتاحة لمعالجتها تصل إلى نسبة 94%.

إن هذه الفجوة المتسعة بين الواقع النفسي المتدهور في العراق والإمكانيات العلاجية المتواضعة، تستدعي تحركاً مدروساً وسريعاً من الجهات الرسمية في الحكومة الاتحادية وحكومة إقليم كردستان، وبتنسيقٍ فاعل مع منظمات المجتمع المدني المحلية ودعم مؤثر من المجتمع الدولي، عبر مجموعة من الإجراءات المقننة المقترحة، منها:

1. وضع خطة ستراتيجية للمباشرة بإجراء مسوحات ميدانية شاملة لتقييم الصحة النفسية عبر حصر الإعتلالات النفسية السريرية والاجتماعية (الصدمات النفسية، والاكتئاب، والانتحار، والفوبيا، واضطرابات الأطفال، ومشكلات الذاكرة والإدراك، والسلوك العدواني، والنزعات المتطرفة، والتعصب الديني) وتشخيصها بشكل أولي لدى الفئات السكانية المتنوعة، وتقديم هيكلية دقيقة تسهم في إعداد خطة لاحقة للمتابعة والعلاج. ويمكن لهذه المسوحات أن تشمل كلاً من النازحين وغير النازحين، مع الأخذ بالحسبان التمايزات النفسية بين الفئتين بسبب تباين الظروف التي مرت بهما.
2. في ضوء نتائج هذه المسوحات، يُصار إلى وضع خطة ستراتيجية تكميلية للمباشرة بإجراءات الرعاية النفسية والدعم الاجتماعي قصيرة المدى وبعيدة المدى، لإعادة تأهيل الفئات السكانية المتضررة، فردياً وجماعياً.

3. يُمنح الأطفال والمراهقون والنساء وكبار السن أهمية خاصة ضمن هاتين الستراتيجيتين، بوصفهم فئات عانت من استهدافٍ مضاعف بحكم خصائصهم العُمرية والجندرية.
4. إجراء مسح سيكوسوسيولوجي لتقييم العلاقة بين جماعات الأقلية والأكثرية السكانية في نينوى (دينياً وعرقياً ومذهبياً) بهدف تحديد التصورات النمطية والاتجاهات النفسية السائدة بين الجماعات، سعياً لتبني سياساتٍ آنية ومستقبلية تعمل على تنمية التسامح والهوية الوطنية واحترام التنوع.
5. تأسيس مفوضية خاصة بشؤون الأقليات السكانية المتضررة من داعش، تعمل في إطارين متداخلين:

أ-إطار نفسي: يختص بإعادة التأهيل النفسي والاجتماعي لضحايا العنف الجسدي والاسترقاق الجنسي التي تعرضت له بشكل خاص النساء والفتيات الايزيديات.

ب- إطار قانوني (محلي ودولي): يختص بإثبات جرائم الإبادة الجماعية وضد الإنسانية التي مورست ضد أتباع الأقليات، وما يترتب على ذلك من تعويضات مادية واعتبارية ونفسية للحقوق المنتهكة ضمن مبدأ العدالة الانتقالية.

6. إيجاد حلول عادلة وسريعة لمسألة ضحايا الاغتصاب الجنسي، وحقهن بالإجهاض، والأطفال المجهولي النسب، وإصدار الأوراق الثبوتية الرسمية لما يسمى بنساء وأطفال الخلافة، عبر إعادة النظر ببعض البنود القانونية النافذة المعطِّلة لهذه الحلول، وتفعيل أو تشريع بنود أخرى تسهّلها.

المراجع

أطباء بلا حدود (2013). *مداواة الجروح النفسية: تحديات توفير الرعاية الصحية النفسية في العراق*. بغداد: تقرير منظمة أطباء بلاحدود.

برنامج الأمم المتحدة الأنمائي UNDP (2016). *تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام 2016- الفصل السادس: آثار الحرب والنزاع العنيف على الشباب*، ص 109- 126متاح في: http://www.arab-hdr.org/Reports/2016/arabic/Ch6AR.pdf

بعثة الأمم المتحدة لمساعدة العراق (يونامي) (2017). *تعزيز وحماية حقوق ضحايا العنف الجنسي الذين وقعوا في أسر داعش/ أو في المناطق التي يسطر عليها داعش في العراق*. بغداد: مكتب المفوضية العليا لحقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة.

جابر، فاطمة سالم (2018). الأسباب المؤدية إلى انتشار المخدرات في العراق من وجهة نظر كلية التربية الأساسية. *مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية*- جامعة بابل، العدد 37، ص558- 568.

الجلبي ، سوسن (2004). أثر الحصار الاقتصادي على الجوانب الصحية للأطفال في العراق، *مجلة شبكة العلوم النفسية العربية*، العدد (1)، يناير، ص 11- 24.

الجهاز المركزي للإحصاء (2015). *المسح الوطني للنازحين في العراق لسنة 2014*. بغداد: وزارة التخطيط، الجهاز المركزي للإحصاء.

الجهاز المركزي للإحصاء (2018). *البيانات الصحفية لشهر أيلول*. متاح في: http://www.cosit.gov.iq/images/press_release/ar/pdf/press47_2018.pdf

الخليج اونلاين (2015). *أشبال الخلافة يعدمون 25 من قوات الأسد بمدرج أثري في تدمر*. متاح في: http://alkhaleejonline.net/articles/1436036735001792400/

حوري، نديم (2016). *أطفال الخلافة: ما العمل حيال الأطفال المولودين تحت سيطرة داعش*. منظمة هيومان رايتس ووتش. متاح في: https://www.hrw.org/ar/news/2016/11/23/296959

دائرة البحوث في مجلس النواب العراقي (2014). *انتشار الانتحار في العراق: أسبابه، مقترحات*. بغداد: مجلس النواب العراقي.

دوملي، خضر (2016). *الموت الأسود: مآسي نساء الأيزيدية في قبضة داعش*. دهوك: مطبعة خاني.

رشيد، أسماء جميل (2012- أ). *المنظور الثقافي للعنف ضد المرأة في العراق: دراسة ميدانية*. بغداد: مركز دار السلام العراقي.

رشيد، أسماء جميل (2012 - ب). الأوضاع النفسية والاجتماعية لنساء الأقليات في العراق: دراسة ميدانية. *مجلة البحوث التربوية والنفسية*، المجلد الأول، العدد 33، ص 273- 328.

رشيد، أسماء جميل (2017). *المشاكل الاجتماعية والنفسية لسكان محافظة نينوى وآليات معالجتها*. ورقة مقدمة في ورشة عمل "أوضاع محافظة نينوى بعد التحرير". بغداد: مركز النهرين للدراسات الاستراتيجية.

ساجت، خالد حنتوش (2017). *المخدرات في العراق – ملاحظات ميدانية في المحافظات الجنوبية*. بغداد: مركز البيان للدراسات والتخطيط. متاح في: http://www.bayancenter.org/2017/09/3698/

سلمان، هدى محمد؛ وغني، مثال عبد الله (2015). الآثار النفسية لأعمال العنف الإرهابية لعصابة داعش في نفوس النساء النازحات من الموصل. *مجلة ميسان للدراسات الأكاديمية*، عدد خاص للمؤتمر العلمي الثاني لكلية التربية الأساسية، ص 868- 880.

سليمرود، آني (2017). *تنامي مشكلات الصحة النفسية في العراق* (ملف: ما بعد الموصل: العقبات التي التواجه السلام في العراق على المدى الطويل). تحقيق شبكة الأنباء الإنسانية IRIN. متاح في: http://www.irinnews.org/ar

الطيار، روافد (2017). *العنف الأسري في العراق بين تقبل المجتمع وغياب القانون*. مركز الفرات. متاح في: http://fcdrs.com/humanrights/819

عباس، محمد جمعة؛ والحميري، نصيف؛ وعبد الرزاق، عماد؛ ونعوش، شاكر؛ وأبليبي، لويس (2018). *الدراسة الوطنية الأولى للانتحار في العراق لعامي 2015 و2016*. بغداد: مركز البيان للدراسات والتخطيط.

قانون الصحة النفسية العراقي رقم 1 لسنة 2005 (2017). محاماة نت. متاح في: http://www.mohamah.net/law/

الكناني، حيدر لازم (2010). *الضغوط النفسية التي يعاني منها النازحون قسراً*. موقع الحوار المتمدن، العدد (3025)، متاح في: http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=218138

المؤسسة العراقية للتنمية (2016). *ترسيخ افكار التطرف لدى الاطفال من خلال التعليم والتأثيرات والتغيرات النفسية* (تقرير). متاح في: http://www.arabccd.org/files/0000/681/Establish%20extremism%20ideas%20in%20children-Ar.pdf

المسح المتكامل للأوضاع الاجتماعية والصحية للمرأة العراقية I-WISH2011 (2012). الجهاز المركزي للإحصاء، وزارة التخطيط، بغداد.

المقدادي، كاظم (2015) الإدارة الرثة لنظامي الرعاية الصحية والبيئية في العراق. في: فارس كمال نظمي. *الرثاثة في العراق: أطلال دولة رماد مجتمع*. بغداد: دار ميزوبوتاميا، ص 82- 107.

مكتب المفوض السامي لحقوق الإنسان (1993). *إعلان بشأن القضاء على العنف ضد المرأة*. الأمم المتحدة. متاح في: https://www.ohchr.org/AR/ProfessionalInterest/Pages/ViolenceAgainstWomen.aspx

منظمة الأمم المتحدة للطفولة UNICEF (2017). *الدعم النفسي والاجتماعي والرفاه*. متاح في: https://www.unicef.org/arabic/protection/24267_68575.html

منظمة حمورابي لحقوق الإنسان (2015). *مع تواصل حالة النزوح استمرار الشعور بالمهانة و الانكسار: مسح ميداني*. متاح في: http://www.hhro.org

منظمة الصحة العالمية- المكتب الإقليمي لشرق المتوسط (2011). *ورقة تقنية حول الاستراتيجية المعنية بالصحة النفسية وتعاطي مواد الإدمان في إقليم شرق المتوسط (2012- 2016)*. اللجنة الإقليمية لشرق المتوسط، الدورة الثامنة والخمسون.

منظمة الصحة العالمية (2012). *الإسعافات الأولية النفسية: دليل العاملين في الميدان*. جنيف: منظمة الصحة العالمية.

منظمة العفو الدولية (2016). *العراق: أطفال في مرمى النيران في المعركة على الموصل ويعانون الإصابات المروعة والصدمات النفسية* (بيان صحفي). متاح في: https://www.amnesty.org/ar/press-releases/2016/12/iraq-children-caught-in-the-crossfire-of-the-battle-for-mosul-suffer-horrific-injuries-and-trauma/

الموصلي، ذنون بن متي (2016). *الموصل بين احتلالين 2003- 2014: مذكرات مواطن عراقي*. بغداد: دار سطور.

نظمي، فارس كمال (2010). *مقالات ودراسات في الشخصية العراقية*. بيروت: دار ومكتبة البصائر.

هيغل، لهيب (2016). *أزمة النزوح في العراق: الأمن والحماية*. مركز سيسفاير لحقوق المدنيين والمجموعة الدولية لحقوق الأقليات.

هيومن رايتس ووتش (2015). *الهاربات من داعش تصفن عمليات اغتصاب ممنهجة*. متاح في: https://www.hrw.org/ar/news/2015/04/15/269611

هيومن رايتس ووتش (2016). *معاناة نساء العراق تحت حُكم "داعش: التضييق على السُّنة ووقائع جديدة عن اغتصاب الإيزيديات*. متاح في: https://www.hrw.org/ar/news/2016/04/06/288458

وزارة الصحة العراقية (2019). *مستشارية الصحة النفسية*. تواصل شخصي مع مستشار الصحة النفسية د. عماد عبد الرزاق- 11/ 4/ 2019.

اليونيسيف (2016). *ثمن باهظ يدفعه الأطفال: العنف يدمر الطفولة في العراق*. تقرير صادر عن منظمة الطفولة التابعة للأمم المتحدة (اليونيسيف).

اليونيسيف (2018). *لا تزال اللامساواة الكبيرة أهم ما تتسم به حياة الأطفال في العراق*. متاح في: https://www.unicef.org/ar

Ahmad, F., Medder, J., Geske, J., Taylor, J. & Margalit, R. (2018). Mental health problems due to community violence exposure in a small urban setting. *Journal of Family Medicine and Community Health,* 5(3), 170 – 178.

ALhasnawi, Salih et. al. (2009). Prevalence and correlates of DSM-IV disorders in the Iraq Mental Health Survey (IMHS). *World Psychiatry*, 8(2), 97–109

Al-Hemiary, Nesif (2015). Exposure to violence and academic achievement in Iraq. *Journal of the Faculty of Medicine Baghdad* , 57(3), 218- 220.

Al-Hemiary, Nesif Jasim, Al-Diwan, Jawad, Hasson, Albert, L. & Rawson, Richard, A. (2014). Drug and Alcohol Use in Iraq: Findings of the Inaugural Iraqi Community Epidemiological Workgroup. *Substance Use & Misuse*, 49(13),1759-1763.

Al-Nuaimi, Maha (2013). Community violence and mental health among Iraqi women, a population-based study. *Qatar Medicine Journal*, 2, 20-28.

Al-Nuaimi, Maha, Hamad, Ruaa & Lafta, Riyadh (2015). Effects of witnessing or exposure to community violence on mental health of Iraqi men. *Qatar Medicine Journal*. Available Online: http://www.qscience.com/doi/10.5339/qmj.2015.10

Alobaidi, Abdulkareem (2011). Iraq: children's and adolescents' mental health under conditions of continuous turmoil. *International Psychiatry*, 8 (1). 4-5.

Alobaidi, Abdulkareem (2013). Psychological Trauma: Experience from Iraq. *Journal of Trauma & Treatment*. Available Online: https://www.omicsonline.org/open-access/psychological-trauma-experience-from-iraq-2167-1222.1000S4-005.pdf

Alobaidi, A. K., Scarth, L. & Dwivedi, K. N. (2010) Mental disorder in children attending a child psychiatric clinic at the General Pediatric Hospital in Baghdad. *Journal for International Mental Health Promotion*, 12, 24–30.

Al-Shawi, Ameel (2016). *Relationship of Violence Exposure and Mental Health of Youth in Iraq*. Qatar Foundation Annual Research Conference Proceedings. Available Online: http://www.qscience.com/doi/pdf/10.5339/qfarc.2016.HBPP1326

American Psychiatric Association (2013). *Diagnostic and Statistical Manual of Mental Disorders: Fifth Edition, DSM- 5*. Washington, DC: American Psychiatric Association.

Faulders, Katherine (2014). Iraq, Iran Top World's Unhappiest Countries List. *ABC NEWS*. Available Online: https://abcnews.go.com/blogs/politics/2014/06/iraq-iran-top-worlds-unhappiest-countries-list

Flannery, D. J. (2006). *Violence and Mental Health in Everyday Life: Prevention and intervention strategies for children and adolescents*. San Francisco, CA: Altamira Press.

Flannery, D. & Singer, M. & Dulmen, M.& Kretschmar, J. & Belliston, L. (2007). *Exposure to Violence, Mental Health, and Violent Behavior*. Available Online: https://www.researchgate.net/publication/251678669_Exposure_to_violence_mental_health_and_violent_behavior

Fowler, P., Tompsett C., Braciszewski J., Jacques-Tiura, A. & Baltes, B. (2009). Community violence:A meta-analysis on the effect of exposure and mental health outcomes of children and adolescents. *Development and Psychopathology*, 21(1), 227-259.

Hamid, Hamada & Everett, Anita (2007). Developing Iraq's Mental Health Policy. *Psychiatric Services*, 58(10), 1355- 1357.

Hanna, Vian & Ahmad, Abdulbaghi (2009). Suicide in the Kurdistan Region of Iraq, state of the art. *Nordic Journal of Psychiatry*. Available Online: https://www.researchgate.net/publication/23665976_Suicide_in_the_Kurdistan_Region_of_Iraq_state_of_the_art

International Organization for Migration (IOM) (2015). *Displacement in Iraq Exceeds 3.2 Million.* Available online: http://iomiraq.net/article/0/displacement-iraq-exceeds-32-million-iom

Iraq's growing health crisis (2014). *The Lancet*, 384 (9938), 119- 120.

Iraqi Mental Health Survey 2006 – 2007 (2009). World Health Organization & Ministry of Health- Iraq.

Lafta, Riyadf & Al-Shawi, Ameel (2017). Effect of Household Dysfunction and Community Violence on Mental Health in an Unrest Country. *SM Journal of Community Medicine*, 3(1): 1023.

Lindert, J. & Levav, I. (2015). *Violence and Mental Health: Its Manifold Faces.* New York: Springer.

Ministry of Health (2014). *National Health Policy (2014- 2023.).* Baghdad: Ministry of Health.

Overstreet, S., & Braun, S. (2000). Exposure to community violence and post-traumatic stress symptoms: Mediating factors. *American Journal of Orthopsychiatry, 70*, 263-271.

Razoki, A. H. et. al. (2006) Mental health of Iraqi children. *Lancet*, 368, 838–839.

Research team led by Dr. Marcia Brophy. (2017). *An Unbearable Reality: The impact of war and displacement on children's mental Health in Iraq*. Published by: Save The Children.

Ribeiro' W., Andreoli, S., Ferri, C., Prince, M. & Mari, J. (2009). Exposure to violence and mental health problems in low and middle-income countries: a literature review. *Brazilian Journal of Psychiatry,* 13(2), 49- 57

Sadik, S., Al-Sayyad, H. W. & Sadoon, A. (2008) Prevalence of attention-deficit hyperactivity disorder among junior school children at Nassiriya City. *New Iraqi Journal of Medicine*, 4(3), 17–24.

Statista (2018*). Number of documented civilian deaths in the Iraq war from 2003 to March 2018*. Available Online: https://www.statista.com/statistics/269729/documented-civilian-deaths-in-iraq-war-since-2003/

United Nations High Commissioner for Refugees (UNHCR) (2017). *Iraq Emergency*. Available Online: http://www.unhcr.org/iraq-emergency.html

World Health Organization (2002). *World Report on Violence and Health: Summary*. Geneva: World Health Organization

World Health Organization (2006). *WHO-AIMS Report on Mental Health System in Iraq*. A report of the assessment of the mental health system.

World Health Organization (2011). *Iraq.* Mental Health Atlas: Department of Mental Health and Substance Abuse.

الأسس النفسية والسلوكية للأصولية الإسلامية

ماكس تايلوروجون هورغان[1]

ترجمة لؤي خزعل جبر

تستكشف هذه المقالة القضايا النفسية والسلوكية التي قد تساعدنا في فهم بعض التطورات المعاصرة الهامة في الإسلام. المجالات الخاصة ذات الاهتمام المباشر هي الأسس السلوكية للعلاقة بين الأصولية الإسلامية والعنف. ومع ذلك ، هناك قضية أكثر عمومية تتعلق بكيفية فهمنا لطبيعة السيطرة الدينية والأيديولوجية على السلوك. في البداية، ستتم مناقشة القضايا العامة المتعلقة بمفهوم الأصولية. هذا المصطلح مثير للجدل للغاية، وفي بعض الظروف قد يُعتقد أنه يشير إلى منظور الناظر أكثر من منظور المؤمن. بعد ذلك، سيتم النظر في مفهوم الأصولية في سياق الإسلام، والتأكيد على طبيعة الأيديولوجية الأصولية، في حين سيتم وصف طرق فهم عمليات الأصولية ضمن إطار سلوكي. سيتم بعد ذلك توسيع الآثار الأوسع لهذه المناقشة مع إشارة خاصة إلى السيطرة الدينية على السلوك.

مقدمة: استخدام مصطلح الأصولية

في هذه المقالة، نستخدم مصطلح الأصولية Fundamentalism لتحديد فئة واسعة من السلوك الديني. الأصولية الدينية كمصطلح لها معنى واضح ومحدد نسبياً داخل الغرب المسيحي، في إشارة إلى الحفاظ على المعتقدات التقليدية التي تنطوي على قبول حرفي للعقائد باعتبارها أساسية، وكذلك الإيمان بعصمة الكتاب المقدس. إنه مصطلح يرتبط بسهولة بمدرسة متميزة من البروتستانتية الأمريكية، على الرغم من أن استخدامه امتد ليشمل سياقاً أوسع بكثير. وكثيراً ما يرتبط المصطلح بتبني آراء سياسية محافظة. وربما تكون الصفة الحاسمة للأصولية هي أن المؤمنين يأخذون الدين "بجدية" Seriously (Bruce, 1990). وهذا يعني أنه ليس هناك فقط إحساس بالحقيقة والخطأ في أنظمة معتقداتهم، ولكن في الاعتراف بحقيقة أنه من واجب المؤمن اتباع تعاليم الدين لأنها تمثل الحقيقة. من منظور نفسي، فإن السمة المهمة لـ "أخذ الدين على محمل الجد" هي أنه لا يعني فقط الاتساق في معتقدات الفرد، ولكن أيضاً في السلوك. وبالتالي، فإن صفة المؤمن الأصولي هي التعبير عن الأولويات الأصولية المعينة في سلوك من نوع ما. يلاحظ Bruce (1990) أنه من بين أشياء أخرى، قد نصنف سمات هذا السلوك على أنها حصرية ودعوية ومواجِهَة. وهذا يثير

[1] Taylor, M. & Horgan, J. (2001) The Psychological and Behavioral Bases of Islamic Fundamentalism. *Terrorism and Political Violence,* 13:4, 37-71.

السؤال، الذي سيتم النظر فيه لاحقاً، حول ماهية الصفات السلوكية التي تؤدي إلى مثل هذه الميزات. ونظراً لأن الأصولية مرتبطة بالرجوع إلى المعتقدات والقيم التقليدية، يلاحظ Bruce أيضاً أن الغرب الليبرالي يميل إلى رؤية مثل هذه الحركات على أنها بالضرورة محافظة سياسياً ورجعية، وبالتالي سلبية، بمعنى الرد على الحداثة والسعي للعودة إلى (ما يفترض) المجتمع السابق والأقل ليبرالية. قد يكون هذا الافتراض الأخير، الذي قد نصفه بافتراض المحافظة مقابل الليبرالية، خاطئاً عند تطبيقه في السياقات الإسلامية (من الجدير بالذكر أن Bruce يجادل أيضاً بأن هذا افتراض غير مناسب في العديد من الكنائس الأصولية المسيحية المعاصرة).

من المؤكد أن هذه الخاصية النقدية للإسلام الأصولي كما يتضح من المراقب الغربي هي رغبة في العودة إلى المبادئ التأسيسية للإسلام المرتبطة بإنشاء مجتمع مؤسلَم. ومع ذلك، لا يمكننا بالضرورة أن نفترض أن هذا يمثل حركة "إلى الوراء" بعيداً عما قد يعتبره الغرب قيماً اجتماعية ليبرالية و"حضارية" نحو عالم محافظ وسلبي في الأساس غير متغير قائم على القرن السابع. إن التجديد الذي ينطوي عليه السعي إلى العودة إلى أصول الإسلام تعود أصوله إلى بداية الإسلام، وما نراه في العالم الإسلامي المعاصر يمكن رؤيته بشكل أفضل من حيث التجديد الدوري بدلاً من التراجع. وما يشكل "للخلف" هو - بالطبع - مسألة حكم على أي حال، ويجب ألا ننسى النسبية التي ينطوي عليها مثل هذا الحكم. ومن المفارقات أن التغييرات التي يرغب فيها المؤمن الأصولي الإسلامي قد تكون مشابهة من نواح كثيرة لتلك التي يرغب فيها الراديكالي السياسي المعاصر. كلاهما – مثلاً - يرفض الوضع الراهن ويسعى إلى تغيير اجتماعي عميق. بالإضافة إلى ذلك، قد تكون هذه التغييرات المرجوة ثورية بالضرورة، مما يؤدي إلى زعزعة الاستقرار والإطاحة في نهاية المطاف بنظام قائم. وفي حين أن الراديكاليين السياسيين والأصوليين قد يرغبون في النهاية في أشياء مختلفة، إلا أنهما قد يشتركان في عمليات مشتركة كافية لخلق ولاءات. يمكننا أن نرى لماذا، إذن، ما يمكن اعتباره مصطلحات متناقضة - "راديكالي" و "أصولية" - يجتمعان في بعض جوانب الإسلام المعاصر.

لفهم هذا بشكل أوضح، من الضروري النظر إلى تطلعات الأصولية الإسلامية ضمن السياق الاجتماعي المعين الذي قد تحدث فيه. ولتجنب مناقشة لاحقة متوقعة، نلاحظ أن الصفة الحاسمة لوجهة النظر الإسلامية المعاصرة للعالم هي أن كل المجتمع الإسلامي الحالي والماضي (مع الاستثناء المحدود المحتمل لإيران الشيعية في بعض الدوائر) له أهمية محدودة عند مقارنته بفترة 38 عاماً من 622 إلى 660 بعد الميلاد (من الهجرة إلى استيلاء الخليفة الأموي معاوية على السلطة) التي ميزت "العصر الذهبي" للإسلام (Kepel, 1984) في فترة الخلفاء الراشدين (Bosworth, 1981). هذه العودة إلى العصر الذهبي ليست مجرد استجابة للظروف الحالية، وفي الواقع، بالنسبة للمتدينين (سواء كانوا أصوليين أم لا) لا يحتاجون إلى تبرير من الناحية الاجتماعية أو الاقتصادية. إنها حتمية الإيمان وصفة أساسية للرؤية الإسلامية للعالم. بالنظر إلى هذا، فإن التحول إلى الموقف الأصولي للقيم الغربية مثل الحرية والاختيار، وانعدام اليقين، والافتراضات حول شرعية الدولة، يمكن أن يكون مضللاً للغاية ويعالج الإطار المرجعي الخاطئ عند تطبيقه على المجتمعات الإسلامية. وفي ما يلي، سيُستخدم مصطلح "الأصولية الإسلامية" للإشارة إلى المعنى الموصوف أعلاه والذي فيه يأخذ المؤمن الدين على محمل الجد، حيث يوجد شعور بالحقيقة والخطأ يتجلى في

النشاط الاجتماعي والسياسي، وحيث يكمن إطار التغيير الاجتماعي في المقام الأول في كلمة الله التاريخية الموحاة، وليس المناخ الاجتماعي والاقتصادي الحالي. وبينما يمكننا تحديد المعايير العريضة للأيديولوجية الأصولية، فإن التأثير الاجتماعي والسياسي للتفكير الأصولي يكون أكثر صعوبة في التقييم. الموقف الذي اتخذه كاتبا هذه الورقة هو أن أهميته لا تكمن في عدد المؤمنين الذين يلتزمون بدقة بالموقف الأصولي، بل توفر السلطة الأخلاقية والقوة الأيديولوجية التي يمكن أن ينشأ عنها تأثير سياسي كبير. فعلى الرغم من الاستعمار والقيود الاقتصادية والاضطرابات السياسية، لا يزال الإسلام يحظى بدعم عام واسع النطاق عبر طيف واسع من المواطنين في البلدان الإسلامية بدءً من الريف إلى الحضر ومن الفقراء إلى الأغنياء. ونعتقد أن أهمية الأصولية تكمن في قدرتها على التأثير وتوجيه هذا الدعم في اتجاهات معينة، وبالتالي قد تكون قضايا مثل تحديد العدد الإجمالي للمؤمنين الأصوليين أقل أهمية بكثير. قد تؤثر ظروف معينة (كطبيعة حاكم معين، الحرب، إلخ) على الصفات الدقيقة التي نطمح إليها، والاحتياجات البراغماتية للحظة قد تخفف دائماً، بالطبع، التعبير السياسي للأيديولوجية الأصولية.

الموقف الأصولي

بينما تركز هذه المقالة على الأصولية الإسلامية، فليس هدفنا تحليل تفاصيل المواقف الأصولية المختلفة التي يمكن تحديدها داخل الإسلام بشكل شامل، ولا تقديم تحليل أكثر عمومية للإسلام. فكما هو الحال مع الحركات المسيحية المماثلة، هناك خفايا وفروق دقيقة بين وجهات النظر المختلفة التي لها أهمية كبيرة بالنسبة للمؤمن، ولكنها ذات نتائج محدودة بالنسبة لغير المبتدئين. قد يكون تحليل هذه القضايا أكثر ملاءمة للتركيز على الصفات اللاهوتية أو السياسية لهذه الحركات، بدلاً من القضايا النفسية والسلوكية محل الاهتمام هنا. وبالتالي، فإن ما سيأتي بعد ذلك سيكون مقدمة عامة عن مجال الإسلام الأصولي، مع التأكيد على الأمور التي تهم التحليل السلوكي الذي يليه. وبينما كانت هناك محاولة لوضع المفاهيم التي تمت مواجهتها في إطارها العام، لم يتم بذل أي جهد لتقديم وصف تفصيلي للقضايا اللاهوتية المعنية. النهج المتبع هنا يدعم التحليل النفسي والسلوكي للصفات المحدودة للنشاط الأصولي، وهذا يلزم بالضرورة هذا الاعتبار. من الجدير بالذكر في البداية، بالطبع، أنه على الرغم من الأدبيات الهائلة من قبل الأصولية الإسلامية وحولها، فإن التعليقات على القضايا النفسية والسلوكية التي قد تكون متورطة لا تزال قليلة (Taylor, 1991; Rapoport, 1990).

أسباب زيادة تأثير الحركات الأصولية داخل المجتمعات الإسلامية معقدة للغاية. وهي تتعلق بكل من الديناميكيات الخارجية والداخلية لتلك المجتمعات، ويمكن تطوير التحليلات على مجموعة متنوعة من المستويات. وعلى النقيض من هذا التعقيد بالنسبة للمراقب الخارجي، فإن المؤمن يؤكد بالطبع أن هذا الرأي يمثل كلمة الله الموحاة، وسيضع أي حساب لانبعاث هذه الأشكال المميزة للإسلام في سياق لاهوتي. إن بساطة الاعتقاد والتفسير هي صفة مهمة في النظرة الأصولية للعالم. وتكمن إحدى مجموعة العوامل التي يمكن تحديدها من منظور اجتماعي ونفسي غربي في الشعور العام بالاستياء من طبيعة الدول الإسلامية المعاصرة. يقودنا هذا المنظور إلى ربط وجهات النظر اللاهوتية والسياسية إلى حد كبير بالأسباب المشتركة. وبالتالي، قد يتجلى السخط من وقت لآخر بشكل نشاط سياسي ظاهر مرتبط بالحركات اليسارية

السياسية؛ أو في حالة الأصولية، يصبح هذا السخط واضحاً في سياق لاهوتي، ويتناول الأهداف الدينية في المقام الأول. ومع ذلك، فإن الطبيعة الاجتماعية الشاملة للإسلام تعني بالضرورة أن النشاط الديني سوف يؤثر على القضايا الاجتماعية والسياسية الأوسع. هذا يربط بالضرورة اللاهوتي والسياسي. وفي الواقع، فإن النوعية الشاملة للإسلام تضع المراقب الغربي في مواجهة صعوبات كبيرة في الفهم. ومناطق الفصل الاجتماعي التي يفتخر الغرب بنفسه بها (مثل التمييز بين القانون والإجراءات القانونية، والقضايا الاجتماعية والسياسية المتعلقة بالرفاهية العامة) متشابكة في المجتمعات الإسلامية. وقد قدم Rosen (1989) مناقشة مفيدة وكاشفة للعلاقة بين القانون والمجتمع الإسلامي من منظور أنثروبولوجي، وبناءً على تجربة محاكم القاضي المغربية. يكشف هذا عن اختلافات مفاجئة مع وجهات النظر القانونية الغربية في الافتراضات الأساسية حول طبيعة العملية القانونية والأدلة وحتى مفهوم الحقيقة، على سبيل المثال. وهكذا، فإن ما يمكن أن نصفه في الغرب بأنه تراجع في اللاهوت عن مشاكل العالم، داخل الإسلام يعني بالضرورة انخراطاً متزايداً مع العالم واستيعاباً للسياسة داخل اللاهوت. ما قد يبدو للغرب أنه تجاور متناقض يكمن في صميم الأصولية الإسلامية.

يمكن تحديد فئتين عريضتين من النفوذ اللذان يبدو أنهما مرتبطان بالاستياء في المجتمعات الإسلامية، تلك المعنية بالعلاقة بين الدول الإسلامية والعالم الأوسع، والتي قد نصفها كعوامل خارجية، وأولئك المهتمين بالإسلام نفسه وممارساته، والتي قد نطلق عليها اسم العوامل الداخلية. تميل العوامل الخارجية إلى الارتباط بالموضوعات العامة للقومية العربية (على الأقل في الشرق الأوسط)، ولكن بالنظر إلى الطبيعة الاجتماعية للإسلام، تتفاعل العوامل الخارجية والداخلية بالطبع بطرق معقدة. وأحد العوامل الخارجية المهمة ذات الصلة بالجماهير المسلمة (على الرغم من أنها أقل ارتباطاً بالدين على الأرجح) هو الفشل النسبي للدول العربية والإسلامية في منافسة الثروة المادية الغربية والنجاح (Sivan, 1985). وعلى الرغم من اتجاهات الهجرة في الآونة الأخيرة، فإن العالم الإسلامي لا يزال قائماً. في الغالب جزء من العالم النامي، وأيضاً على الرغم من الموارد الطبيعية الكبيرة جداً (كالنفط). فشلت الدول الإسلامية الكبرى، مثل مصر وسوريا، بشكل عام في تحقيق ارتفاعات كبيرة في مستويات المعيشة مقارنة بالغرب، ولا يزال لديها اقتصادات فلاحية كبيرة وفقيرة. وفي البلدان الأكثر ثراءً (كدول الخليج)، افادت الثروة الاقتصادية قلة محدودة نسبياً، ولم يتم توزيعها على البلدان الإسلامية الأفقر، أو على مجتمعات المهاجرين الكبيرة جداً. وفي الواقع، على الرغم من الصفات الثيوقراطية العلنية للحياة في دول الخليج، كانت آثار زيادة الثروة النفطية بالنسبة للعديد من المسلمين المتدينين هي زيادة نفوذ الغرب وتحدي الأساس الاجتماعي للإسلام، بدلاً من تكميله وتعزيزه. وقد أضافت حرب الخليج وتوابعها إلى هذه المخاوف. وبالمثل، فإن الدافع إلى التحديث والعلمانية والتغريب الذي كان يميز من وقت لآخر كل من مصر عبد الناصر والسادات، على سبيل المثال، قد فشل بوضوح في إحداث تحسن كبير في حياة معظم الناس. علاوة على ذلك، في حين أن الممارسات الاقتصادية الغربية ربما ساهمت بشكل ضئيل نسبياً في الرفاهية العامة، فإن الكثير من الاستثمار الغربي الذي يحدث في البلدان الإسلامية يرتبط بالشركات متعددة الجنسيات، التي يُنظر إلى ولاءاتها إلى حد كبير مع الغرب. وفي الواقع، غالباً ما يُنظر إلى هذه الفوائد الاقتصادية التي قد تجلبها على أنها أقل أهمية من

الآثار السلبية لتشجيع العلمانية والسلوك المخالف للقيم الإسلامية. وهناك عامل مهم آخر في الشعور بعدم الارتياح منذ فترة طويلة وهو الفشل المهين المتكرر للجيوش العربية في هزيمة إسرائيل. على المستوى الشعبي، ربما تعمل هذه القضية الانفعالية على استقطاب الرأي أكثر من أي شيء آخر، وهي عنصر مهم في جاذبية القومية العربية. هذا الشعور العام بالفشل في تحقيق ما يُنظر إليه على أنه أهداف عربية في الأساس (وإلى حد أقل، أهداف إسلامية) في مواجهة الغرب القوي هو قوة قوية ودائمة لا يمكن الاستهانة بها. وتضيف السياحة والإعلام الغربي مزيداً من الإحساس بالاهتمام الإسلامي المحدد، من خلال تشجيع العلمانية واعتماد أنماط حياة ممتعة. ينتج عن هذا مفارقة غريبة وغير متوقعة. في حين أن النظرة الغربية المعاصرة للإسلام قد تكون وجهة نظر حيوية ومهتمة بتقدمه (ليس بدون بعض التبرير)، فإن الأصوليين ينظرون إلى وضع يبدو فيه الإسلام في حالة تراجع عن المد المتنامي للعلمانية والقيم الغربية المرتبطة به (Sivan, 1985).

تكمل السمات الداخلية للإسلام وتتفاعل مع هذا الشعور العام بالاستياء القومي. وفي سياق اهتمامنا، هناك أربع صفات ذات صلة بالإسلام كدين وكحركة اجتماعية (Jansen, 1986) يمكن أت نحدد كداعمة للمواقف الأصولية، وهي: المطالبة بالصلاحية العالمية، والمطالبه الثيوقراطية الممتدة إلى جميع مناحي الحياة، وتقديس الشريعة الإسلامية وأحكامها، والمعادلة العامة للدولة مع تطبيق الإسلام.

يدعي الإسلام أنه التجسيد الكامل والنهائي لقانون الله. ومن ثم فهو بالضرورة الدين المفضل والواضح والملائم لجميع الناس. يقتصر التسامح المشروط للأديان الأخرى بشكل صارم على "أهل الكتاب" (المسيحيون واليهود على نطاق واسع) الذين يتشاركون تراثاً مشتركاً، على الرغم من أنه غير مكتمل ومعيب. يمكن لهذه الجماعات الدينية أن تعيش داخل دولة إسلامية دون تغيير أو إكراه بشرط قبولها للحكم الإسلامي ودفع ضريبة خاصة. إنهم يتمتعون بمكانة الذمي وقد يُتركون في سلام "في ظل ظروف من التمييز وقبول الدونية والإذلال" (Kuper, 1990). ولا يمكن التسامح مع المؤمنين بالديانات الأخرى، الذين لا يعترفون بدور ومكانة "الأنبياء"، ويجب تحويلهم أو قتلهم.

يضفي هذا على المجتمع الإسلامي الأصولي شعوراً بالتفوق يعتمد على تاريخ غني من التقدم والنجاح العسكري للمسلمين. ومع ذلك، فإن التجارب الاستعمارية للدول الإسلامية تحدت بوضوح هذا الرأي. عندما واجهت الدول الغربية (والمسيحية إلى حد كبير) الإسلام، خرجت منتصرة في جميع ساحات الصراع. وبينما يتحدى مفاهيم التفوق الإسلامي على المدى القصير، فإن هذا في حد ذاته ليس بالضرورة بالغ الأهمية عند اتخاذ منظور أوسع. وهناك أمثلة تاريخية من زمن تراجع نبي الإسلام، ثم قام مرة أخرى بقوة متجددة. يمكن التسامح مع التراجع وتطوير أسلوب مؤقت مع قوى العلمانية كاستجابات قصيرة المدى للظروف. والأكثر إشكالية للأصوليين المعاصرين في هذا السياق هي تجارب ما بعد الاستعمار، والتناقض بين إنجازات الدول الإسلامية في العالم المعاصر والتاريخ المجيد للتقدم الإسلامي في القرنين السابع إلى العاشر. لقد فشلت تطلعات المسلمين في فترة ما بعد الاستعمار لإصلاح أخطاء الاستعمار، وإعادة تأسيس الموقف النسبي للمسلمين مقابل المسيحيين (من وجهة نظر المسلمين)، ومع ذلك فإن الدول الإسلامية على الأقل يحكمها المسلمون ويُفترض أنها تتمتع بالقدرة للاستفادة من الإمكانات الكاملة لقوة الإسلام. وبالتالي، في نظر

الأصولي، فإن الإسلام يتعرض للتحدي والتهديد ليس فقط بسبب التناقضات في الثروة المادية، ولكن أيضاً من حيث قدرته على الحفاظ على سلطته الأخلاقية والدينية.

الاستجابات هذه التحديات الواضحة للسلطة الأخلاقية للإسلام هي عنصر حاسم في الموقف الأصولي. يمكن رؤيتها بوضوح في كتابات سيد قطب الذي يحتل موقعاً مهماً في تطوير الفكر الإسلامي الأصولي. قدمت كتاباته الأساس الأيديولوجي الذي تطور على أساسه العديد من جوانب التفكير الأصولي المعاصر. في حين أنه قد تكون هناك خلافات داخل الحركات الأصولية المختلفة حول مدى ملاءمة الحلول التي يقدمها، إلا أن تأثيره الأيديولوجي يظل دون منازع. في كتابه الأكثر تأثيراً (الذي نُشر عام 1978)، قام بتحليل حالة الإسلام مع ملاحظة خاصة لتحدي سلطته الأخلاقية. يمكن رؤية نغمة تحليله من المقتطف التالي: "إن قيادة الغرب للإنسان آخذة في الانحدار، ليس لأن الثقافة الغربية أصبحت فقيرة مادياً أو لأن قوتها الاقتصادية والعسكرية أصبحت ضعيفة. لقد انتهت فترة النظام الغربي في المقام الأول لأنه محروم من تلك القيم الواهبة للحياة التي مكنته من أن يكون زعيما للبشرية. من الضروري للقيادة الجديدة الحفاظ على الثمار المادية للعبقرية الإبداعية لأوروبا وتطويرها، وكذلك تزويد البشرية بمثل هذه القيم والقيم السامية التي لم تكتشفها البشرية حتى الآن، والتي من شأنها أيضاً تعريف البشرية بطريقة حياة منسجمة مع الطبيعة البشرية، إيجابية وبناءة وقابلة للتطبيق. الإسلام هو النظام الوحيد الذي يمتلك هذه القيم وهذا الأسلوب في الحياة" (انظر Milestones, 1978).

من المثير للاهتمام أن نلاحظ أن التحليلات الأصولية للمشاكل التي تواجه الإسلام لا تشكك في الأسس الأيديولوجية للإسلام. بمعنى ما، بالطبع، يأتي هذا من "أخذ الدين على محمل الجد"، أو على الأقل أخذ المبادئ الأصلية التي يقوم عليها الدين على محمل الجد. لكن الأصولي يذهب إلى أبعد من الالتزام بالمبادئ الأساسية، ولا يميز بين المبادئ العامة التي يمكن أن يقوم عليها الإسلام والاستجابات البراغماتية للحياة كما قد يجدها أتباع الإسلام في القرن السابع؛ ولا تؤثر العلاقة مع العالم المعاصر على التحليل. ربما نتيجة لذلك، التحليلات الأصولية دائماً ما تحدد مواقع مصدر أي مشاكل في نظرتهم للعالم خارج الأسس الأيديولوجية للإسلام. فإما أن يكون الغرب مسؤولاً عن تشويه حتمية التقدم الصحيح للإسلام، أو أن القادة الإسلاميين قد فشلوا إما من خلال التخريب (مرة أخرى من قبل الغرب)، أو لأنهم فشلوا في اتباع تعاليم الإسلام. إن ما يرون أنه مبادئ أصولية للإسلام لا يخضع للتساؤل أبداً. يمكن استخلاص أوجه تشابه هنا مع بعض الأسس النفسية للتعصب. لكن هذا لا يعني أنه لا يوجد نقد لوجهات نظر مختلفة حول الأصولية من داخل الإسلام، وفي الواقع من داخل المواقف الأصولية المختلفة. ناقش Babeair (1990) ، على سبيل المثال، بعض أوجه القصور في الموقف الأصولي من منظور الوهابية الأرثوذكسية. إلى حد كبير، يهتم النقاش إلى حد كبير بالاستراتيجية وليس بالمبدأ. وتمشيا مع المناقشة أعلاه، أشار إلى ثلاثة مواضيع مشتركة للكتاب الأصوليين، الوهن التام للأمة، والسبب الغربي لهذا الوهن، والأساس المعيب لأي حلول لهذه المشكلة بخلاف الإسلام. قد نلاحظ أنه في ورقته البحثية يبحث الأولين ويترك الأخير. ومن المؤكد أن هناك نزعة قوية بين الكتاب مثل قطب للتأكيد على الحالة السيئة للإسلام المعاصر. في هذا الصدد، لعبت نظرية الحداثة باعتبارها الهمجية الجديدة (الجاهلية)، التي ترجع أصولها إلى كتابات أبي الأعلى المودودي،

دوراً بارزاً في التبرير الأصولي لإضعاف الأمة. في أبسطها، تشير نظرية الجاهلية الجديدة إلى عدم التوافق الأساسي بين الإسلام والحداثة (كما تمثله القيم الغربية). وتردد صدى جهاد الرسول وأتباعه في بدايات الإسلام، وتعتمد على الموضوعات القرآنية المألوفة لجميع المؤمنين المسلمين. إن الكفاح ضد دولة الجاهلية يوفر التركيز والمبرر للأجندة الأصولية التي تشمل تأكيد الأمة المنهكة وسببها وعلاجها. وقد عبر قطب عن ذلك بوضوح على النحو التالي: "تشير الجاهلية (البربرية) إلى هيمنة (حاكمية) الإنسان على الإنسان، أو بالأحرى التبعية للإنسان بدلاً من الله. تدل على رفض ألوهية الله وتملق البشر ... في أي زمان ومكان، يواجه البشر هذا الخيار الواضح: إما مراعاة شريعة الله في مجملها، أو تطبيق القوانين التي يضعها الإنسان بشكل أو بآخر. في الحالة الأخيرة، فهم في حالة الجاهلية ... تشبه الجاهلية الحديثة في المجتمعات الصناعية في أوروبا وأمريكا بشكل أساسي الجاهلية القديمة في الجزيرة العربية الوثنية والبدو. لأن الإنسان في كلا النظامين تحت سيطرة الإنسان وليس الله".

يجادل قطب بأن الإسلام مجبر على القتال مع الجاهلية لحماية نفسه ("طبيعته نفسها تتطلب مهاجمة المجتمعات الجاهلية") وكتوصية من الله لأن الإسلام هو الطريقة الكاملة والوحيدة للحياة المؤمن. محاربة الجاهلية تحقق مقتضيات الجهاد. قد يكون من الضروري في ظروف معينة الوصول إلى سكن مؤقت مع العالم كما هو؛ لكن ضبط النفس والتسامح "مسألة استراتيجية وليست مسألة مبدأ؛ ... أمر يتعلق بمتطلبات الحركة وليس العقيدة". ولتحقيق أهدافه ومحاربة الجاهلية، أعطى الله الإسلام "الحق في التقدم والسيطرة على السلطة السياسية، لأقامة النظام الإلهي على الأرض" (Qutb). ويمكننا أن نرى في ما سبق الرسم البياني للموضوعات المشار إليها من قبل Babeair أعلاه وفي المناقشة السابقة في هذه المقالة. إن دولة الجاهلية التي تجد الأمة نفسها فيها هي ذنب الغرب، والعلاج هو عبادة الجهاد. المنطق مقنع وجذاب إذا تم الاتفاق على المبادئ الأساسية. قبل كل شيء، فإن التحليل بسيط ومباشر ومألوف ومتسق مع تاريخ الإسلام وغير مهدد. علاوة على ذلك، فهو يحظى بجاذبية كبيرة لفقراء الحضر والريف، الذين اكتسبوا القليل نسبياً من التجارب المختلفة للحداثة في العالم الإسلامي. إنه يوفر وسيلة لمعالجة الأخطاء، ومن خلال التركيز على القضايا الأخلاقية والروحية بدلاً من المادية، فإنه يعمل على وضع الإسلام على الأقل على قدم المساواة مع الغرب.

الألفية

يمكن أيضًا النظر إلى القضايا التي تمت مناقشتها أعلاه من سياق آخر، والذي يبدأ في وضعها ضمن إطار مفاهيمي أوسع. يمكن تفسير العديد من سمات الفكر الإسلامي الأصولي من منظور الألفية Millenarianism. تصف العقيدة الألفية نوعية مميزة لمحتوى الأيديولوجية، ولكن تتعلق أيضاً بالطريقة التي قد تؤثر بها الأيديولوجية على السلوك. فيتعلق بتوقعات بلوغ الألفية، نهاية خيالية متوقعة. ومن منظور لاهوتي، قد يرتبط ذلك بوصول المخلص، أو تدخل الله المباشر على الأرض بمعنى ما. ومن منظور سياسي، ق يرتبط ببلوغ دولة علمانية طوباوية. تلعب العقيدة الألفية دوراً مهماً في تطوير الحركات السياسية والدينية، وقد قيل إنها واحدة من العوامل المهمة في تطوير أنواع معينة من العنف السياسي (Taylor; Rapoport, 1986; 1984).

في تحليله لتأثير العقيدة الألفية على الأيديولوجية النازية، حدد (1980) Rhodes خمس صفات أساسية ولكن عامة لعصر الألفية ذات الصلة بمناقشتنا: تحليل العالم من حيث وقوع كارثة حقيقية أو وشيكة، والتي لها تأثير فوري على حياة الفرد، والوحي الذي يفسر هذا الوضع، والذي يقدم شكلاً من أشكال الخلاص أو تصحيح العلل، وكجزء من الوحي، امتلاك معرفة خاصة بأن الحالة الكارثية هي نتيجة عمل قوى خبيثة (روحية أو علمانية) تتآمر لإفساد وتخريب الأجهزة الطبيعية للمجتمع أو الدولة، ومن خلال امتلاك المعرفة الخاصة، يتمتع حاملها بقدرة فريدة وقوية لمحاربة القوى الحاقدة والمفسدة، والإحساس بحسن توقيت العمل، أي أن قوى الفساد شارفت على الانتهاء، وأخيراً، الاقتناع بإمكانية هزيمة هذه القوى بسبب الرؤى الخاصة، وأن هزيمة قوى الشر ستؤدي إلى دخول عالم جديد وأفضل.

تكررت هذه الصفات، مقنعة بالمصطلحات الإسلامية، عبر تاريخ الإسلام. وفي الواقع، يمكن إرجاع الأصول إلى اغتيال علي (Ahmed, 1988) وعودة المهدي المنتظر التي ظهرت لتحدي النظام الحالي منذ بدايات الإسلام، يتم التعبير عنها بعبارات الألفية. في حين لعبت العوامل الاجتماعية والاقتصادية دوراً بلا شك، ظلت الحركات الألفية حركات دينية في الأساس. وتتوافق العديد من صفات التفكير الإسلامي الأصولي مع صفات Rhodes في الإيمان بالألفية. وتؤكد التحليلات الأصولية للوضع الحالي للإسلام بقوة على الطبيعة الكارثية للحياة المعاصرة. توضح الكثير من أعمال سيد قطب – مثلاً - هذا الأمر بوضوح، كما يفعل محتوى عدد لا يحصى من الخطب والمنشورات، وما إلى ذلك، بناءً على أعماله هو وغيره من المفكرين الأصوليين. إن الخاصية الوحيانية للقرآن، ودور الأصولي في الكشف عن قدرته الفريدة على إصلاح أمراض العالم، تقدم الخلاص "الخاص" الذي هو إلى حد كبير سمة من سمات الفكر الألفي. يمكن رؤية النوعية الخاصة لمعرفة سبب الحاضر الكارثي في مفهوم المودودي للحداثة على أنها الهمجية الجديدة (الجاهلية)، حيث يتم عرض تأثير الغرب بوضوح شديد على الجماهير الإسلامية في مصطلحات شيطانية. ومن خلال العودة إلى المبادئ الأساسية للإسلام، وخاصة تطبيق الشريعة، يمكن حشد قوى الإسلام القوية الفريدة ضد الجاهلية الجديدة. علاوة على ذلك، فإن الشعور بالتوقيت والاستعجال هو سمة بارزة في التفكير الأصولي. تجتمع كل هذه القوى على قناعة أنه إذا تم تطبيقه، يجب أن ينتصر الإسلام ويجب أن يهزم قوى الجاهلية. إن العودة إلى العصر الذهبي للإسلام يبشر ببزوغ فجر عصر ذهبي جديد، إذا كان المجتمع أسلم حقاً وتم تطبيق الشريعة. وهناك العديد من الصفات الألفية للإسلام، كما هو الحال بالفعل للمسيحية. كلاهما يتطلع إلى وقت حياة أفضل يتبع عودة المسيح، أو حدوث الحدث الألفي. من وقت لآخر، أثرت الحركات المسيحية بشكل كبير على الإسلام، ولا ينبغي الاستهانة بقدرة مثل هذه الآراء على التأثير في السلوك. هناك العديد من الأمثلة التاريخية للسلوك العنيف، الإسلامي وغير الإسلامي، والتي يمكن القول بشكل مقنع أنها تأثرت بقوة بالألفية (Rapoport, 1987)، وليس أقلها الدولة النازية (Rhodes). والمثال الإسلامي الأحدث للعنف السياسي الذي يمكن رده إلى تأثيرات الألفية كان اغتيال أنور السادات في أكتوبر 1981. كان محمد عبد السلام فرج المؤلف الرئيسي والمنظر للجماعة التي اغتالت السادات، وفراج أعدم هو نفسه في 15 أبريل 1982 لدوره في ذلك الحدث. يبدو أن المتآمرين الذين اغتالوا السادات قد رغبوا بشدة في تأسيس دولة إسلامية في مصر، وكان اغتيال السادات هو نذيرها. لقد تبنوا نظرة ألفية صريحة حيث قيل أن السادات يمثل المرتد،

ممثل الجاهلية. لقد تأثر القتلة بشدة بالإيديولوجية الإسلامية الألفية لدرجة أنهم لم يقوموا بأي استعدادات قليلة أو معدومة للاستيلاء على السلطة بعد وفاة السادات (Jansen). يبدو أنهم اعتقدوا أنهم بمجرد أن يستجيبوا للدعوة إلى الجهاد، ويقتلون السادات الظالم (الحاكم الظالم)، سيتدخل الله. كان عملهم في اغتيال السادات إيذانا بالحدث الألفي. في الواقع، كان أحد أسباب نشر "الفريضة" في مصر بعد الحدث هو أن الاغتيال يبدو أنه لم يثبت تدخل الله، على الأقل بالشروط التي تصورها فرج.

لقد كان للمواضيع التي نوقشت أعلاه تأثير كبير على الأصولية المعاصرة. في حين أنهم قد يظهرون في سياقات مختلفة، ويخضعون للاختلافات في التركيز، إلا أنهم يهيئون المشهد للجاذبية الأخلاقية والنفسية للإسلام الراديكالي. ما هو مثير للاهتمام وملائم من وجهة نظرنا هو المعنى الذي يتم من خلاله جذب القضايا السياسية والاجتماعية إلى الحجة اللاهوتية، والتي - كما سنرى لاحقاً – لها عواقب سلوكية مباشرة. إن علاج مشاكل الإسلام المتصورة لا يقتصر فقط على عالم اللاهوت الخاص. إنه بالضرورة يحتضن المجتمع الأوسع الذي يعمل فيه الإسلام. لقد طور فرج هذا الموقف بشكل واضح. في مناقشته لأمراض الإسلام المعاصر بشكل عام، ومصر بشكل خاص (بأسلوب قطب في الغالب)، يتهم القيادة السياسية للدول الإسلامية آنذاك بالردة. في حين أنهم ولدوا مسلمين، فإنهم لا يديرون دولهم كدول مسلمة (مع استخدام الشريعة كأساس للتشريع والتدخل الاجتماعي والتخطيط). بالنسبة لفراج، فإن "الواجب المُهمَل" هو واجب الجهاد، وستؤدي عواقبه بالضرورة إلى إصلاح علل الإسلام.

وجهات نظر نفسية وسلوكية

تمثل أنواع التأثيرات التي تمت مناقشتها أعلاه صعوبات وتحديات كبيرة للتفسيرات النفسية والسلوكية. يأخذ التحليل مفاهيم نقطة البداية ذات المعنى النفسي المحدود نسبياً، ولا تكمن قوته في المستوى الفردي ولكن في تحديد الاتجاهات العامة التي يمكن من خلالها تطوير النقد. ومع ذلك، فإن الاتجاهات الاجتماعية الواسعة تتكون من أفراد يتصرفون بطرق معينة لأسباب معينة. يجب فهم السلوكيات على المستوى الفردي التي نلاحظها ونهتم بها إذا أردنا تطوير استراتيجيات تدخل متماسكة. قد تساعد التحليلات الاجتماعية أو السياسية الواسعة في فهمنا للعمليات العامة، ولكنها تساهم بشكل ضئيل في فهم مكانة الفرد في هذه الأحداث الأوسع (Taylor, 1988) . جادل Taylor بالفعل بالتفصيل أن اتجاه وتنظيم سلوك الملتزم سياسياً يتعلق بدرجة وطبيعة السيطرة الأيديولوجية على السلوك. يمتد هذا التحليل بسهولة إلى الدين كما يمتد إلى الالتزام السياسي حيث يتضمن كلاهما أشكالاً من الأيديولوجية. في بداية هذه المناقشة، يجب ملاحظة أن المقاربات النفسية للأيديولوجية غير متطورة نسبياً وأن التحليلات السلوكية تكاد تكون معدومة. مثل هذه الأدبيات التي تستخدم بشكل مكثف للمفاهيم العقلية، ويبدو أنها الأكثر تطوراً من حيث الدينامية النفسية أو تفسيرات الشخصية الأخرى، كما هو موضح في المراجعات الحديثة للأدب النفسي(Horgan, 2000; Silke, 1998; Crenshaw, 1986). وتسعى معظم تحليلات الأيديولوجية إلى التفسير بالرجوع إلى الحالات النزوعية الداخلية، وجهة نظر تبدو مفتقدة للدعم التجريبي ومحدودة بشكل غير ضروري من الناحية المفاهيمية. ينطبق هذا النقد بنفس القدر على المؤلفين من تقاليد أخرى غير التحليل النفسي الذين ساهموا في هذا المجال، مثل Eysenck (1954). علاوة على ذلك، ربما لأن مثل هذه

التفسيرات تدفع حسابات السلوك داخل الفرد (من حيث الأفكار والاتجاهات والسمات، إلخ. .) هناك ميل لاعتبار الأيديولوجية شيئاً منفصلاً عن وخارج الإطار الأوسع الذي نسعى فيه لفهم ضوابط السلوك. وتجدر الإشارة بشكل خاص إلى الفشل في تحليل الآثار النفسية للأيديولوجية في التمييز الأساسي بين الأيديولوجية كعملية (بنية السلوك والتأثير عليه) ومحتوى أيديولوجيات معينة. قد يُنظر إلى المدى الذي تتحكم فيه الأيديولوجيا في سلوكنا وتؤثر فيه على أنه شيء بعيد عن وصفات أيديولوجية معينة، والتي تحتوي على محتوى أيديولوجية معينة. وهذا التمييز هو أمر مهم يجب القيام به، ويتعلق بالتمييز الأوسع الذي يمكن القيام به بين الانخراط في نشاط ما، والظروف المحيطة والتحكم في فعل معين. قوة متعددة الأوجه تؤثر على السلوك. في أحد المستويات، يمكننا أن نرى دور الأيديولوجية في توفير التوجيه والاتساق للسلوك من حيث وصفات أيديولوجية معينة، ولكن، ربما الأهم من ذلك، يمكننا أن نرى على مستوى آخر لماذا تصبح أنواع معينة من الأيديولوجيات متحكمة قوية في السلوك. من المناسب البحث عن فهم مصادر هذا التحكم في تلك العمليات التي نعرفها للتحكم في السلوك الآخر، القوى البيئية والسياقية التي نشير إليها بشكل عام على أنها حالات طارئة للتعزيز.

تبدو المقاربة السلوكية مناسبة بشكل خاص لمناقشتنا، فإحدى السمات البارزة للإسلام الأصولي هي المعنى الذي يؤكد فيه على السلوك، بدلاً من الاتجاه أو المعتقدات. يمكننا توضيح ذلك، على سبيل المثال، من خلال الطريقة التي طور بها قطب بعض وجهات نظره حول ضعف المفاهيم الغربية للدين كعقيدة، على عكس التركيز على شؤون الحياة العملية التي يتسم بها الإسلام (Qutb). فبالنسبة لقطب (وإلى حد أقل بالنسبة للمسلمين الأقل تطرفاً بشكل عام) لا يكفي أن يؤمن المؤمن فقط؛ يجب عليه أيضاً التصرف بناءً على هذا المعتقد، والاستجابة لمعايير الإيمان الواردة في القرآن، والسعي للتصرف بطرق تتفق مع تعاليم الإسلام. هذا المنظور للعلاقة بين العقيدة والسلوك في الواقع يعتمد على قضية أكثر عمومية في الإسلام تتعلق بافتراضات الارتباط الوثيق في الإسلام بين النية والسلوك. يعتبر الفصل المفاهيمي بين نية القيام بشيء ما عن السلوك الفعلي المفترض أنه مرتبط بهذه النية سمة حاسمة للمفاهيم الغربية حول الدافع. في الواقع، يتجسد في النظام القانوني في مفهوم Mens Rea. لا يضع الإسلام مثل هذه الافتراضات، وفي الواقع يُعتقد أن "النية والعمل مرتبطان ارتباطاً وثيقاً لدرجة أنه يمكن للمرء أن يقرأ مباشرة من أقوال وأفعال الشخص القصد الذي يكمن فيه" (Rosen). مجالات التشابه المفاهيمي بين المقاربات السلوكية ووجهات النظر الإسلامية في هذا المجال بحاجة إلى مزيد من التحليل المقارن. في الواقع، قد يكون لفهم أوضح لهذا تداعيات مهمة على السلوك العام للعلاقات مع الإسلام. وفي حين أن تصنيف آراء قطب في المصطلحات النفسية الغربية قد يبدو مسيئاً وغير مناسب له ولأتباعه (وربما لمعظم المسلمين)، إلا أنه يبدو أن هناك تركيزاً قوياً على السمات السلوكية داخل الإسلام بشكل عام، وفي كتابات قطب بشكل خاص. يتم التعبير عن العلاقات بين السلوك وعواقبه بطرق قد تكون مألوفة تماماً لمحللي السلوك المعاصرين، على الرغم من عدم معرفة المفاهيم. هذا لا يعني أن الإسلام يمكن اختزاله بسهولة إلى مصطلحات سلوكية. المشكلة الأساسية في مادية المناهج السلوكية تؤدي إلى تناقضات لا يمكن التوفيق بينها وبين الإسلام. ومع ذلك، هناك مجالات لمزيد من الاستكشاف.

المقاربة السلوكية

كيف يمكن لحساب سلوكي أن يساهم في هذه المناقشة؟ في ما يلي، سوف نستكشف السمات العامة التي قد تكون ذات صلة (بناءً على Taylor) ، يليها تحليل أكثر وضوحاً لعلاقة هذا النهج بالإسلام. هناك مستويات مختلفة يمكن أن ينظر إليها مثل هذا النهج. في أحد المستويات، قد تكون طريقة مفيدة لإضفاء معنى نفسي على منطقة معقدة، دون الإشارة بالضرورة إلى علاقات تفصيلية يمكن استكشافها تجريبياً. وبدلاً من ذلك، قد يُنظر إليه على أنه وضع جدول أعمال محتمل للاستكشاف التجريبي، وتقديم طريقة للتعبير عن عمل أكثر توجهاً بشكل أساسي في بيئة تطبيقية. لا ينبغي أن يعني تطوير هذا المنظور بالضرورة استبعاد الرؤى من مجالات علم النفس الأخرى، لا سيما تلك التي تنطوي على عمليات اجتماعية (Horgan). كما أنه ربما أحد مجالات الحاجة الأعظم في تطبيق علم النفس هو تكامل العمل الامبيريقي مع الاستبصارات من مقاربات خاضعة أقل للرقابة ولكن أكثر تركيزاً اجتماعياً.

للوهلة الأولى، قد يبدو أن الأساليب السلوكية البسيطة غير موجودة في بعض النواحي لمعالجة مشكلة معقدة مثل السلوك الديني. تعتبر حسابات التوجيه والتحكم في السلوك من حيث العواقب البيئية (مثل التعزيز) قوية بلا شك عند تطبيقها على الظروف حيث يمكننا تحديد علاقة مباشرة بين السلوك والعواقب التعزيزية (أو المكروهة). إذا فعلنا شيئاً وحصلنا على الفور على مكافأة من نوع ما، فسيكون التأثير المسيطر للمكافأة على السلوك اللاحق واضحاً بسهولة. ويبدو أن هذا النوع من الحسابات غير موجود عندما يتم تطبيقه على سلوك تحدده وتتحكم فيه غايات بعيدة. ومع ذلك، فإن أهمية مثل هذه الغايات البعيدة هي التي تميز السلوك الأيديولوجي الديني والعلماني على حد سواء. قد ينغمس المتحمس الديني الملتزم في الاجتماعات، والصلاة، والعمل الاجتماعي، وما إلى ذلك، على المستوى اليومي، ويمكننا بسهولة تحديد المعززات الفورية في طبيعة الصداقات التي يتم تكوينها، والاتصال الاجتماعي، والرضا الشخصي وموافقة المجموعة. لكن بالطبع سلوك الناشط الديني موجه أيضاً نحو تحقيق أهداف بعيدة وعامة، مثل زيادة عدد المؤمنين، أو إحداث بعض التغيير في القانون أو التغيير في الظروف الاجتماعية الأكثر عمومية، من خلال – مثلاً – تبني الشريعة، أو حتى قلب المجتمع واستبداله بنظام جديد وأفضل. كيف يمكن أن يرتبط السلوك اليومي الذي نلاحظه على أنه مادة دينية (وسياسية) بأي معنى مباشر بنتائج من هذا النوع، عندما تكون هذه النتائج بعيدة جداً ومنفصلة عن السلوك المعين الذي نهتم به؟

تتمثل إحدى الطرق المفيدة لشرح فعالية التحكم في النتائج المتأخرة على السلوك الحالي في اقتراح شكل من أشكال التسلسل، حيث ترتبط علاقات معينة من السلوك والنتيجة ارتباطاً مباشراً، أحدهما الآخر، بالطرف البعيد. وبالتالي، يمكننا أن نتصور سلسلة معقدة من الأحداث، كل منها مرتبط بالتي تليها، والتي قد تفسر انضمام الفرد إلى مجموعة دينية أو سياسية، والانخراط فيها أكثر فأكثر، وأخيراً التحرك نحو الالتزام الكامل بشكل ما. مثل هذه السلسلة من شأنها أن تتصور حركة تدريجية نحو حالة السلوك البعيد من خلال سلسلة معقدة من الأنشطة المترابطة (Bjorgo, 1997). ويمكن تحديد النماذج التي تعكس هذا النهج في الأدبيات المتعلقة بالإرهاب، على سبيل المثال، وسوف نستخدم هذا المجال في ما يلي كمثال محدد للمسألة الأكثر عمومية. يوضح هذا التورط المتزايد للإرهابي الألماني الغربي مايكل بومان (مؤسس

حركة الثاني من يونيو)، الذي وصفه في البداية Kellen (1979). مثل العديد من الإرهابيين، لم يشرع بومان فجأة في مسيرة إرهابية. بدلاً من ذلك، يبدو أنه تحرك نحوها تدريجياً حيث أصبح مهمشاً بشكل متزايد من المجتمع، وانجرف إلى التطرف السياسي، وفي النهاية الإرهاب. مع تطور مشاركته المتزايدة، ساعدت الأحداث الأخرى المرتبطة به على استمراره. من الجدير بالذكر أن عوامل الجذب في أسلوب حياته ازدادت كلما أصبح أكثر تهميشاً، لأنه كما يلاحظ: "إذا كان لديك شعر طويل، كان هناك دائماً عدد لا يصدق من الكتاكيت المعلقة بك". والعوامل المختلفة المرتبطة بتطوره كإرهابي هي حتماً شديدة الخصوصية، ويصعب توقعها، ولكن عند النظر إلى الوراء، يمكن تمييز سلسلة من الأحداث المترابطة. إن عملية من هذا النوع تكون حتماً خاصة بالفرد المعني، على الرغم من أنها مع ذلك منطقية للمراقب بالنظر في وقت متأخر.

حتى لو كانت ذات طابع خاص، فإن العمليات التي يصبح الشخص بموجبها عضواً في جماعة إرهابية، والنهج التدريجي تجاه الالتزام وربما العنف الذي قد ينطوي عليه، يمكن تفسيره بالقوة بهذه المصطلحات. بشكل عام، قد تبدو نقطة البداية للفرد - الشعور بالظلم، أو حدث معجل معين، أو حتى صداقة عن بعد - بعيدة جداً عن نقطة النهاية، أو زرع قنبلة أو إطلاق النار على ضابط شرطة. لكن يمكننا أن نتصور بسهولة عملية يتم من خلالها ربطهما من خلال تسلسل معقد من الظروف المتشابكة ولكن الخاصة. سنقوم في مثل هذا التفسير بتطوير حساب للمنطق "الداخلي" لهذا السلوك، والذي يتعارض بالطبع مع منطقه الظاهر عندما يُنظر إليه من منظور المعايير والتوقعات الاجتماعية الأوسع. إن العمليات النفسية الاجتماعية مثل الفخ (Brockner & Rubin, 1985) والمزيد من السمات العامة لعضوية المجموعة يمكن أن تتلاءم بسهولة مع هذا الإطار، وتتفاعل مع المتواليات السلوكية المقيدة والمتقدمة تدريجياً وتشكلها. ومع ذلك، حتى عند النظر إليها من نقطة نهائية ومع الاستفادة من الإدراك المتأخر، فإن عملية "التحول" إلى إرهابي بهذه المصطلحات قد تبدو غامضة ويصعب فهمها. في حالة الإرهاب بالذات، فإن سلوك الإرهابي يخرج بشكل صارخ عن قواعد السلوك والتوقعات العادية. في هذه الظروف، بدلاً من البحث عن العلاقات السلوكية القانونية كتفسيرات، كما ذكرنا أعلاه، قد نشعر أنه يجب علينا اللجوء إلى تفسيرات من حيث المرض العقلي أو الانحراف بطريقة ما لمساعدتنا على فهم ما يبدو أنه سلوك لا يمكن تفسيره. إذا استطعنا أن نرى بوضوح تسلسل الأحداث التي أدت إلى تلك النقطة من وضع القنبلة، وإذا تمكنا من التعرف على السلسلة المعقدة من العلاقات المتبادلة بين سلوك ونتائج معينة، فقد يصبح منطق التطور أكثر وضوحاً، ويبدو أقل غموضاً. تكمن الصعوبة، بالطبع، في أن هذا الوضوح حتى في الإدراك المتأخر غير ممكن بشكل عام. إعادة البناء التفصيلية للأحداث التي قد تحدد سلوكاً معيناً، مهما كانت بسيطة، هي شيء لا يمكن تخمينه إلا بشكل غير كامل في البيئات الاجتماعية المعقدة. لكن ليس كل شيء سلبي. تفسيرات هذه الأنواع لها فائدة في بعض الظروف، من خلال تقديم إطار عمل لمزيد من التحليل على الأقل، وإزالة السلوك المعني من مجالات عدم إمكانية الوصول. على سبيل المثال، استخدم Taylor & Ryan (1988) هذا النوع من التفسير لمحاولة وصف تطور السلوك المتعصب في سياق العنف الإرهابي، من خلال الاعتماد على فكرة التطور التدريجي من حيث سلاسل السلوك. ومع ذلك، هناك صعوبات أخرى في مثل هذه التفسيرات. أهمها أنها تبدو آلية وحتمية دون داعٍ، وتعتمد على التحليل اللاحق. وفي الواقع، هذا بالطبع هو نفس النوع من

النقد الذي يمكن أن يسوى في التفسيرات الفرويدية والتحليلية النفسية للسلوك، من النوع الذي يمكن العثور عليه في تحليلات (Post (1984; 1986; 1987; 1990، على سبيل المثال. قد تكون السلسلة التي يجب افتراضها لشرح أي سلوك معين في هذه المصطلحات طويلة جدًا، وتمتد (بالمعنى الحرفي والمجازي) لمصداقية التحليل. وبالمثل، في حين أنه قد يتم تحديد السلوك بشكل جيد من خلال البيئة المعاصرة والتاريخية التي يحدث فيها، فإن التحليلات من هذا الشكل تبالغ في التأكيد على حتمية ظروف معينة، مما يعطي إحساساً زائفاً بإمكانية التنبؤ والحتمية. إحدى السمات المؤكدة لتطور الإرهابي، على سبيل المثال، هي أنه في حين أن العديد من الأشخاص يواجهون ظروفاً قد تكون مرتبطة بالتحريض على نمط حياة إرهابي، فإن عدداً قليلاً نسبياً من الأشخاص يصبحون إرهابيين عنيفين. وهذا نفسه ينطبق – بالتأكيد – على المتحمسين الدينيين.

هناك جانب آخر ربما يكون إشكالياً جوهرياً في مثل هذه التفسيرات هو الافتراض الضمني بأن السلوك له بداية، وبشكل أكثر تحديداً، نهاية يمكننا من خلالها النظر إلى الوراء في التحليل. يبدو أن هذا يتجاهل المعاملة بالمثل وديناميات السلوك، ويقلل من المرونة التي يبدو أنها تميزه، ويفترض وجود علاقة خطية بين الأحداث البيئية والسلوك. ومع ذلك، لا ينبغي أن يؤدي هذا النقد بالضرورة إلى رفض هذا النوع من التفسير؛ ولكن يجب الاعتراف بالقيود التي ينطوي عليها. والتحليل البديل من منظور سلوكي هو تطوير تفسيرات من حيث ما يسمى باتباع القاعدة (Skinner, 1968). السيطرة التي تمارس من خلال النتائج البعيدة التي هي إلى حد كبير سمة من سمات كل السلوك، وليس فقط السلوك الديني أو السياسي، يمكن تمييزها بشكل أفضل. كما تتوسطه قاعدة تربط تلك النتائج البعيدة بسلوكيات معينة، بدلاً من سلسلة حتمية من الاستجابات والعواقب.

القاعدة هي وصف لفظي للعلاقات بين السلوكيات والعواقب، وخاصة الأحداث المكروهة والتعزيزات. "إذا لمست هذا الموقد عندما يكون حاراً، فستحرق نفسك"، أو "أخبر جيم بهذه النكتة، سيحبها"، هي أمثلة بسيطة جداً لقواعد السلوك. تصف ما يشار إليه تقنيًا بالاتساقات السلوكية، أو العلاقة بين الحدث والسلوك. تتكون الحالة السلوكية المتسقة من وصف الاستجابة ووصف النتيجة وتحديد الظروف من بعض الأشكال التي في وجودها ستؤدي الاستجابة إلى تلك النتيجة. يشار إلى تلك الظروف التي تؤدي فيها الاستجابة إلى النتيجة من الناحية الفنية على أنها محفزات تمييزية في المثال أعلاه، في وجود موقد ساخن (محفز تمييزي)، فإن لمس هذا الموقد (استجابة) سيؤدي إلى حرق مكروه (نتيجة). قد يكون المثال البسيط الآخر هو الأحداث التي تواجه الممثل الكوميدي، حيث في وجود جمهور متقبل (حافز تمييزي)، فإن إلقاء نكتة (استجابة) سينتج عنه ضحكة مجزية (نتيجة) (Mallot, 1988). وبالتالي، فإن القاعدة هي تعميم حول الظروف التي تتحكم في السلوك (الإيجابي والسلبي) التي تم تطبيقها في الماضي، أو التي سيتم تطبيقها في المستقبل. طريقة أخرى للتعبير عن هذه العلاقة هي الرجوع إلى قواعد الاتساق. توضح الأمثلة الواردة أعلاه قواعد الاتساق البسيطة التي قد تكون موجودة. الأول، على سبيل المثال، هو الشكل الذي يمكن تعليمه للطفل، والثاني ربما يكون مثالاً أكثر تعقيداً. في السابق، الحدث البيئي الخاص الذي سينتج النتيجة البغيضة (الحافز التمييزي) هو الموقد؛ في الأخير هو جمهور متقبل. يمكن أن تكون النتائج بالطبع إيجابية أو سلبية، مرة أخرى كما هو موضح أعلاه.

من حيث فهم السلوك المعقد، يمكن مقارنة فائدة التحليل من حيث قواعد الاتساق مع تحليل السلسلة للسلوك الأيديولوجي المفصل أعلاه. يؤكد تحليل السلسلة على أهمية ظروف التصرف الفوري في التحكم في السلوك. مثل هذا السلوك يمكن أن يسمى متسق خاضع للسيطرة، على عكس القاعدة المحكومة. النتائج البعيدة في حد ذاتها ليس لها علاقة ضرورية مع حالات الاتساق المسيطرة الفورية. قد "ينجرف" الفرد نحو شيء ما (مثل التورط في الإرهاب أو الدين)، ولكن هذه الحالة النهائية لها علاقة ضئيلة أو معدومة بالظروف الخاصة التي تؤثر على الفرد في أي وقت. من ناحية أخرى، يؤكد التحليل من حيث قواعد الاتساق على العلاقة بين السلوك الحالي وبعض النتائج المؤجلة. تتوسط القاعدة بشكل فعال بين السلوك الحالي وتلك النتيجة المؤجلة أو البعيدة. من خلال الاعتماد على نفس الإطار التفسيري والمفاهيمي، يمكننا تحديد نوعين قويين للغاية ولكن مختلفين من التفسير. من المفترض في أي موقف معقد معين، أننا لن نهتم بهما بشكل فردي، ولكن في نوع من الجمع المتبادل.

لنفترض قواعد اتساق كهذه لا تتضمن تفسيرات ذهنية من النوع المشار إليه سابقاً في الإشارة المختصرة للمقاربة النفسية للأيديولوجية. لا تكمن أهمية إدخال مفهوم القواعد في استبدال نوع غامض من التفسير بآخر (Reese, 1989). بدلاً من ذلك، من خلال النظر إلى القواعد كأوصاف لفظية (لكل من المتحدث والمستمع) (Skinner, 1968) تتوسط في النتائج البعيدة للسلوك المباشر، فإننا نشير إلى عملية يمكن من خلالها تطوير مثل هذه القواعد. هذا يتفق مع أنواع أخرى من التفسيرات السلوكية ومكمل لها. يتعرف على القوى الظرفية القوية التي نعرفها للتحكم في السلوك ويستند إليها، ويضعها في سياق يمكننا من شرح الصفات المنظمة المعقدة للسلوك بمرور الوقت. ويمكن أن تكون القواعد عبارة عن أفكار مجردة من اتساقات بيئية فورية حتمية، أو يمكن أن تكون مجرد أفكار مجردة أو تحليلات للاتساق التي حدثت أو ستحدث. أحد أشكال الحكم القوية للغاية التي لاحظها Skinner، والتي تستند إلى الأخير، هو القانون الأخلاقي أو الديني أو الحكومي. هذه هي الأوامر الزجرية بشكل ثابت تقريباً (كالوصية السادسة "لا يجوز لك الزنا")، على الرغم من أنه في التطبيق ("إذا فعلت ذلك، فسوف تتسبب في استياء الله") قد يتم تخفيف صفة الأمر الزجري، مما يؤدي إلى وصف حالات اتساق فورية ("إذا فعلت ذلك، سأتركك"). يعكس هذا التخفيف الشديد مزيجاً من قاعدة اتساق (الوصية) مع ظرف مباشر (أو متسق) يؤثر على السلوك الحالي المشار إليه أعلاه. في الواقع، يتناسب مفهوم الأيديولوجية الضمني هنا مع هذا الإطار الخاص للقواعد، حيث غالباً ما تكون الأيديولوجية عبارة عن سلسلة من الوصفات الزجرية للسلوك، والتي يتم تخفيفها عند التحليل إلى توصيفات أكثر وضوحاً لحالات الاتساق الفورية. حتى أننا قد نصف هذا التليين الإيديولوجي القائم على الاتساق بأنه عملية سياسية براغماتية، أو ربما نعيش الحياة الدينية. باختصار، لأغراض مناقشتنا هنا، يكفي ملاحظة أن سلوك اتباع القواعد يوفر وسيلة لربط الأهداف والنتائج البعيدة بالنشاط الفوري (Skinner, 1968; Mallot, 1987; Hayes).

عرَّف Rokeach (1068) الأيديولوجية بأنها "مجموعة مشتركة ومتفق عليها على نطاق واسع من القواعد، والتي تساعد على تنظيم وتحديد السلوك". هذا الرأي يتوافق تماماً مع ما تم تطويره هنا. تمنح الإيديولوجية الفرد مجموعة من القواعد التي تحدد السلوك وتشكله. تحقق الظروف التي يحدث فيها

السلوك "معناه"، أو ربما يمكننا أن نقول غرضيته الظاهرة، بالرجوع إلى نهاية بعيدة. يتم التعبير عن هذه الغاية من خلال قاعدة، وليس بالإشارة إلى الظروف المباشرة السائدة في ذلك الوقت. وبالتالي فإن النهاية البعيدة تتوسط السلوك. عند تحليل العملية هذه، يمكننا أن نبدأ في رؤية العلاقات المتبادلة بين الأنشطة التي قد تبدو متباينة للغاية وغير ذات صلة. بالإشارة إلى القواعد بهذا المعنى، على سبيل المثال، يمكننا أن نرى بسهولة الطريقة التي يمكن للقواعد أن تحل محلها ، وتجربة "تماس كهربائي" لحالات اتساق سلوكية معينة. وبالتالي، يشارك المتحمسون الملتزمون سياسياً أو الدينيون في مجموعة متنوعة من الأنشطة، وكلها منظمة حول وتسيطر عليها قواعد أيديولوجية واسعة النطاق تتحكم في السلوك. مصدر القواعد هو سلطة من نوع ما، ويتم التعبير عنها في بعض الوسائط اللفظية القابلة للنقل (كالكتابة). وأهمية نقل القواعد اللفظية من خلال بعض الوسائط ذات أهمية مفاهيمية كبيرة في هذا التحليل (Hayes, 1986; Leites & Wolfe, 1970; Denardo, 1984; Mason, 1982)، وبالطبع هذه نوعية مناسبة بشكل خاص لتحليلات الأيديولوجية السياسية والدينية. وهكذا، فإن القواعد التي تنظم سلوكنا تأتي من الكتاب المقدس، والقرآن، وكتابات ماركس، وكفاحي لهتلر، وما إلى ذلك. في بعض الأحيان يتم التعبير عن القواعد بطريقة مفصلة للغاية، كما هو الحال في أجزاء من القرآن، على سبيل المثال، ولكن في العادة، تكون القواعد المعبر عنها في أعمال من هذا النوع عامة جداً، ولا تقدم وصفات مفصلة بشكل خاص للسلوك. لذلك نرى تطوير قواعد إضافية توسع في القواعد الأصلية، من خلال التعليقات، والحديث، والمنشورات البابوية والمواعظ. قد ترتبط هذه التطورات الإضافية ارتباطاً وثيقاً بالاتساقات العاجلة. ولا يخلو من الأهمية أن سمة من سمات الملتزم أيديولوجياً (علمانياً ودينياً) هي حضوره المنتظم في مجموعات الدراسة ومنتديات المناقشة والخدمات التي يتم فيها وضع القواعد العامة في شكل أكثر تحديداً. وهكذا يتم التعبير عن القواعد الأيديولوجية العامة بطرق أكثر تحديداً بحيث يمكن للفرد أن يتعلمها بسهولة أكبر، والاتساقات السلوكية التي تنطوي عليها القواعد تمارس تأثيرها بسهولة أكبر وفعالية.

بشكل عابر، قد نلاحظ أيضاً الظروف العاجلة المهمة التي ستنطبق أيضاً في هذه العملية، وقد تعمل على التفاعل مع القواعد البعيدة ذات الصلة واستكمال الاتساقات المرتبطة بالقواعد الأبعد. قد تعمل الاجتماعات والمناقشات من النوع المذكور أعلاه على تحسين الوصفات الأيديولوجية، لكنها تمارس أيضاً سيطرة كبيرة على السلوك بأنفسهم، من خلال التعزيز الاجتماعي وقوى سلوك المجموعة. وبالتالي، عند النظر إلى التركيز طويل المدى للقواعد، لا يمكننا تجاهل المزيد من الحالات المتسقة الفورية التي قد تكون بمثابة دعم فرعي. ولا تمارس القواعد سيطرة كاملة على السلوك. حتى أكثر المتحمسين للدين قد يخفق من وقت لآخر ويخطئ (ومع ذلك، يمكن الإشارة إلى قوة الاحتمالية الخاضعة للقاعدة من خلال مدى إدراكه للخطيئة وطبيعة هذا الوعي، ربما الذنب). يمكننا القول بشكل عام أن درجة التحكم التي تمارسها البيئة على السلوك مرتبطة بطبيعة وقوة حالات الاتساق المعززة التي قد تعمل على الفرد. عندما تكون العلاقة بين السلوك وعواقبه غير واضحة، أو عندما تكون العواقب غير مميزة بشكل خاص أو ربما تكون متعددة، فإن السيطرة الخاصة لأي حالة طارئة على السلوك ستكون أقل من مطلق. وبالمثل، لا نحتاج إلى افتراض أن جميع القواعد فعّالة بالضرورة عند التعبير عنها. يميز Malott بين القواعد "التي يصعب اتباعها" وقواعد

"سهلة المتابعة". تصف قواعد "سهولة المتابعة" العلاقات التي ينتج فيها السلوك نتيجة محتملة وكبيرة، حتى لو تأخرت؛ قد تتضمن أيضاً حالات اتساق فرعية أخرى محتملة وكبيرة (على سبيل المثال بمساعدة مجموعات الدراسة، والاتصال الاجتماعي، والصفات الأخرى للبيئة التي يعيش فيها الفرد). وقد نبدأ في برنامج دراسي شاق، ليس لأن قراءة الكتب الدراسية تعززنا، ولكن لأنه في نهاية البرنامج، نحصل على شهادة أو دبلوم يجعل من المرجح أننا قد نحقق دخلاً أعلى. هناك مساعدة كبيرة لهذه العملية (كما يعرف أي طالب مسائي) وهي الاتصال غير الرسمي بين الطالب والآخرين في منصبه. في مناقشة أكثر تقنية ، أشار Cerutti (1989) إلى حالات الطوارئ الفرعية من هذا النوع على أنها "عواقب جانبية".

على النقيض من ذلك، تصف القواعد "التي يصعب اتباعها" الحالات المتسقة التي تكون إما غير محتملة أو لها نتائج صغيرة (من حيث العواقب البغيضة أو المعززة)، وربما تفتقر إلى القواعد الفرعية "سهلة المتابعة". وقد نتصور أيضاً ظروفاً قد تتعارض فيها القواعد، على سبيل المثال بعض الأنشطة المتعلقة بالصحة التي يجب أن نؤديها لضمان مستقبل صحي قد تتعارض مع السلوكيات الأخرى التي تحددها القواعد والمتعلقة بكسب لقمة العيش، أو إحراز تقدم مهني أو مهني. وبالتالي، قد نعمل في بيئات غير صحية أو خطرة تعرض الصحة للخطر حيث يكون توازن القواعد والعواقب المتعلقة بالتقدم المهني أكثر قوة من حيث النتائج. لذلك، عند تطوير هذا الموضوع، قد نصف شخصاً ملتزماً أيديولوجياً أو دينياً بأنه يخضع لسيطرة قواعد معينة، مستمدة من أي مصدر أيديولوجي. وتكمن أصول هذا التحكم في عمليات التعلم العادية التي نعرفها، وترتبط بالعواقب الظرفية للسلوك. ومن المهم التأكيد على أنه في حين أن هذا قد يبدو تفسيراً بسيطاً ومباشراً نسبياً لكيفية احتلال الأيديولوجية أو الدين دوراً مهماً للفرد، فإن العمليات التي ستحدث لذلك الفرد بالضرورة تكون معقدة ومتبادلة و تفاعلي. قد يتم شرح السلوك بالرجوع إلى عمليات بسيطة نسبياً، لكن تشغيل العمليات التي حددناها قد يكون معقداً بشكل غير عادي. ويجب أن نلاحظ أنه بينما لفتنا الانتباه إلى الدور الذي قد يلعبه اتباع القواعد في تفسيرات النشاط الأيديولوجي والديني، فإن هذا لا يعني أن هذا التفسير يخدم هذا الشكل من السلوك فقط. بدلاً من ذلك، يبدو من المرجح أن تخضع جميع أشكال السلوك للتحكم في بعض القواعد بشكل ما. الفرق بين الملتزمين أيديولوجياً ودينياً والآخرين هو أنه ربما، بالنسبة لمثل هؤلاء الأفراد الملتزمين، يمكن التعبير عن القواعد بطريقة واضحة نسبياً. ويمكن نقل الأيديولوجية بالضرورة من خلال وسيط لفظي أو وسيط مشابه. علاوة على ذلك، قد تكون هذه القواعد "سهلة المتابعة"، وكما أشرنا سابقاً، يكون لها قدر من التماسك والقوة لأن يتم التعبير عنها. وفي الواقع، بحكم التعبير عنها، قد تكتسب مزيداً من التماسك والقوة من خلال تحديد علاقات أوضح. وبالتالي، قد يبدو سلوك الملتزم أيديولوجياً أكثر تنظيماً وتوجهاً لأن القواعد أكثر وضوحاً وترابطاً بطرق أوضح ومنطقية وقوية. وبالتالي، تصبح العلاقات بين النتائج المباشرة والبعيدة أكثر وضوحاً، وقادرة على ممارسة سيطرة أوثق على السلوك. وباختصار، إذن، يبقى سلوكنا (سواء كان قائماً على أيديولوجية أو غير ذلك) تتحكم فيه القواعد المتعلقة بالنتائج البعيدة للأحداث الفورية وبالحالات المتسقة الفورية. بالنسبة للأيديولوجية، قد تكون القواعد أكثر وضوحاً ومنطقية، بالإضافة إلى دعمها بحالات اتساق فرعية قوية.

هذا التحليل تخميني إلى حد ما، حيث إن التحقق التجريبي من هذه المفاهيم من حيث الأنشطة واسعة النطاق التي ينطوي عليها السلوك السياسي والديني غير موجود بالضرورة. من ناحية أخرى، يقدم التحليل مزايا مفاهيمية كبيرة على التكهنات النفسية الأخرى في هذا المجال. من خلال ربط الأيديولوجية (السياسية أو الدينية) بسلوك اتباع القواعد، فإننا نصف عملية يتم من خلالها اكتساب أيديولوجيات معينة، معبراً عنها كقواعد سلوكية، السيطرة والتأثير على السلوك. كما يقدم لنا منظوراً يمكن من خلاله تحليل أيديولوجيات معينة، لأنه - في ضوء هذه العملية - يمكننا الآن النظر في العلاقات الوظيفية لنشاط سياسي معين. بشكل عام، فإن الموقف المقدم هنا ليس تطوراً فريداً في تحليلات السلوك السياسي. إنه يحمل بعض أوجه التشابه مع وجهات النظر الأخرى التي تؤكد على العلاقات الوظيفية، مثل تلك التي طورها Dietrich (1988) لصعود الحزب النازي إلى السلطة. ومع ذلك، على النقيض من الموقف الذي تم تطويره هنا، يستند تحليل Dietrich إلى المجال ذي الصلة بمبادئ السلوك الاجتماعي (Staats, 1975). ويبدو أن مفهوم القواعد عند Skinner يمثل تقدماً مفاهيمياً مهماً على نظرية التعلم الاجتماعي في المجال الذي نهتم به، ومع ذلك، خصوصية في التحليل تتوافق مع القدرة على تطبيقها على مواقف أكثر عمومية.

من هذا التحليل القصير، يمكننا أن نرى كيف يمكن النظر إلى الأيديولوجية السياسية أو الدينية على أنها تعبير عن قواعد اتساق صريحة ومتماسكة داخلياً ومنطقية، مما يساعد على ربط الأحداث البعيدة بالسلوك الفوري. لا يحتاج تحليلنا إلى الاعتماد على تفسيرات "خاصة"، بل يستخدم بدلاً من ذلك الأطر التوضيحية القوية الحالية. وبالإشارة إلى السلوك المحكوم بالقواعد، يمكننا أن نرى كيف ترتبط الأيديولوجية بالسلطة (كمصدر للقواعد)، وكيف توفر الإيديولوجية القواعد التي تحدد سلوكنا. إن الطريقة المركزة التي يبدو من خلالها المتطرف الديني، على سبيل المثال، مقيداً بافتراضاته الأيديولوجية مع استبعاد كل شيء آخر، توضح بطريقة بسيطة الطبيعة الجامدة وغير الحساسة لحكم القاعدة. وبالتالي، فإن هذا النهج يمهد الطريق لتحليل الأصولية الدينية، من حيث الإطار الذي يمكن التعبير فيه عن أولويات أيديولوجية معينة. ومن الآثار المهمة لهذه المناقشة أنه في المصطلحات المفاهيمية التي تمت مناقشتها هنا، فإن الأصولية ليست بالضرورة صفة أولية، وبالتالي مميزة، لأي من الأيديولوجية أو النشاط الديني، على الرغم من أنه قد يكون من المرجح في بعض أشكال التعبير الديني أكثر من الآخرين. ولا نحتاج إلى البحث عن صفات فردية معينة تسمح بالتعبير عن وجهات النظر الأصولية. بدلاً من ذلك، يمكن النظر إلى الأصولية على أنها صفة مفيدة للأيديولوجية، ويتم تحديد حدوثها من خلال تفاعل الأيديولوجية كقواعد متسقة، والمحتوى الخاص للأيديولوجية، والاتساقات السلوكية المحلية والفورية والعوامل الظرفية. في الواقع، في ظل بعض الظروف، ما نعتبره أصولية قد يكون ببساطة عنصراً ثانوياً إلى حد ما مرتبطاً بفرص تحكم اتساق أخرى أكثر قوة. وقد تكون العواقب الأوسع للأصولية، بالطبع، عميقة بالنسبة للمتلقي، أو المجتمع الذي تحدث فيه، ولكن فيما يتعلق بالفرد، قد يكون عنصراً عرضياً في الحالات المتسقة الأوسع التي تتحكم في السلوك.

في محاولة لفهم محددات السلوك الأصولي من هذا المنظور، يمكننا أن نفترض أن كلا من العلاقات المتسقة المباشرة والحالات المتسقة التي تحكمها القواعد البعيدة تتفاعل وتتحكم في السلوك. وبقدر ما

يتعلق الأمر بحالات الاتساق التي تحكمها قواعد، فإنها قد تمارس سيطرة فعالة أو غير فعالة. بالنسبة لمعظم الأشخاص في المواقف العادية، يمكننا أن نرى أمثلة على كلا النوعين من اتباع القواعد، وقد تكون التناقضات والشكوك التي نلاحظها في سلوك الأشخاص مرتبطة جزئياً بتوازن القواعد الفعالة وغير الفعالة، أو التعارض بين القواعد. ومن المعقول أن نفترض أن مثل هذا التوازن مرتبط على الأقل إلى حد ما بالدرجة التي يتم بها صياغة القواعد. ويبدو أن حالة الأصولي الديني تمثل حالة يمارس فيها شكل من أشكال الحكم الأيديولوجي سيطرة واسعة وقوية على السلوك.

قد تشير فعالية السيطرة هذه إلى السبب الرئيسي للصلابة المميزة للمؤمنين الأصوليين. يمكن وصف هذا بأنه تمسك لا يرحم ولا يتزعزع بموقف معين، والمتابعة المنطقية لهذا الموقف بغض النظر عما إذا كان هذا السلوك يتعارض مع وصفات أخلاقية أو اجتماعية أوسع (ربما يكون هذا مرتبطاً بالخصائص الحصرية والمواجهة للأصولية الملاحظة من Bruce فيما سبق). ربما ما نراه في الأصولي هو فرد يظهر في الواقع صفتين مميزتين للتحكم السلوكي. الأول هو أن السلوك يخضع لسيطرة صارمة من القواعد الأيديولوجية (بمعنى القواعد الفعالة المستخدمة أعلاه) والتي بحكم أصولها يسهل على هذا الفرد اتباعها، أو تتمتع بقوة مماثلة من خلال العواقب الفرعية والدعم. الصفة الثانية هي أن الظروف أو الحالات المتسقة في بيئته المباشرة تمارس سيطرة أقل على السلوك، مع حالات اتساق داعمة محدودة أو معدومة. لقد تم الاعتراف بأن التحكم الدقيق من خلال الحالات المتسقة لاتباع القواعد يؤدي إلى عدم حساسية السلوك تجاه الظروف المباشرة. قد يكون عدم الحساسية في الظروف الخاصة التي نهتم بها عنصراً مهماً للغاية في تطوير هذه النوعية الخاصة من الأصولية. في الواقع، يصف Skinner العديد من سمات السلوك التي قد تكون ذات صلة هنا من حيث الصفات التي يراها نموذجية للسلوك المحكوم بالقواعد، كالافتقار إلى التنوع في الاستجابات والأسباب، والتأكيد على الحقيقة، وما إلى ذلك. ويمكن التفكير في سلوك الأصولي الديني على أنه يمتلك صفات مماثلة لتلك الخاصة بالأشخاص العاديين، ويختلف على طول سلسلة متصلة من نوع ما، بدلاً من الاختلاف في الشروط المطلقة. ربما تتمثل إحدى طرق وصف هذه السلسلة المتصلة في المدى الذي يتم فيه التحكم في سلوك الأصولي من خلال مجموعة محدودة من القواعد المقيدة نسبياً في المدى والمترابطة بشكل وثيق. يتناقض هذا مع التعدد النسبي للقواعد التي قد تتحكم في السلوك الطبيعي، ومدى السيطرة التي تمارسها الظروف المباشرة. وإذا عبرنا عن هذا الاختلاف بهذه الطريقة، فهذا ليس مجرد حشو، ولا هو نسخة مفصلة من الحسابات العقلية. يمكن للفرد أن يكون "متعصباً" بشأن مجموعة متنوعة من الأشياء، فقد يتابع رياضة بتعصب أو يصبح منغمساً بالكامل في جانب من جوانب العمل. كلاهما مثالان على السيطرة التي تمارسها القواعد السلوكية. ستحدد طبيعة السلوك المعين الذي يتبع القواعد بوضوح التركيز، وستحدد النوعية المميزة للسلوك الديني المتعصب التركيز بوضوح. السمة المميزة للسلوك الديني المتعصب (والذي قد يكون مصطلحاً مناسباً للأصولية) هي مدى السيطرة الذي هو في حد ذاته انعكاس لصفات الدين الشاملة، على عكس النطاق المحدود للقواعد المتعلقة بالرياضة، على سبيل المثال. ففي وصف السلوك الخاضع للسيطرة الأيديولوجية بهذه الطريقة، ولا سيما من خلال ربطه

بسلوك الأصولي الديني، فإننا لا نصف فقط طبيعة السيطرة السلوكية، ولكن أيضاً نصف العمليات التي يتطور بها هذا التحكم. يبدو أن هذا تقدم في طرق أخرى لتصور المشكلة.

قد يبدو من المنحرف استبعاد المنطق والأفكار من تحليل النشاط الأصولية المتطرفة، بالنظر إلى التركيز على حكم القاعدة، وبالنظر إلى النقطة المذكورة أعلاه أن القاعدة هي وصف لفظي للعلاقات بين السلوكيات والنتائج. وتؤكد العديد من الآراء المعاصرة حول طبيعة السلوك المعقد على أهمية التحكم اللفظي، والذي يعمل على سد الفجوة بين الحسابات المعرفية والسلوكية. ومع ذلك، يمكن للتحليل المقدم أن يحتضن "الأحداث الخاصة" مثل الأفكار، والتصورات، وما إلى ذلك، كمتغيرات سياقية وعملية إذا قمنا بتوسيعها لتشمل الأساليب المعرفية - السلوكية. بعد كل شيء، لا يتميز المتطرف الديني بالسلوك المتطرف فحسب، بل أيضاً بالإدراك المتطرف، الذي قد يُعتقد أنه يدعم التعبير المتطرف عن السلوك ويكمله. إن الأصول اللغوية واللفظية الأساسية لمثل هذه الإدراك تكمل بسهولة تحليل دور الأيديولوجية المقدم حتى الآن. بالاعتماد على تقليد غني بالتدخل السريري، يمكننا تحديد نموذج مفاهيمي قد يساعدنا على فهم العلاقة بين الإدراك والسلوك بشكل أكبر، وكذلك الإشارة إلى نقاط التدخل من حيث تغيير الإدراك غير المناسب الداعم للسلوك المتعصب. ويقدم الرسم البياني التالي طريقة واحدة لتصور هذه العلاقات.

العملية والمحتوى

المناقشة أعلاه تمكننا أيضاً من إجراء تمييز نقدي. يمكننا التمييز بين العمليات التي قد تسمح بالتعبير عن الأيديولوجية، وخصائص أيديولوجية معينة. بمعنى ما، تشير القواعد السلوكية إلى مجموعة واسعة من الحالات المتسقة المتعلقة بالنتائج البعيدة للسلوك. قد نصنف هذه القواعد العليا على أنها عملية أيديولوجية. لن يكون من غير المعقول افتراض أن أنواعاً مختلفة من القواعد قد تؤدي إلى أنواع معينة من التأثيرات على السلوك. من ناحية أخرى، فإن المحتوى المعين للقواعد (أو من الناحية الفنية، الحالات المتسقة التي تنطوي عليها) يشير إلى محتواها الإيديولوجي الفوري والوصفات. ومن المحتمل أيضاً أن تتضمن صفات محتوى الإيديولوجية، مع ارتباطها بقواعد أكثر عمومية، ظروفاً أكثر إلحاحاً تتعلق بالأحداث على المستوى اليومي. وربما يكون هذا التمييز أكثر وضوحاً في الأيديولوجيات الدينية، حيث يوجد غالباً رابط مباشر جداً بين السلوك ومحتوى الإيديولوجية. وتتعلق أنشطة معينة بالوصفات الأيديولوجية، من خلال أنشطة فرعية مثل الصلاة، والتراجع والامتناع عن تناول أطعمة معينة. لكنها تكتسب "معناها" من خلال الرجوع إلى قواعد الترتيب الأعلى.

يمكننا هذا التمييز من تحديد عدد من الصفات المهمة للأيديولوجية الدينية التي يمكن وضعها الآن ضمن الإطار الأوسع لسلوك اتباع القواعد. على وجه الخصوص، يمكن التمييز بين محتوى الأيديولوجية (نوع الدين الخاص، والطبيعة المحددة للقواعد الدينية)، وعملية الأيديولوجية، المتضمنة والمتأثرة بمحتوى الأيديولوجية الخاص. ويمكن تحديد ثلاثة عوامل رئيسية على الأقل: المحتوى المحدد لأيديولوجية (من حيث التشدد، الأوامر على المستوى الجزئي، إلخ)، والجانب الأكثر انتشاراً وأعلى مستوى للمحتوى، لا سيما فيما يتعلق بالعقيدة الألفية، والعملية التي تنطوي عليها السيطرة الأيديولوجية المتطرفة، والتي يمكن وصفها بأنها "نقص في الفضاء العام" (Arendt, 1958). وقد تكون هناك عوامل أخرى ذات صلة

بالطبع، وتحتاج هذه المنطقة إلى مزيد من الاستكشاف. تم تطوير طبيعة وتأثير ما ورد أعلاه بشكل مطول ضمن سياق سلوكي في مكان آخر. ويحدد التالي بإيجاز القضايا ذات الصلة.

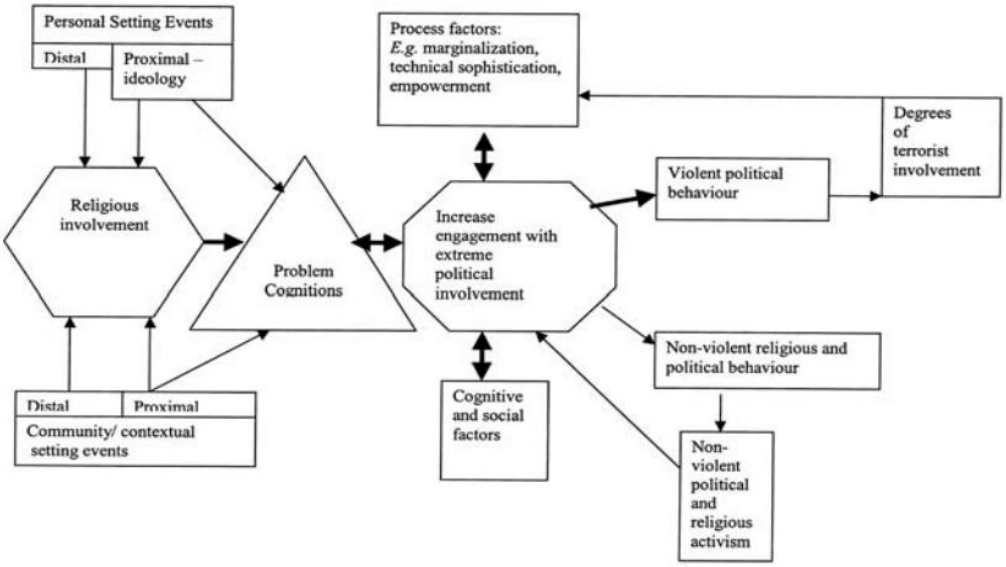

شكل 1 نموذج العملية للسلوك الأصولي

المحتوى الأيديولوجي الخاص

من الواضح أن الأوامر اليومية المحددة للدين هي أحد العناصر المهمة في تحديد السلوك الديني. تعتبر الوصفات الخاصة بالصلاة، على سبيل المثال، أو أداء الصوم خلال شهر رمضان، أمثلة على التحكم في الحياة الدينية اليومية. يمكن رؤية "أركان" الإسلام الخمسة في ضوء ذلك، كمثال لمحتوى أيديولوجي محدد. وتترافق مع هذا المستوى من الخصوصية أوامر قضائية أكثر عمومية، وربما تتعلق بشكل مباشر بالعنف. كانت الأيديولوجية النازية مليئة بالإشارة إلى اليهود كأشياء سلبية، على سبيل المثال، وحث على التمييز والعنف بطريقة صريحة للغاية. من الواضح أن المدى الذي ترفض فيه أيديولوجية جماعة ما بشكل صريح، وتعبر عن هذا الرفض بمصطلحات متشددة، هو أحد جوانب احتمالية العنف داخل أيديولوجية ما. ومن الواضح أن الإسلام الأصولي يطور، كجزء من محتوى وصفاته الأيديولوجية، التشدد ضد الحياة الغربية والثقافة الغربية. يحتوي الإسلام على العديد من الصفات التي يمكن استخدامها للحفاظ على النهج المتشدد، ومن أبرزها مفهوم الجهاد. "الجهاد في الإسلام هو ببساطة اسم للسعي لجعل نظام الحياة هذا مهيمناً في العالم" (Qutb) ، يعبر بوضوح عن الطبيعة القتالية للإسلام، على الأقل كما يراها قطب. إذا كان من المسلم به أن الحياة الغربية هي الجاهلية، وأن دولة الجاهلية بحكم تعريفها معارضة للإسلام، وأن من واجب المؤمن أن يقاتل ويهزم الجاهلية، فلا بد أن يكون الإسلام في حالة جهاد ضد الغرب. قد تحد الاعتبارات الإستراتيجية من مدى وطبيعة الحرب ويمكن إجراء ترتيبات قصيرة المدى؛ لكن في نهاية المطاف، يجب شن الحرب (من العوامل المهمة الاقتناع بأن النصر مؤكد).

هذه الحتمية الأيديولوجية للجهاد لا تحتاج بأي شكل من الأشكال إلى التقليل من التطلعات السلمية للإسلام من منظور المؤمن. فمن المتطلبات الأساسية للإسلام أن المسلم مطالب بتأسيس سيادة الله على الأرض. الجهاد هو وسيلة لتحقيق هذا، فالجهاد إذن وسيلة لتحقيق تغيير شامل من خلال إرساء سلام الضمير والسلم الداخلي والسلام الوطني والسلام الدولي (Qutb, 1977). ولأن الإسلام بالنسبة للمؤمن هو بالضرورة الطريقة الوحيدة الممكنة لتحقيق ذلك، لتحقيق سيادة الله على الأرض، يجب أن ينتج عن إنشاء عالم إسلامي سلام الله وعدله. ويمكن أن يُطلق على الإسلام ديناً قائماً بذاته، فهو يحتوي في ذاته على كل ما هو ضروري للمؤمن لتحقيق الخلاص وسلام الله. إن عدم قبول هذا المنطق الواضح وغير القابل للتحدي يمكن أن يكون فقط نتيجة للتأثيرات الحاقدة، التي تعمل على معارضة تأسيس قانون الله (وهي قضية تتعلق بنظريات المؤامرة التي نوقشت فيما بعد). يجادل قطب بإسهاب في الطبيعة المتسامحة للإسلام، لكن هذا التسامح يمتد فقط إلى أولئك الذين يقبلون المنطق. يُعرض على أعداء الإسلام ثلاثة خيارات: اعتناق الإسلام، ودفع الجزية (كإقرار بأن غير المؤمن لن يعيق تقدم الإسلام)، أو القتال (لأنهم يقفون بعناد بين الرجال والمبادئ الصالحة والسلمية في الإسلام). وبالنظر إلى هذه الآراء، فإن ما يمكن تسميته بالمنطق العسكري للإسلام الراديكالي والأصولي سيؤدي حتماً إلى مواجهة بين الإسلام والغرب. ومن الناحية السلوكية، ما يمكن أن نصفه بمنطق الإسلام ليس أكثر من تعبير عن القواعد السلوكية التي تحدد العلاقات بين الغايات طويلة المدى والسلوك المباشر. تعود أصول القواعد إلى أسس الإسلام والشريعة (القرآن، إلخ)، وقد أوضح مؤلفون مثل قطب العلاقات الأكثر تفصيلاً (مع التأكيد عليها بشكل مميز). ويتم تنقيحها من خلال التعليقات المختلفة وعلى المستوى المحلي من خلال الخطب الأسبوعية في المساجد، إلخ. ومن الأمثلة الأكثر وضوحا على القواعد السلوكية بالطبع مفهوم الشريعة. يساوي الإسلام قوانين الطبيعة البشرية بقوانين الكون (ما يمكن أن نطلق عليه القوانين الفيزيائية). كلاهما جانبان من جوانب إرادة الله، وكلاهما صفات غير قابلة للتغيير في الحياة، ويجب إطاعة كليهما. يمتد هذا إلى السلوك الطوعي بقدر ما يمتد إلى السلوك غير الطوعي، ولكن بالنسبة للأول، فقد وضع الله الشريعة بشكل خاص لضمان أن "حياة الإنسان منسجمة مع طبيعته". الشريعة هي التعبير الإلهي لقانون الله، وموجود في القرآن والسنة والحديث (يرتبط الترجيح الدقيق والشكل المعطى لكل عنصر من الكتابات المقدسة بتأكيدات وتقاليد معينة داخل الإسلام).

يمكن رؤية عملية التحسين في تطوير القواعد السلوكية الدينية في العلاقة بين الشريعة ومصادر الشريعة الإسلامية. المصدر الوحيد لقانون مكتوب موثوق به في الإسلام هو القرآن: "إنه كلام الله المنطوق الدقيق كما اختصر في الكتابة بواسطة النبي". وبينما يحتوي القرآن على إرشاد مباشر، غالباً ما يتم التعبير عنه على مستوى من المبدأ العام، حيث يجب اشتقاق الأحكام التفصيلية منه. وسُجِّلت السنة النبوية بعد وفاة النبي، وهي تشكل أشكالاً أكثر موضوعية من الهداية. تسمح مصادر القانون الأخرى (التفكير القياسي، ومفهوم الإجماع) بعمل أكثر تفصيلاً من الافتراضات العامة المتعلقة بالظروف الاجتماعية الخاصة في ذلك الوقت. ومن الأهمية بمكان أن الدور المعاصر للقياس والإجماع في تحديد الشريعة يشكل أحد نقاط التحول التي تفصل التفكير الأصولي عن غيرها من التأكيدات داخل الإسلام. ومع ذلك، تعمل الشريعة على

إقامة رابطة مشتركة بين جميع المسلمين، وأصلها الإلهي يضعها في مكانة فريدة فيما يتعلق بالشؤون الإنسانية. تطبيقه هو عنصر من عناصر الإيمان بالنسبة للمتدينين، كتعبير واضح لا لبس فيه وتفصيلي عن إرادة الله.

تحدد الشريعة السلوكيات المناسبة للمواقف على مختلف المستويات. في الغرب، نميل إلى أن نكون أكثر وعياً بالشريعة عند تطبيقها في سياق القانون الجنائي، وبشكل أكثر تحديداً من حيث نظام العقوبات المحدد للسرقة (البتر) والزنا (الرجم). لكن الشريعة تمتد إلى ما هو أبعد من هذه الحدود المحدودة، وتشمل جميع جوانب الفقه، والحياة الاجتماعية، والعلاقة بين الناس في الأعمال التجارية والمؤسسات التجارية، والعلاقة بين الدول بالفعل. وتتجلى الطبيعة المستقلة للإسلام في هذا المجال كما هو الحال في مناطق أخرى، "لا يمكن للمرء أن يفرض جزءً من الشريعة الإسلامية ويهمل جزءً آخر لأنه لن يكون الإسلام".

إن تفاصيل ما تعنيه الشريعة على وجه التحديد هي نفسها موضوع بعض الجدل، وكما أشرنا سابقاً، فإن معناها الدقيق والإشارة إلى القرآن والسنة والحديث يمثل أحد المنعطفات التي تقترب من تقسيم الإسلام. وبغض النظر عن النهج المعين الذي يتم اتخاذه، فإن التعبير الاجتماعي الأصولي عن التغيير الأصولي والشامل الضروري الذي يريده المؤمن الأصولي هو مطلب لتطبيق الشريعة، بشكل عام بغض النظر عن السياقات الاجتماعية الأوسع والولاءات الدينية لأولئك الذين يخضعون. هذا هو المطلب الذي يجسد في كثير من النواحي الصفات الأيديولوجية الخاصة للسيطرة الاجتماعية داخل الإسلام الراديكالي المعاصر. ونظراً لأن معظم الدول الإسلامية لا تطبق الشريعة، فقد أصبحت القضية طموحاً اجتماعياً ملموساً يجمع بين السياسة الأصولية واللاهوت: "وهكذا فإن الشريعة التي أعطاها الله للإنسان لتنظيم حياته هي أيضاً قانون عالمي ... تصبح طاعة الشريعة ضرورة للبشر حتى تصبح حياتهم منسجمة ومتناغمة مع بقية الكون". وبالنسبة إلى الأصولي الإسلامي، فإن الشريعة هي في الأساس تعبير عن القواعد السلوكية. يجب أن نلاحظ أنه يتم التعبير عنها على المستوى السلوكي، وتحدد بوضوح ودون لبس (مع مراعاة أي سلطة تفسير تضعها عليها) ما يجب على الفرد فعله في مواقف معينة. إذا أخذ الأصولي الدين على محمل الجد (كما أشرنا سابقاً)، وعمل وفقاً لما يتطلبه الدين، فإنه يطبق ويلتزم بهذه القواعد في حياته اليومية. من الصعب تخيل مثال أوضح لاتباع القواعد السلوكية أكثر من المؤمن الأصولي.

جو انب منتشرة وأعلى مستوى للمحتوى الأيديولوجي

يمكن اعتبار الأيديولوجيا على أنها تؤثر على السلوك على مستويات مختلفة. يمكن رؤية مثال على ذلك في المناقشة السابقة، حيث تمت الإشارة إلى الصفات الألفية للإسلام الأصولي المتشدد. ويمكن أيضاً وضع هذه الصفات ضمن إطار عام يركز على القواعد السلوكية. ومع ذلك، فإن العلاقات في الأيديولوجية الألفية بين الحالة النهائية المتوقعة والفاعلية البشرية في تحقيق الحالة المرغوبة ذات أهمية خاصة لمناقشتنا. العديد من الأديان، إن لم يكن كلها، هي أديان ألفية، بمعنى أنها تسمح للمؤمن بالتطلع إلى حياة أفضل وأكثر سعادة وربما أكثر عدلاً بعد الموت. السمة الخاصة التي تجلب العقيدة الألفية في إطارنا التفسيري هي الشعور بوشك بلوغ الألفية. وهذه هي الخاصية التي تربط الأيمان بالعنف الألفي. وما إذا كان الوشيك متغيراً يؤثر على عواقب التعزيز للقواعد السلوكية، أو ما إذا كان يتعلق بمفاهيم Malott عن قواعد "سهلة

المتابعة" و "يصعب اتباعها"، أو في الواقع عوامل أخرى، غير واضح. ومع ذلك، هناك حجج مقنعة لدعم الفكرة القائلة بأن توقيت العمل الذي هو إلى حد كبير سمة من سمات النشاط الألفي يرتبط بالبلوغ الوشيك للألفية، وأن هذا الشعور بالتوقيت هو عامل مهم في تطور العنف والشعور المرتبط بالقوة الشخصية. وتعتبر العقيدة الألفية على مستوى واحد جانباً من جوانب محتوى الأيديولوجية، ولكن على مستوى آخر من التحليل، لديها ميزات معينة تتعلق بعمليات أكثر عمومية. وكما رأينا في مناقشتنا السابقة، يؤكد الإسلام الأصولي بقوة على توقيت العمل بالنسبة للمؤمن، بالنظر إلى السمات المروعة للحاضر، والعواقب الإيجابية العميقة للانخراط مع قوى الرؤية. وانسجاما مع المناقشة أعلاه، قد نلاحظ أن تركيز الآثار السلبية على العالم هو العلمانية، التي تتجسد في القيم الغربية والقوة الاقتصادية. وهكذا نرى ضغطاً سلوكياً إضافياً نحو المواجهة الأصولية مع الغرب، والتي يمكننا تصورها في سياق القواعد السلوكية.

عملية التحكم الأيديولوجي والافتقار إلى الفضاء العام

طورت Hannah Arendt، في تحليلاتها للفظائع التي ارتكبها النازيون خلال الحرب العالمية الثانية، مفهوم الافتقار إلى الفضاء العام (Arendt, 1987). يتناول هذا المفهوم مسألة كيف يمكن للأشخاص الذين كانوا من نواحٍ أخرى "طبيعيين" أن ينخرطوا في الأنشطة المروعة التي ميزت الرايخ الثالث. يتعلق الافتقار إلى الفضاء العام بعدم قدرة الأفراد على تبادل الأفكار وتطويرها في الدول التي تمارس فيها سيطرة شديدة على الحياة، ويتجلى ذلك بشكل ملحوظ في الدول الشمولية. إنها تعطي هذه القدرة على إيصال الأهمية في كل من الساحة السياسية والأخلاقية، وعلى وجه الخصوص ترتبط بدرجة السيطرة الاجتماعية التي تنطوي عليها بفقدان الإحساس بالواقع والأخلاق، مما يجعل الفظائع التي ترتكبها، على سبيل المثال، معسكرات الاعتقال ممكنة.

إن الدرجة القصوى من الرقابة الاجتماعية التي تتطلبها التفسيرات الأصولية للإسلام تلبي متطلبات نقص المساحة العامة، وفق مصطلحات Arendt، وبالتالي قد نتوقع رؤية عدم مراعاة القيود المفروضة على السلوك تجاه الأعداء الناشئين داخل الإسلام (على الرغم من أن هذا هو موضوع تم تناوله بإسهاب في القرآن، حيث تم تحديد قواعد واضحة وصريحة لتنظيم السلوك). ومن الناحية السلوكية، يرتبط الافتقار إلى الفضاء العام بشكل واضح بدرجة السيطرة التي تمارسها القواعد السلوكية. تتميز المجتمعات التي تفتقر إلى الأماكن العامة بصياغة واضحة للقواعد التي تحكم السلوك وتطبيقها وإنفاذها الصارم. وتتلاءم التطلعات الإسلامية الأصولية بسهولة مع هذا الرأي. ويمكننا أن نرى مما سبق، أن ما نلاحظه كسلوك مميز للمؤمن الأصولي يتناسب بسهولة مع إطار اتباع القواعد السلوكية. بمعنى ما، فإن التفاصيل الدقيقة المطلوبة للاحتفال الديني أقل أهمية من حقيقة أن السلوك يخضع لسيطرة وثيقة من الأيديولوجية الدينية، معبرًا عنها كقواعد. وصلابة الهدف، وعدم الحساسية، والتركيز، والنظرة الشخصية المكثفة للعالم، والتسامح مع تبسيط النظرة إلى العالم، وفقدان الحكم النقدي، وما إلى ذلك. جميعها تبدو وكأنها تكون من صفات الأصولي الديني. وهي أيضاً صفات قد يُعتقد أنها توضح السلوك الخاضع لحكم القاعدة المتطرفة، بدلاً من التحكم المتسق.

مناهج تكميلية

هناك رؤى نفسية أخرى أكثر وضوحاً تكمل النهج السلوكي الموصوف أعلاه. أحد هذه الأمور يتعلق بمفهوم المؤامرة. وكما أشرنا سابقاً، فإن إحدى الصفات المهمة في التفكير الأصولي هي حقد القوى المعارضة للإسلام، التي تتآمر لتخريب رسالته، وتقويض ولاءات المؤمنين. الكثير من تحليل قطب لحالة العالم الإسلامي، على سبيل المثال، يتركز على تأكيدات رغبات الغرب في تقويض التقدم المشروع للإسلام باعتباره النظام الديني والاجتماعي الأعلى. وإلا كيف يمكن تفسير حالة الأمة المنهكة؟ ومن الواضح أن نقد الأصولية الإسلامية الذي قدمه Babeair يتوافق مع هذا التحليل. في بعض الأحيان تكون النية التآمرية متعمدة، وتنتج عن أفعال سياسية صريحة (شوهدت ظلال من هذا في بعض الانتقادات الإسلامية لحرب الخليج الفارسي)، ولكن في بعض الأحيان يكون الغرب أداة غير مدركة لقوة شيطانية. وفي سياق مختلف قليلاً، أشار Fisk (1991) إلى نزعة بين المقاتلين في لبنان لشرح النصر بالرجوع إلى الشجاعة والوطنية، إلخ، والهزيمة بالرجوع إلى المؤامرات. ربما تكون هذه عملية عامة أكثر من كونها مقتصرة على التجربة اللبنانية، لكنها واضحة بشكل خاص بين مختلف الأطراف اللبنانية. كما تم أحياناً تفسير هزيمة صدام حسين في حرب الخليج بهذه الطريقة، مع الإشارة بشكل متكرر إلى "مؤامرات" الإمبريالية أو الاستعمار. وبالمثل، فإن فكرة المؤامرة أمر أساسي لعقيدة الألفية. إنه عنصر من النضال من أجل بلوغ الألفية، وقد يُعتقد أيضاً أنه عامل في مفهوم "التوقيت" لتحقيق الألفية. السمة المركزية للتآمر في أي قناع يظهر هو أن القوى (التي يتم تعريفها أحياناً، وأحياناً غير محددة) تتآمر لتخريب الوظائف الإيجابية للمجتمع أو الإيقاع بها أو تدميرها. وعندما يعتنق الإسلام الألفي نظريات المؤامرة، قد نتوقع تطور قوى ذات زخم وقوة كبيرين.

إن الأسس النفسية لنظريات المؤامرة معقدة، ولكن أحد العوامل في سياق اهتمامنا هو الشعور بالمعاناة غير المستحقة التي نختبرها عندما يفشل الفرد في الحصول على منافع مادية أو روحية على الرغم من أنه يعيش حياة صحيحة وسليمة (Groh, 1987). وفي مجتمع متفوق بالضرورة ويطيع قوانين الله ويعمل بطريقة مستقيمة وأخلاقية يختبر الهزيمة والإذلال وعدم التقدم المادي الذي ميز المجتمعات الإسلامية في القرن العشرين؟ إذا قبلت المقدمات، فإن المؤمن يتعرض لظلم غير مستحق له أهمية أصولية، لأنه يتحدى نظام الله. فبالنسبة للمؤمن الأصولي، لأن الله هو الذي يرسم أسلوب حياتك، لا يمكنه إلا أن يفشل في الوفاء بوعوده لأنه يتم تخريبه من خلال مؤامرة بعض القوى المعارضة له. والاعتراف بخلاف ذلك يتحدى أسس الإيمان. هذا لا يعني أن نظريات المؤامرة غير مناسبة، وتتعلق فقط بالتناقضات بين أنظمة المعتقدات والأحداث الفعلية. تشير تحليلات إدارة الشؤون الدولية إلى أنه في بعض الأحيان، بالطبع، هناك مؤامرات علنية وسرية في العمل، وتصورات المشاركين دقيقة!

وبغض النظر عن المواقف التي توجد فيها أسباب حقيقية للاشتباه في وجود مؤامرة، فإن إحدى طرق فهم العمليات التي قد تكون متورطة في المؤامرة هي الرجوع إلى نظرية Festinger (1957) عن التنافر المعرفي Cognitive Dissonance. الصراع المعرفي الناجم عن تجاور المعتقدات الراسخة حول التفوق، إلخ، وحل الفشل الواضح في تحقيق الأهداف بالرجوع إلى عمل الوكالات الخارجية. ويشير التفسير ذو الصلة إلى عمليات الإسناد Attribution كوسيلة لفهم العالم كما نختبره، وعلى وجه الخصوص إلى ما يسمى بالتحيز

بين الممثل والمراقب Actor-Observer Bias. يشير هذا إلى ميل الناس إلى عزو أسباب سلوكهم إلى عوامل خارجية، في مقابل صفات أفعالهم. وعلى وجه الخصوص، فإن العالم الذي نعيش فيه هو الذي يتسبب في هزائمنا، وليس عدم كفاية أفعالنا. وينسجم عزو الهزيمة إلى أسباب خارجية تتآمر ضدنا بسهولة في هذا النموذج. والمنظور ذي الصلة، الذي يعمل على توسيع مفهوم المؤامرة، ومعالجة عالمية نظريات المؤامرة، هو النظر إلى المؤامرة على أنها "جوهر رمزي أو وهمي للتمثل الاجتماعي" (Moscovici). ولا يوجد تعارض ضروري بين النهج السلوكي و الأساليب الاجتماعية المبينة أعلاه. فبغض النظر عن تصورنا للقضية، فإن فكرة المؤامرة هي طريقة لفهم عالم معقد ومربك، حيث يحدث عيب حقيقي أو متخيل. ومن الناحية الفنية، قد يكون من المفيد أيضاً ربطه بالبنى المعرفية، أو بمفاهيم مثل حوكمة القواعد. ومع ذلك، لا يمكن التقليل من الأهمية العملية وتأثير فكرة المؤامرة كعامل في التصور الإسلامي للعالم، وكدعم لبنية الأصولية.

يبدو أن عمليات اجتماعية أخرى ذات صلة بهذه المناقشة وتستحق مرجعاً موجزاً. وتحتوي مجموعة القضايا التي نوقشت أعلاه فيما يتعلق بنظريات المؤامرة أيضاً على عناصر مشتركة مع عمليات تكوين التعصب prejudice والقوالب النمطية Stereotyping. ويمكن رؤية عناصر كلتا العمليتين بوضوح في الأصولية. فصور الغرب التي قدمها مؤلفون مثل قطب تعتمد على قوالب نمطية بسيطة، تنسب الخصائص السلبية إلى حد كبير إلى مجتمعات بأكملها. وفي الواقع، في سياقات أخرى، فإن مناهضة الغرب التي يتم التبشير بها في كثير من الأحيان في الخطب الأصولية، وما إلى ذلك، ستجذب مصطلح العنصرية، ويُنظر إليها على أنها أمثلة على التعصب. قد يُعتقد أن الأسس النفسية والمعرفية لرفض المؤمن للتشكيك في المبادئ الأساسية للإسلام المشار إليها سابقاً مرتبطة بعمليات مماثلة لوحظت في تحليلات التعصب، حيث يبدو أن جمود الرؤية على الرغم من الأدلة على عكس ذلك يميز الفرد المتعصب.

تعليقات ختامية

مما سبق، يمكن ملاحظة أن العمليات التي تنطوي عليها الأصولية يمكن أن تخضع للتحليل النفسي. ويعتمد المنظور المفضل في هذه المقالة على الأساليب السلوكية لبنية وتنظيم الطريقة التي قد نحلل بها الموقف. وبالمثل، فإن الطرق الأخرى لتصور المشكلة قد يكون لها فائدة. ما يهم التأكيد عليه هو أن عمليات الأصولية لا تتجاوز التحليل، ولا تقع خارج البنى المفاهيمية المتاحة بالفعل لعلم النفس.

"الفهم" في المصطلحات المعروضة في هذه المقالة لا يتعلق فقط بتطوير طرق نفسية مناسبة لتصور الأصولية. وقد يكون أيضاً بمثابة عامل مساعد لتحديد عملية إنشاء سياسة أكثر فاعلية. وغالباً ما يميل التفاعل الغربي مع الإسلام الأصولي إلى استكمال العمليات التي حددناها، بدلاً من تحديها أو استخدامها لتحقيق مكاسب أفضل. يمثل الناشط الأصولي تحدياً كبيراً للسلام والاستقرار في كل من الشرق الأوسط وأفريقيا، فضلاً عن الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي السابق، وهناك حاجة ماسة إلى مزيد من العمل التجريبي لتطوير البنى المفاهيمية بشكل أفضل لهذه المسألة. تمتد فوائد الفهم الأفضل لسلوك الأصوليين إلى ما وراء حدود التنظير النفسي لمعالجة القضايا الرئيسية للأمن والسلام.

المراجع

Ahmed, A. S. *Discovering Islam* (London: Routledge and Kegan Paul 1988).

Arendt, H. *Eichmann in Jerusalem: A Report on the Banality of Evil* (Harmondsworth: Penguin Books 1987).

Arendt, H. *The Human Condition* (Chicago: University of Chicago Press 1958).

Babeair, A. S. 'Contemporary Islamic Revivalism: A Movement or a Moment', *Journal of Arab Affairs* 9 (1990) pp.122–46.

Bjorgo, T. *Racist and Right-Wing Violence in Scandinavia: Patterns, Perpetrators and Responses* (Oslo: Tano Aschehoug 1997).

Bosworth, C. E. *Islamic Dynasties: A Chronological and Genealogical Handbook* (Islamic Surveys, No. 5) (Edinburgh: Edinburgh University Press 1981).

Brockner J. & Z. Rubin, J. *Entrapment in Escalating Conflicts: A Social Psychological Analysis* (New York: Springer-Verlag 1985).

Bruce, S. 'Protestant Resurgence and Fundamentalism', *Political Quarterly* 61 (1990), pp.161–68.

Cerutti, D. T. 'Discrimination Theory of Rule Governed Behavior', *Journal of the Experimental Analysis of Behavior*, 51/2 (1989), pp.259–76.

Crenshaw, M. 'The Psychology of Political Terrorism', in M. G. Hermann (ed.) *Political Psychology: Contemporary Problems and Issues* (London: Jossey-Bass 1986), pp.379–413.

Denardo, J. *Power in Numbers: The Political Strategy of Protest and Rebellion* (Princeton, NJ: Princeton University Press 1984).

Dietrich, D. J. 'National Renewal, Anti-Semitism, and Political Continuity: A Psychological Assessment', *Political Psychology*, 9/3 (1988), p.385–411.

Eysenck, H. J. *The Psychology of Politics* (London: Routledge and Kegan Paul 1954).

Festinger, L. *A Theory of Cognitive Dissonance* (Stanford, CT: Stanford University Press 1957).

Fisk, R. Pity *the Nation: Lebanon at War* (Oxford: Oxford University Press 1991).

G. Kepel, G. *Muslim Extremism in Egypt* (Trans. J. Rothschild) (Los Angeles: University of California, Los Angeles 1984).

Groh, D. 'The Temptation of Conspiracy Theory', in C. F. Graumann and S. Moscovici (Eds.), *Changing Conceptions of Conspiracy* (New York: Springer-Verlag 1987).

Horgan, J. *"It's the Question that Drives Us": The Search for the Terrorist Personality'* (under submission).

Horgan, J. *Terrorism and Political Violence: A Psychological Perspective* (PhD dissertation, Department of Applied Psychology, University College, Cork, 2000).

Jansen, J. *The Neglected Duty: The Creed of Sadat's Assassins and the Islamic Resurgence in the Middle East* (New York: Macmillan Publishing Co. 1986).

Kellen, K. *Terrorists: What are They Like? How Some Terrorists Describe Their World and Actions* (Santa Monica, CA: Rand Corporation 1979).

Kuper, L. 'Theological Warrants for Genocide: Judaism, Islam and Christianity', *Terrorism and Political Violence* 2/2 (Spring 1990) pp.351–79.

Leites N. & Wolfe, C. *Rebellion and Offending* (Santa Monica, CA: Rand Corporation 1970).

Mallot, R. W. 'Rule Governed Behavior and Behavioral Anthropology', *The Behavior Analyst*, 11 (1988), pp.181–200.

Mason, D. *Individual Participation in Collective Racial Violence and Terror: A Rational Choice Synthesis* (PhD dissertation, University of Georgia 1982).

Moscovici, S. '*The Conspiracy Mentality'*, in Graumann and Moscovici (note 79).

Post, J. M. 'Hostilite, Conformite, Fraternite: The Group Dynamics of Terrorist Behaviour', *International Journal of Group Psychotherapy*, 36/2 (1986), pp.211–24.

Post, J. M. 'Notes on a Psychodynamic Theory of Terrorist Behaviour', *Terrorism*, 7 (1984), pp.241–56.

Post, J. M. 'Terrorist Psycho-Logic: Terrorist Behaviour as a Product of Psychological Forces', in W. Reich (ed.) *Origins of Terrorism: Psychologies, Ideologies, Theologies, States of Mind* (pp.25–40) (New York: Cambridge University Press 1990).

Post, J. M. "It's Us Against Them": The Group Dynamics of Political Terrorism', *Terrorism*, 10/1 (1987), pp.23-35.

Qutb, S. *Islam and Universal Peace* (Indianapolis, IN: American Trust Publications 1977).

Qutb, S. *Milestones* (Beirut: Holy Koran Publishing House 1978).

Rapoport, D. C. 'Fear and Trembling: Terrorism in Three Religious Traditions', *American Political Science Revie*w, 78/3 (1984), pp.658–77.

Rapoport, D. C. 'Messianism and Terror', *The Center Magazine*, Jan./Feb. (1986), pp.30-39.

Rapoport, D. C. 'Sacred Terror: A Contemporary Example From Islam', in W. Reich (ed.) *Origins of Terrorism: Psychologies, Ideologies, Theologies, States of Mind* (Washington, DC: Woodrow Wilson Center Press 1990) pp.103–130.

Rapoport, D. C. 'Why Does Religious Messianism Produce Terror?', in P. Wilkinson and A. M. Stewart (eds.), *Contemporary Research on Terrorism* (Aberdeen: Aberdeen University Press 1987), pp.72–88.

Reese, H. W. 'Rules and Rulegovernance: Cognitive and Behavioristic Views', In S. C. Hayes (ed.) *Rule-Governed Behavior: Cognition, Contingencies and Instructional Control* (New York: Plenum Press 1989) pp.3–84.

Rhodes, J. M. *The Hitler Movement: A Modern Millenarian Revolution* (Stanford, CT: Hoover Institution Press 1980).

Rokeach, M. *Belief, Attitude and Values* (San Francisco: Jossey-Bass 1968).

Rosen, L. *The Anthropology of Justice: Law as Culture in Islamic Society* (Cambridge: Cambridge University Press 1989).

Silke, A. 'Cheshire-Cat Logic: The Recurring Theme of Terrorist Abnormality in Psychological Research', *Psychology, Crime & Law*, 4/1 (1998), pp.51–69

Sivan, E. *Radical Islam: Medieval Theology and Modern Politics* (New Haven, CT: Yale University Press 1985).

Skinner, B. F. *Contingencies of Reinforcement* (New York: Appleton-Century-Crofts 1968).

Staats, A. *Social Behaviorism* (Homewood, IL: Dorsey Press 1975).

Taylor M. & Ryan, H. 'Fanaticism, Political Suicide and Terrorism', *Terrorism*, 11/2 (1988), pp.91–111.

Taylor, M. *The Fanatics: A Behavioural Approach to Political Violence* (London: Brassey's 1991).

Taylor, M. *The Terrorist* (London: Brassey's Defence Publishers 1988).

الظاهرة الكورونيَّة

التسلطية والظاهرة الكورونيَّة

مُجمَلُ دراسات عالميَّة واسِعَة[1]

وفرت الجائحة الكورونيَّة فرصة فريدة لبحث جملة متغيرات نفسية اجتماعية وسياسية أساسيَّة، ولعل في مقدمة تلك المتغيرات: التسلطيَّة، كبنية نفسية اجتماعية، شخصية واتجاهية، وكبنية اجتماعية سياسية، لما تمثلة الجائحة من تهديد وجودي للإنسان والأنظمة الاجتماعية والسياسية، ومن الدراسات التي اشتغلت على ذلك: (1) دراسة ***ديناميات التسلطية خلال الجائحة الكورونية: التأثيرات على الوطنية والمشاعر المعادية للمهاجرين***، لـ هارتمان Hartman وزملاؤه، تبحث مدى توسط الجائحة بين التسلطية والاتجاهات السياسية، و(2) دراسة ***التسلطية اليمينية والتسلطية اليسارية والتسلطية التخفيفية الوبائية***، لـ ماسون Manson، تبحث التمايزات والتشابهات بين البنيتين اليمينية واليسارية في موقف الجائحة، و(2) دراسة ***الديمقراطية والتسلطية وإدارة الجائحة الكورونية: حالة اختبار سارس***، لـ بيترسون Petersen، تبحث مدى فاعلية النُظم الديمقراطية والتسلطية في مواجهة الجائحة. وفيما يلي إجمالٌ لهذه الدراسات، إجمالٌ – بلا شك – لن يستوعِب كل ما ذكرته الدراسات، بدقتهِ وتكثيفِهِ وتخصصيتهِ وسِعَتِه، ولكنَّهُ قد يفي بتبيان الصورة العامَّة عن طبيعة الاشتغالات النفسية الاجتماعية.

ديناميات التسلطية خلال الجائحة الكورونية

أثبتت الأبحاث أن العوامل الموقفية مثل التهديدات المُدركة للنظام الاجتماعي تنشط التسلطية الكامنة. وتمثل جائحة COVID-19 القاتلة فرصة نادرة لاختبار ما إذا كان التهديد الوجودي الناجم عن فيروس

[1] Hartman, T. K., Stocks, T. S., McKay, R., Miller, J. G., Levita, L., Martinez, A. P., Mason, L., McBride, O., Murphy, J., Shevlin, M., Bennett, K., Hyland, P., Karatzias, T., Vallières, F. & Bentall, R. P. (2021) The Authoritarian Dynamic During the COVID-19 Pandemic: Effects on Nationalism and Anti-Immigrant Sentiment. *Social Psychological and Personality Science*, p.1-43; Manson. J. H. (2020) Right-Wing Authoritarianism, Left-Wing Authoritarianism, and Pandemic-Mitigation Authoritarianism. *Personality and Individual Differences*, V.167, 110251; Petersen, G. (2020) Democracy, Authoritarianism, and COVID-19 Pandemic Management: The Case of SARSCoV-2 Testing. *Comparative Politics*, p.1-33.

عشوائي يتوسط العلاقة بين التسلطية والاتجاهات السياسية تجاه الأمة والجماعات الخارجية. وباستخدام بيانات من عينتين كبيرتين ممثلتين للبالغين في المملكة المتحدة (2,025) وجمهورية أيرلندا (1,041)، تم جمعهما خلال المراحل الأولية لتدابير الإغلاق الصارمة في كلا البلدين، وجدت الدراسة أن الارتباطات بين التسلطية اليمينية والوطنية والاتجاهات المعادية للمهاجرين مشروطة بمستويات التهديد المدركة. ومع تزايد القلق بشأن جائحة COVID-19 ، يزداد أيضًا تأثير التسلطية اليمينية على تلك المخرجات السياسية. وهكذا، يبدو أن التهديدات الوجودية للبشرية من جائحة COVID-19 تتوسط التعبيرات عن التسلطية في المجتمع.

لطالما أكد العلماء أن إدراكات تهديد الجماعة تعتبر أساسية بالنسبة "للشخصية التسلطية"، وركز الكثير من البحث على كيفية قيام المجموعات الخارجية بفرض ما يسميه العلماء التهديدات "المعيارية" للنظام الاجتماعي (أي التهديدات للقيم والتقاليد والتنوع الاجتماعي للمجموعة) أو التهديدات الاقتصادية للموارد المادية. وعلى سبيل المثال، تظهر العديد من الدراسات أن التهديد المدرك المرتبط بالمنافسة الاقتصادية والأمن والاستقرار في المجتمع والتماسك الاجتماعي تتوسط الارتباط بين التسلطية اليمينية والاتجاهات التعصبية. ومع ذلك، يرى باحثون آخرون بأنه يجب علينا أيضًا النظر في كيفية تفاعل التهديدات لوجود المرء ذاته (على سبيل المثال، هجمات 11 سبتمبر الإرهابية) مع التسلطية، إذ يجد بعض الباحثين أن التهديدات الوجودية الناجمة عن الإرهاب لها تأثير أكبر على الاتجاهات والسلوكيات السياسية مما قد نجده من التهديدات الاقتصادية. وتوفر جائحة COVID-19، التي أودت بحياة أكثر من مليون شخص في جميع أنحاء العالم، فرصة نادرة لاختبار ما إذا كان التهديد الوجودي الناجم عن فيروس يتوسط العلاقة بين التسلطية والاتجاهات السياسية تجاه الأمة والجماعات الخارجية. وتماشياً مع وجهات النظر التفاعلية المذكورة أعلاه، يرى الباحثون بأن إدراك هذا التهديد الوجودي سوف يتفاعل مع التسلطية، مما يزيد من تأثيرها على تفضيلية الجماعة الداخلية المجموعة. وما يجعل هذه الدراسة مبتكرة هو أن هذا التهديد ليس مستمدًا بطبيعته من نزاع سياسي أو ثقافي، ولا من أفعال متعمدة لمجموعة خارجية معادية، فعلى الرغم من أن الفاعلين السياسيين المهمين، بما في ذلك إدارة ترامب، قد استخدموا الخطاب السياسي لإلقاء اللوم على دول أخرى أو المهاجرين (على سبيل المثال، "الفيروس الصيني" أو "فيروس ووهان")، فإن COVID-19يشكل تهديدًا وجوديًا عشوائيًا وعالميًا بطبيعته مع عدم وجود عدو محدد. وباستخدام بيانات مسح تمثيلية على المستوى الوطني تم جمعها من دولتين أوروبيتين خلال المراحل الأولية للوباء العالمي COVID-19، قامت الدراسة بالتحقق من سؤال البحث الرئيس: هل يتوسط التهديد الوجودي لـ-COVID 19 العلاقة بين التسلطية والاتجاهات السياسية المتعصبة؟

النظرية والتوقعات

الأوبئة واسعة النطاق للأمراض القاتلة تمثل عقبات خطيرة للنظام الاجتماعي من خلال إنتاج "الخوف والذعر والوصم والتوعية والدعوات إلى العمل"، وهي الآثار التي تظهر بشكل أكبر عندما يكون المرض "جديد أو غير متوقع أو مدمر بشكل خاص". ومع ذلك ، تنتقد "رواية الذعر" هذه، بالإشارة إلى أن السلوك الجماعي في حالات الطوارئ أكثر تعقيدًا مما يوحي به هذا المنظور، وعلى وجه الخصوص، في حين أنها يمكن

أن تغرس الشك في الآخرين والخوف من أنهم قد ينقلون المرض، مما يؤدي إلى اتجاهات وسلوكيات متعصبة، يمكن للأوبئة أيضًا أن تلهم أعمال الوحدة والرحمة والتضامن، خاصة عندما يكون هناك شعور بالمصير المشترك. ومع ذلك، منذ المراحل الأولى لوباء COVID-19 الحالي، كانت هناك تقارير عن زيادة العنف ضد الأشخاص من خلفيات عرقية من السود والأقليات، ولا سيما من المجتمعات الآسيوية. بالإضافة إلى ذلك، أفادت التقارير أن الجماعات السياسية اليمينية المتطرفة استخدمت الوباء لتعزيز المواقف المناهضة للمهاجرين والمسلمين. وأشار العمل المبكر بشأن جائحة COVID-19 أيضًا إلى زيادة الخطاب القومي لتعزيز كل من قبول التدابير المشروعة المصممة لمنع انتشار المرض والسياسات التسلطية المقنعة، وأظهر بحث آخر أن التهديد الوجودي المدرك من جائحة COVID-19 يزيد من الاتجاهات التعصبية تجاه الجماعات الخارجية، مثل الصينيين ، كما وثق العلماء أيضًا علاقة إيجابية بين أنواع معينة من التعرض لوسائل الإعلام لـ COVID-19 والتعبير عن التعصب تجاه الأجانب . ومع ذلك، فإن الكثير من هذا العمل المبكر لم يدرس دور المتنبئين النفسيين الكلاسيكيين بالتعصب تجاه الجماعات الخارجية، مثل التسلطية اليمينية أو توجه الهيمنة الاجتماعية SDO، كما أنه لم يحقق بشكل كامل في التأثير المشترك للتنبؤ بالتعصب والتهديد على الاتجاهات التعصبية. فهناك ما يبرر إجراء مزيد من البحث حول هذه المتنبئات.

أظهر العمل الكلاسيكي الصلة بين التسلطية والتمركز العرقي، وأثبتت الأبحاث الحديثة كلاً من RWAوSDO، وهما بعدين يمينيين على المستوى الفردي، باعتبارهما متنبئين قويين ومستقلين للتحيز والتعصب، وفي الأنموذج الدافعي للعملية المزدوجة، تم تصور كل من RWA و SDO كأبعاد قيمة - اتجاه - اعتقاد تتفاعل مع العوامل البيئية الاجتماعية. فالتجارب الاجتماعية والبيئية المبكرة التي تفضل أو تسبب النزعات الشخصية، وتشجع هذه النزعات وجهات نظر مختلفة للعالم، والتي تتفاعل بعد ذلك لتوليد أهداف دافعية، مثل الهدف الدافعي للسيطرة على التهديد، وبالنتيجة، تمثل أبعاد الاعتقاد والقيمة، مثل RWAأوSDO، تعبيرات عن هذه الأهداف الدافعية. وفي حين أن الأهداف الدافعية وراء هذه الأبعاد بارزة بشكل مزمن، فإن الظروف الخارجية يمكن أن تزيد من تنشيطها، ويبدو أن كلا من RWA و SDO يتفاعلان مع الظروف الخارجية. ومع ذلك، فإن RWA هي في جزء منها استجابة أيديولوجية للخوف والتهديد وعدم اليقين، وفقط بالنسبة لـ RWA، وليس SDO، يبدو أن المظاهر السلوكية تستجيب باستمرار للتهديد. على سبيل المثال، تتفاعلRWA مع إدراك التهديد لزيادة دعم السياسات المناهضة للديمقراطية، مثل زيادة قوة المراقبة الحكومية، وتقليل دعم حقوق الإنسان، كما أن الأشخاص الذين ينتمون إلى مستوى مرتفع في RWAلديهم الدافع لدعم أي تدابير يرون أنها تحمي المجموعة بغض النظر عن العواقب السلبية، بما في ذلك استخدام العنف لمعالجة المشكلات الاجتماعية. وتعكس خصائص التعصب المرتبط بـ RWA أيضًا مخططاته المعرفية والدافعية الأساسية. فالأفراد الذين ينتمون إلى مستويات عالية من RWA عادة ما يصفون الجماعات الخارجية بأنها غير منظمة وغير أخلاقية ومنحرفة وتهدد سلامة المجموعة؛ وعلى العكس من ذلك، فإن أعضاء الجماعة الداخلية هم أشخاص عاديون ومتوافقون اجتماعيًا وأخلاقيون ومعرضون لتهديد الجماعات الخارجية. وبالتالي ترتبط المستويات العالية من RWA وSDO باتجاهات أقل تفضيلًا تجاه مجموعات المهاجرين. ويتنبأ كل من RWA و SDO برغبة متزايدة في الانخراط في الاضطهاد

النشط للمهاجرين، على الرغم من أن الاتجاهات التي تتصدر هذه الاستجابة في الأشخاص الذين يتمتعون بدرجة عالية في RWA وSDO مختلفة: أولئك الذين ينتمون إلى RWA هم أكثر استعدادًا للانخراط في الاضطهاد النشط للمهاجرين الذين لا يرغبون في استيعاب الثقافة السائدة، في حين أن أولئك الذين يتمتعون بدرجة عالية في SDO هم أكثر عرضة لاضطهاد المهاجرين الذين يرغبون في الاستيعاب. علاوة على ذلك، وجد أن RWA تتنبأ بمعارضة الهجرة فقط عندما يُنظر إلى مجموعة المهاجرين على أنها تهديد اقتصادي أو ثقافي، بينما يتنبأ SDO باستمرار بمواقف سلبية تجاه المهاجرين بغض النظر عن التهديد المدرك. كما ظهر أيضًا أن RWA يمكن أن يقمع تأثير الأبعاد الأخرى المؤيدة للمجتمع والمؤيد للمهاجرين لأبعاد أخرى، بما في ذلك التدين. وأخيرًا، تتنبأ المستويات الأعلى منRWA أيضًا بمستويات أعلى من القومية، والإيمان بتفوق الأمة، والوطنية، والارتباط ببلد المرء والقيم التي تمثله.

على الرغم من هذه الأدلة، لا يُعرف الكثير عن كيفية تفاعل RWA وSDO بالضبط مع التهديد الوجودي الذي يمثله تفشي مرض قاتل ومعدٍ للتأثير على التعبيرات الأوسع عن الاتجاهات التسلطية. ومع ذلك، هناك بعض الأبحاث المفيدة في هذا المجال، على الرغم من أنها تميل إلى الاعتماد على عمليات نفسية مختلفة (وأحيانًا متنافسة) لـ RWA وSDO ، والتي لها آثار على نماذج سببية مختلفة. على سبيل المثال، وجد إن أولئك الذين سجلوا درجات أعلى في RWA بالغوا في تقدير نسبة + LGBT الأشخاص الذين يعيشون مع فيروس نقص المناعة البشرية، بينما وجد إن كلا من RWA و SDO توقعا التعصب تجاه الأشخاص المصابين بفيروس نقص المناعة البشرية أو الإيدز، والآثار التي توسطت فيها المعتقدات (الخاطئة) بشكل جزئي حول الخطر الشخصي للإصابة بالعدوى. وبالمثل، عند التحقيق في الاتجاهات المتعلقة بوباء الإيبولا في عينة ألمانية، تبين أن العلاقة بين RWA ودعم عزل المهاجرين الأفارقة وإغلاق الحدود كان بوساطة تهديد معياري. وفي الوقت نفسه، تبين أن SDO توسط في العلاقات بين النفور من الجراثيم ودعم معايير الهجرة الاستيعابية، ومعايير الهجرة الصحية، والرغبة في تقليل النسبة المئوية للأجانب. ولذلك اعتقد الباحثون أن هناك مجالًا لاختبار النظريات الكلاسيكية لـ RWA و SDO أثناء الوباء العالمي الحالي، لا سيما فيما يتعلق بحساسية الأول للتهديد. وبالتالي فإننا نفترض أن التهديد المرتبط بالأمراض سيتوسط العلاقة بين RWA والاتجاهات المتمحورة حول العرق: مع زيادة مستويات التهديد الوجودي، يجب أيضًا الارتباط بينRWA والاتجاهات العرقية (أي القومية والمشاعر المعادية للهجرة). في المقابل، لا يتوقع أن يؤدي التهديد المرتبط بالأمراض إلى توسط الارتباط بين السلوكيات الضارة والممارسات الضارة.

البيانات والمنهجية

قام الباحثون بتحليل بيانات المسح الوطنية التي تم جمعها من المملكة المتحدة وجمهورية أيرلندا خلال المراحل المبكرة من الإغلاق في كلا البلدين كجزء من دراسة اتحاد البحوث النفسية بشأن COVID-19، وهي دراسة طولية متعددة البلدان تهدف إلى تقييم التأثير النفسي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي لفيروس COVID-19على عموم السكان. تضمنت الموجتان الأولى من الدراسة، C19PRC-UKW1 في المملكة المتحدة وC19PRC-ROIW1 في جمهورية أيرلندا، توظيف عينات وطنية كبيرة من البالغين من المملكة المتحدة

(2025) وأيرلندا (2041) من مسح كولتركس. وتم جمع البيانات الخاصة بالمملكة المتحدة في الفترة من 23 إلى 28 مارس 2020، أي بعد ثمانية أسابيع تقريبًا من أول حالة مؤكدة لـ COVID-19 هناك وخلال فترة العدوى المتزايدة بسرعة (أعلن رئيس الوزراء البريطاني عن تدابير الإغلاق الصارمة في 23 مارس، في نفس اليوم الذي أجري فيه المسح)، وتم جمع بيانات العينة الأيرلندية بين 31 مارس و 5 أبريل 2020، بعد أربعة أسابيع تقريبًا من أول حالة مؤكدة لـ COVID-19 هناك (وبعد يومين من إعلان أن الأشخاص لن يغادروا منازلهم إلا لأغراض محدودة). تشير الأبحاث إلى أن كولتركس تقرب العينات المستندة إلى الاحتمالات بشكل جيد بشكل معقول عند استخدام الحصص (على سبيل المثال، الخصائص الديموغرافية والردود على الأسئلة الاجتماعية والسياسية الأخرى). وبالتالي، استخدمت طرق أخذ عينات الحصص الطبقية للتأكد من أن البيانات التي تم جمعها كانت تمثيلية من حيث العمر والجنس ودخل الأسرة في المملكة المتحدة، ونفس المؤشرات الديموغرافية بالإضافة إلى المنطقة الجغرافية في أيرلندا. وأكدت الفحوصات اللاحقة تمثيل العينة من حيث عدد الأفراد في الأسرة والخصائص الاجتماعية والديموغرافية الهامة الأخرى.

المقاييس الرئيسية

القومية: تم تقييم القومية البريطانية / الأيرلندية من خلال فقرتين: (1) سيكون العالم مكانًا أفضل إذا كان الناس من البلدان الأخرى أكثر شبهاً بالبريطانيين / الأيرلنديين، و(2) بشكل عام، تعد بريطانيا / أيرلندا بلدًا أفضل من معظم البلدان الأخرى. وتم قياس الاستجابات على مقاييس ليكرت الخماسية. و**المشاعر المعادية للمهاجرين**: تم استخدام ثلاثة فقرات من استطلاع الاتجاهات الاجتماعية البريطاني (2015) لتقييم اتجاهات المستجيبين تجاه المهاجرين: (1) هل تقول إنه أمر سيئ أو جيدًا بشكل عام للاقتصاد البريطاني / الأيرلندي أن يأتي المهاجرون إلى بريطانيا / أيرلندا من بلدان أخرى؟ (باستخدام مقياس مكون من 10 نقاط)، و(2) هل تقول إن الحياة الثقافية البريطانية / الأيرلندية تتعرض للتقويض أو الإثراء بشكل عام من قبل المهاجرين القادمين للعيش هنا من بلدان أخرى؟" (باستخدام مقياس من 10 نقاط)، و(3) يستفيد بعض المهاجرين من المدارس البريطانية / الأيرلندية، مما يزيد الطلب عليها، ومع ذلك، يدفع العديد من المهاجرين أيضًا ضرائب تدعم المدارس ويعمل البعض أيضًا في المدارس، هل تعتقد، بشكل عام، أن الهجرة إلى بريطانيا / أيرلندا تقلل أو تزيد الضغط على المدارس في جميع أنحاء بريطانيا / أيرلندا؟ (باستخدام مقياس مكون من 5 نقاط). و**التسلطية اليمينية**: مقياس التسلطية القصير للغاية المكون من 6 فقرات لتقييم مستويات المستجيبين في RWA، وتشمل الفقرات: إن أكثر ما تحتاجه بلادنا هو الانضباط، حيث يتبع الجميع قادتنا في وحدة، ويجب اتباع قوانين الله بشأن الإجهاض والمواد الإباحية والزواج بدقة قبل فوات الأوان، ومجتمعنا لا يحتاج إلى حكومة أكثر صرامة وقوانين أكثر صرامة" (عكسية). وتم قياس الاستجابات على مقاييس ليكرت الخماسية. و**توجه الهيمنة الاجتماعية**: مقياس SDO المكون من 8 فقرات، تشتمل على سؤال المستجيبين إلى أي مدى يعارضون / يفضلون عبارات مثل: المجتمع المثالي يتطلب أن تكون بعض المجموعات في القمة والبعض الآخر في الأسفل، وبعض مجموعات الناس هي ببساطة أدنى مرتبة من مجموعات أخرى، ويجب أن نفعل ما في وسعنا لتحقيق المساواة في الظروف لمجموعات مختلفة" (عكسية). وتم قياس الاستجابات على مقاييس ليكرت الخماسية. و**قلق COVID-19 (ممثل للتهديد**

الوجودي): سُئل المستجيبون: ما مدى قلقك بشأن جائحة فيروس كورونا19-COVID ؟ ورد من خلال وضع شريط تمرير مثبت بـ 0 "غير قلق على الإطلاق" و100 "قلق للغاية". وقد تم طرح هذا السؤال بعد قياس الاتجاهات تجاه النتائج الرئيسية والبنى النفسية لتجنب الاستجابات التمهيدية عن غير قصد لـ RWA و SDOوالقومية والمشاعر المعادية للمهاجرين. و**التوجهات السياسية والأيديولوجية**: سؤل المستجيبين كيف سيصفون: (1) توجههم السياسي (على مقياس من 10 نقاط يتراوح من 1 "يساري" إلى 10 " يميني ")، و(2) التوجه الأيديولوجي تجاه القضايا المالية مثل الضرائب والإنفاق الحكومي (على مقياس مكون من 10 نقاط من 1 "ليبرالي للغاية" إلى 10 "محافظ للغاية")، و(3) التوجه الأيديولوجي نحو القضايا الاجتماعية مثل الإجهاض والزواج من نفس الجنس (على مقياس من 10 نقاط من 1 "ليبرالي للغاية" إلى 10 "محافظ جدًا"). و**متغيرات التحكم الاجتماعي الديموغرافي**: أبلغ المشاركون بأنفسهم عن أعمارهم ونوعهم وتحصيلهم الدراسي وإجمالي دخل الأسرة وما إذا كانوا قد ولدوا خارج البلد.

النتائج والمناقشات والاستنتاجات

لاختبار ما إذا كان التهديد الوجودي يتوسط الارتباط بين التسلطية والاتجاهات السياسية، فقد تم حساب انحدار القومية ونتائج المشاعر الثلاثة المعادية للمهاجرين على RWA وقلق COVID-19 وتفاعلهما، وكذلك SDO(وتفاعله مع قلق COVID-19)، ومتغيرات التحكم الاجتماعية والديموغرافية الأخرى. فبداية يكون تفاعلCOVID-19 * RWA في الاتجاه المفترض (موقع إيجابيًا) في جميع نماذج الانحدار التي أجريت باستخدام بيانات من دولتين مختلفتين. بمعنى آخر، يزداد التأثير المقدر لـ RWA بالتزامن مع القلق الملحوظ بشأن التهديد الذي يشكله COVID-19، وحجم هذه التقديرات كبير نسبيًا مقارنة بالمتنبئين الآخرين في النماذج التي تستخدم نفس المقياس. وفي بيانات المملكة المتحدة، تعد تقديرات التفاعل غير المعدل (بدون المتغيرات الديموغرافية والسياسية) بين RWA والقلق ذات دلالة إحصائية، لاثنين من النتائج الأربعة: يتوسط قلق COVID-19 تأثير RWA على القومية والمشاعر المعادية للمهاجرين المتعلقة بالاقتصاد، ويكون التفاعل دالاً للنتائج المتعلقة بفكرة أن المهاجرين يمارسون ضغطًا على الموارد وثقافة الضرر، والأهم من ذلك، أن تأثيرات التفاعل هذه متشابهة جدًا حتى بعد تقديم مجموعة من المتغيرات الاجتماعية والديموغرافية والسياسية (أي التقديرات "المعدلة". وفي البيانات الأيرلندية، تعد تقديرات التفاعل غير المعدل بين RWA والقلق ذات دلالة إحصائية لثلاث من النتائج الأربعة: يتوسط قلق COVID-19 تأثير RWAعلى القومية، ويضر المهاجرون بالاقتصاد، ويضر المهاجرون بالثقافة، والتفاعل ليس ذي دلالة إحصائية بالنسبة للنتيجة المتعلقة بالموارد، ومرة أخرى، لم تتغير تأثيرات التفاعل هذه إلى حد كبير من حيث تأثيرها المقدر وأهميتها الإحصائية حتى بعد تقديم مجموعة من المتغيرات الاجتماعية والديموغرافية والسياسية، فباختصار ، هذه النتائج دليل قوي يدعم التوقع المرتبط بالتفاعل بين RWA و19-COVID .

في المقابل، فإن تفاعل COVID-19 * SDO في الاتجاه الخاطئ في ثلاثة من النماذج الأربعة غير المعدلة في كل من المملكة المتحدة وأيرلندا؛ فالنتائج لا تتغير عندما يتم تضمين المتغيرات المشتركة في النماذج. علاوة على ذلك، فإن تفاعل COVID-19 * SDO له دلالة إحصائية فقط للنتيجة المتعلقة بالثقافة في الأيرلندية، ولكن مرة أخرى، يكون هذا التأثير في الاتجاه الخاطئ مما يعني أنه مع زيادة التهديد، ينخفض معامل SDO

ولا تعتبر أي من تفاعلات COVID-19 * SDOذات دلالة إحصائية في بيانات المملكة المتحدة. وتشير هذه النتائج إلى أن التهديد المرتبط بالأمراض لا يتوسط تأثير SDO والاتجاهات السياسية.

وتجدر الإشارة أيضًا إلى أنه في بيانات المملكة المتحدة ترتبط الآراء السياسية اليمينية والتوجهات الإيديولوجية المحافظة عمومًا بمستويات متزايدة من القومية والمشاعر المعادية للمهاجرين (على الرغم من أن المحافظين الماليين يبدو أقل احتمالية للإشارة إلى أن المهاجرين يضرون بالثقافة؛ والمحافظين الاجتماعيين أقل احتمالية للإشارة إلى ضغط المهاجرين على الموارد). وهناك تأثير بسيط بين الجنسين في جميع النماذج مما يشير إلى أن الرجال أكثر قومية قليلاً ولكنهم أقل ميلاً إلى تبني وجهات نظر معادية للمهاجرين، ومرة أخرى، هذه التقديرات صغيرة نسبيًا مقارنة بالمتغيرات الأخرى. ويبدو أن الأفراد الأكبر سنًا يربطون بين المهاجرين بممارسة ضغط إضافي على الموارد المادية وكونهم سيئين للحياة الثقافية لبريطانيا، بينما من غير المرجح أن يصرح أصحاب الدخول المرتفعة بأن المهاجرين يضرون بالاقتصاد البريطاني. وأخيرًا، ربما يكون أولئك الذين ولدوا خارج المملكة المتحدة أقل احتمالية بشكل غير مفاجئ لتبني مواقف معادية للمهاجرين. وعند فحص المتغيرات الاجتماعية والسياسية من البيانات الأيرلندية، وجد أن المتنبئين المهمين إحصائيًا هم بالضرورة توجهات سياسية أو أيديولوجية. وبدلاً من ذلك، يرتبط التحصيل التعليمي المنخفض باستمرار بالاتجاهات السلبية تجاه المهاجرين. وكما هو مع بيانات المملكة المتحدة، كان المجيبون الذين ولدوا في الخارج أكثر ميلًا إلى تبني وجهات نظر عرقية.

للتحقيق في ديناميكيات تفاعلات COVID-19 * RWA بمزيد من التفصيل ، قامت الدراسة برسم التغييرات في المعامل الشرطي للتسلطية كدالة لقلق COVID-19 في المملكة المتحدة (الشكل 1) وأيرلندا (الشكل 2). ويوصي الباحثون بحساب التأثيرات الشرطية من التأثير الهامشي عند كل قيمة ملحوظة للمنسق، في هذه الحالة قلقCOVID-19، لتفسير التفاعلات بشكل صحيح. وتُظهر التمثيلات بوضوح أن تفاعل COVID-19 * RWA مثير للاهتمام من الناحية الإحصائية والموضوعية: يزداد تأثير RWA على القومية والمشاعر المعادية للمهاجرين بشكل كبير بالتزامن مع التصورات المتزايدة للتهديد الوجودي من جائحةCOVID-19 في كلا البلدين. وبمقارنة الأرقام من كلا البلدين، يتضح أن معامل RWA ذو دلالة إحصائية في جميع أنحاء النطاق الكامل لقيم توسط القلق الخاص بـ COVID- 19 في المملكة المتحدة، وفي أيرلندا يصل تقدير RWA إلى دلالة إحصائية فقط عند مستويات عالية نسبيًا من التهديد المرتبط بالمرض.

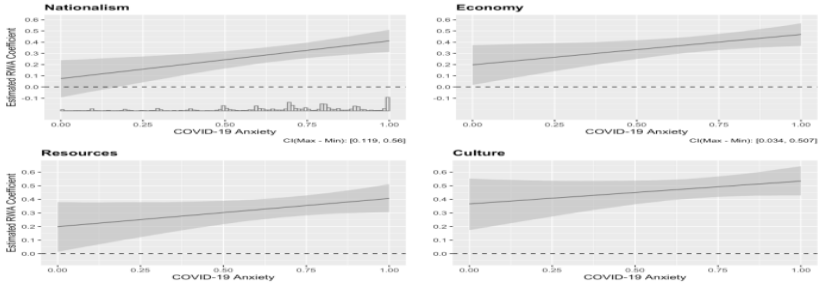

الشكل (1) التأثير الشرطي للتسلطية اليمينية على القومية والمشاعر المعادية للمهاجرين عند مستويات مختلفة من قلق COVID-19 في المملكة المتحدة.

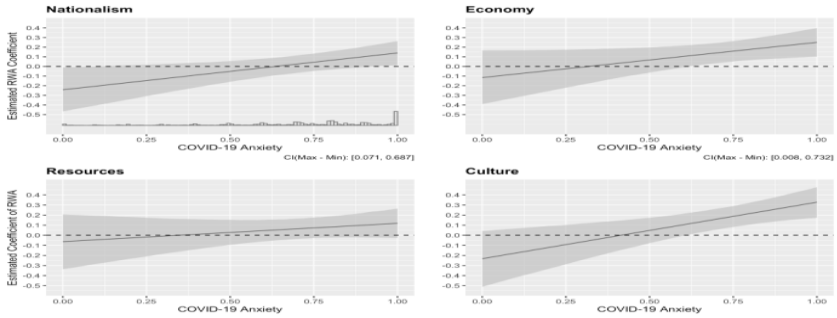

الشكل (2) التأثير الشرطي للتسلطية اليمينية على القومية والمشاعر المعادية للمهاجرين عند مستويات مختلفة من قلق COVID-19 في إيرلندة.

تساهم الدراسة في الأدبيات التسلطية اليمينية وتوجه الهيمنة الاجتماعية من خلال إظهار أن التهديدات الوجودية المرتبطة بالأمراض تتوسط النزعات التسلطية، وبالتالي التأثير على تعبيرها في الاتجاهات السياسية المتمحورة حول العرق. فباستخدام بيانات من عينتين كبيرتين وطنيتين ممثلتين خلال المراحل الأولية من إجراءات الإغلاق الصارمة في تلك البلدان، وجد أنه في حين أن التسلطية ترتبط بتأثير غير صفري على القومية ومعاداة المهاجرين المشاعر عند مستويات منخفضة من القلق، فإن التأثير الإجمالي لـ RWA صغير نوعًا ما. وفقط عندما يكون التهديد المدرك - الذي يتم تفعيله هنا كمقياس لقلق COVID-19- مرتفعًا، فإن RWA تمارس تأثيرًا كبيرًا على تلك الاتجاهات القومية والمناهضة للهجرة. هذا مثير للاهتمام لأن معظم الأدبيات الموجودة تبحث في كيفية قيام التهديدات من مجموعات خارجية معينة بتنشيط النزعات التسلطية وتوليد ردود فعل معاكسة ضد تلك الجماعات الخارجية نفسها. في هذه الدراسة لا ينشأ التهديد من مجموعة خارجية مهددة بطبيعتها بل من فيروس؛ ومع ذلك، لا يزال التسلطيون يردون بأن يصبحوا أكثر قومية وأكثر معاداة للمهاجرين. وهناك، بالطبع، بعض القيود على هذه الدراسة تستحق المناقشة. أولاً، تعني الطبيعة المقطعية للبيانات أنه من المستحيل فصل العلاقات السببية بين RWA والتهديد والقومية والمشاعر المعادية للمهاجرين. على سبيل المثال، عندما ينحدر قلق COVID-19 على RWA وSDO ومتغيرات التحكم الاجتماعي والديموغرافي الأخرى المستخدمة في التحليلات السابقة، يتضح أن RWA هو مؤشر ذو دلالة إحصائية وموقع إيجابيًا للقلق المدرك في كل من المملكة المتحدة وإيرلندا، وكذلك العمر والدخل (المملكة المتحدة فقط). ومن المثير للاهتمام، أن SDO يرتبط سلبًا بقلق-COVID. وبالتالي، من المحتمل أن تكون العلاقات التي قامت الدراسة بصياغة نموذج لها أكثر دقة مما يمكن أن تتعامل معه بيانات المقطع العرضي. وثانيًا، في حين أن العينة كبيرة وتمثيلية على المستوى الوطني، فهي ليست عينة قائمة على الاحتمالات، مما يعني أنه قد يكون هناك أفراد لديهم احتمالات متباينة للاختيار في الدراسة مع تأثيرات غير معروفة على المقاييس الرئيسية. وثالثًا، استخدمت ممثلاً واحدًا لقلق COVID-19 كمقياس للتهديد الوجودي؛ وكان من الأفضل الحصول على مقاييس متعددة ومباشرة للتهديدات، وأخيرًا، قامت فقط بتقييم المواقف تجاه القومية والهجرة، ويمكن للمرء أن يتخيل عددًا من النتائج الأخرى المثيرة للاهتمام التي يمكن توقعها من خلال تقاطع التهديد الوجودي والتسلطية. ولذلك –

كما يؤكد الباحثون – يجب أن يعتمد البحث المستقبلي على التحقيق في طبيعة وعواقب التهديد الوجودي على RWA و SDO، بالإضافة إلى تأثيره التفاعلي على المواقف والسلوك السياسي تجاه المجموعات الداخلية والخارجية. وتتمثل إحدى طرق كسب الزخم في هذه المشكلة في تصميم دراسات طولية لفحص كيفية تأثير التهديدات في فترة زمنية ما على الاتجاهات السياسية اللاحقة. وسيكون من المثير للاهتمام بشكل خاص معرفة ما إذا كانت النتائج التي توصلت إليها الدراسة الحالية مختصة بالمملكة المتحدة وأيرلندا، أو ما إذا كانت ستتكرر في مجتمعات أخرى غير غربية. وفي النهاية، أشار الباحثون إلى اعتقادهم بأن النتائج التي توصلوا إليها مهمة لأنها تنذر بالنتائج المحتملة للرأي العام في البلدان في جميع أنحاء العالم، أي أن التهديدات الخطيرة التي تتعرض لها البشرية من جائحة COVID-19 يبدو أنها تنشط التسلطية في المجتمع، والذي بدوره يحول الرأي نحو المشاعر القومية والمناهضة للمهاجرين، ويمكن للمرء أن يتخيل فقط كيف يمكن أن يؤثر ذلك على الحكم في الديمقراطيات في أوروبا وأمريكا الشمالية وأماكن أخرى في العالم مع استمرار الوباء العالمي.

التسلطية اليمينية والتسلطية اليسارية والتسلطية التخفيفية الوبائية

تشير الأبحاث الحديثة إلى صدق بناء التسلطية اليسارية (LWA)، كالتسلطية اليمينية، حيث تتميز LWA بالدوغماتية والمواقف العقابية تجاه المنشقين والرغبة في وجود شخصيات قوية في السلطة. وعلى عكس RWA، تقوم LWA بتعبئة هذه السمات نيابة عن القيم اليسارية (مثل مناهضة العنصرية، ومكافحة التمييز على أساس الجنس، وإعادة توزيع الثروة). وقد درست بشكل استقرائي إلى أي مدى توقعت RWA وLWA، في أبريل 2020، تأييد الأمريكيين لـ 19 سياسة وممارسة تسلطية تهدف إلى التخفيف من آثار جائحةCOVID-19. وبالنسبة إلى 11 من هذه السياسات (على سبيل المثال، إلغاء الحق في المحاكمة أمام هيئة محلفين للجرائم المتعلقة بالجوائح)، توقع كل من RWA و LWA بشكل مستقل التأييد بشكل إيجابي. وتتوافق هذه النتائج مع العمل الأخير الذي يُظهر أوجه التشابه النفسي بين البنيتين.

مقدمة

في مارس 2020، أثارت جائحة COVID-19 قلقًا من أن القادة التسلطيين في جميع أنحاء العالم سيستولون على المزيد من السلطة، وأن القادة الذين التزموا حتى الآن (في الغالب) بالمعايير الديمقراطية الليبرالية سيستغلون الأزمة لاغتصاب السلطة وانتهاك حقوق الإنسان. وعلى الرغم من أن معظم المعلقين والجمهور الوطني اتفقوا على أن حالة الطوارئ تبرر بعض الإجراءات التسلطية المؤقتة (مثل القيود على السفر والتجمع)، فقد خشي الكثيرون من أن بعض القادة سيحتفظون بهذه السلطات بعد مرور حالة الطوارئ، وأنهم سيستخدمونها كذريعة مضايقة أو تحييد خصومهم السياسيين. وتضمنت الإجراءات التسلطية المخففة للوباء بشكل مفترض الحكم بمرسوم، ومراقبة تدخلية، وصلاحيات موسعة لاحتجاز المشتبه فيهم جنائياً. وبشكل مباشر، فإن التباين داخل البلد في دعم السياسات التسلطية مدفوع جزئيًا بالتنوع في التسلطية كبعد اختلاف فردي. ولطالما اعتبرت التسلطية اليمينية (RWA) سمة شخصية، تتميز بالتقليدية (الالتزام بالقيم التقليدية)، والخضوع التسلطي (إعطاء قيمة عالية للطاعة و احترام السلطة) والعدوان التسلطي (الاتجاهات العقابية تجاه أولئك الذين يحيدون عن القيم التقليدية). وقام العمل الأحدث

بتعديل أو توسيع هذا المفهوم. فعلى سبيل المثال، على الرغم من ارتباط RWA بالشخصية، فمن الأفضل اعتبارها مجموعة من المعتقدات أو الاتجاهات المترابطة بدلاً من اعتبارها سمة شخصية. والأكثر أهمية للدراسة الحالية، لا تزال مسألة جدل حول ما إذا كان البناء الموازي، الاستبداد اليساري (LWA)، صالحًا ومفيدًا. وهذا النقاش جزء من نقاش أوسع حول ما إذا كان علماء النفس قد بالغوا في الاختلافات المعرفية والشخصية بين اليمين واليسار. وقد رفض بعض علماء النفس LWA باعتباره "أسطورة"، وافترض آخرون أن LWA يشبه RWA في كونه يتميز بمستويات عالية من الدوغماتية، والاتجاهات العقابية تجاه المنشقين، والرغبة في الحصول على شخصيات ذات سلطة قوية. وما يميز LWA عنRWA هو محتوى القيم التي يتم الدفاع عنها بشكل دوغماتي. بالنسبة للأفراد ذوي المستوى العالي في LWA، تشمل هذه القيم المعتقدات المؤيدة للبيئة والمناهضة للعنصرية والمناهضة للجنس، ورفض القيود الأخلاقية المسيحية التقليدية. وقد تم دعم هذا النموذج ببيانات تظهر ارتباطات أداة LWA الجديدة مع مقاييس الدوغماتية والتعصب وقوة الاتجاه. وفي الآونة الأخيرة، أنشئت أداة أطول وأكثر اتساعًا لـ LWA واستكشفت بنيتها العاملية وصدقها الخارجي، وأسفرت عن بنية ثلاثية العوامل (العدوان المناهض للتسلسل الهرمي، والتقليدية اليسارية، وحظر الكلام المحمي). وشاركت شبكة LWA الاسمية العديد من الميزات مع شبكة RWA الاسمية، بما في ذلك مستويات عالية من الدوغماتية والاستقطاب العاطفي والانفصال الأخلاقي. وبالتالي، فإن مجموعة متزايدة من الأدلة تدعم صدق والقدرة التنبؤية لبناء LWA. ولذلك تتناول الدراسة الحالية السؤال التالي: إلى أي مدى تتوقع RWA و LWA تأييد الأمريكيين للسياسات التسلطية التي تهدف إلى التخفيف من تأثير جائحة COVID-19؟ إن اكتشاف أن RWA تتوقع دعم السياسات التسلطية لن يكون ذا قيمة إخبارية كبيرة. ومع ذلك، نظرًا للجدل المستمر بشأن بنية LWA، تعمل الدراسة الحالية بمثابة اختبار في الوقت المناسب لفائدتها التنبؤية. والأهم من ذلك، أن معظم السياسات التسلطية المقترحة للتخفيف من جائحة COVID-19تقع خارج المجالات التي تغطيها مباشرة القيم المرتبطة بـ LWA (العرق والجنس وإعادة توزيع الثروة). وبالتالي، تتيح هذه الدراسة الفرصة لتوسيع الشبكة الاسمية لـ LWA لتشمل القضايا ذات الاهتمام العام الكبير في لحظة تاريخية معينة.

التسلطية كمجموعة عامة من الاتجاهات تشمل الدوغماتية، وتفضيل الانصياع، والاستعداد لفرض المعايير السلوكية بالإكراه، والعقاب تجاه الأعداء المتصورين، والاهتمام الشديد بالتسلسل الهرمي. ومع ذلك، فإن هذا التوصيف في حد ذاته لا يوفر وسيلة كاملة لتحديد ما يشكل سياسة تسلطية. تتلون مثل هذه الأحكام بالإيديولوجية السياسية وعوامل أخرى. على سبيل المثال، وصف اقتراح حديث لحظر التعليم المنزلي في الولايات المتحدة هذه الممارسة بأنها تسلطية، في حين أن مؤيدي التعليم المنزلي يعتبرون حظرها تسلطياً. وقد طلب من المشاركين الإشارة إلى مستوى تأييدهم لمجموعة واسعة من سياسات التخفيف المفترضة للجائحة، والتي يمكن بلا شك أن يُنظر إلى العديد منها على أنها "تسلطية" من قبل أقلية فقط من الأمريكيين. وتم استخلاص هذه السياسات في الغالب من الأخبار والتعليقات المتعلقة بـ COVID في أبريل 2020. كما تم التفكير في ما إذا كان يمكن اعتبار السياسة المقترحة أو المطبقة على أنها تنتهك مكونات دستور الولايات المتحدة، لا سيما المادة الأولى والتعديلات الأول والثاني والرابع والخامس والسادس والرابع

عشر. ونطاق السياسات المختارة يعني أن بعض التوقعات لنتائج الدراسة الحالية واضحة. على سبيل المثال، سيتم ارتباطRWA بشكل إيجابي بالموافقة على إغلاق عيادات الإجهاض. وخلال أبريل 2020، كان المحافظون أقل احتمالا من الليبراليين للالتزام بقيود التباعد الاجتماعي. لذلك، بقدر ما يرتبط RWA بالمحافظة وترتبط LWA بالليبرالية، فإن الأول سيكون مرتبطًا بشكل سلبي، بينما يرتبط الأخير بشكل إيجابي، مع تأييد هذه القيود. والأهم من ذلك، أن الدراسة الحالية تتعلق بالقوة التنبؤية لـ RWA و LWA، وليس بالتيار الليبرالي أو المحافظ. والأكثر إثارة للاهتمام، أنه ليس من الواضح على الإطلاق كيف ستختلف RWAوLWA فيما يتعلق بارتباطاتهما مع تأييد وضع القواعد بموجب مرسوم تنفيذي، والقيود القانونية على الخطاب المرتبط بالوباء، وعلى الحق في الاحتجاج على الإجراءات الحكومية، أو التعديات على حقوق الإجراءات القانونية (الأنجلو أمريكية) للأفراد المتهمين بارتكاب جرائم. ولا تتناول الدراسة الحالية العلاقة بين المعتقدات السياسية والحساسية للتهديد، كما أنها لا تستكشف الروابط الدافعية المحتملة الأخرى بين التسلطية وردود الفعل على الوباء. وتشير مجموعة كبيرة من الأدلة إلى أن المحافظين أكثر حساسية من الليبراليين للتهديد، لا سيما تهديد المرض، مما يثير لغز لماذا، في الوباء الحالي، كان المحافظون أكثر تفاؤلاً من الليبراليين بشأن الخطر الذي يمثله. قد يكون الاختلاف في تقييم تهديد COVID-19 مدفوعًا بالاختلاف في RWA أوLWA كما وجد في التيار المحافظ والليبرالي، لكن هذا السؤال خارج نطاق الدراسة الحالية. فباختصار، فحصت هذه الدراسة الارتباطات بين RWA و LWA (متنبئات) وتأييد 19 سياسة تسلطية مفترضة لتخفيف الجائحة (مخرجات). وقد أدرجت خمسة متغيرات مشتركة في التحليلات. فيما يتعلق بالسياسات التي تفرض وتفرض التباعد الاجتماعي، فإن الأفراد الذين تقل دخولهم بشدة بسبب هذه القيود قد يرفضونها أكثر من الأفراد الذين تكون دخولهم أقل تأثراً، بغض النظر عن المعتقدات السياسية. لكن أربعة متغيرات قد تربك الارتباطات بين RWA و/أو LWA وتأييد الاستجابات التسلطية المفترضة لـCOVID-19: الجنس والعمر وانتشارCOVID-19 المحلي والهوية الأمريكية الأفريقية (لأن الأمريكيين الأفارقة عانوا من معدلات وفيات أعلى من COVID-19 من الأمريكيين الآخرين).

المنهج

المشاركون: تمت مخاطبة (528) مشاركًا مقيمًا في الولايات المتحدة باستخدام Prolific.co، وهي خدمة استطلاع عبر الإنترنت ذات حد أدنى من المدفوعات للمشاركين. وتم دفع (1.90) دولار لجميع المشاركين. وكان 313 (59.3٪) من الإناث، وتراوحت أعمار المشاركين بين 18-79 (متوسط = 31.8).

الإجراء: تم جمع جميع استجابات المشاركين في 22 أبريل 2020. وبعد الإشارة إلى الموافقة، تم توجيه المشاركين إلى 40 سؤالاً أولاً حول آرائهم السياسية العامة، وبعد ذلك أسئلة حول آرائهم حول أفضل السبل للرد على أزمة COVID -19 بالتحديد. ثم أكمل المشاركون الشكل القصير المكون من 18 فقرة لـ **مقياس ACT** (التسلطية - المحافظة – التقليدية)، والصيغة المختصرة المكونة من 22 فقرة لـ **مؤشر التسلطية اليسارية**، وهاتين الأداتين تم تقديمهما أولاً بشكل عشوائي. ويتكون كل مقياس من مقاييس ACT الثلاثة من ستة فقرات. نصف الفقرات ذات مفتاح عكسي. وتم تقديم الفقرات الموجودة داخل كل أداة بترتيب عشوائي. وأجاب المشاركون على مقاييس ليكرت المكونة من 7 نقاط والمثبتة بـ "لا أوافق بشدة" و "أوافق

بشدة" ثم عُرض على المشاركين (بترتيب عشوائي) 19 فقرة بشأن **السياسات المتعلقة بالجائحة**، أو الإجراءات ذات الصلة بالسياسات. وطُلب منهم الإشارة إلى موافقتهم على كل فقرة على مقياس ليكرت المكون من 7 نقاط مثبت بواسطة "لا أوافق بشدة" و"أوافق بشدة". وبعد ذلك، طُلب من المشاركين مجموعة من **الأسئلة الديموغرافية**: العمر والجنس والعرق ومستوى التعليم ودخل الأسرة قبل الوباء (المحدد في 15 فبراير 2020). وأخيراً، قدمت لهم **عبارة** "يتم تخفيض دخلي بسبب قيود التباعد الاجتماعي المفروضة للحد من انتشار COVID-19، وطُلب منهم المصادقة على مقياس ليكرت المكون من 7 نقاط تمتد من "لا أوافق بشدة" و"موافق بشدة". لاختبار الارتباطات بين LWA و RWA والمتغيرات المشتركة (متغيرات التوقع)، وتأييد السياسات الاستبدادية المرتبطة بالوباء (متغيرات النتائج)، استخدم الانحدار الهرمي المتعدد. في الخطوة الأولى من كل نموذج، تم إدخال العمر والجنس والهوية الأمريكية الأفريقية ومعدل COVID-19 للمقاطعات كمتنبئين. وبالنسبة للسياسات الأربع المتعلقة بقيود المسافة الاجتماعية، تم إدخال تخفيض الدخل أيضًا في الخطوة الأولى. وفي الخطوة الثانية من كل نموذج ، تم إدخال LWA و RWA كمتنبئين.

النتائج والمناقشات والاستنتاجات

الارتباط بين متغيرات التوقع: سجلت النساء درجات أعلى في LWA من الرجال. وارتبط معدل COVID-19 في المقاطعة سلبًا بالعمر وارتبط إيجابيًا بLWA. وارتبط انخفاض الدخل سلبًا مع العمر وإيجابيًا بLWA. وارتبط العمر سلبيا مع LWA وإيجابيا مع RWA . وارتبطت RWA و LWA ارتباطًا سلبيًا.

المتنبئات بتأييد فقرات السياسة: بالنسبة لثمانية من 19 سياسة، لم تحقق نماذج الخطوة الأولى حتى دلالة إحصائية، على الرغم من حجم العينة الكبير. وأدت نماذج الخطوة الثانية، دخول RWA و LWA، إلى زيادة التباين الموضح بشكل كبير لكل فقرة من فقرات السياسة باستثناء الإقناع أفضل من قواعد تعزيز التباعد الاجتماعي. وبالنسبة للسياسات الـ 18 الأخرى، كانت نماذج الخطوة الثانية دالة. وبعد التحكم في المتنبئين الآخرين، ارتبط كل من RWA و LWA بشكل إيجابي بشكل كبير بتأييد الإبلاغ إلى الشرطة، والحاجة إلى التهديد بالعقاب، وشهادة الحصانة، وتطبيق التتبع الإلزامي، وتقييد الحق في الاحتجاج، وحظر العناصر غير الأساسية، والاقتصاد الذي تديره الحكومة، وتقييد الحق في المحاكمة من قبل هيئة المحلفين، والقيود بموجب المرسوم التنفيذي، والعقوبات المعززة في حالات الطوارئ، واختبار COVID-19 الإلزامي. وارتبطت RWA بشكل إيجابي، في حين لم تكن LWA مرتبطة، مع تأييد عيادات الإجهاض القريبة وحظر دخول الأجانب. وارتبطت LWA بشكل إيجابي، في حين لم تكن RWA مرتبطة، مع تأييد مراقبة الكنائس، وحظر مبيعات الأسلحة النارية، وسلطة خبراء الصحة العامة. وكانت LWA مرتبطة بشكل إيجابي، في حين كانت RWAمرتبطة بشكل سلبي، مع يجب اتباع أوامر الابتعاد وحظر المعلومات المضللة. وظلت بعض الارتباطات مع العمر والجنس ومعدل COVID للمقاطعة دالة في نماذج الخطوة الثانية. وكان العمر مرتبطًا سلبًا بتأييد الحاجة إلى التهديد بالعقاب، وتقييد الحق في الاحتجاج، والاقتصاد الذي تديره الحكومة، وتقييد الحق في المحاكمة أمام هيئة محلفين، ومنع الأجانب من الدخول. وأظهرت النساء، مقارنة بالرجال، مستويات أقل من التأييد للإبلاغ إلى الشرطة، والحاجة إلى التهديد بالعقاب، وشهادة الحصانة، وحظر العناصر غير

الأساسية، وعيادات الإجهاض القريبة، والاقتصاد الذي تديره الحكومة، والعقاب المعزز في حالات الطوارئ، واختبار COVID-19 الإلزامي. وأظهرت النساء مستوى أعلى من التأييد من الرجال لحظر مبيعات الأسلحة النارية. وارتبط معدل COVID في المقاطعة بشكل إيجابي بتأييد حظر مبيعات الأسلحة النارية. وكانت معاملات LWA أكبر بكثير من معاملات RWA لمتابعة أوامر التباعد، وحظر المعلومات الخاطئة، ومراقبة الكنائس، وحظر مبيعات الأسلحة النارية، وحظر العناصر غير الأساسية، والاقتصاد الذي تديره الحكومة، والقيود بموجب المرسوم التنفيذي، وسلطة خبراء الصحة العامة، واختبار COVID-19 الإلزامي. وكانت معاملات RWA أكبر بكثير من معاملات LWA لعيادات الإجهاض القريبة ومنع الأجانب من الدخول.

استجابة للصحة العامة والتأثيرات الاقتصادية الشديدة لوباء COVID-19 في ربيع عام 2020، تحمل العديد من مواطني الدول الديمقراطية الليبرالية، أو حتى طالبوا، بإجراءات من حكوماتهم يعتبرونها قاسية بشكل غير مقبول في ظل الظروف العادية. واستخدمت الدراسة الحالية هذا الموقف لتوسيع الشبكات الاسمية للبنية الراسخة للتسلطية اليمينية والبنية الواعدة للتسلطية اليمينية. فتنبأت كلتا السمتين بتأييد مجموعة من السياسات والممارسات المفترضة للتخفيف من الجائحة والتي قد يعتبرها الكثيرون تسلطية. وكانت بعض هذه النتائج غير ملحوظة، أو حتى كانت دائرية قليلاً، على سبيل المثال إحدى فقرات ACT تدين الإجهاض، وواحدة من السياسات التي أقرها الأشخاص الأعلى في RWA كانت إغلاق عيادات الإجهاض. ومع ذلك، أبرزت معظم النتائج، وبعضها مفاجئ إلى حد ما، كيف يستجيب الأشخاص ذوو الاتجاهات التسلطية، عندما تظهر قائمة من السياسات التسلطية المحظورة عادةً على طاولة النقاش العام السائد في ديمقراطية ليبرالية، بسبب أزمة ما. فعلى سبيل المثال، ترتبط RWA بشكل إيجابي بالمحافظة، وأحد مكونات التيار المحافظ الأمريكي هو الدعوة إلى الأسواق الحرة، ومع ذلك ارتبطت RWA بشكل إيجابي بتأييد الحكومة التي تدير الاقتصاد. وعلى الرغم من أن الدراسة لم تقم بقياس إدراك الخطر الذي يمثله COVID-19، فمن غير المرجح أن يكون الاختلاف في الخطر الموضوعي للوفاة أو المرض الخطير قد أدى إلى الارتباطات الملحوظة بين RWA أو LWA وزيادة التأييد للسياسات التسلطية المفترضة. ولم يكن أي من المتغيرات الثلاثة المختارة بسبب ارتباطها بمخاطر الوفاة من COVID-19 (معدل COVID-19 في المقاطعة أو العمر أو هوية الأمريكيين من أصل أفريقي) مرتبطًا بشكل إيجابي بتأييد هذه السياسات. وقد اعتمدت هذه الدراسة على العمل الذي أظهر وجود اتجاهات تسلطية على طرفي الطيف السياسي، ووثق العديد من أوجه التشابه النفسي بين RWA و LWA . واثنان من أوجه التشابه من هذا القبيل هما الاعتقاد بعالم خطير، وتفضيل سيطرة الدولة. وتماشياً مع هذه النتائج، وجدت أنه استجابةً للخطر الذي تشكله جائحة مميت، اتفق الأشخاص في RWA والأشخاص الذين ينتمون إلى LWA على الحاجة إلى تعزيز سيطرة الدولة في العديد من المجالات، بما في ذلك القيود على الحق في الاحتجاج، والعقاب بدون الحق في المحاكمة أمام هيئة محلفين، والمراقبة عبر تطبيق تتبع إلزامي. وتميل السياسات التي لم يوافق عليها الأشخاص في RWAوالأشخاص الذين ينتمون إلى LWA إلى أن تكون أكثر ارتباطًا بقيم اليمين الأمريكي مقابل اليسار، كالدين والإجهاض والهجرة.

كان لهذه الدراسة ثلاثة قيود رئيسية. أولاً، لم يتم قياس الاتجاهات السياسية الأخرى، باستثناء RWAو LWA . وكان من الممكن أن يؤدي التحكم في الاتجاهات الأخرى إلى تغيير الارتباطات الإحصائية الملحوظة بين التسلطية وتأييد السياسة. كمثال واحد فقط، يختلف RWA عن اتجاه الهيمنة الاجتماعية SDO، ولكنه يرتبط ارتباطًا إيجابيًا به، والذي تم تعريفه على أنه درجة تفضيل عدم المساواة بين المجموعات الاجتماعية. فقد يؤدي التحكم في SDO إلى تقليل الارتباط بين RWA وتأييد حظر الأجانب من الدخول. وثانيًا، كدراسة مقطعية، لا يمكن لهذا العمل أن يعالج إمكانية السببية المعكوسة، أي أن جائحة COVID-19، باعتبارها تهديدًا محسوسًا، قد زاد من مستويات التسلطية. وأخيرًا، كان مجتمع الدراسة يتألف حصريًا من المقيمين في الولايات المتحدة، لذا فإن نتائجها لا تعمم على البلدان الأخرى. وسيتطلب استكشاف هذا الموضوع العام دوليًا تجميع قوائم خاصة بالبلد لسياسات التخفيف من الجائحة التسلطية المفترضة. ولكن، تحمل LWA وعدًا كبيرًا كبناء توضيحي في علم النفس السياسي. لقد تغير كل من مسار جائحة COVID-19، والمشهد السياسي العام للولايات المتحدة بشكل كبير منذ جمع البيانات الخاصة بهذه الدراسة. لذلك، قد يكون تكرارها بالضبط مستحيلاً. وبشكل عام، فإن علاقة LWA بتفضيلات السياسة تمثل موضوع مثمر للبحث في المستقبل.

الديمقراطية والتسلطية وإدارة الظاهرة الكورونية

تتوقع مجموعة من أدبيات الاقتصاد السياسي أن تكون الحكومات الديمقراطية أكثر فاعلية من التسلطية في إدارة المواقف الكارثية (المجاعات، والكوارث الطبيعية، والأوبئة، وما إلى ذلك) بسبب الاستجابة التي تنبع من المساءلة. وتوفر جائحة COVID-19 المستمرة بيئة مثيرة للاهتمام لاختبار هذا التوقع، لا سيما لاستكشاف ما إذا كانت الديمقراطيات أكثر وقائية وبالتالي زيادة الاختبارات. ومن أجل تقييم الاستجابة الحكومية، فإن المؤشرات مثل عدد الحالات ومعدلات العدوى والوفيات ليست مفيدة لأن تباينها تتجاوز ما تستطيع الحكومات القيام به؛ في المقابل، فإن اختبار SARS-CoV-2 في أيدي الحكومات. وعند تحليل البيانات من 85 دولة، كلما كانت الدولة أكثر ديمقراطية، وليس بالضرورة زيادة الاختبارات التي تجريها. العلاقة منحنية إلى حد ما، وأفضل وصف لها بـ U، مع مستويات منخفضة وعالية من الديمقراطية المرتبطة بكثافة الاختبار، والمستويات المتوسطة المرتبطة بالاختبار المنخفض. وإلى جانب اختبار الديمقراطيات والتسلطيات غير المختبرة، هناك تسلطية مختبرة - دول ريعية أساسًا - وديمقراطيات لا تختبر؛ تميل الأوتوقراطيات إلى أن تكون غير قابلة للاختبار في جميع المجالات. ويبدو أيضًا أن التباين في الاختبار يمكن تفسيره جزئيًا من خلال نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي وفعالية الحكومة، ولكن من المستغرب أنه لا علاقة له بطول الوباء في بلد ما.

يُعتقد أن الديمقراطيات تتفاعل بشكل أفضل مع الكوارث من التسلطيات. ويركز عمل الاقتصاد السياسي الكلاسيكي حول هذا الموضوع على المجاعات باعتبارها حالة كارثية، ووفق خط التحقيق هذا، نظرًا لأن المديرين التنفيذيين في الديمقراطيات يخضعون لروابط المساءلة مع المواطنين - على الأقل الانتخابات - ومع المؤسسات الأخرى (التشريعية والقضائية والدولية، وما إلى ذلك)، يتم حثهم على زيادة استجابتهم وتحسين أدائهم. في المقابل، ليس لدى المديرين التنفيذيين التسلطيين قنوات مؤسسية واضحة

لتلقي الضغط من الجمهور، مما يسمح لهم بتجاهل مطالب استراتيجيات الوقاية، وبالتالي تتفوق الديمقراطيات في أدائها.

توفر جائحة COVID-19 المستمرة بيئة مثيرة للاهتمام لاختبار مثل هذا الاقتراح. هل تدير الحكومات الديمقراطية الوباء بالفعل أفضل من الأنظمة التسلطية؟ للإجابة على هذا السؤال، يتمثل التحدي الأول في تفعيل الفعالية في إدارة الجائحة. والمشكلة هي أنه في حين أن القطاع العام يمكن أن يكون له تأثير كبير في احتواء الوباء، فإن نطاق العمل الحكومي محدود. وبالتفكير في جائحة COVID-19 على وجه الخصوص، تعتمد المؤشرات مثل عدد الأشخاص المصابين، ومعدل العدوى، وعدد الوفيات، وما إلى ذلك، على عدة عوامل تشمل الحكومات بالتأكيد، ولكنها لا تقتصر عليها، من السلوك في المجتمع، فإن الظروف الصحية الموجودة مسبقًا للسكان، وتوفير الصحة العامة، والفقر وعدم المساواة التي تعيق العزلة الاجتماعية، وما إلى ذلك لها تأثير أيضًا. ومع ذلك، هناك جانب معين من إدارة الوباء يعتمد بشكل أساسي أو كلي على الحكومات: اختبارSARS-CoV-2. وعلى وجه الخصوص، ما يهم هنا هو اختبار تفاعل البوليميراز المتسلسل (PCR)، والذي تم الاعتراف به على أنه أكثر أنواع الاختبارات دقة، في حين أن الأنواع الأخرى من الاختبارات موضع خلاف كبير، مثل المستضد أو ما يسمى بالاختبارات السريعة. وباعتماد نهج مقارن، في الأساس جميع البلدان التي تكون فيها الحكومة هي المؤسسة الوحيدة المسموح لها باختبار أو إجراء غالبية الاختبارات، كما تنظم حملة الاختبار. بالإضافة إلى ذلك، فإن عدد الاختبارات لكل 1000 شخص أكثر قابلية للمقارنة من بلد إلى آخر من عدد الأشخاص المصابين نظرًا لأن منهجيات حساب الحالات تختلف على نطاق واسع، لذلك لا توجد إمكانية للمقارنة بين معدلات العدوى أو معدلات الوفيات، حيث تم أخذ عدد الحالات في الاعتبار في هذه البيانات. وبالتالي، يقدم الاختبار مؤشرًا جيدًا لتقييم استجابة الحكومة لـ COVID-19في السياقات الديمقراطية والتسلطية.

توقع الأدبيات هو أنه كلما كانت الدولة أكثر ديمقراطية، كلما أعطت الأولوية للاختبار. وبتحليل الأدلة من 85 دولة، هذا ليس صحيحًا تمامًا. وتماشيا مع توقعات الأدبيات، هناك بالفعل ديمقراطيات تختبر على نطاق واسع - اختبار الديمقراطيات، مثل أيسلندا ولوكسمبورغ والدنمارك والبرتغال وليتوانيا- والتسلطيات التي نفذت فقط حملات اختبار محدودة للغاية - عدم اختبار الأنظمة التسلطية، مثل كوبا وبنغلاديش وفيتنام وإيران وتايلاند. ومع ذلك، هناك أيضًا ثلاث فئات من البلدان التي لا تتناسب مع التوقعات النظرية. أولاً، هناك ديمقراطيات لا تخضع للاختبار —كوستاريكا وأوروغواي وفرنسا واليابان واليونان - والتي لم تتضخم في الاختبارات على عكس توقعات الديمقراطيات. وثانيًا، هناك قدر محدود للغاية، من اختبارات التسلطية - البحرين وقطر وروسيا وبيلاروسيا - والتي تثير التساؤل حول الافتراض القائل بأن الأنظمة غير الخاضعة للمساءلة ليست عرضة لإدارة حذرة للوباء. وأخيرًا، بين الأنظمة الأنوقراطية، هناك حالات غير قابلة للاختبار في الغالب - المجر وباراغواي والسلفادور ونيبال ورومانيا - والتي تشير في الواقع إلى أن حوافز الفشل في الاختبار ليست مناسبة للديمقراطيات أو الأنظمة التسلطية، بل بالأحرى غائبة على حد سواء.

كما يمكن توقعه، فإن نوع النظام ليس هو العامل الوحيد الذي له تأثير على مقياس الاختبار. وهناك عاملان بنيويان لهما علاقة كبيرة بالاختبار: الناتج المحلي الإجمالي للفرد وفعالية الحكومة. من ناحية، تميل

البلدان النامية إلى اختبار أقل من الدول المتقدمة. ومن ناحية أخرى، تميل البلدان التي لديها قطاعات عامة أكثر فاعلية إلى اختبار أكثر من أقرانها من ذوي الضعف المؤسسي. ومن المثير للاهتمام، أن إيقاع الجائحة لا يبدو أنه يفسر الاستجابة التي يتبناها بلد ما. في البداية، كان التوقع هو أن البلدان التي بدأت أولاً بأوبئة وطنية لديها ستختبر أكثر حتى هذه النقطة من تلك التي بدأت بعد ذلك. وتظهر النتائج أن هذا ليس هو الحال. في الواقع، يبدو أنه لا يوجد ارتباط بين تاريخ الإبلاغ عن الحالة الأولى في بلد ما وعدد الاختبارات لكل 1000 اختبار.

يعتمد العمل على مصادر عدة: عالم البيانات، وأنواع الديمقراطية (V-Dem) ، وقاعدة بيانات مشروع ميدسون، ومؤشرات الحوكمة العالمية، والمركز الأوروبي للوقاية من الأمراض ومكافحتها، وتقارير الحكومات الوطنية. من عالم البيانات، تأخذ الورقة المتغير التابع، أي عدد الاختبارات التي أجريت لكل 1000 شخص. ويعتبر عالم البيانات اختبارات PCR فقط، والتي - كما قيل - هي أكثر أنواع الاختبارات فعالية. في المقابل، يقوم عالم البيانات بتحديث هذا المؤشر بناءً على التقارير الصادرة عن كل دولة. ولا تذكر بعض البلدان عدد اختبارات تفاعل البوليميراز المتسلسل المطبقة فحسب، بل تشير أيضًا إلى عدد الأشخاص الذين تم اختبارهم بهذه الاختبارات، وهو بالضرورة أكبر لأن بعض الأشخاص قد خضعوا للاختبار أكثر من مرة. ومن V-Dem، يأخذ العمل متغير الاهتمام المستقل، ومستوى الديمقراطية، واللجوء إلى مؤشر الديمقراطية الليبرالية ومؤشر الديمقراطية الانتخابية. وتستند مؤشرات V-Dem هذه إلى استطلاعات التصورات المطبقة على خبراء الدولة. وكما ذكر أعلاه، إلى جانب نوع نظام العوامل السياسية، هناك عوامل اقتصادية ومؤسسية ووبائية أخرى من المحتمل أن يكون لها تأثير على زيادة حجم الاختبار. ويتم استكشاف هذه العوامل كفرضيات بديلة. وأخذ بيانات نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي والفعالية الحكومية، على التوالي، من قاعدة بيانات مشروع ماديسون ومؤشرات الحوكمة العالمية. ويأتي تاريخ أول حالة إصابة بفيروس كورونا في كل بلد من عالم البيانات، والذي يستخدم بدوره المعلومات من المركز الأوروبي للوقاية من الأمراض ومكافحتها.

يتكون العمل من أربعة أقسام بالإضافة إلى الخاتمة. أولاً، مراجعة موجزة للأدبيات حول الديمقراطية وإدارة الكوارث. وثانيًا، شرح السمات الرئيسية لوباء COVID-19، وأهمية وخصوصيات اختبار-SARS CoV-2، ولماذا يعمل الاختبار كمؤشر لتقييم استجابة الحكومات الديمقراطية والاستبدادية لوباء-COVID 19. وثالثًا، عرض العلاقة بين مستوى الديمقراطية وعدد الاختبارات وعرض الفئات الخمس التي تنبع من هذه العلاقة: الديمقراطيات المختبرة المتوقعة والتسلطية غير المختبرة، والديمقراطيات غير المتوقعة غير المختبرة، والتسلطيات المختبرة، والأنوقراطيات غير المختبرة. ورابعًا، أختبار الفرضيات البديلة المذكورة، نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي، وفعالية الحكومة، ويوم اكتشاف أول حالة COVID-19 . وفي النهاية التفكير بشكل واسع في الآثار المترتبة على هذه النتائج لفهم العلاقة بين نوع النظام والعوامل البنيوية وإدارة الوباء، لا سيما فيما يتعلق باستراتيجيات الوقاية.

الديمقراطية وإدارة الكارثة

في كتاب أصبح كلاسيكيًا: الفقر والجوع، فسرت المجاعات من وجهة نظر مختلفة تمامًا عن تلك الموجودة. فمقابل التفسير المعتاد المتعلق بتوافر الطعام، جادل بأن المجاعات كانت أكثر ارتباطًا بالاستحقاقات الاقتصادية والمساءلة السياسية. وفيما يتعلق بالنقطة الأخيرة، السياسية، أكد أن الديمقراطيات كانت أكثر ملاءمة من الأنظمة التسلطية للتعامل مع خطر المجاعات، بالنظر إلى المساءلة التي تنطوي عليها الانتخابات وبقية المؤسسات. آليات المساءلة - التشريعية والقضائية والدولية. حيث تجعل المساءلة الديمقراطيات أكثر استجابة لمطالب المواطنين بتوزيع أكثر عدالة للغذاء، مما حال دون حدوث المجاعات. ولإثبات هذه الحجة تجريبياً، حلل العديد من المجاعات، من بينها مجاعة البنغال عام 1943، ومجاعات إثيوبيا 1973 و 197، ومجاعة بنغلاديش عام 1974. كما تواصل استكشاف المجاعات، مع التركيز على الإصلاح السياسي والاقتصادي كوسيلة لضمان الأمن الغذائي، لا سيما للفئات الأكثر حرمانًا. وفي وقت لاحق، في كتاب: الحرية، تم تلخيص سنوات من البحث حول المجاعة بعبارة جريئة أصبحت مشهورة: "لم تحدث مجاعة في تاريخ العالم في ديمقراطية فاعلة". وقد أكد العديد من الباحثين هذه النتائج، وتم فتح مجال أوسع من الاستقصاء حول العوامل السياسية وإدارة الكوارث بشكل عام. ومن أهم استنتاجات هذه الأدبيات أن ما يسمى بالكوارث الطبيعية ليست "طبيعية"، ولكنها نتيجة لنقاط الضعف التي تنتجها الترتيبات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. وبعد تحليل سياسات استجابات الدول للكوارث الطبيعية في 150 دولة خلال فترة 14 عامًا - 1995-2009 -، تبين أن وجود نظام ديمقراطي ودولة قوية، وأكثر من ذلك، يؤدي الجمع بين كلا العاملين إلى زيادة احتمال الاستجابة بفعالية لكارثة طبيعية، ولا سيما في خفض معدل الوفيات. وبالطبع، تختلف الاستجابات التي تتبناها الديمقراطيات من سياق إلى آخر اعتمادًا على السمات المؤسسية والهيكلية، ولكن يُعتقد عمومًا أن الديمقراطيات العامة تستجيب بشكل أفضل لهذا النوع من المواقف. وفي حين أن هناك الكثير من الأبحاث حول الديمقراطية والتسلطية والمجاعات والكوارث الطبيعية، هناك رؤى نادرة حول الأنظمة السياسية والأوبئة، وهي مهمة في السياق العالمي الحالي. استند بعض المؤلفين إلى الأدبيات الموجودة لمحاولة الفهم السياسة المشاركة في إدارة جائحة COVID-19 الحالية. واستكشف تأثير الديمقراطية والتسلطية وقدرة الدولة على إدارة الوباء، لكنهم بناءً على أمثلة وليس أدلة منهجية. وعلى الرغم من أن جائحة COVID-19 مستمرة، وبالتالي قد تتغير الاتجاهات في المستقبل، إلا أن هذا العمل سعى إلى استكشاف ما إذا كان التفاؤل في الأدبيات حول الديمقراطيات والكوارث، والذي يجب أن تديره الديمقراطيات بشكل أفضل للوباء من الأنظمة التسلطية.

جائحة COVID-19 واختبار SARS-CoV-2

في ديسمبر 2019 ، أقرت لجنة الصحة المحلية في ووهان بوجود 27 حالة من حالات الالتهاب الرئوي من أصل فيروسي شبيه بالإنفلونزا غير معروف. كانت غالبية الحالات من عمال سوق المواد الغذائية المحلية. بعد أيام قليلة، أقرت الحكومة الصينية بأن المرض المسبب للالتهاب الرئوي والفيروس الذي نشأ عنه المرض لم يظهر في السجلات الطبية . وفي 11 فبراير، صنفت منظمة الصحة العالمية (WHO) مرض فيروس كورونا 19 (COVID-19)، وأطلقت اللجنة الدولية لتصنيف الفيروسات(ICTV) على فيروس متلازمة الالتهاب

التنفسي الحاد فيروس كورونا 2(SARS-CoV-2) . تضمنت الأعراض الأكثر شيوعًا الصداع وفقدان الشم وانسداد الأنف والسعال والوهن. ومع ذلك، قد يحدث أيضًا ألم عضلي، وسيلان الأنف، واختلال وظيفي تذوقي، والتهاب في الحلق، وحمى. وخلال شهر يناير 2020، عقدت منظمة الصحة العالمية (WHO) عدة اجتماعات لتحليل المرض وتقييم الخطر الذي يمثله على الصحة العالمية. وفي 30 يناير، أعلن المدير العام لمنظمة الصحة العالمية أن COVID-19 قد تم رفعه إلى مرتبة طوارئ الصحة العامة ذات الاهتمام الدولي (PHEIC)، نظرًا لشدته وقابليته للانتقال - ليس فقط المحمولة الجوية من شخص لآخر ولكن أيضًا من خلال الأسطح - والنسبة المرتفعة للحاملين بدون أعراض والذين يمكنهم مع ذلك نشر المرض. يشير مجموع هذه العناصر إلى احتمال نمو أسي مع احتمال حدوث جائحة. وحتى اليوم الأخير من شهر كانون الثاني، أصيب 9776 شخصًا - توفي منهم 213 - وكانت الغالبية العظمى من الحالات داخل الصين، ولكن 98 منهم في الخارج، موزعين في 18 دولة. وخلال شهر فبراير، انتشر الوباء خاصة في الصين، ولكن أيضًا في كوريا الجنوبية وإيطاليا وإيران. وبحلول نهاية الشهر، أبلغت الصين عن 79355 حالة إصابة و2837 حالة وفاة، وبلغ مجموع حالات الإصابة بكوريا الجنوبية وإيطاليا وإيران معًا 4207 حالة و71 حالة وفاة. وفي 11 مارس، أعلنت منظمة الصحة العالمية أن تفشي الفيروس أصبح وباءً. وخلال هذا الشهر، ارتفع عدد مرضى COVID-19الذين تم تحديدهم في جميع أنحاء العالم سبع مرات، ليصل إلى 700000، وفي بداية أبريل تجاوز العدد عتبة المليون. وانتقلت بؤرة الوباء من الصين إلى أوروبا، وخاصة إيطاليا وإسبانيا. ومع ذلك، منذ أن بدأ اكتشاف عدد كبير من الحالات في الولايات المتحدة بحلول نهاية أبريل، وصلت أوروبا إلى 1.3 مليون حالة و133254 حالة وفاة، تليها عن كثب الولايات المتحدة مع حوالي مليون حالة و60966 حالة وفاة. وفي مايو، تمكنت أوروبا من تنفيذ إجراءات صارمة - على رأسها عمليات الإغلاق - التي أدت بالوباء إلى ذروته وخفضه باستمرار. وفي المقابل، تمكنت الولايات المتحدة فقط من خفض معدل النمو وتحقيق انخفاضات زمنية طفيفة. وفي مايو وتحديداً يونيو، اتخذ الوباء أمريكا اللاتينية مركزًا جديدًا للوباء، خاصة البرازيل وبيرو. وفي بداية شهر مايو، سجلت المنطقة 176.740 حالة و8699 حالة وفاة. وفي 30 يونيو، كانت التوقعات مختلفة جذريًا: فقد وصل عدد الحالات المكتشفة إلى 844992 - نمت خمس مرات تقريبًا من بداية مايو - وبلغ عدد الوفيات المرتبطة بـ COVID 39,324، أربع مرات أكثر مما كان عليه في أوائل مايو.

يعد إجراء اختبار SARS-CoV-2 على نطاق واسع أحد أكثر الاستراتيجيات الموصى بها لاحتواء توسع COVID-19والتخفيف منه في نهاية المطاف. وكان المدير العام لمنظمة الصحة العالمية صريحًا للغاية بشأن هذه النقطة، مجادلًا بأن "الطريقة الأكثر فعالية للوقاية من العدوى وإنقاذ الأرواح هي كسر سلاسل الانتقال. وللقيام بذلك، يجب أن تختبر وتعزل. كما دعت منظمة الصحة العالمية كمؤسسة إلى هذا النهج في إرشاداتها لمكافحة الفيروس. وعلى الرغم من الوقت القصير الذي انقضى منذ انطلاق جائحة COVID-19، هناك بالفعل الكثير من العمل الأكاديمي حول هذا الموضوع، مشيرًا إلى أهمية الاختبار، وخاصة اختبار PCR، بهدف حصر الأشخاص المصابين - سواء كانوا يعانون من أعراض أو بدون أعراض - وتتبع سلاسل العدوى المحتملة لتحديد الأشخاص المصابين الآخرين وحصرهم. وأشارت مراكز الأبحاث المرموقة مثل مراكز السيطرة على الأمراض والوقاية منها (CDC) والمعاهد الصحية الوطنية (NIH) أيضًا إلى نفس الاتجاه.

وعلى الرغم من المنطق العلمي السليم لتوسيع نطاق الاختبار، إلا أن هناك عقبة كبيرة واحدة: تكلفة اختبارات تفاعل البوليميراز المتسلسل (PCR) يبلغ سعر الاختبار الفردي حوالي 150 دولارًا أمريكيًا، ويتفاوت بشكل كبير من بلد إلى آخر، مع أقل سعر يبلغ حوالي 60 دولارًا أمريكيًا وأغلى سعرًا حوالي 400 دولار أمريكي. وبالطبع، يجب مضاعفة هذا السعر الموحد بمئات الآلاف أو حتى الملايين في بعض الحالات، مع إنفاق الموارد بالضرورة في فترة زمنية قصيرة ودون توقع العنصر في الميزانية. ومع ذلك، من وجهة نظر منهجية، يوفر اختبار SARS-CoV-2 أداة مثيرة للاهتمام لتقييم استجابة الحكومة للوباء لثلاثة أسباب على الأقل. أولاً، يعتبر اختبار تفاعل البوليميراز المتسلسل أمرًا ضروريًا لمواجهة جائحة COVID-19 بنجاح من قبل مؤسسات مثل منظمة الصحة العالمية ومركز السيطرة على الأمراض والمعاهد الوطنية للصحة والعديد من الأبحاث الأكاديمية الجادة. ومن ثم، فإن الحكومات لديها أدلة قوية على ضرورة إجراء الاختبار. ومع ذلك، يواجه القطاع العام عقبة تكلفة حملة الاختبار، التي تخلق مقاومة مالية وسياسية لإطلاقها لا يمكن التغلب عليها إلا من قبل الحكومات القادرة والملتزمة بتخصيص هذه المبالغ المالية للاختبار.

وثانيًا، يكون الاختبار كاستراتيجية لإدارة الجائحة بشكل رئيسي، إن لم يكن حصريًا، في أيدي الحكومات. لذلك، من منظور بحثي، يمكن أن تتحمل الحكومات المسؤولية عن تكثيف الاختبارات أو عدم تكثيفها. وكما ذُكر أعلاه، تعتمد المقاييس الأخرى للاستجابة للوباء مثل عدد الأشخاص المصابين أو الأشخاص الذين يموتون بسبب COVID-19 الحاد على عوامل مثل أنماط السلوك الاجتماعي، والظروف الصحية السابقة للسكان، ونظام توفير الصحة العامة، إلخ التي لا تشارك فيها الحكومات فحسب، بل يشارك فيها أيضًا القطاع الخاص والمجتمع ككل. وفي المقابل، الاختبار هو على الأقل استراتيجية تقودها الحكومة في السياقات الأكثر تنوعًا. وثالثًا، عدد الاختبارات لكل 1,000 شخص يمكن مقارنته من بلد إلى آخر. قد يكون الاختلاف الوحيد هو أن بعض البلدان أبلغت، إلى جانب عدد الاختبارات، عن عدد الأشخاص الذين تم اختبارهم، حيث تم اختبار بعض الأشخاص مرتين أو حتى أكثر (في مثل هذه الحالات، تشير الورقة إلى الملاحظتين). مع هذا التحذير، يمكن مقارنة عدد الاختبارات من بلد إلى آخر. وفي المقابل، لا يمكن مقارنة المقاييس المحتملة الأخرى المتعلقة بالوباء بشكل صارم، مثل عدد الأشخاص المصابين، نظرًا لأن منهجيات عد الحالات تختلف بشكل كبير، والتي بدورها تؤثر أيضًا على تقدير معدلات العدوى والوفيات. كما أن حقيقة كون المريض لا تظهر عليه أعراض في كثير من الحالات أو يظهر بأعراض خفيفة يهدد مصداقية الأرقام الخاصة بعدد الحالات. ومع هذه الدقة لوباء COVID-19 واختبار SARS-CoV-2 الذي تم تأسيسه، يبحث القسم التالي في العلاقة بين الأنظمة الديمقراطية والأنوقراطية والتسلطية وتضخيم الاختبارات كاستجابة موصوفة على نطاق واسع لإدارة الوباء الحالي.

الديمقراطيات والتسلطيات واختبارSARS-CoV-2

تتوقع أدبيات الاقتصاد السياسي الكلاسيكي والمعاصر أن تكون الديمقراطيات أكثر فعالية في إدارة الكوارث - بما في ذلك الأوبئة - من الأنظمة التسلطية. وعند تقييم إدارة جائحة COVID-19 من خلال إجراء اختبارات على نطاق واسع، وهي استراتيجية أكثر مما تعتمد بشكل رئيسي في أيدي الحكومات، سواء أكانت ديمقراطية أم لا، ليس هذا هو الحال تمامًا. كما يتضح من الشكل (3) العلاقة بين مستوى الديمقراطية،

يقاس بمؤشر الديمقراطية الليبرالية الخاص بـ V-Dem ، واختبار PCR الذي تم قياسه باختبارات لكل 1000 شخص، وفقًا لتقارير الدول التي تم تجميعها بواسطة عالم البيانات، منحني وليس خطي، كما تتوقع الأدبيات (أي المزيد من الديمقراطية، المزيد من الاختبارات). وهذا يعني أن الارتباط يتم تمثيله بشكل بياني بحرف U أفضل من تمثيله بشرطة مائلة. في المتوسط ، تتزامن الدرجات المنخفضة في مؤشر الديمقراطية الليبرالية مع اختبارات عالية في نسبة مماثلة - أقل بقليل - إلى درجات عالية. وفي المقابل، تميل الأنظمة التي تدور حول منتصف المؤشر إلى إجراء عدد قليل من الاختبارات بشكل منهجي.

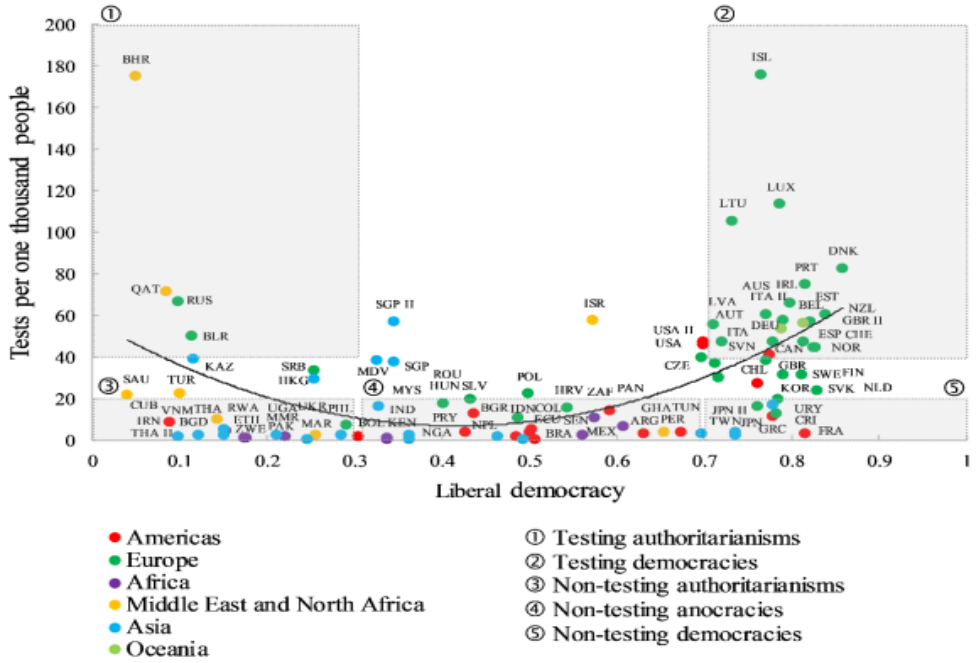

الشكل (3) الديقراطية الليبرالية واختبارات SARS-CoV-2

بعبارات أكثر موضوعية، في ظل الظروف التي سيتم استكشافها أدناه، قد تنتج كل من الأنظمة التسلطية والديمقراطية حوافز للحكومات لتكثيف الاختبار. في المقابل، في غياب كل من التسلطية والديمقراطية، لا يتم إنتاج هذه الحوافز في البلدان التي تقع في منتصف المؤشر ولا يتم تجميع الاختبارات. ولأغراض هذه الورقة، يُفهم الحكومات المختبرة، سواء كانت ديمقراطية أو سلطوية، على أنها تلك التي تطبق 40 اختبار PCR أو أكثر لكل 1000 شخص، والحكومات غير المختبرة هي تلك التي تطبق أقل من 20. وفيما يتعلق بنوع النظام، الأنظمة التسلطية يسجل أقل من 0,3 في مؤشر الديمقراطية الليبرالية، والأنظمة الديمقراطية تسجل أكثر من 0,7، وتعتبر الأنظمة الموجودة في الوسط أنظمة أنوقراطية. وتسمح علاقة شكل U بين الديمقراطية والاختبار بتقسيم 85 دولة إلى خمس فئات مختلفة، مع الأخذ في الاعتبار معيارين، مستوى الاختبار - الذي يتم قياسه من خلال اختبار PCR لكل 1000 شخص - ونوع النظام - الذي يتم قياسه من خلال مؤشر الديمقراطية الليبرالية. أولاً، التسلطيات المختبرة - نادر لكن موجود - مع

مستويات منخفضة من الديمقراطية الليبرالية ومستويات عالية من الاختبار، وكلها دول ريعية. دول منتجة للنفط بشكل أساسي. مثل البحرين وقطر وروسيا. وفي الدول الريعية، يمتلك القطاع العام موارد وفيرة للاختبار - من خلال شركة حكومية أو ضرائب - وحوافز قوية للحفاظ على الاستقرار الاجتماعي والسياسي من خلال منع انتشار وباء كارثي. وثانيًا، الديمقراطيات المختبرة، مع مستويات عالية من الديمقراطية ومستويات عالية من الاختبار، والتي تتوافق مع توقعات الأدبيات القائلة بأن الديمقراطية تحفز المساءلة والاستجابة الحكومية، كأيسلندا ولوكسمبورج والدنمارك. وثالثًا، التسلطيات غير المختبرة، مع مستويات منخفضة من الديمقراطية ومستويات منخفضة من الاختبار، والتي تتوافق أيضًا مع توقعات الأدبيات ولكن باعتبارها الجانب العكسي للعملة، فهذه هي البلدان التي تنتج فيها السمات التسلطية للنظام الحكومات غير خاضعة للمساءلة غير المستجيبة، ككوبا وبنغلاديش وفيتنام. ورابعًا ، الأنوقراطيات غير المختبرة، حيث لا يكون النظام ديمقراطيًا بالكامل ولا تسلطياً بالكامل، والذي على عكس الديمقراطيات والتسلطيات يظهر بشكل شبه منهجي مستويات منخفضة من الاختبار، كالمجر وباراغواي والسلفادور. وأخيرًا، الديمقراطيات غير المختبرة، ذات المستويات العالية من الديمقراطية ومستويات الاختبار المنخفضة بشكل غريب من وجهة نظر الأدبيات الموجودة، ككوستاريكا وأوروغواي ووفرنسا. توضح الأقسام التالية بالتفصيل كل فئة من هذه الفئات الخمس، وتعكس الآليات المحتملة التي يمكن أن تربط نوع النظام بالاختبار، وعلى نطاق أوسع، بالوقاية وإدارة الوباء بشكل عام.

التسلطيات المختبرة

التسلطيات المختبرة: الأنظمة التسلطية والاختبارات العالية، تتعارض مع التوقعات العامة للأدبيات. ومع ذلك، لم تتمكن سوى أربع دول ذات نظام تسلطي من أصل 18 نظامًا تسلطياً من توسيع نطاق الاختبار: البحرين وبيلاروسيا وقطر وروسيا. في المقابل، تمكنت 19 دولة ديمقراطية من فعل الشيء نفسه. يشير هذا العدد المنخفض إلى أنه على الرغم من أن الأنظمة التسلطية يمكن أن تصبح مختبرة في مواجهة جائحة مثل الوباء المستمر، فإن هذا نادر الحدوث. بهذا المعنى، تميل الأدبيات إلى المبالغة في عدم قدرة الأنظمة التسلطية على إدارة الأوبئة، لكنها محقة في الإشارة إلى حقيقة أن هناك تقاربًا محدودًا بين هذا النوع من الأنظمة السياسية وفعالية الحكومة في ظل الكوارث. وبالإضافة إلى العدد المجرد، تشترك البلدان الأربعة في وجود دول ريعية إلى جانب الأنظمة التسلطية. حيث تتميز الدول الريعية بأنها تقع في البلدان التي تتمتع بتوافر مهم للموارد الطبيعية التي يمكن أن تجني منها إيجارات ضخمة، سواء كانت من خلال الشركات الحكومية، أو كانت ضرائب على الشركات الخاصة. ولسنوات، أظهرت الأدبيات أن الدول الريعية تميل إلى أن تكون لها أنظمة تسلطية، حيث يمكن للحكومات تمويل نفسها من خلال مواردها الطبيعية، وليس الضرائب، مما يحول دون المساءلة الديمقراطية، فيما أطلق عليه "لعنة الموارد". فعلى وجه الخصوص، تنتج البحرين وبيلاروسيا وقطر وروسيا الهيدروكربونات وتصدرها على نطاق واسع، وبشكل أكثر تحديدًا النفط، والذي كان يُنظر إليه في الواقع على أنه الدافع الأكثر شيوعًا لـ "اللعنة". ويبدو أن الروابط بين الدول الريعية والإدارة الفعالة للوباء مدفوعة بالمتغيرات الاقتصادية والسياسية. ومن ناحية أخرى، تمتلك الدول الريعية الكثير من الموارد "السهلة" المتاحة، وأكثر من ذلك في سياق تسلطي، مما يتيح تنفيذ

إستراتيجية طموحة لاختبار تفاعل البوليميراز المتسلسل (PCR)، وهو أمر مكلف بشكل خاص. ومن ناحية أخرى، من أجل الحفاظ على عملية استغلال الموارد الطبيعية متواصلة، التي تعتمد عليها هذه الأنظمة، يصبح الاستقرار السياسي الاجتماعي ضرورة، ويمكن أن يهدده COVID-19. بهذا المعنى، يبدو أن تكثيف الاختبارات ليس مجديًا اقتصاديًا لهذه الحكومات فحسب، بل مرغوبًا أيضًا من الناحية السياسية.

الديمقراطيات المختبرة

الديمقراطيات المختبرة: الأنظمة الديمقراطية ذات الاختبارات المكثفة، تتماشى مع توقعات الأدبيات، والتي تفيد بأن الديمقراطيات هي أكثر ملاءمة من التسلطيات لمواجهة المواقف الكارثية. هناك ما يقرب من خمسة أضعاف الديمقراطيات المختبرة مقارنة بالأنظمة التسلطية المختبرة - 19 مقابل 4 -، مما يشير إلى تقارب أقوى بكثير بين الديمقراطية والوقاية من آثار COVID-19 مقارنة بالتسلطية. ومن بين 31 دولة ديمقراطية تم بحثها في العينة، تم اختبار 19 دولة. وتتميز هذه البلدان بحقيقة أن المساءلة الديمقراطية تحفز استجابة الحكومة في مواجهة الكارثة، مما يؤدي إلى ارتفاع عدد اختبارات SARS-CoV-2. ومجموعة الديمقراطيات المختبرة تتكون أساسًا من الدول الأوروبية - وأوروبا الغربية بشكل أساسي - بالإضافة إلى أستراليا وكندا ونيوزيلندا. ومن بين الدول الأوروبية، أكثر الدول التي قامت بإجراء اختبارات ضخمة هي أيسلندا ولوكسمبورغ وليتوانيا والدنمارك والبرتغال، والتي لا تظهر تجمعًا معينًا داخل القارة. وكما يمكن ملاحظته، فهذه كلها دول متقدمة، وبالتالي قد يكون التأثير مدفوعًا، إلى جانب العوامل السياسية، بمستوى عامل التنمية الاقتصادي، والذي سيتم تحليله في القسم التالي، الفرضيات البديلة.

التسلطيات غير المختبرة

التسلطيات غير المختبرة: الأنظمة التسلطية التي لم تقم بتكثيف التجارب، تتماشى مع توقعات الأدبيات التي تفيد بأن الأنظمة غير الخاضعة للمساءلة والقوة لا تكون فعالة عند التعامل مع الأوبئة والمجاعات والمواقف المماثلة، على الرغم من أنه من وجهة نظر مختلفة، يمكن أن يؤدي النهج المناهض للديمقراطية والحريات إلى أداء أفضل من أداء الديمقراطيات. في المتوسط، لا تميل الأنظمة التسلطية إلى الاختبار: فبينما تمكنت أربعة أنظمة تسلطية فقط من توسيع نطاق الاختبار، كانت 14 من الأنظمة غير فعالة بشكل ملحوظ فيما يتعلق بالاختبار. وتقع هذه البلدان الـ 14 في جنوب شرق آسيا - بنغلاديش وميانمار وتايلاند - والشرق الأوسط - إيران وباكستان - وأفريقيا -إثيوبيا والمغرب ورواندا - وواحد منها في أمريكا اللاتينية، كوبا. وكما في الحالة السابقة، يبدو أن هناك علاقة مباشرة بين الاختبار ومستوى التطور، معبرًا عنه في حقيقة أن هذه البلدان تتطور في جميع المجالات، بالإضافة إلى ارتباطها بمستويات منخفضة من الديمقراطية.

الأنوقراطيات غير المختبرة

الأنظمة الأنوقراطية هي الأنظمة التي ليست ديمقراطية بالكامل ولا تسلطية الكامل، عادة غير فعالة في إجراء الاختبار: 76٪ من الأنوقراطيات قيد التحليل لم تختبر. إن الأدبيات المتعلقة بالأنظمة السياسية وإدارة الكوارث ليس لديها توقعات واضحة للأنوقراطيات. ومع ذلك، من حيث المبدأ، نظرًا لأنها ليست ديمقراطيات ولا أنظمة تسلطية، يمكن توقع استجابة متوسطة الحجم. ومع ذلك، بالنظر إلى البيانات، فإن نظرتها قاتمة للغاية: الاختبار، في المتوسط، أسوأ من الأنظمة التسلطية. من الناحية الجوهرية، في حين

أن كل من الديمقراطيات والتسلطيات قادرة على إنتاج حوافز لتكثيف الاختبار كإستراتيجية للوقاية من الأمراض، تبدو الأنظمة الأنوقراطية غير قادرة على إنتاج مثل هذه الحوافز. وعلى ما يبدو، في حين أن بعض الأنظمة التسلطية تختبر على نطاق واسع لأنها تمتلك موارد مشتقة من السلع ويتم حثها على الإشراف على الاستقرار السياسي، وبينما تختبر العديد من الديمقراطيات بشكل كبير بسبب ارتباط المساءلة الذي يربطها بمواطنيها، تفشل الأنظمة الأنوقراطية في الاختبار على نطاق واسع لأنها تفتقر إلى السابق و الأخير. والأنوقراطيات غير المختبرة موجودة في أمريكا اللاتينية - السلفادور وباراغواي وبيرو وبنما والمكسيك - وجنوب شرق وشرق آسيا - تايوان ونيبال وماليزيا وإندونيسيا - وفي جميع أنحاء إفريقيا - جنوب إفريقيا وتونس والسنغال ونيجيريا وكينيا وغانا - وأوروبا الشرقية - المجر وكرواتيا وبلغاريا. وهذه الديمقراطيات غير المكتملة أو الأنظمة التسلطية الضعيفة موجودة فقط في العالم النامي. وبهذا المعنى، فإن الأنظمة الأنوقراطية غير المختبرة تشبه الأنظمة التسلطية غير المختبرة في مستوى الاختبار ومستوى التطور، مع الاختلاف في أن النظام في الأنوقراطيات ليس سلطويًا بالكامل، لكن الحكومات تبدو غير مستجيبة بالقدر نفسه للوباء.

الديمقراطيات غير المختبرة

الديمقراطيات غير المختبرة: الأنظمة الديمقراطية التي لا تكثف فيها الحكومات الاختبار، تتعارض مع تنبؤات الأدبيات بطريقة مماثلة للتسلطيات المختبرة - فالأولى يجب أن تضخم الاختبار ولا تفعل، والأخيرة يجب ألا تكثف الاختبار وتفعل. بالتفكير في هاتين المجموعتين، تتبادر إلى الذهن بضع تأملات. فمن ناحية، لا تكفي المساءلة الديمقراطية لإجراء الاختبار، وهو ما يعبر عن حقيقة أن الديمقراطيات لا تقوم دائمًا بتضخيم الاختبار، مما يؤدي إلى إنشاء مجموعة من الديمقراطيات غير المختبرة. ومن ناحية أخرى، يمكن أن يحدث الاختبار في الأنظمة التسلطية، مما يعني أن الديمقراطية ليست شرطًا ضروريًا للاختبار. ويشير العدد المنخفض للديمقراطيات غير المختبرة إلى الارتباط المنخفض بين الأنظمة الديمقراطية وعدم الاختبار. فمن بين 85 دولة تم بحثها في العينة، والتي تشمل إجمالي 26 دولة ديمقراطية، هناك 7 دول فقط لا تخضع للاختبار: كوستاريكا وفرنسا واليونان واليابان وكوريا الجنوبية وهولندا وأوروغواي. ومن المثير للاهتمام، أن الفرضيات البديلة لمستوى التنمية وفعالية الحكومة لا تبدو تفسيرية في هذه الحالة، لا سيما بالنظر إلى وجود دول متقدمة للغاية مثل فرنسا واليابان وكوريا الجنوبية وهولندا، ولكن أيضًا إلى حد ما كوستاريكا واليونان وأوروغواي. وهناك احتمال آخر للمستوى المنخفض من الاختبار، على الرغم من حقيقة كونها أنظمة ديمقراطية، يمكن أن تكون بمستوى منخفض من المخاطر، ولكن هذا ليس هو الحال بالضرورة، مع الأخذ في الاعتبار قربها من بعض بؤر الوباء: اليابان وكوريا الجنوبية الصين؛ كفرنسا واليونان إلى إيطاليا (ومن فرنسا إلى إسبانيا)؛ وأوروغواي إلى البرازيل. فباختصار، فإن الموقف الحالي للأدبيات حول العلاقة بين نوع النظام وإدارة الكوارث لا يفسر بشكل كامل الأنماط التي يعرضها اختبار-PCR SARS-CoV 2. فبينما تتوقع الأدبيات أنه كلما كان بلد ما أكثر ديمقراطية، زادت فعالية الدولة في مواجهة الوباء، تظهر بيانات الاختبار أن العلاقة منحنية: كل من الأنظمة التسلطية والديمقراطيات قادرة على تحجيم الاختبار - على الرغم من أن الديمقراطيات تميل إلى القيام بذلك أكثر -، بينما تكافح الأنظمة الأنوقراطية للقيام

بذلك. وبهذا المعنى، لا يقتصر الأمر على الديمقراطيات المختبرة والتسلطيات غير المختبرة كما تشير الأدبيات، ولكن هناك أيضًا التسلطيات المختبرة -عدد محدود لكن موجود - والديمقراطيات غير المختبرة، والأنوقراطيات التي عادة ما تكون غير مختبرة. ومع ذلك، لا يمكن توقع العوامل السياسية لحساب التباين الكامل في الاختبار. ومن المفترض أن العوامل البنيوية مثل مستوى التنمية والقدرة المؤسسية للدولة من المرجح أن يكون لها دور. بالإضافة إلى ذلك، يمكن أن يكون لعوامل الوباء بالمعنى الدقيق للكلمة تأثير، على سبيل المثال التاريخ الذي تم فيه تسجيل أول حالة COVID-19. ويستكشف القسم التالي التأثير المحتمل لهذه الفرضيات البديلة، وإن لم تكن متعارضة.

الفرضيات البديلة

إلى جانب السمات السياسية، يمكن افتراض العديد من الجوانب الأخرى للتأثير على اختبار SARS-CoV-2. بادئ ذي بدء، يمكن الاعتقاد بأن البلدان الأكثر ثراءً تختبر على نطاق أوسع من البلدان الفقيرة، لا سيما بالنظر إلى السعر المرتفع لكل اختبار (+/- 150 دولارًا أمريكيًا) وأن زيادة حجم الاختبار يعني ضرب هذا السعر لمئات الآلاف أو حتى الملايين. وهذه هي الحالة: هناك علاقة خطية قوية بين اختبارات الناتج المحلي الإجمالي للفرد وCOVID-19 (الشكل 4). ومن بين الحالات النموذجية - تلك الأقرب إلى خط الانحدار - مع تطور عالٍ وضخامة كبيرة للاختبار هي سنغافورة وأيرلندا وألمانيا. وهناك أيضًا دولتان تفوقتا بشكل رائع في الاختبار فيما يتعلق بمستوى تنميتهما، البحرين وأيسلندا: يبلغ نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي حوالي 40 ألف دولار - وهي نسبة غير مرتفعة نسبيًا - وأجريا حوالي 180 اختبارًا لكل 1000 شخص. وفي المقابل، قطر التي يبلغ إجمالي الناتج المحلي فيها 140 ألف دولار، قامت فقط بتكثيف الاختبارات إلى حد معين، مع حوالي 70 اختبارًا لكل ألف شخص.

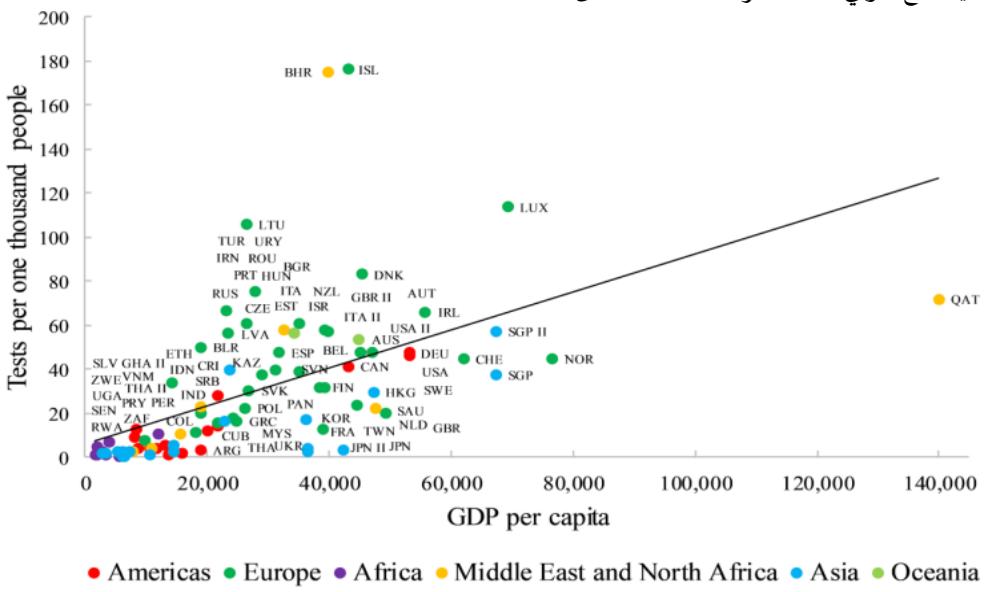

الشكل (4) الناتج المحلي الاجمالي واختبارات SARS-CoV-2

فرضية بديلة أخرى هي فعالية الحكومة: نظرًا لأن إجراء اختبار SARS- CoV-2 يعتمد بشكل خاص أو حصري على يد الحكومات، يجب على الحكومات الأكثر فاعلية إجراء المزيد من الاختبارات. وهناك علاقة بين الفعالية الحكومية والاختبارات، ولكنها ليست علاقة خطية كما يعتقد (الشكل 5). العلاقة أسية، والتي يتم التعبير عنها بيانياً في منحنى مسطح بشكل أساسي في البداية ويزيد الميل تدريجياً بينما تزيد القيمة في X . وجوهريًا، هذا يعني أن الاختبار لا يزداد عمومًا مع زيادة فعالية الحكومة، ولكن هذا يحدث فقط عندما تكون الفعالية عالية، كحالة أيسلندا ولوكسمبورغ والدنمارك وألمانيا والولايات المتحدة. والاستثناء الأكثر وضوحًا لهذه "القاعدة" هو البحرين، التي لديها حكومة غير فعالة بشكل أساسي ولكنها تمكنت من زيادة الاختبارات. وبشكل عام، وجود مستوى منخفض أو متوسط من قدرة الدولة - مستوى ليس عاليًا - هو في الأساس غير ذي صلة بالاختبار، على الرغم من أن الفعالية العالية لا تضمن إجراء اختبارات مكثفة. وبلغة الضرورة والكفاية، تبدو الفعالية الحكومية العالية شرطًا ضروريًا للاختبار (أي، لا توجد فعالية عالية، لا يوجد اختبار شامل)، على الرغم من أنها ليست كافية (أي أن بعض البلدان لديها فعالية حكومية عالية واختبار منخفض، مثل هولندا والسويد وهونغ كونغ وفنلندا واليابان).

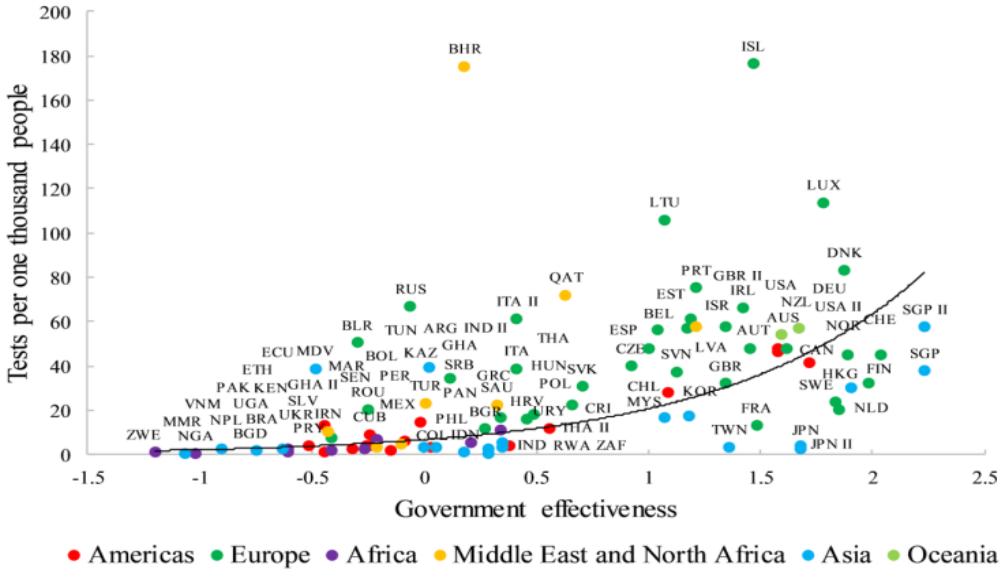

الشكل (5) فاعلية الحكومات واختبارات SARS-CoV-2

إلى جانب نوع النظام، والتنمية، والقدرة المؤسسية، هناك ميزة للصحة العامة يمكن توقع تأثيرها على حجم الاختبار: التاريخ الذي تم فيه اكتشاف الحالة الأولى في بلد ما. ويمكن للمرء أن يتوقع بشكل معقول أنه كلما تم تشخيص حالة الدولة الأولى في وقت مبكر، زاد عدد الاختبارات التي يمكن وينبغي أن تجريها هذه الدولة لكل 1000 شخص، نظرًا لانقضاء المزيد من الوقت. والمثير للدهشة أن الأمر ليس كذلك (الشكل 6). في الواقع، تمكنت بعض البلدان التي كانت لديها أول حالة إصابة بها مؤخرًا من إجراء اختبارات أكثر من الدول المبكرة. والحالات الأكثر تطرفاً هي، من جهة، تلك التي كانت لديها أول حالة لها في كانون الثاني وأجرت

أقل من 20 اختبارًا لكل 1000 شخص، كتايلاند واليابان وكوريا وتايوان وفرنسا، وعلى الطرف الآخر، تلك التي شخصت حالتهم الأولى في أواخر فبراير أو أوائل مارس وأجروا أكثر من 80 اختبارًا لكل 1000 شخص، كأيسلندا والبحرين ولوكسمبورغ وليتوانيا والدنمارك. ووفقًا للتحليلات المقدمة أعلاه، فإن البنى الاقتصادية والمؤسسية لها تأثير واضح في تضخيم اختبارSARS-CoV-2 . ومع ذلك، فإن تأثيرها مختلف. في حين أن التنمية لها تأثير خطي (أي مزيد من التنمية، والمزيد من الاختبارات)، فإن الفعالية الحكومية لها تأثير أسي (أي فقط عندما يكون هناك مستوى عالٍ من الفعالية، وأكثر فعالية، والمزيد من الاختبارات).

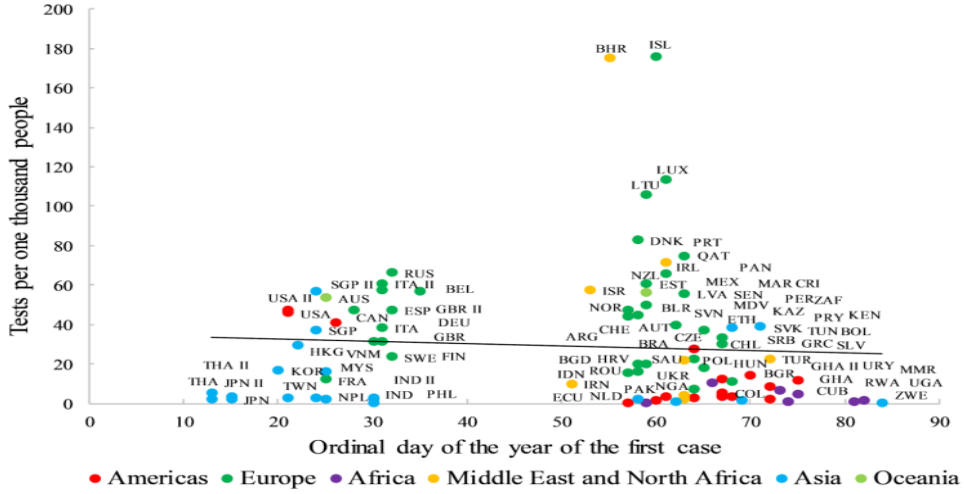

الشكل (6) فاعلية الحكومات واختبارات SARS-CoV-2

من النتائج المدهشة في هذا الصدد الأثر الصفري لعامل وبائي بالمعنى الدقيق للكلمة على الاختبار، مثل التاريخ الذي بدأ فيه الوباء في بلد معين. إن قضاء المزيد من الأيام مع الوباء، وبالتالي امتلاك المزيد من الوقت لإعداد البنية التحتية والمعدات للاختبار وتشغيل الاختبارات فعليًا، لا علاقة له بعدد الاختبارات التي تم إجراؤها. وبهذا المعنى، وعلى عكس ما هو متوقع، فإن العوامل الصحية لها علاقة أقل بكثير باستراتيجية الاختبار من العوامل السياسية والاقتصادية والمؤسسية.

استنتاج

لقد تم بحث السؤال عن فعالية الأنظمة السياسية المختلفة في مواجهة المواقف الكارثية، كالكوارث الطبيعية والأوبئة، لمرات عدة. وتقاربت الأدبيات في وجهة نظر متفائلة تمامًا بأن تعميق المساءلة الديمقراطية يخلق حوافز للحكومات للاستجابة بشكل أفضل للمجاعات - أكثر أنواع الكوارث المبحوثة - وبالتالي، حالات أخرى مماثلة. وتقييم مثل هذا الاقتراح باستخدام أدلة من جائحة COVID-19 الجارية وتقريب الاستجابة الحكومية باختبار SARS-CoV-2، وهي استراتيجية حاسمة لاحتواء الوباء، والتي تقع بشكل أساسي في أيدي الحكومات، ويمكن مقارنتها من بلد إلى آخر، لا يبدو من خلاله الحال كذلك. فليس هناك فقط الديمقراطيات المختبرة والتسلطيات غير المختبرة، كما تتوقع الأدبيات، ولكن أيضًا الديمقراطيات غير المختبرة والتسلطيات المختبرة، إلى جانب الأنوقراطيات، التي كانت في الأساس غير قادرة

على توسيع نطاق الاختبار. وهذه النتائج لها آثار على فهمنا للديمقراطيات والتسلطيات عندما نواجه الحاجة إلى منع انتشار جائحة عالمية مثل الوباء الذي يمر به العالم. أولاً، المساءلة الديمقراطية ليست كافية لوجود حكومة تبذل الجهود لمنع انتشار الوباء. وعلى الرغم من أن فرص وجود استراتيجيات اختبار أكبر مما هي عليه في الأنظمة التسلطية - وهو ما يمكن رؤيته في حقيقة أن هناك العديد من الديمقراطيات المختبرة أكثر من التسلطيات المختبرة وحتى التحكم بالعدد المطلق لكليهما - فإن الديمقراطيات ليست بالضرورة ناجحة في توسيع نطاق الاختبار، كما يمكن رؤيته في حالة الديمقراطيات غير المختبرة. وثانيًا، قد تخلق الأنظمة التسلطية ظروفًا لاختبار SARS-CoV-2 والإدارة الفعالة للوباء. ومع ذلك، فقد حدث هذا بشكل حصري في الدول الريعية، حيث يمتلك القطاع العام الكثير من الموارد المتاحة، والمشتقة من الموارد الطبيعية - وخاصة النفط - والتي يمكن استخدامها للاختبار. بالإضافة إلى ذلك، لدى القيادة السياسية حوافز قوية لعرقلة أي نوع من الاضطرابات السياسية والاجتماعية التي قد تنشأ نتيجة للوباء، وبالتالي تطلق حملات اختبار طموحة. لذلك، لا يُتوقع من أي تسلطية أن تكون قادرة على تضخيم الاختبار، ولكن فقط أولئك الذين لديهم هذه الميزة المحددة للغاية. وفي المقابل، في حالة الأنوقراطيات، هناك ارتباط قوي بمستويات منخفضة من الاختبار. وباختصار، في حين أن الديمقراطيات والتسلطيات قد وسعت الاختبارات في ظل ظروف معينة، فإن الأنظمة الأنوقراطية لم تفعل ذلك، بغض النظر عن السياق. وثالثًا، إلى جانب العوامل السياسية المذكورة، تلعب العناصر البنيوية أيضًا دورًا كبيرًا في زيادة حجم الاختبار. فمن ناحية، كلما كان البلد أكثر تطوراً، زاد عدد الاختبارات التي يتم إجراؤها في المتوسط. ويبدو هذا معقولًا بمجرد النظر في سعر الاختبار، حيث يبلغ سعر كل اختبار حوالي 150 دولارًا أمريكيًا. ومن ناحية أخرى، يبدو أن الضخامة الحقيقية للاختبار لا يمكن الوصول إليها إلا في تلك البلدان ذات الدول القوية والفعالة، ومع القدرة المؤسسية على التنفيذ تحت ضغط مثل هذه الاستراتيجية واسعة النطاق وطويلة الأمد. وفي هذا الصدد، يبدو أن هناك مساحة محدودة للغاية لمجرد الرغبة السياسية من بلد ما لتنفيذ اختبارات واسعة النطاق، بسبب هذه القيود الاقتصادية والمؤسسية. فالكلمة أخيرة بشأن العوامل الوبائية والاختبارات بالمعنى الدقيق للكلمة، المثير للدهشة، أنه حتى عندما يبدو الأمر وكأنه تناقض، فإن الوباء بحد ذاته ليس له علاقة تذكر بالاستجابة الاختبارية التي قد تتعهد بها الحكومة لمنع هذا الوباء من أن يكون له تأثير كارثي: فكلما كانت الحالة الأولى لدولة ما لا تؤدي إلى زيادة عدد الاختبارات التي تم إجراؤها. لذا، لكي تكون أكثر فاعلية فيما يتعلق بالاختبار في الاستجابة للوباء، فإنه ليس مهمًا بشكل أساسي متى أصبت بالوباء، العوامل الحاسمة هي سياسية واقتصادية ومؤسسية، وهي في الواقع بعيدة تمامًا عن الوباء - نوع النظام والتنمية والقدرة المؤسسية - والتي تؤكد على أهمية مناهج العلوم الاجتماعية لفهم الجائحة، والاستجابات، والتأثيرات.

مقاومة الإلزامات الصحية على مستوى الجماعة أثناء الجائحة الكورونية

مقاربة وفق التفكير الجمعي

دونيلسون فورسيث [1]

ترجمة علي عبد الرحيم صالح

تعد التدخلات الصحية العامة مثل التطعيم الإجباري أو الحجر الصحي أثناء الوباء ضرورية للحد من انتشار الأمراض المعدية ، ولكن في حالات كثيرة ، نرى أن هناك جماعات معينة تقاوم هذه المبادرات؛ فعلى سبيل المثال ، نجد أن أثناء جائحة فايروس كورونا COVID-19 في العام 2020 ، احتجت الجماعات المحجورة صحيا على الوصايا المتعلقة بالمسافة الاجتماعية والبقاء في المنزل، مدعية أن هذه التوجيهات انتهكت حقهم في التجمع والسفر والعمل. لقد قمنا بفحص التحليلات الوصفية الإعلامية الموجودة حاليا لدى الجماعات التي تعارض الحجر الصحي من أجل تحديد فيما إذ كانت هذه الجماعات ستستجيب بشكل مختلف الى التحذيرات القانونية والطبية حول التدخلات الصحية الناتجة عن تفكيرها الجمعي: التي قد تظهر كاستجابات ناتجة عن التدهور في الحكم أو استجابات عقلانية وهو ما يحدث أحيانًا في الجماعات. ودعماً لهذا الاحتمال ، أشارت التقارير (التصريحات) لهذه الجماعات إلى أن (أ) الظروف هي التي تسبب التفكير الجمعي، بما في ذلك المستويات العالية من التماسك والعزلة، وهي كانت موجودة ونشطة داخل هذه المجموعات. (ب) تظهر الجماعات العديد من أعراض التفكير الجمعي symptoms of groupthink ، التي قد تتضمن أوهام الجماعةgroup illusions والضغوط نحو الامتثالpressures to conform. ونظرًا لوجود هذه الجماعات معا لعدة قرون - فأنه نتج عنه تدخلات صحية عامة تعارض ردود الفعل التي تناهض التنظيم الحكومي – ولا يوجد أي قدر من التخطيط قد يكون كافيا لمنع مثل هذه الجماعات. ومع ذلك ، فإن المنهج القائم على نظرية التفكير الجمعي يقترح أن التدخلات على مستوى الجماعة التي تتناول العمليات (المعرفية-الاجتماعية) التي تسبب التفكير الجمعي بشكل مباشر ، مثل العزلة والضغط نحو الامتثال والتماسك ، يمكن أن تقلل من تأثير هذه الجماعات على أعضائها والمجتمع.

[1] Forsyth, D. R. (2020) Group-Level Resistance to Health Mandates During the COVID-19 Pandemic: A Groupthink Approach. *Group Dynamics: Theory, Research, and Practice*, , V.24, N.3, 139–152.

أعلنت منظمة الصحة العالمية في يوم 11 مارس 2020 أن فيروس المتلازمة التنفسية الحادة respiratory syndrome coronavirus كورونا COVID-19 أصبح وباءً. وعندما تحول إلى مرض خبيث بدرجة كبيرة ، استجابة الجماعات العالمية الى نداء السيطرة على التهديد، وطورت الفرق الطبية استراتيجيات علاجية جديدة. وحثت السلطات المدنية الناس على الحد من انتشار المرض من خلال التدخلات غير الدوائية بواسطة تطهير الأسطح والحجر الصحي والتباعد الاجتماعي. وجمعت العائلات والأسر الموارد اللازمة للبقاء على قيد الحياة أثناء الحجر الصحي الذاتي self-quarantining، كذلك شكل الباحثون فرقًا تعاونية أثناء بحثهم عن علاج أو لقاح محتمل. ورغم ذلك ، لم تستجب جميع الجماعات إلى أزمة كورونا COVID-19 بطرق يمكن اعتبارها سلوكيات معقولة أو داعمة أو فاعلة، إذ استعملت بعض الجماعات - التي لا تثق بالسلطات الطبية والأساليب التقليدية للعلاج - وسائل التواصل الاجتماعي في نشر معلومات كاذبة حول مصدر المرض ومدى فاعلية ممارسات السلامة الموصى بها، وقامت بعض الأسر بتخزين كميات كبيرة من السلع الأساسية، بما في ذلك المطهرات وورق المرحاض، نتيجة خوفهم من استمرار آثار المرض على وفرة الخدمات والإنتاج للمدى الطويل. ووجدنا أيضا أن بعض الجماعات الدينية أصرت على إقامة الشعائر الدينية ، بل حتى اتخذت خطوات من أجل تقليل اكتشاف (السلطات المحلية) انتهاكها للقيود التي فرضها القانون. وذهبت جماعات أخرى مكونة من الأصدقاء وأفراد الأسرة في الجلوس على شكل مجموعات محدودة في المطاعم والشواطئ العامة والحدائق العامة. وأثناء هذه الفترة أخذ المحتجون المناهضون للحجر الصحي في النزول إلى الشوارع من أجل الشكوى اتجاه الوصايا الصحية التي انتهكت حقهم في التجمع والسفر والعمل. يبدو أن تفسير الممثل الكوميدي جورج كارلين كان كافٍ لشرح سلوكيات وديناميات هذه الجماعات المحيرة: "لا تقلل أبدًا من تقدير قوة الناس الحمقى في الجماعات كبيرة Never underestimate the power of stupid people in large groups" (كما ورد في Kurtzman,2019).

ومع ذلك ، فإن رد الفعل هذا ليس أكثر من ميل الأفراد إلى البحث عن الأسباب التي تحرك شخصيات الناس ومزاجهم وعقولهم وعجزهم بدلاً من البحث عن القوى الخارجية والاجتماعية التي تجبرهم على ذلك: وهو ما يطلق عليه بخطا العزو الأساسي fundamental attribution error (Ross ، 1977). قد يتسم الأفراد في الجماعات التي تعارض الجهود المبذولة للحد من فايروس كورونا COVID- 19 بأسلوب شخصي فريد يميل إلى التمرد ، والمحافظة ، والجهل ، أو قلة التعليم ، والانغماس الذاتي (اشباع الرغبات) أكثر من الآخرين - ولكن يجب أن نأخذ في الاعتبار احتمالًا آخر: أن سلوكهم غير العقلاني البادي لنا يمكن أن يكون ناتج عن الميل الإنساني إلى العيش في جماعات والسماح لتلك الجماعات أن تحدد كيف يتصرفون.

سلوك الجماعة غير المألوف

لا يستجيب أعضاء الجماعة دائما بشكل إيجابي عندما يحاولون بحسن نية حماية أنفسهم من الأذى. إذ أن أثناء جائحة الإنفلونزا flu pandemic عام 1918 ، عارضت مجموعة كبيرة غير متوقعة من المواطنين الذين يعيشون في سان فرانسيسكو توصيات الصليب الأحمر بارتداء أقنعة الوجه face coverings في الأماكن العامة للحد من انتشار الإنفلونزا. وأطلقوا على أنفسهم اسم رابطة مكافحة الأقنعة Anti-Mask واحتجوا علنًا على شروط المدينة في احتجاجات حية وكبيرة (Iezzoni,1999). كذلك اجتمع في عام 2009

مجموعة من السائقين الذين يعيشون في نيو هامبشاير (التي تحمل شعار الولاية "عش حرًا أو مت") في محاولة لأحباط محاولة الهيئة التشريعية لإقرار قانون يتطلب استخدام أحزمة الأمان عند تشغيل السيارة (Levitz, 2009). كذلك أن في كل مرة ينجح الباحثين الطبيين في تطوير لقاح ضد مرض ما، مثل شلل الأطفال والجدري والحصبة ، نجد أن هناك مجموعة كبيرة من الأفراد ترفض تلقي التطعيمات. فعلى سبيل المثال نرى أنه في عام 1879، شكل المواطنين القلقين جمعية مكافحة التطعيم الأمريكية، حارب أعضاؤها السلطات الصحية لسنوات في ضوء استعمال المناورات التشريعية والدعاوى القضائية بهدف مقاومة التطعيمات الإلزامية ضد الجدري smallpox (Morens & Fauci, 2007).

هذه المقاومة اتجاه التدخلات ظهرت ضمن الاغراض الاجتماعية- من اجل مساعدة الناس على التعامل مع التهديدات التي تواجه صحتهم ورفاهيهم - فحدث أيضا في عام 2020 عندما فرضت العديد من الولايات الأمريكية تدخلات غير دوائية (سلوكيات صحية) للحد من انتشار كورونا COVID-19. إذ أن بعض الجماعات امتثلت إلى هذه التدخلات إلا أن الجماعات الأخرى التي كانت تقاوم الحجر الصحي تشكلت على مجاميع في أنحاء البلاد من أجل الاحتجاج على هذه القيود. على سبيل المثال، تجمع الآلاف في عاصمة الولاية ميشيغان للإصرار على تخفيف الاحتياطات المتخذة لحماية صحتهم- بما في ذلك الحفاظ على المسافة الاجتماعية ، وتقييد العمل الذي كان يعتبر غير ضروري ، وحظر السفر إلى أماكنهم الثانية - وزعموا أن هذه القيود تنتهك حقوقهم الأساسية وتتسبب في حدوث ضرر أكبر مما هو نافع لهم. ولم يكتفوا بالتعبير عن استيائهم من خلال الخطاب العام للمؤسسات الرسمية، فقد منع بعض المتظاهرين الناس من الوصول إلى مرافق العلاج الطبي، وضايقوا الممرضات والأطباء، وسخروا من أولئك الذين كانوا يمتثلون إلى الحجر الصحي (على سبيل المثال "Capital Protestors," 2020) كذلك كتبوا عبارات على اللافتات في الاحتجاجات المناهضة للصحة العامة - " أن جميع الوظائف ضرورية "،" كوفيد كذبة "،" أنه فيروسي؛ هو اختياري ، " مولوا العلوم" ، "أن التباعد الاجتماعي هو الشيوعية" ، "اعزلوا المرضى وليس الأصحاء" ، و"نحن لن نكون مكممين بالأقنعة ؛ قل لا للأقنعة الأجبارية ، "وما إلى ذلك - اعتقد أن حاملي العلامات اعتنقوا مجموعة فريدة من المعتقدات (Emery,Percy, & Rasmussen, 2020; Hayda, 2020; Jansen,2020).

بما أن هذه الجماعات تصرفت بطرائق غير معتادة ، فأنه من المحتمل أنها تعاني من ديناميكيات جماعية غير عادية unusual group dynamics. وهذا يمكننا من تفسير تصرفات هذه الجماعات وفقا لآراء علماء نفس الحشود مثل لوبون (1960/1895) ، أنها تحدث بفعل "عقلية الغوغاءmob mentality": وذلك وفقا لفكرة أن الناس يمكن أن يفقدوا فرديتهم عندما ينضمون إلى أشخاص آخرين لهم نفس الطريقة في التفكير (ذات العقلية). كذلك تميل معتقداتهم وأفعالهم وعواطفهم إلى التقارب، والتشدد ، بحيث يبدو أنهم يستجيبون كفرد واحد. نتيجة لذلك ، غالبًا ما يتم التلاعب بهذه الجماعات من قبل القادة المهرة، لأن عقل الجماعة ليس ذكيا أو مراعيا مثل عقول الأعضاء كافراد. وتفسر حركة الديناميكيات النفسية بوصف تصرفات هذه الجماعات بمثابة مظاهر للقلق اللاشعوري unconscious anxieties لدى الأعضاء. إذ قد لا يعبر الأعضاء عن احتياجاتهم بشكل علني وواضح، ولكن على المستوى اللاوعي، يكونون خائفين

ومربكين، لذلك يثورون من خلال تحدي الأشكال التقليدية للسلطة، ويسعون للحصول على موافقة أولئك الذين يأملون في التخفيف عن قلقهم الوجودي (Freud, 1922).

على النقيض من ذلك، قد تأخذ نظريات التقارب Convergence theories بعين الاعتبار أنواع الأشخاص الذين ينضمون إلى هذه الأنواع من الجماعات، لأن مثل هذه التجمعات تجذب الأشخاص الذين لديهم احتياجات ورغبات ودوافع وعواطف متوافقة (متطابقة). على سبيل المثال ، أشارت دراسة مسحية أن الأفراد الذين أفادوا عن مشاركتهم في جماعات سياسية راديكالية في الولايات المتحدة إلى أن "كل فرد تقريبا كان لديه الاحساس بالإيذاء المجتمعي ،الذي يظهر كشعور عميق بأنهم أعضاء في مجتمعات حيث يكونون مستهدفين وضحايا" (Snair, Nicholson, & Gimmaria, 2017, p. 15). وعلى الرغم من أننا نجد أن المتظاهرين تصرفوا بشكل غير عادي، فأنهم يتشابهون في نواحي كثيرة نوع شائع جدا من الجماعة: التي ترتكب الأخطاء. في حين أن من خلال مشاركة اعضاء الجماعة للمعلومات وتقويمها، ومناقشة التفسيرات، واتباع الإجراءات المحددة زمنياً عند اتخاذ القرارات، فأنها غالبا ما تظهر كجماعات عقلانية وحكيمة .(Larson, 2010; Laughlin, Bonner, & Miner, 2002) إلا أنه في بعض الحالات تخطأ الجماعات في أحكامها ليس لأن الأعضاء يتجاهلون المعلومات أو يكونون غير مبالين بها ، ولكن لأن العمليات التي تحدث في المستوى الجماعي تمنع الأعضاء من تقييم المعلومات بدقة، وتحديد الأخطاء، فلا يستطيعون النظر في البدائل الأفضل (Bang & Frith, 2017; P. E. Jones & Roelofsma, 2000)، فالجماعات التي تستجيب بشكل صحيح في ظل الظروف العادية مثل "هل من الجيد إغلاق بوابة مركز علاج الصدمات أثناء الجائحة؟" ، "هل يجب أن نتجاهل نصيحة الخبراء الطبيين الذين يعرفون المزيد عن هذا المرض القاتل مقايسة بنا؟ "،" أيهما أكثر أهمية: الحياة البشرية أم المكسب الاقتصادي؟ "، و" هل ارتداء قناع الوجه في الأماكن العامة يهدد حريتي؟ " إلا أن هذه الجماعات تبتعد عن العقلانية عندما تتطابق عمليات التفكير مع مستوى الجماعة. هذه العوامل يمكن أن تشمل مشكلات شائعة مثل الاعتماد المفرط على ما يشتركون به والسعي نحو الإجماع السابق لأوانه، وهذا ما يجعل مسألة أتخاذ الجماعات التي تتخذ خيارات غريبة وغير حكيمة تتطلب تفسيرا خاصا لها.

نظرية جانييس

تقدم نظرية جانيس (1972 ، 1982) حول التفكير الجمعي أحد هذه التفسيرات، وذلك باستعمال طرائق الأرشفة archival methods ، إذ تحدد هذه النظرية الخصائص المشتركة في ضوء عمليات مستوى الجماعة والظروف الموقفية للجماعات التي ترتكب الأخطاءblundered والجماعات التي تتجنب الكارثةcatastrophe. وقادت تحليلات جانيس إلى استنتاج أن الجماعات التي ترتكب أخطاء جسيمة تظهر صفات مشتركة، وأن هذه الصفات تؤدي إلى التفكير الجمعي: الذي هو أسلوب مشوه في التفكير يجعل أعضاء الجماعة غير قادرين على اتخاذ القرار العقلاني.

لقد كانت الحالات التي استخدمها جانيس في تطوير النظرية فريدة من نوعها، ولم يتم توثيق العمليات التي حدثت داخل هذه الجماعات بشكل موضوعي، وكان من الصعب أيضا اختبار النظرية تجريبيا نظرا لعدد البنى النظرية متعددة الأوجه والمستويات التي حددها جانيس. ومع ذلك، فأن هذه

النظرية في التفكير الجمعي وفرت وصفا قويا للمتغيرات الموقفية الرئيسة ومستوى الجماعة التي قد تتفاعل معا في التأثير على جودة عمليات صنع القرار في الجماعات. وقد تم تطبيق هذه التأثيرات مع بعض النجاح على مجموعة متنوعة من الجماعات، بما في ذلك صناع القرار السياسي (Eder, 2019) ، والوكالات الإدارية الفيدرالية(Norwood, Schriner, & Wah, 2020) ، والتربويين (Henriques, 2020) ، والاستراتيجيين العسكريون (Ahlstrom & Wang, 2009)، ومقدمي الرعاية الصحية (Annas & Annas, 2020،)، ومحترفو الأعمال (O'Connor,2003). وعندما قام جانيس وزملاؤه ، على سبيل المثال ، بتوسيع الحالات إلى 19 مجموعة تقع على مسؤوليتها أتخاذ القرار ، وجدوا مرة أخرى أن العمليات الموقفية والجماعية المحددة في النظرية تنبأت بجودة قرارات هذه المجموعات (Herek ،Janis &Huth 1987).

الجماعات التي ترتكب أخطاء

تقدم نظرية جانيس (1982) في التفكير الجمعي نظرة ثاقبة حول مجموعات غامضة للغاية - تلك التي تتخذ قرارات مؤسفة - ولكن هل تقدم نظرية جانيس تفسيرا عن تصرفات أعضاء مثل هذه الجماعات كأعضاء رابطة مكافحة الأقنعة والمحتجين على الحجر الصحي لوباء كورونا COVID-19؟ أولاً، هذه الجماعات أكثر انتشارا من تلك التي حددها جانيس بوصفها تنزع إلى التفكير الجمعي ؛ وهم شبكات من الأفراد المرتبطين معا (بمجموعة من الأهداف والافكار) بدلا من الجماعات الصغيرة التي تتعاون وتتواجه وجها لوجه في مشكلة أو قضية معينة. وثانيًا، إن الجماعات التي اختبرها جانيس تقوم بافعال خاطئة: فهم اتخذوا قرارات خاطئة بشكل مؤكد في وقت سابق. ومن المحتمل أن يأخذ المختصين في الرعاية الصحية خيارات المحتجين المضادة للتطعيم والحجر الصحي في نظر الاعتبار، بوصفها تقاوم التدخلات الصحية الخالية من المخاطر، وسهلة التنفيذ، والضرورية للحد من انتشار مرض مميت عن طريق الخطأ، ولكن البعض قد يجادلون في قراراتهم وتصرفاتهم بعد صدور هذه القرارات المعقولة. ومع ذلك ، يمكن إثبات أن (أ) الظروف السببية التي حددها جانيس التي تساهم في ظهور التفكير الجمعي كانت موجودة وقوية في هذه الأنواع من الجماعات وأن (ب) هذه الأنواع من الجماعات تظهر العديد من الأعراض التي تشير إلى أنها جماعة لم تفكر طويل بشكل واضح.

التماسك والهوية

إن الشرط الضروري الوحيد للتفكير الجمعي الذي حدده جانيس في نظريته هو تماسك المجموعة: وهو الاحساس بالوحدة، وروح العمل الجماعي، والهوية المشتركة. وتكون للجماعات المتماسكة مزايا عديدة مقايسة بالجماعات التي تفتقر إلى الوحدة. إذ أنهم عادة أكثر متعة، ويميلون إلى البقاء بدرجة متصلة لفترة أطول، ويكرس الأعضاء وقتهم وطاقتهم إلى بعضهم البعض بطواعية (عن طيب خاطر)، لذا فأنهم أكثر نجاحا في الوصول إلى أهدافهم (Beal, Cohen, Burke, & McLendon, 2003). كذلك تمتلك الجماعات المتماسكة أماكن يشعر فيها الأعضاء بالدعم والأمان حيث يمكنهم التعبير عن أفكارهم بصراحة (Edmondson, 1999). ومع ذلك، فإن التماسك يأتي مع التكاليف، إذ في معظم الحالات، يزداد الضغط على الاعضاء نحو الاذعان لأهداف الجماعة وقراراتها ومعاييرها في مجموعات متماسكة (Cartwright, 1968) ونظرا لأن التماسك يعتبر "مهدد بشكل مباشر من خلال نوع التقييم الصريح المطلوب لاتخاذ القرار

الأمثل" (McCauley, 1998, p. 151) فأن اعتراض الأعضاء المخالفين للجماعة له عواقب شخصية وسلبية ، مثل التجنب ، أو السخرية ، أو حتى النبذ (Schachter, 1951) ويمكن لعضوية الفرد في جماعة شديدة التماسك أن تعزز العزلة من ناحية تقوية الروابط والعلاقات الاجتماعية مع أولئك الموجودين في داخل المجموعة واضعاف الروابط مع أي شخص ليس ضمن الجماعة (Junger, 2015).

وبهذا نجد في المجموعات الكبيرة والأكثر انتشارا مثل المتظاهرين ضد الحجر الصحي في عام 2020، من المحتمل وجود تجمع لجماعات فرعية متماسكة داخل الجماعة الكبيرة، وهذه المجموعات تعمل على زيادة الوحدة البنائية للجماعة (Paxton & Moody,2003). إذاً يمكن تحديد تماسك المجموعة الكبيرة بشكل دقيق من خلال قوة التزام الأعضاء بأهداف الجماعة وتماهيهم معها بدلاً من قوة العلاقات بين الاشخاص التي تربط الأعضاء مع بعضهم بشكل منفرد. وتتضمن جماعة العمل الاجتماعي، مثل متظاهري كورونا COVID-19 ، أشخاصا لا يعرفون بعضهم جيدا، ولكنهم يعلمون أنهم يشتركون في هدف مشترك: مثل مقاومة محاولات السلطة المدنية في تنظيم تفاعلاتهم الاجتماعية.عندما يزداد تماسك المهمة ، فأن ذلك يؤدي إلى زيادة مشاركة الأعضاء في الجماعة ليس لأنهم يحبون بعضهم البعض ولكن بسبب التزامهم المشترك بأهداف الجماعة(Burnette, Pollack, & Forsyth, 2011) . وقد يتشارك أعضاء هذه الجماعات أيضا في هوية اجتماعية مشتركة حيث يصنفون أنفسهم كأعضاء في جماعة واحدة، ويسعون لاحقا للتصرف والتفكير والشعور بالطرائق التي يعتقدون أنها نموذجية لعضو هذه المجموعة (Hogg, Hains, & Mason, 1998) ونتيجة لزيادة تماثل الهوية الاجتماعية، يصبح الأفراد يعتقدون أن عضويتهم في الجماعة مهمة شخصيا بالنسبة لهم؛ وهذا ما يزيد ارتباطهم مع جماعتهم، ويتسع مفهومهم الذاتي ليشمل المزيد من الصفات على المستوى الجماعي – مثل المعتقدات والقيم والآراء المشتركة على نطاق واسع داخل الجماعة وأعضائها. كذلك أنهم يطورون الكثير من الدافعية الوجدانية والكثافة الانفعاليةmotionally intense عند تعريف وتحديد أنفسهم ضمن الجماعة، لذلك لا تصبح الجماعة مهمة من الناحية المعرفية فحسب، وإنما تكون لها نفس الأهمية الانفعالية بالنسبة للأعضاء. وبهذا فأن أحساس الأعضاء بذاتهم يصبح أكثر تجريدا لأنهم ينظرون إلى أنفسهم بوصفهم يمتلكون عناصر شخصية قليلة مقابل رؤية أنفسهم على أنهم يشتركون بالمزيد من الخصائص مع الجماعة (Tajfel, 1981; Turner & Pratkanis, 1998) وهذا ما نجده لدى المتظاهرين ضد الحجر الصحي، إذ ينتج عن عملية التقارب إلى اعتماد بعض الأعضاء على المظهر النموذجي للجماعة (مثل الملابس، وتسريحة الشعر، والعبارات على اللافتات) بوصفه يدل على مظهرهم الخاص.

استنتج بارون (2005) Baron بعد مراجعة الكثير من الأبحاث الحالية حول نظرية جانيس، أن وحدة الجماعة في حد ذاتها قد لا تؤدي إلى التفكير الجمعي، ولكن الشعور بتهديد الهوية الاجتماعية المشتركة سيؤدي إلى ذلك في كثير من الأحيان. ونتيجة التوحد مع الجماعة فأنه من المحتمل أن يؤدي وقوف جماعات أخرى في المعارضة أمام جماعة الفرد، إلى أن يتماهى أعضاء جماعات الاحتجاج مع جماعتهم: بحكم تعريف أنفسهم كجماعة واحدة، وهم موجودين لمعارضة الجماعات أخرى. فضلا على ذلك ، إذا وصل التوحد مع الجماعة إلى مستويات قصوى، فأن احساس الفرد بهويته الشخصية يمكن أن يدمج مع شعورهم بالذات

الجمعية، فتصبح الذات ضمن مستوى الجماعة. وفي مثل هذه الحالات القصوى ، يكون الأعضاء أكثر استعدادا للقيام بأشياء غير منطقية بشكل موضوعي، مثل الاحتجاج على تنفيذ التدابير الوقائية للسلامة المقبولة عالميا أو جعل من أنفسهم حمقى في الأماكن العامة، لأن تعريف أنفسهم ضمن جماعتهم الخاصة هو أمر عظيم بالنسبة لهم، لدرجة أنهم لم يعودوا يميزون بين ذواتهم وجماعتهم (Swann & Buhrmester,2015).

العزلة

إن العديد من الجماعات التي اختبرها جانيس (1982) ، مثل مستشاري الرئيس جون كينيدي الذين وافقوا على الغزو الأمريكي لكوبا في خليج الخنازير، كانوا منعزلين نسبيا، لذلك لم ينتفعوا من التعرض للحقائق والبيانات التي يعتقد بها الأفراد خارج جماعتهم. وبالمثل، لم تحدث احتجاجات ضد الحجر الصحي في عام 2020 إلا بعد أن أُجبر الأفراد على العزلة بسبب تهديد فيروس كورونا واعطائهم تعليمات حول البقاء في المنزل بوصفه أكثر أمانا. ومن المرجح أن فترة الحجر الصحي هذه قد قللت من مستوى تواصل الشبكات الاجتماعية للأفراد، ومنعتهم بالتالي من اكتساب وجهات النظر على مدى واسع حول طبيعة المرض وفاعلية الاجراءات الوقائية الموصى بها. لذا فمن المحتمل أن تؤدي العزلة الجسدية الناتجة عن التعليمات في الحد من الاتصالات الاجتماعية، إلى تضخيم الميل الطبيعي للجماعات في أن تصبح غرفة صدى[1]: مجموعات من الأفراد المتشابهين في التفكير الذين يقومون بتصفية المعلومات التي تتعارض مع وجهات نظرهم المشتركة مع تسهيل تبادل المعلومات التي تعيد تأكيد دقة المعتقدات التي تدعم التوجه الأيديولوجي للجماعة. إن على الرغم من أن أعضاء الجماعة المناهضة للحجر الصحي قد حصلوا على معلومات حول خطورة الوباء المميتة وفاعلية الحجر الصحي من خلال وسائل الإعلام الاجتماعية والإخبارية، فمن المحتمل أنهم تجنبوا زيارة المواقع الإعلامية أو التحدث إلى الأشخاص الذين يعرفونهم أنهم لا يشاركون آرائهم (Iyengar & Westwood,2015). ويمكن أن يؤدي مثل هذا التقييد في التعرض للمعلومات إلى مجموعة من الآراء، في ظل ظروف معينة، وحدوث استقطاب جماعي للآراء المتشابهة، إذ عندما يناقش الأفراد المتشابهين في مواضيع التفكير مع بعضهم البعض، فإنهم يميلون إلى أن يصبحوا أكثر تطرفًا وليس أكثر اعتدالًا في معتقداتهم (Willis, 2019).

الضغوط

من المرجح أن تختبر الجماعة التفكير الجمعي عندما تتعامل مع موقف مهدد (Chapman, 2006)) ، ويعد الوباء العالمي والكساد الاقتصادي موقفان يفيان بهذا المعيار. إذ كانت العزلة على المستوى الفردي مؤلمة إلى معظم الناس، لكون الخلل الذي يحدث في أنماط التفاعلات الاجتماعية الروتينية يمنعهم من الوصول إلى الموارد الاجتماعية التي تحافظ على شعورهم بالرفاهية بانتظام. وبهذا فأنه بالنسبة إلى البعض ، يؤدي الحجر الصحي إلى فقدان الأجور، ويصبحوا ينظرون إلى القيود على أنها انتهاك لحقوقهم الدستورية. ونتيجة

[1] بيئة يواجه فيها الشخص المعتقدات أو الآراء التي تتوافق مع آرائه فقط، بحيث يتم تعزيز وجهات نظره الحالية ولا يتم النظر في الأفكار البديلة.

زيادة الضغط على الناس، تقل قدرتهم على معالجة المعلومات بدقة، وموازنة البدائل، واتخاذ القرارات العقلانية (Starcke & Brand,2012).

يؤدي الضغط أيضًا إلى تحفيز العمليات على مستوى الجماعة، تلك التي يمكن أن تتداخل مع فاعلية صنع القرار للجماعة، إذ عند الضغط على الناس، فأنه غالبا ما تصبح الجماعات أكثر تماسكا ، كما أوضح هودجز(Hodges (2015, p. 89 ، "لأن الناس عندما يكونون تحت ضغط بيئي ما، فمن الأفضل لهم أن يتلاحموا ويتعلموا مع بعضهم البعض، ويكيفوا ممارساتهم مع تلك الأحكام الأكثر نجاحا بالنسبة لهم ". ومع ذلك ، فإن الضغوط (الإضافة إلى زيادة تماسك المجموعة) يمكن أن تتسبب في جعل الجماعة بأن تقلل الحد الأدنى من مشاعر عدم الارتياح من خلال التحول من التركيز على حل المشكلات والعقلانية إلى توجه أكثر دفاعية، أي تبنى توجه افتراضي يتميز بالاتكالية والدفاعية والسلبية غير المبررة (Bion,1959). ويمكن أن يتسبب هذا التحول في قيام الجماعات بتقليل عدم اليقين بشكل سريع للغاية، مما يؤدي إلى اتسامها بالأغلاق المعرفي cognitive closure: "الرغبة في إجابة محددة لسؤال أو أي إجابة حازمة ، بدلاً من عدم اليقين أو الارتباك أو الغموض (Kruglanski, Shah, Pierro, & Mannetti2002, p. 649) ونتيجة لذلك ، من المرجح أن يتجنبوا المعلومات التي لا تتفق مع موقف جماعتهم، ولكنهم يعترفون بسهولة بالمعلومات التي تدعم وجهة نظرهم. ومن غير المحتمل أن تهتم مثل هذه الجماعات بالحلول التكاملية أثناء النزاعات لأنها تميل إلى تأييد نهج "أقبلها أو أتركها" في المساومة والتفاوض. واقترح كروغلانسكي وزملاؤه Kruglanski and his colleagues (2002) أن مثل هذه الجماعات من المحتمل أن تقبل قادة أكثر قوة وتوجها وأن بنائهم التنظيمي يميل إلى أن يكون هرميا وموجهاً نحو المكانة بدلاً من المساواة.

أوهام الجماعة

تتخذ الجماعات التي تقع في فخ التفكير الجمعي قرارات غير حكيمة في الواقع ، مما يجعلها ، تتصرف بطرائق مميزة اجتماعيا. كذلك يكون الأعضاء متحمسين لقراراتهم، ولا يتحملون أي انتقادات توجه نحو خياراتهم. لقد ارجع جانيس هذا التفاؤل غير المنطقي إلى أوهام الجماعة، وهي صفات ذات طابع خاص، التي تتميز بكونها طرائق خاطئة في مدركات الجماعة والجماعات الأخرى (Janis, 1972, 1982). ومن هذه الاوهام:

- **أوهام الأخلاق:** توضح ستيرن (2016) في تحليلها للعوامل التي تحفز الأفراد على الانضمام إلى الجماعات الراديكالية ، "إن هناك نداء لا يمكن إنكاره للانضمام إلى الجماعة التي تشعل سخط الاشخاص الصالحين" (ص 106). وعندما تختبر الجماعة التفكير الجمعي ، فأن أعضاؤها يكونون على يقين من أن لديهم أرضية أخلاقية عالية في جميع القضايا ذات الصلة بهم. على سبيل المثال، يجادل المحتجون حول فيروس كورونا المستجد COVID-19 إن من حقهم السفر بحرية والتعبير عن آرائهم والتجمع والعمل، وأن سياسات السلطة المدنية عبر إبقائهم في المنزل كأجراء أمان يعمل على انتهاك هذه الحقوق. وبالمثل ، اعترضت الجماعات الدينية على القيود المفروضة على عدد الأفراد الذين يمكنهم حضور الخدمات الدينية ، بحجة أن الفصل بين الكنيسة والدولة يحمي حقهم في إقامة الشعائر الدينية. في المقابل ، ردت السلطات العامة والقضائية بمطالبة أخلاقية خاصة بها: أن ولاياتها

ستنقذ الأرواح وأن الحفاظ على الحياة هو خير أكبر للجميع. كما اعتمدوا على سابقة قانونية، لأنه هناك قرارات قضائية سابقة، تدعم حق الدولة في تقييد بعض الحريات إذا لزم الأمر من أجل تعزيز الصحة العامة. في قضية جاكوبسون ضد ماساتشوستس (1905) ، على سبيل المثال ، حكمت المحكمة العليا الأمريكية : في كل مجتمع منظم بشكل جيد ومكلف بواجب الحفاظ على سلامة أعضائه، قد تخضع حقوق الفرد فيما يتعلق بحريته (في بعض الأحيان) عند التعرض إلى ضغط من الأخطار الكبيرة ، إلى التقييد، وذلك من خلال لوائح معقولة، تنسجم مع ما تتطلبه سلامة الجمهور. ورغم ذلك، فإن هذه الحجج لا تؤثر على الأفراد الذين يكونون على يقين أن وجهة نظرهم مبررة أخلاقياً (Skitka, 2010،).

- **أوهام الحصانة:** إن الجماعة التي تختبر التفكير الجمعي تكون واثقة من نفسها، إذ يفترض الأعضاء أنهم على حق، على الرغم من أنهم ليسوا كذلك. ووجد الباحثون، في دراساتهم حول التفكير الجمعي في الأماكن الصناعية والعسكرية والإدارية، أن هناك القليل من الأدلة حول الخوف والحذر من التفكير المسبق لهذه الجماعات (Allen & Howell, 2020; Rose, 2011) فبدلاً من ذلك، نجد أعضاء الجماعات متأكدون من أن قراراتهم - التي تضمنت إطلاق مكوك الفضاء في طقس درجة حرارته تحت الصفر، ودعم الهجوم الغادر على دولة مجاورة ، والتخييم على جبل إيفرست - هي خيار جيد في سياق معين. لذا فأن احساس الجماعة بالفاعلية بشكل عام ، يحسن دافعية الأعضاء وسعيهم نحو تحقيق الهدف، ولكنه قد يؤدي أيضا إلى فشل الأفراد في النظر إلى البدائل أو مراجعة الخطط عندما تتغير الجوانب الرئيسية للموقف. وتفتخر الجماعات التي تتسم بالتفكير الجمعي "بالتمسك بأسلحتها" ، لأنهم يعتقدون أنه لا يوجد شيء يمكن أن يقف في طريق نجاحهم (Haslam et al.2006).
- **أوهام الاجماع (المو افقة):** يعد تنوع الآراء أمرا نادرا في الجماعات التي تعاني من التفكير الجمعي، إذ تميل هذه الجماعات إلى التوافق مع "قانون الوحدة العقلية" Le Bon's "law of mental unity (1895/1960) فيُظهر الأعضاء وفقا لهذا القانون تشابها مذهلا في أفعالهم وعواطفهم ومعتقداتهم. واعتقد لوبون أن هذه الوحدة ناتجة عن العدوى والتنظيم الاجتماعي: وهو ما يجعل أعضاء الجماعة يتبنون مواقف متشابهة جدًا بشأن القضايا المتعلقة بهم. ومع ذلك ، أشار جانيس إلى أن إجماع هذه الجماعات وهما أكثر منه حقيقة. وأشار إلى أنه في معظم الحالات من المحتمل أن يكون لدى عدد كبير من الأعضاء شك أو مخاوف بشأن مبادرات الجماعة ، ولكنهم مع ذلك يتماشون مع الجماعة لأسباب متنوعة، بما في ذلك الحفاظ على مكانتهم في الجماعة وتجنب الصراع معها. ويعد هذا صحيح إلى حد كبير، إذ يدرك الأعضاء أن التعبير عن الآراء التي تتعارض مع ما تتبناه الجماعة سيؤدي على الأرجح إلى طردهم من المجموعة نفسها.

الضغوط المعيارية

إن الاحتجاج على سياسات الرعاية الصحية المعقولة، ورفض تطعيم الأطفال، والجدل بأن تقنيات الاتصال (أبراج G 5) تسبب فيروس كورونا، والسخرية من الأشخاص الذين يرتدون كمامات الوجه عند التسوق هي ردود فعل نادرة نسبيًا - لكونها تتعارض مع الأعراف الاجتماعية ويقوم بها جزء صغير من

السكان. ومع ذلك ، قد تكون ردود الفعل هذه استجابات معيارية داخل جماعة معينة في هذا السياق المحدد. إذ تتطور المعايير في الجماعات عندما يعبر الأفراد عن أفعال واتجاهات متشابهة، ويكون الإجماع عليها أكبر في الجماعة عندما تختبر التفكير الجمعي (Janis, 1982). ومن المحتمل أن تتضمن معايير هذه الجماعات على عنصر قائم على النهي والزجر. فبدلاً من تحديد ما يفعله معظم الناس - وهو معيار وصفي – فأن المعايير التحذيرية تشتمل على عنصر أخلاقي، لأنها تحدد الشيء الصحيح الذي يجب فعله (Cialdini, Kallgren, & Reno, 1991). ونتيجة لذلك، فإن الأفراد الذين يختبرون المعارضة الشخصية على اتباع مسار الجماعة (قد يتساءل شخص ما ، على سبيل المثال ، عما إذا كان من الجيد حقًا منع الناس من الوصول إلى المستشفيات لدرجة أن الشخص سيموت حقا أذا لم تقدم له رعاية طبية تنقذ حياته) لا يعبرون عن شكوكهم علانية تجنبا إلى الرفض الاجتماعي وفقدان المكانة.

نجد أنه في معظم الجماعات، تتم موازنة العمليات التي تحافظ على معايير المجموعة - تلك التي تدفع الأعضاء معا نحو الاتفاق والاتساق والامتثال - من خلال انتزاع القوى التي تؤثر على انفصال الجماعة عن طريق تعزيز الخلاف والصراع والاستقلالية (Packer & Ungson, 2017). ومع ذلك ، فأنه أثناء التفكير الجمعي ، تزداد ضغوط الامتثال، في حين ان تلك القوى التي تجعل الأفراد ينظروا إلى أنفسهم بأنهم مختلفين مع أعضاء جماعتهم تزداد ضعفا. وعلى الرغم من اعتقاد أعضاء هذه الجماعات أنهم مفكرون مستقلون (الذين شكلوا آرائهم من خلال تفكيرهم الشخصي)، إلا أنهم في معظم الحالات استدمجوا معايير جماعتهم في ذاتهم، واصبحوا يتبعون تلك المعايير دون أن يكونوا على دراية بذلك (Cialdini,2005). ونجد أنه عند التعامل مع الجماعات ذات التفكير الجمعي أن معظم الناس يمتثلون إلى تطبيق المبادرات من أجل تحسين الصحة العامة، مثل التطعيم، واستخدام أحزمة الأمان، والالتزام بالقوانين الصحية، ولكن هناك أقلية من الأفراد لا تفعل ذلك. وفي بعض الحالات ، قد يرفض الأشخاص لأسباب شخصية وخاصة، مثل معايشتهم خبرة سلبية سابقة مع التطعيم أو عدم فهم الإجراءات الطبية (Jones et al., 2012). ومع ذلك ، قد تكون مقاومة الآخرين متجذرة في العمليات على مستوى الجماعة التي حددها جانيس في نظريته حول التفكير الجمعي مثل: التماسك والهوية ، والعزلة والتوتر، والأوهام الجماعية، والضغوط المعيارية.

وعلى الرغم من أن الأسباب التي حددها جانيس كانت موجودة لدى جماعات الاحتجاج المناهضة للصحة العامة، فإن هذا التفسير في بعض النواحي غير مرضٍ. فبصورة بديهية ، تتطلب مثل هذه الأفعال اللاعقلانية تفسيرا أكثر وضوحا من كونه مجرد "ديناميكيات الجماعة السيئة". إلا يقوم بعض القادة بغسل دماغ اتباعهم؟ إلا ينفجر الناس عندما تشتعل لديهم حمى المقصورة[1]؟ ألم يتم التلاعب بهم من قبل بعض القوى الأجنبية الحاقدة أو شعب السحالي الغريبة[2]؟ نحن قد نشعر بالحاجة إلى تجريد أعضاء

[1] حمى المقصورة ضائقة رهابية احتجازية، تحدث عندما يُحتجز الشخص أو مجموعة من الأشخاص في مكان منعزل أو في أماكن ضيقة لفترة طويلة من الزمن.

احدى اوهام الناس التي تظهر في نظرية المؤامرة، إذ يدعي الناس أن الكائنات الفضائية الزواحف المتحولة تتحكم في الأرض من خلال اتخاذ الشكل البشري واكتساب القوة السياسية للتلاعب بالمجتمعات البشرية.

المجموعة من إنسانيتهم بسبب أفعالهم من خلال وصفهم بالغباء أو افتراض أن هناك قوى اجتماعية غريبة تقيد عقولهم ، لكن أفعالهم قد تنبع من العمليات على مستوى المجموعة التي يمكن أن تضعف قدرة الجماعة على اتخاذ قرارات جيدة(Miller, Gordon, & Buddie, 1999)

وهنا يتبادر إلى أذهاننا سؤال: إذا كانت المقاومة عملية جماعية، وليست عملية تحدث على المستوى الفردي، فما هي التدخلات على مستوى الجماعة التي يمكن تنفيذها من أجل تقليل "تدهور الكفاءة العقلية، واختبار الواقع، والحكم الأخلاقي" (Janis, 1972, p. 9) لدى أعضاء هذه المجموعات؟ يقترح منهج التفكير الجمعي خمس استراتيجيات عامة في الشكل 1 التي تم فحصها في هذه المقالة من دون المناهج المتوفرة ، رغم أن ذلك لا يعني أن العديد من التدخلات الأخرى عملية وفاعلة. فضلا عن ذلك ، أن أي تدخل ، حتى وإن كان مستمدًا من إطار نظري قوي مثل التفكير الجمعي، يتطلب التحقق التجريبي قبل تطبيقه.

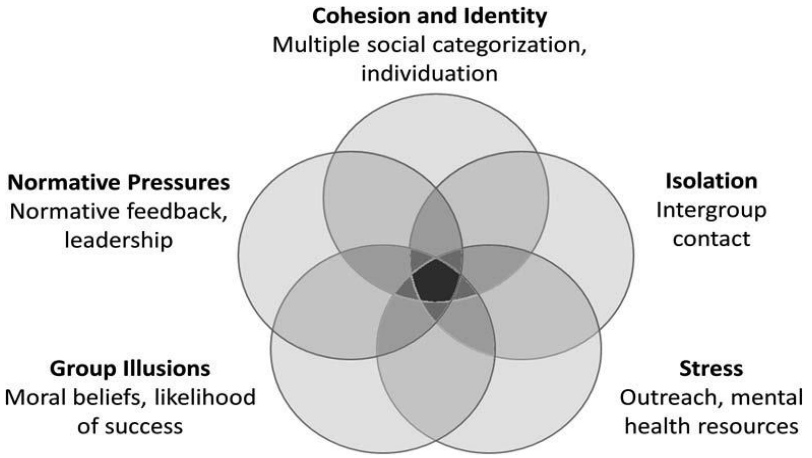

شكل 1. مصفوفة من التدخلات المحتملة على مستوى الجماعة بهدف تقليل مقاومة المبادرات الصحية.

التماسك والهوية

إن الاحتجاجات المناهضة للصحة تكون في بعض جوانبها عبارة عن صراعات بين الجماعات: إذ نجد ان أحدى الجماعات لديها جداول وخطط اجتماعية واضحة ومجموعة من القيم، التي تعارض متطلبات جماعة أخرى تمتثل للتفويض الصحي. ويطلق هذا الصراع بين الجماعات عددا من العمليات المعرفية والعاطفية والشخصية التي تعيق محاولات الحد من الصراع. وغالبا ما تظهر الجماعات ميلا إلى تفضيل جماعتها الخاصة على المجموعات الأخرى، وهذا التحيز للجماعة الداخلية يتم الحفاظ عليه جزئيًا من خلال مفاهيم قائمة على الصور النمطية حول الخصائص المشتركة لأعضاء تلك الجماعات (Schafer & Crichlow,2002). فعندما تتصاعد مثل هذه الصراعات يؤدي التنميط والإقصاء إلى الإساءة اللفظية والتمييز، وينتهي في ضوء الاعتداء الجسدي على الجماعة الأخرى (Streufert & Streufert،1986).

وتتضمن إحدى وسائل الحد مثل هذه النزاعات، كما تم تحديدها في دراسات التعصب ، عبر إمحاء الحدود بين الجماعات أو إزالة الفروق فيما بينها تماما (Paluck, 2012). ويوصي نموذج الهوية المشتركة للجماعة الداخلية الذي طوره (Dovidio and Gaertner,2010)، بتغيير تصنيفات الذات لأعضاء الجماعة

حتى تصبح هويتهم متماثلة في جماعة فوقية واحدة بدلاً من مجموعتين منفصلتين ومتعارضتين. ويمكن تحقيق إعادة التصنيف من خلال تقليل الفروق التي تميز بين الجماعتين عن طريق إبراز الصفات المشتركة بينهما - مثل دمج الجماعتين مع مجتمع أو منطقة واحدة، أو اظهار التراث المشترك بينهما أو حتى جعلهما يعتقدان أن لهما عدو مشترك (مثل الفيروس أو قوة أجنبية).

يمكن أيضا الحد من التعصب من خلال زيادة وعي الأفراد بمستوى التنوع داخل جماعتهم والجماعات الأخرى (Crisp & Hewstone, 2007). وقد يتحد الأفراد في جماعات الاحتجاج عند معارضتهم للمبادرات الصحية ، رغم أنهم فيهم أفرادا يختلفون من حيث الثروة والقيم السياسية والعرق ....وغيرها، لذا أن إبراز هذه الصفات، وتحديد الصفات التي يشترك بها اعضاء الجماعة الداخلية مع أعضاء الجماعة الخارجية، يمكن أن يقلل من العزلة والتحيز. وبهذا الصدد تميل الهويات الاجتماعية لدى الأفراد إلى المرونة ، وأي محاولة لتغيير تلك الهويات - لتكون أكثر شمولا أو أقل تأثيرا في الجماعات - سوف يتطلب اختبارا مسبقا وضبطا دقيقا. على سبيل المثال ، قد تعكس إعلانات الخدمة العامة التي تم تصميمها من أجل خلق الشعور بالهوية المشتركة (كحملات "نحن جميعًا في هذا، أو معا" أ و "نحن سويا) ذات فاعلية، ولكنها قد تجسد الفروق الجماعية إذا لم يستطع المشاهدين التعرف على الأفراد الذين يعملون كمتحدثين رسميين في هذه الرسائل. وقد تلقى هذه المؤثرات الاعلانية منفعة كبيرة لدى الأفراد ذوي التوجهات الجمعية[1] collectivist orientation، ولكنها ستفشل في إقناع الأفراد الذين تؤكد هوياتهم الاجتماعية على شعورهم بالاستقلالية وسيقاومون تأثير الآخرين (Hamedani, Markus, & Fu, 2013). وإن من غير المرجح أن تكون إعادة التصنيف فاعلة في الجماعات التي تمتلك جذورا تاريخية عندما تقف في مواجهة بعضها البعض. فبصورة خاصة نجد أن حالات عدم المساواة في المكانة، وتصورات الضحية، وانعدام الثقة، والغضب الجمعي، والحرمان من المسؤولية عن الضرر، تمنع الجماعة من قبول العضوية في فئة اجتماعية ذات مستوى مرتفع (Van Tongeren, Burnette, O'Boyle, Worthington, & Forsyth, 2014).

العزلة والاتصال بين المجموعات

غالبا ما تكون الجماعات التي تختبر التفكير الجمعي معزولة عن الجماعات الأخرى، والمعلومات التي تقدمها تلك المجموعات. لذلك ، قد يؤدي الاتصال بين الجماعات – الذي يقلل بشكل عام من التعصب - إلى تخفيض تحيز المحتجين ضد السلطات والمواطنين الذين يوصون بالامتثال إلى اللوائح الصحية (Tropp & Page-Gould، 2015). إن الاتصال لا ينتج عن المعرفة بأعضاء الجماعات الأخرى الضرورية للتواصل مع الفئات المتمايزة فحسب ، وإنما يشجع أيضا على تبادل المعلومات من خلال خطوط اتصال أقل رسمية، ويمكن أن يؤدي ذلك إلى صداقات تخفض الفروق بين المجموعات الاجتماعية (Zhou, Page-Gould, Aron, Moyer, & Hewstone, 2019). ولكون العديد من الأفراد يثقون في المعلومات التي يقدمها صديق أو قريب أكثر من مشورة الخبراء ، فإن تكوين الروابط الاجتماعية عبر المجموعات يوفر وسيلة لتصحيح سوء الفهم حول المرض وفاعلية العلاجات الوقائية (Blume, 2006). ومع ذلك ، فأنه غالبا ما يكون الاتصال بحد

[1] الثقافات التي تعطي أولوية للجماعة على الفرد.

ذاته غير كافٍ في مد الروابط الاجتماعية، لأن الاتصال السطحي بين المجموعات - أو حتى الاتصال القائم على الكراهية والعدائي - يمكن أن يزيد من اضطراب العلاقات بين المجموعات. ومن الناحية المثالية ، يجب أن يتم الاتصال في موقف يتم فيه التعامل مع كلتا المجموعتين بإنصاف، إذ يجب ان يسعى الاعضاء لتحقيق نتيجة تنفع كلا الجماعتين بدلا من جماعة واحدة فقط (Paluck, Green, & Green, 2019).

الضغوط

لقد تم تصميم تدخلات الصحة العامة، مثل شرط الحجر الصحي ، من أجل مساعدة الأفراد على التعامل مع التهديد الجسدي لصحتهم، ولكن هذه التدخلات قد لا تخفض ما يختبره أعضاء الجماعة من ضغط وعدم اليقين والقلق. على الرغم من أن نظريات صنع القرار الصحي تتفق عموما على أن الزيادة في شدة التهديد عادة ما يؤدي إلى إجراءات تعزيز الصحة، التي من شأنها أن تقلل من هذا التهديد ، والخوف، وعدم اليقين بشأن فاعلية العلاج ، والاعتقاد أنه من غير المحتمل أن يتعرض المرء للضرر، وهو يرتبط مع عدم الامتثال (Sheeran, Klein, & Rothman, 2017).

تشير هذه النتائج إلى أنه يجب تزويد الجمهور بمعلومات دقيقة ومتسقة في الوقت المناسب حول شدة التهديد، فضلا عن فاعلية الاحتياطات الموصى بها (Mirahmadi, 2016). وكما هو الحال في أي حملة تسويقية ناجحة ، يجب أن تكون مصادر المعلومات موثوقة، وموجهة من الناحية المثالية إلى أعضاء الجماعة نفسها. وتشير دراسات الإقناع إلى أن الأفراد يكونون أكثر دافعية لمعالجة المعلومات في الرسائل المقنعة عندما تصلهم من أعضاء جماعتهم، مقايسة بالرسائل الواردة من أولئك الذين يعتبرونهم من أعضاء الجماعة الخارجية(Mackie, Worth, & Asuncion, 1990).

وقد تكون التدخلات المعلوماتية أكثر نجاحا أيضا إذا اتخذت طريقا ثانويا للإقناع بدلا من المسار المباشر (Petty & Cacioppo, 1984). وتتطلب معالجة المسار المركزي التفصيل المعرفي للرسالة، فإذا كان هذا التفصيل يولد أفكارا تنسجم مع اعضاء الجماعة ، فعندئذ يتم إقناع الناس، ولكن إذا كانت الرسالة تحفز الأفكار السلبية (مثل خطر الاصابة)، فأن الاتجاه الأصلي يصبح أقوى. في حين اذا كان الناس يفتقرون إلى الدافع أو القدرة على فحص الرسالة بعناية (لاسيما اعضاء الجماعات التي تختبر التفكير الجمعي) فأن الصور النشطة، والعبارات المشحونة عاطفياً، والشعارات تكون أكثر إقناعًا من الحقائق والمعلومات.

حل أوهام المجموعة

إن حل المفاهيم الخاطئة (مثل الاعتقاد أن فيروس كورونا خدعة، أو أن التباعد الاجتماعي لا يقلل من خطر العدوى، أو أن السلطات المدنية ليس لها الحق في تنظيم تصرفات المواطنين) ليست بالمهمة السهلة. فكما تشير دراسات التفكير الدافعي ، أن الافراد لا يسعون باستمرار إلى تعظيم دقة تصوراتهم وفهمهم ؛ فبدلاً من ذلك، أنهم يميلون إلى البحث عن المعلومات التي من شأنها تعزيز معتقداتهم واتجاهاتهم الحالية فقط ، وهذه الميول يمكن أن تتضخم فقط عندما يكونون جزءا من الجماعة التي تختبر التفكير الجمعي (Kunda, 1990).

قدم Hornsey and Fielding (2017) في تحليلهما حول دافعية الناس لرفض العلم ، وعرض الحلول الممكنة لهذه المعضلة. فبدلاً من تقديم المعلومات التي تدحض المعتقدات الخاطئة للأفراد بشكل مباشر، فأنهما أوصيا بتحديد الجذور النفسية التي تدفع الأفراد إلى الالتزام بمعتقداتهم. فعلى سبيل المثال نجد في حالة وهم أعضاء المجموعة الأخلاقي ، أن الأفراد يكونون مندفعين نحو رؤية أنفسهم كأشخاص صالحين أخلاقياً، لذلك ، فإن الحجج القائلة بأن أفعالهم غير أخلاقية ، قد تسبب الأذى للناس البسطاء ، ومن المحتمل أن لا تؤثر عليهم. وفي المقابل ، قد تكون الحجج التي تتسق مع حاجتهم في أن يُنظر إليهم بوصفهم أشخاص محترمين أخلاقياً - ولكنها تقترح تعديل سلوكهم من أجل جعل نزاهتهم الأخلاقية معروفة لدى الآخرين – تكون أكثر فاعلية. كذلك أن وهم أعضاء الجماعة بالحصانة قد ينبع من حاجة أساسية تتمثل: برغبة الناس في أن يكونوا ناجحين في تحقيق أهداف جماعتهم. لذلك ، فإن التدخلات التي تحدد وسائل أخرى لتحقيق أهدافهم، وكذلك الاتصالات التي تشير إلى أن استراتيجياتهم الأصلية لن تكون فاعلة، قد تجعلهم يعيدون تقييم خياراتهم الأولية. على سبيل المثال ، من المحتمل أن تتضاءل شعبية احتجاجات الحجر الصحي إذا أعلنت السلطات أنه سيتم إضافة يوم آخر من فترة التباعد الاجتماعي الاجباري إلى في كل مرة تتجمع فيها مجموعة مكونة من 10 أفراد أو أكثر للاحتجاج ضد الحجر الصحي.

الضغوط المعيارية

يعد الامتثال استجابة افتراضية تظهر في معظم الاطار اليومي للجماعة، ولكن هذا الميل يصبح أكثر وضوحًا عندما تتطابق القوى الموقفية في أثارة التفكير الجمعي. وعندما يطغي التفكير الجمعي على جماعة ما ، فإن الأفعال والاتجاهات غير العادية أو مألوفة أو السخيفة تبدو منطقية، في حين أن مقاومة معايير الجماعة تبدو غريبة. ومن ثم ، فإن إحدى الوسائل الحاسمة في منع حدوث أفعال خطيرة أو غير صحية أو غير قانونية (مثل الاحتجاج على الحجر الصحي أثناء الوباء، أو رفض استخدام أحزمة الأمان عند قيادة السيارة، أو إنكار فاعلية اللقاحات) يتطلب الحد من امتثال الأفراد لـ معايير الجماعة أو تغييرها (Pratkanis, 2007). وقد حددت دراسات الامتثال عددا من العوامل الموقفية التي تؤثر على قوة الضغوط المعيارية. على سبيل المثال، يقل احتمال التزام الأفراد بمعايير الجماعة عندما يعلمون أنهم سيُحاسبون على أفعالهم (Quinn & Schlenker, 2002)، وأن مجهولية الهوية Anonymity تزيد من مستويات عدم الامتثال (Tsikerdekis, 2013)، ويمكن أن تقوم عملية الأولية الموقفية[1] بخلق مستويات مرتفعة من الاستقلالية (Epley & Gilovich, 1999،) كذلك ان عزل الأفراد عن الآخرين يمكن ان يؤدي إلى انخفاض الامتثال (Gardete, 2015). وعلى الرغم من أن مثل هذه التدخلات قد تؤثر على أقلية صغيرة من الأفراد، إلا أنها قد تكون كافية لتخفيض إجماع الجماعة. وتبلغ ضغوط الامتثال ذروتها عندما يتصرف جميع أعضاء المجموعة بطرق تتوافق مع معايير الجماعة. لذلك ، فإن التدخلات التي تسمح لواحد أو أكثر من أعضاء المجموعة بالتصرف بطرائق لا تتوافق مع معاييرها ستعمل (من الناحية النظرية) على تقليل ضغوط الامتثال إلى معايير الجماعة بشكل عام (Clark, 2001). ويمكن أيضًا تعديل القواعد بشكل مباشر من

[1] ظاهرة يؤثر فيها التعرض لمثير معين على الاستجابة لحافز لاحق ، من دون توجيه أو نية واعية.

خلال تزويد أعضاء الجماعة بمعلومات وصفية حول التفضيلات والمعتقدات والسلوكيات داخل جماعتهم مقايسة بالجماعات الأخرى. ويركز هذا النهج (الذي يستعمل في عدد من برامج الوقاية) على تغيير مدركات الناس للمعايير بدلاً من المعيار نفسه (Tankard & Paluck 2016). وتعمل مثل هذه التدخلات بواسطة تقديم معلومات دقيقة حول درجة الامتثال داخل الجماعة، وبالتالي مواجهة الافتراضات الخاطئة لدى الأعضاء حول ما يعتبرونه طبيعيا ومقبولا (Miller & Prentice 2016). على سبيل المثال ، أن افعال المحتجين ضد الحجر الصحي تكون عادة معززة بمعتقدات الأعضاء حول أن غالبية الناس يعارضون التفويضات الصحية لـ COVID-19 ، في حين أن هذا الموقف غير شائع في الواقع.

اقترح جانيس (1982) أيضًا أن قادة الجماعة، بسبب موقعهم في السلطة والنفوذ، يمكن أن يؤثروا بشكل كبير على معايير الجماعة. على سبيل المثال استجاب الرئيس كينيدي إلى مجموعته الاستشارية التي (تتسم بالتفكير الجمعي) عند التخطيط لغزو خليج الخنازير، وذلك بواسطة تعديل معايير الجماعة التي تشجع على المعارضة ، والحد من العزلة، ومنع الاغلاق المعرفي قبل أوانه. ولسوء الحظ أن في العديد من الجماعات التي فحصها جانيس، قام القادة عن غير عمد بتمهيد الطريق إلى ظهور التفكير الجمعي من خلال التعبير عن آرائهم في البداية، وحث المجموعة على السعي للتوصل إلى اتفاق بدلاً من المناقشة النقدية. وبالمثل ، في حالة احتجاجات الحجر الصحي، قام بعض القادة بتحويل هذه القضية الصحية إلى سياسية. على سبيل المثال ، غرد الرئيس الأمريكي دونالد ترامب مرارا وتكرارا حول هذا الموضوع، وشجع على إنهاء الحجر الصحي، ودعم الجماعات المتطرفة التي كانت تحتج ضد التفويضات الصحية. وتشير الأبحاث إلى أن هذا التدخل عزز على الأرجح جهود مقاومة الحجر الصحي، لاسيما لدى الذين يؤيدونه. كما أفاد هورنسي ، فينلايسون ، تشاتوود ، وبيجيني (Hornsey, Finlayson, Chatwood, and Begeny (2020) ، عندما قرأ الأفراد تغريدات ترامب المضادة للتلقيح (على سبيل المثال قالوا مع أنفسهم : "أُثبت أني على حق بشأن اللقاحات الضخمة - لقد كذب الأطباء. أنقذوا أطفالنا ومستقبلهم" ، كما ورد في(Hornsey et, 2020 ، لذلك كانوا أكثر عرضة للتشكيك في شرعية اللقاحات للحد من الأمراض. وتشير هذه النتائج إلى أن تأثير القادة على معايير جماعتهم كبيرة ، وعلى هذا النحو ، يجب أن يخضعوا للمساءلة إذا تسببت أفعالهم في تشكيل معايير تؤدي إلى تصرف أتباعهم بطرائق غير عقلانية وغير صحية.

المراجع

Ahlstrom, D., & Wang, L. C. (2009). Groupthink and France's defeat in the 1940 campaign. *Journal of Management History, 15,* 159–177. http://dx.doi.org/10.1108/17511340910943804

Allen, D. M., & Howell, J. W. (Eds.). (2020). *Groupthink in science*. Cham, Switzerland: Springer Nature Switzerland AG. http://dx.doi.org/10.1007/ 978-3-030-36822-7

Annas, G. J., & Annas, C. L. (2020). "Unusual care": Groupthink and willful blindness in the SUPPORT study. *The American Journal of Bioethics, 20,* 44– 46. http://dx.doi.org/10.1080/15265161.2019 .1687787

Bang, D., & Frith, C. D. (2017). Making better decisions in groups. *Royal Society Open Science, 4,* 170193. http://dx.doi.org/10.1098/rsos.170193

Baron, R. S. (2005). So right it's wrong: Groupthink and the ubiquitous nature of polarized group decision making. *Advances in Experimental Social Psychology, 37,* 219–253. http://dx.doi.org/10 .1016/S0065-2601(05)370043

Beal, D. J., Cohen, R. R., Burke, M. J., & McLendon, C. L. (2003). Cohesion and performance in groups: A meta-analytic clarification of construct relations. *Journal of Applied Psychology, 88,* 989–1004.http://dx.doi.org/10.1037/0021-9010.88.6.989

Bion, W. R. (1959). *Experiences in groups and other papers*. London, England: Tavistock.

Blume, S. (2006). Anti-vaccination movements and their interpretations. *Social Science & Medicine, 62,* 628– 642. http://dx.doi.org/10.1016/j.socscimed .2005.06.020

Burnette, J. L., Pollack, J. M., & Forsyth, D. R. (2011). Leadership in extreme contexts: A groupthink analysis of the May 1996 Mount Everestdisaster. *Journal of Leadership Studies, 4,* 29 40 .http://dx.doi.org/10.1002/jls.20190

Capitol protesters snarl streets, including Sparrow Hospital area. (2020, April 15). *WLNS News*. Retrieved from https://www.wlns.com/news/health/ coronavirus/capitol-protesters-snarl-streetsincluding- sparrow-hospital-area

Cartwright, D. (1968). The nature of group cohesiveness. In D. Cartwright & A. Zander (Eds.), *Group dynamics: Theory and research* (pp. 91–109). New York, NY: Harper & Row.

Chapman, J. (2006). Anxiety and defective decision making: An elaboration of the groupthink model. *Management Decision, 44,* 1391–1404. http://dx .doi.org/10.1108/00251740610715713

Cialdini, R. B. (2005). Basic social influence is underestimated. *Psychological Inquiry, 16,* 158–161. http://dx.doi.org/10.1207/s15327965pli1604_03

Cialdini, R. B., Kallgren, C. A., & Reno, R. R. (1991). A focus theory of normative conduct: A theoretical refinement and reevaluation of the role of norms in human behavior. *Advances in Experimental Social Psychology, 24,* 201–234. http://dx .doi.org/10.1016/S0065-2601(08)60330-5

Clark, R. D. (2001). Effects of majority defection and multiple minority sources on minority influence. *Group Dynamics: Theory, Research, and Practice, 5,* 57–62. http://dx.doi.org/10.1037/1089-2699.5 .1.57

Crisp, R. J., & Hewstone, M. (2007). Multiple social categorization. *Advances in Experimental Social Psychology, 39,* 163–254. http://dx.doi.org/10 .1016/S0065-2601(06)39004-1

Dovidio, J. F.,&Gaertner, S. L. (2010). Intergroup bias. In S. T. Fiske, D. Gilbert, & G. Lindzey (Eds.), *Handbook of social psychology* (5th ed., Vol. 2, pp. 1084–1121). New York, NY: Wiley. http://dx .doi.org/10.1002/9780470561119.socpsy002029

Eder, F. (2019). Making concurrence-seeking visible: Groupthink, discourse networks, and the 2003 Iraq War. *Foreign Policy Analysis, 15,* 21–42. http:// dx.doi.org/10.1093/fpa/orx009

Edmondson, A. C. (1999). Psychological safety and learning behavior in work teams. *Administrative Science Quarterly, 44,* 350–383. http://dx.doi.org/ 10.2307/2666999

Emery, S., Percy, N., & Rasmussen, E. (2020, April17). Scores gather in Huntington Beach to protest coronavirus stay-at-home orders. *The Orange*

County Register. Retrieved from https://www.ocregister.com/2020/04/17/dozens-of-protestersgather- in huntington-beach-in-defiance-of-stay-athome- orders/

Epley, N., & Gilovich, T. (1999). Just going along: Nonconscious priming and conformity to social pressure. *Journal of Experimental Social Psychology, 35,* 578–589. http://dx.doi.org/10.1006/jesp .1999.1390

Freud, S. (1922). *Group psychology and the analysis of the ego* (J. Strachey, Trans.). London, England: Hogarth Press and the Institute of Psychoanalysis. http://dx.doi.org/10.1037/11327-000

Gardete, P. M. (2015). Social effects in the in-flight marketplace: Characterization and managerial implications. *Journal of Marketing Research, 52,* 360–374. http://dx.doi.org/10.1509/jmr.13.0527

Hamedani, M. G., Markus, H. R., & Fu, A. S. (2013). In the land of the free, interdependent action undermines motivation. *Psychological Science, 24,* 189–196. http:// dx.doi.org/10.1177/0956797612452864

Haslam, S. A., Ryan, M. K., Postmes, T., Spears, R., Jetten, J., & Webley, P. (2006). Sticking to our guns: Social identity as a basis for the maintenance of commitment to faltering organizational projects. *Journal of Organizational Behavior, 27,* 607–628. http://dx.doi.org/10.1002/job.370

Hayda, J. (2020, April 27). Anti-quarantine protests open discussion around civil disobedience. *WUWM 89.7*. Retrieved from https://www.wuwm.com/post/anti-quarantine-protests-open-discussionaround- civil-disobedience-0

Henriques, G. (2020). Groupthink and the evolution of reason giving. In D. M. Allen & J. W. Howell (Eds.), *Groupthink in science* (pp. 15–25). Cham, Switzerland: Springer Nature Switzerland AG.http://dx.doi.org/10.1007/978-3-030-36822-7_2

Herek, G. M., Janis, I. L., & Huth, P. (1987). Decision- making during international crises: Is quality of process related to outcome? *Journal of Conflict Resolution, 31,* 203–226. http://dx.doi.org/10.1177/0022002787031002001

Hodges, B. H. (2015). Conformity and divergence in interactions, groups, and culture. In S. G. Harkins, K. D. Williams, & J. Burger (Eds.), *The Oxford handbook of social influence* (pp. 87–105). New York, NY: Oxford University Press. Retrieved from http://www.oxfordhandbooks.com/

Hogg, M. A., Hains, S. C., & Mason, I. (1998). Identification and leadership in small groups: Salience, frame of reference, and leader stereotypicality effects on leader evaluations. *Journal of Personality and Social Psychology, 75,* 1248– 1263. http://dx.doi.org/10.1037/0022-3514.75.5 .1248

Hornsey, M. J., & Fielding, K. S. (2017). Attitude roots and Jiu Jitsu persuasion: Understanding and overcoming the motivated rejection of science. *American Psychologist, 72,* 459–473. http://dx.doi.org/10.1037/a0040437

Hornsey, M. J., Finlayson, M., Chatwood, G., & Begeny, C. T. (2020). Donald Trump and vaccination: The effect of political identity, conspiracist ideation and presidential tweets on vaccine hesitancy. *Journal of Experimental Social Psychology, 88,* 103947. http://dx.doi.org/10.1016/j.jesp.2019 .103947

Iezzoni, L. (1999). *Influenza 1918: The worst epidemic in American history*. New York, NY: TV Books.

Iyengar, S., & Westwood, S. J. (2015). Fear and loathing across party lines: New evidence on group polarization. *American Journal of Political Science, 59,* 690–707. http://dx.doi.org/10.1111/ajps .12152

Jacobson v. Massachusetts, 197 U.S. 11 (1905). Janis, I. L. (1972). *Victims of groupthink*. Boston, MA: Houghton Mifflin.

Janis, I. L. (1982). *Groupthink: Psychological studies of policy decisions and fiascos* (2nd ed.). Boston, MA: Houghton Mifflin.

Jansen, B. (2020, April 20). Anti-quarantine rally in Pennsylvania draws about 2,000 people in latest protest against coronavirus restrictions. *USA Today*. Retrieved from https://www.usatoday.com/story/news/politics/2020/04/20/coronavirus-pennsylvania-roiled-protestagainst- shutdowns/5167292002/

Jones, A. M., Omer, S. B., Bednarczyk, R. A., Halsey, N. A., Moulton, L. H., & Salmon, D. A. (2012). Parents' source of vaccine information and impact on vaccine attitudes, beliefs, and nonmedical exemptions. *Advances in Preventive Medicine, 2012,* 932741. http://dx.doi.org/10.1155/2012/ 932741

Jones, P. E., & Roelofsma, P. H. (2000). The potential for social contextual and group biases in team decision-making: Biases, conditions and psychological mechanisms. *Ergonomics, 43,* 1129–1152. http://dx.doi.org/10.1080/00140130050084914

Junger, S. (2015). The never-ending war: The bonds of battle. *Vanity Fair, 57,* 106–111.

Kruglanski, A. W., Shah, J. Y., Pierro, A., & Mannetti, L. (2002). When similarity breeds content: Need for closure and the allure of homogeneous and self-resembling groups. *Journal of Personality and Social Psychology, 83,* 648–662. http://dx.doi .org/10.1037/0022-3514.83.3.648

Kunda, Z. (1990). The case for motivated reasoning. *Psychological Bulletin, 108,* 480–498. http://dx .doi.org/10.1037/0033-2909.108.3.480

Kurtzman, D. (2019, May 24). Best George Carlin quotes of all time. Retrieved from https://www .liveabout.com/best-george-carlin-quotes-of-alltime- 3958721

Larson, J. R., Jr. (2010). *In search of synergy in small group performance*. New York, NY: Psychology Press.

Laughlin, P. R., Bonner, B. L., & Miner, A. G. (2002). Groups perform better than the best individuals on letters-to-numbers problems. *Organizational Behavior and Human Decision Processes, 88,* 605– 620. http://dx.doi.org/10.1016/S0749- 5978(02)00003-1

Le Bon, G. (1960). *The crowd: A study of the popular mind*. New York, NY: Viking Press. (Original work published 1895)

Levitz, J. (2009, March 18). In the land of 'Live Free or Die,' some refuse to buckle under pressure. *Wall Street Journal*. Retrieved from https://www .wsj.com/articles/SB123733649650564223

Mackie, D. M., Worth, L. T., & Asuncion, A. G. (1990). Processing of persuasive in-group messages. *Journal of Personality and Social Psychology, 58,* 812–822. http://dx.doi.org/10.1037/0022- 3514.58.5.812

McCauley, C. (1998). Group dynamics in Janis's theory of groupthink: Backward and forward. *Organizational Behavior and Human Decision Processes, 73*(2–3), 142–162. http://dx.doi.org/10 .1006/obhd.1998.2759

Miller, A. G., Gordon, A. K., & Buddie, A. M. (1999). Accounting for evil and cruelty: Is to explain to condone? *Personality and Social Psychology Review, 3,* 254–268. http://dx.doi.org/10.1207/ s15327957pspr0303_8

Miller, D. T., & Prentice, D. A. (2016). Changing norms to change behavior. *Annual Review of Psychology, 67,* 339–361. http://dx.doi.org/10.1146/annurev-psych-010814-015013

Mirahmadi, H. (2016). Building resilience against violent extremism: A community-based approach. *Annals of the American Academy of Political and Social Science, 668,* 129–144. http://dx.doi.org/10 .1177/0002716216671303

Morens, D. M., & Fauci, A. S. (2007). The 1918 influenza pandemic: Insights for the 21st century. *The Journal of Infectious Diseases, 195,* 1018– 1028. http://dx.doi.org/10.1086/511989

Norwood, J. M., Schriner, E., & Wah, A. Y. (2020). KETEK. In D. M. Allen & J. W. Howell (Eds.), *Groupthink in science* (pp. 211–223). Cham, Switzerland: Springer Nature Switzerland AG. http:// dx.doi.org/10.1007/978-3-030-36822-7_18

O'Connor, M. A. (2003). The Enron board: The perils of groupthink. *University of Cincinnati Law Review, 71,* 1233–1320. Retrieved from

https://heinonline.org/HOL/LandingPage?handle_hein .journals/ucinlr71&div_55&id_&page_ 150 FORSYTH

Packer, D. J., & Ungson, N. D. (2017). Group decision- making: Revisiting Janis' groupthink studies. In J. R. Smith & S. A. Haslam (Eds.), *Social psychology: Revisiting the classic studies* (2nd ed., pp. 182–200). Los Angeles, CA: Sage.

Paluck, E. L. (2012). Interventions aimed at the reduction of prejudice and conflict. In L. R. Tropp (Ed.), *The Oxford handbook of intergroup conflict* (pp. 179–192). New York, NY: Oxford University Press.

Paluck, E. L., Green, S. A., & Green, D. P. (2019). The contact hypothesis re-evaluated. *Behavioural Public Policy, 3,* 129–158. http://dx.doi.org/10 .1017/bpp.2018.25

Paxton, P., & Moody, J. (2003). Structure and sentiment: Explaining emotional attachment to group. *Social Psychology Quarterly, 66,* 34–47. http://dx .doi.org/10.2307/3090139

Petty, R. E., & Cacioppo, J. T. (1984). The effects of involvement on responses to argument quantity and quality: Central and peripheral routes to persuasion. *Journal of Personality and Social Psychology, 46,* 69– 81. http://dx.doi.org/10.1037/ 0022-3514.46.1.69

Pratkanis, A. R. (Ed.). (2007). *The science of social influence: Advances and future progress*. New York, NY: Psychology Press.

Quinn, A., & Schlenker, B. R. (2002). Can accountability produce independence? Goals as determinants of the impact of accountability on conformity. *Personality and Social Psychology Bulletin, 28,* 472– 483. http://dx.doi.org/10.1177/0146167202287005

Rose, J. D. (2011). Diverse perspectives on the groupthink theory – A literary review. *Emerging Leadership Journeys, 4,* 37–57. Retrieved fromhttps://www.regent.edu/acad/global/publications/elj/vol4iss1/Rose_V4I1_pp37-57.pdf

Ross, L. (1977). The intuitive psychologist and his shortcomings: Distortions in the attribution process. *Advances in Experimental Social Psychology, 10,* 173–220. http://dx.doi.org/10.1016/S0065-2601(08)60357-3

Schachter, S. (1951). Deviation, rejection, and communication. *Journal of Abnormal and Social Psychology, 46,* 190–207.http://dx.doi.org/10.1037/h0062326

Schafer, M., & Crichlow, S. (2002). The processoutcome connection in foreign policy decision making: A quantitative study building on groupthink. *International Studies Quarterly, 46,* 45–68.http://dx.doi.org/10.1111/1468-2478.00222

Sheeran, P., Klein, W. M., & Rothman, A. J. (2017). Health behavior change: Moving from observation to intervention. *Annual Review of Psychology, 68,*573– 600. http://dx.doi.org/10.1146/annurevpsych 010416-044007

Skitka, L. J. (2010). The psychology of moral conviction. *Social and Personality Psychology Compass,4,* 267–281. http://dx.doi.org/10.1111/j.1751-9004.2010.00254.x

Snair, J., Nicholson, A., & Gimmaria, C. (2017). *Countering violent extremism through public health practice*. Washington, DC: National Academy of Sciences. http://dx.doi.org/10.17226/24638

Starcke, K., & Brand, M. (2012). Decision making under stress: A selective review. *Neuroscience and Biobehavioral Reviews, 36,* 1228–1248. http://dx.doi.org/10.1016/j.neubiorev.2012.02.003

Stern, J. (2016). Radicalization to extremism and mobilization to violence: What have we learned and what can we do about it? *Annals of the American Academy of Political and Social Science,668,* 102–117. http://dx.doi.org/10.1177/0002716216673807

Streufert, S., & Streufert, S. C. (1986). The development of international conflict. In S. Worchel &W. G. Austin (Eds.), *Psychology of intergrouprelations* (2nd ed., pp. 134–152). Chicago, IL: Nelson-Hall.

Swann, W. B., Jr., & Buhrmester, M. D. (2015). Identity fusion. *Current Directions in Psychological Science, 24,* 52–57. http://dx.doi.org/10.1177/0963721414551363

Tajfel, H. (1981). *Human groups and social categories*.New York, NY: Cambridge University Press.

Tankard, M. E., & Paluck, E. L. (2016). Norm perception as a vehicle for social change. *Social Issues and Policy Review, 10,* 181–211. http://dx.doi.org/10.1111/sipr.12022

Tropp, L. R., & Page-Gould, E. (2015). Contact between groups. In M. Mikulincer, P. R. Shaver, J. F. Dovidio, & J. A. Simpson (Eds.), *APA handbook of personality and social psychology* (Vol. 2,pp. 535–560). Washington, DC: American Psychological Association.

Tsikerdekis, M. (2013). The effects of perceived anonymity and anonymity states on conformity and groupthink in online communities: A Wikipedia study. *Journal of the*

American Society for Information Science and Technology, 64, 1001–1015. http://dx.doi.org/10.1002/asi.22795

Turner, M. E., & Pratkanis, A. R. (1998). A social identity maintenance model of groupthink. *Organizational Behavior and Human Decision Processes, 73*(2–3), 210–235. http://dx.doi.org/10 .1006/obhd.1998.2757

Van Tongeren, D. R., Burnette, J. L., O'Boyle, E., Worthington, E. L., Jr., & Forsyth, D. R. (2014). A meta-analysis of intergroup forgiveness. *The Journal of Positive Psychology, 9,* 81–95. http://dx.doi.org/10.1080/17439760.2013.844268

Willis, J. (2019). Moving toward extremism: Group polarization in the laboratory and the world. In S. C. Cloninger & S. A. Leibo (Eds.), *Understanding angry groups: Multidisciplinary perspectives on their motivations and effects on society* (pp.53–76). Santa Barbara, CA: Praeger.

Zhou, S., Page-Gould, E., Aron, A., Moyer, A., & Hewstone, M. (2019). The extended contact hypothesis: A meta-analysis on 20 years of research. *Personality and Social Psychology Review, 23,* 132–160.http://dx.doi.org/10.1177/1088868318762647

العمليَّة التعليميَّة والظاهرة الكورونيَّة

مراجعة الأدبيات

سوميترا بوكريل وروشان شيتري[1]

تسببت جائحة COVID-19 في أكبر اضطراب في أنظمة التعليم في تاريخ البشرية، حيث أثر على ما يقرب من 1.6 مليار متعلم في أكثر من 200 دولة. وأثر إغلاق المدارس والمؤسسات وأماكن التعلم الأخرى على أكثر من 94٪ من طلاب العالم، وقد أحدث هذا تغييرات بعيدة المدى في جميع جوانب حياتنا. وأدت سياسات التباعد الاجتماعي والحركة المقيدة بشكل كبير إلى اضطراب الممارسات التعليمية التقليدية. وتعد إعادة فتح المدارس بعد تخفيف القيود تحديًا آخر مع وضع العديد من إجراءات التشغيل القياسية الجديدة. وفي غضون فترة قصيرة من جائحة COVID-19، شارك العديد من الباحثين أعمالهم في التدريس والتعلم بطرق مختلفة. توقفت العديد من المدارس والكليات والجامعات عن تقديم التعليم الحضوري. وهناك خوف من خسارة العام الدراسي 2020 أو أكثر في المستقبل القريب. والحاجة الماسة هي ابتكار وتنفيذ نظام تعليمي واستراتيجيات تقييم بديلة. أتاحت لنا جائحة COVID-19 فرصة لتمهيد الطريق لإدخال التعلم الرقمي. وتهدف هذه المقالة إلى تقديم تقرير شامل عن تأثير جائحة COVID-19 على التدريس والعلم عبر الإنترنت لموضوعات مختلفة والإشارة إلى طريق التقدم.

مقدمة

انتشر التفشي العالمي لجائحة COVID-19 في جميع أنحاء العالم، مما أثر على جميع البلدان والأقاليم تقريبًا. وتم التعرف على الجائحة لأول مرة في ديسمبر 2019 في ووهان، الصين. وحذرت الدول في جميع أنحاء العالم الجمهور من توخي استجابة سريعة. وتضمنت استراتيجيات الرعاية العامة غسل اليدين وارتداء أقنعة الوجه والتباعد الجسدي وتجنب التجمعات. وتم وضع إستراتيجيات الإغلاق والبقاء في المنزل كإجراء ضروري لتسطيح المنحنى والتحكم في انتقال المرض (Sintema, 2020).

أعلنت بوتان أولاً إغلاق المدارس والمؤسسات وتقليص ساعات العمل خلال الأسبوع الثاني من مارس 2020 (Kuensel, 2020, 6 March). وتم تنفيذ الإغلاق الكامل على مستوى البلاد اعتبارًا من 1 أغسطس

[1] Pokhrel, S. & Chhetri, R. (2021) A Literature Review on Impact of COVID-19 Pandemic on Teaching and Learning. *Higher Education for the Future*, 8 (1), 133-141).

2020 (Palden, 2020). وفي ما بين ذلك، تم السماح بالتحركات، وبدأت المكاتب تعمل، وأعيد فتح المدارس والكليات لمستويات مختارة واستمرت في الفصل عبر الإنترنت للآخرين. وقد تأثر اليوم أكثر من 170.000 طفل في بوتان بإغلاق المدرسة. والتأثير بعيد المدى وقد أثر على التعلم خلال هذا العام الدراسي أو أكثر في الأيام القادمة. وأوقفت العديد من المدارس والكليات والجامعات التدريس المباشر. وهناك حاجة ملحة لابتكار وتنفيذ استراتيجيات تعليمية وتقييمة بديلة. إذ أتاحت جائحة COVID-19 فرصة تمهيد الطريق لإدخال التعلم الرقمي (Dhawan, 2020). ويسلط البحث الضوء على ندرة معينة مثل ضعف البنية التحتية للتدريس عبر الإنترنت، والتعرض المحدود للمدرسين للتدريس عبر الإنترنت، وفجوة المعلومات، والبيئة غير المواتية للتعلم في المنزل، والمساواة، والتميز الأكاديمي من حيث التعليم العالي. وتقيم تأثير جائحة COVID-19 على عملية التدريس والتعلم في جميع أنحاء العالم. وتم تلخيص تحديات وفرص التعليم عبر الإنترنت والتعليم المستمر خلال جائحة COVID-19 وطريقة التقدم.

علم أصول التدريس من أجل التعليم المستمر عبر الإنترنت

أدى الإغلاق وإجراءات التباعد الاجتماعي بسبب جائحة COVID-19 إلى إغلاق المدارس ومعاهد التدريب ومنشآت التعليم العالي في معظم البلدان. وهناك نقلة نوعية في الطريقة التي يقدم بها المعلمون تعليمًا جيدًا، من خلال العديد من المنصات عبر الإنترنت. أصبح التعلم عبر الإنترنت والتعليم عن بعد والتعليم المستمر حلاً سحريًا لهذا الوباء العالمي غير المسبوق، على الرغم من التحديات التي يواجهها كل من المعلمين والمتعلمين. ويمكن أن يكون الانتقال من التعلم التقليدي وجهًا لوجه إلى التعلم عبر الإنترنت تجربة مختلفة تمامًا للمتعلمين والمعلمين، والتي يجب عليهم التكيف معها مع وجود بدائل قليلة أو معدومة. وقد تبنى نظام التعليم والمعلمون "التعليم في حالات الطوارئ" من خلال العديد من المنصات عبر الإنترنت وهم مجبرون على اعتماد نظام غير مستعدين له.

لعبت أدوات التعلم الإلكتروني دورًا مهمًا خلال هذا الوباء، حيث ساعدت المدارس والجامعات على تسهيل تعلم الطلاب أثناء إغلاق الجامعات والمدارس (Subedi et al., 2020). وأثناء التكيف مع التغييرات الجديدة، يجب قياس استعداد الموظفين والطلاب ودعمهم وفقًا لذلك. إذ يجد المتعلمون ذوو **العقلية الثابتة** صعوبة في التكيف، بينما يتكيف المتعلمون ذوو **العقلية النامية** بسرعة مع بيئة التعلم الجديدة. لا يوجد أسلوب تعليمي واحد يناسب الجميع للتعلم عبر الإنترنت. وهناك مجموعة متنوعة من الموضوعات ذات الاحتياجات المختلفة. وتتطلب الموضوعات والفئات العمرية المختلفة مناهج مختلفة للتعلم عبر الإنترنت (Doucet et al., 2020). ويتيح التعلم عبر الإنترنت أيضًا للطلاب الذين يعانون من تحديات جسدية مزيدًا من الحرية للمشاركة في التعلم في البيئة الافتراضية، حيث يتطلب حركة محدودة (Basilaia & Kvavadze, 2020).

نظرًا لإغلاق المدارس للتعامل مع الوباء العالمي، شعر الطلاب وأولياء الأمور والمعلمين في جميع أنحاء العالم بالتأثير المضاعف غير المتوقع لوباء COVID-19. وبينما تبذل الحكومات والعاملين في الخطوط الأمامية والمسؤولين الصحيين قصارى جهدهم لإبطاء تفشي المرض، تحاول أنظمة التعليم مواصلة توفير تعليم جيد للجميع خلال هذه الأوقات الصعبة. وقد عانى العديد من الطلاب في المنزل ومكان المعيشة من

ضغوط نفسية وعاطفية ولم يتمكنوا من المشاركة بشكل منتج. ولم يتم بعد استكشاف أفضل ممارسات التعليم المنزلي عبر الإنترنت (Petrie, 2020).

قد يعتمد استخدام طرق التدريس المناسبة وذات الصلة للتعليم عبر الإنترنت على الخبرة والتعرض لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات (ICT) لكل من المعلمين والمتعلمين. وتتضمن بعض المنصات عبر الإنترنت المستخدمة حتى الآن منصات اتصال وتعاون موحدة مثل Microsoft Teams وGoogle Classroom وCanvas وBlackboard، والتي تسمح للمعلمين بإنشاء دورات تعليمية وبرامج تدريب وتطوير المهارات (Petrie, 2020). وهي تشمل خيارات الدردشة في مكان العمل واجتماع الفيديو وتخزين الملفات التي تحافظ على الفصول الدراسية منظمة وسهلة العمل. وعادةً ما تدعم مشاركة مجموعة متنوعة من المحتويات مثل Word وPDF وExcel وملفات الصوت والفيديو وغير ذلك الكثير. وتسمح أيضًا بتتبع تعلم الطلاب وتقييمهم باستخدام الاختبارات القصيرة والتقييم القائم على قواعد التقييم للواجبات المرسلة.

يُعد الفصل الدراسي المعكوس إستراتيجية بسيطة لتوفير مصادر التعلم مثل المقالات ومقاطع الفيديو المسجلة مسبقًا وروابط يوتيوب قبل الفصل الدراسي. ثم يتم استخدام وقت الفصل الدراسي عبر الإنترنت لتعميق الفهم من خلال المناقشة مع أعضاء هيئة التدريس والأقران (Doucet et al., 2020). هذه طريقة فعالة للغاية لتشجيع المهارات مثل حل المشكلات والتفكير النقدي والتعلم الموجه ذاتيًا. ويتم استخدام منصات الفصول الدراسية الافتراضية مثل مؤتمرات الفيديو (Google Hangouts Meet وZoom وSlack وCisco وWebEx) وأنظمة إدارة التعلم المستندة إلى السحابة القابلة للتخصيص مثل Elias وMoodle وBigBlueButton وSkype بشكل متزايد.

تحديات التدريس والتعلم

مع توفر بحر من المنصات والأدوات التعليمية عبر الإنترنت، يواجه المستخدمون - سواء المعلمين أو المتعلمين - عقبات متكررة أثناء استخدام أو الإشارة إلى هذه الأدوات. ويمكن تلخيص بعض التحديات التي حددها العديد من الباحثين وأبرزها على النحو التالي:

التحديات التي تم تحديدها على نطاق واسع مع التعلم الإلكتروني هي إمكانية الوصول، والقدرة على تحمل التكاليف، والمرونة، وعلم أصول التدريس، والتعلم مدى الحياة والسياسة التعليمية (Murgatrotd, 2020). تواجه العديد من البلدان مشكلات كبيرة في الاتصال بالإنترنت الموثوق به والوصول إلى الأجهزة الرقمية. في حين أن الأطفال المتخلفين اقتصاديًا في العديد من البلدان النامية غير قادرين على شراء أجهزة التعلم عبر الإنترنت، فإن التعليم عبر الإنترنت يشكل خطر التعرض لزيادة وقت الشاشة بالنسبة للمتعلم. لذلك، أصبح من الضروري للطلاب المشاركة في الأنشطة غير المتصلة بالإنترنت والتعلم الاستكشافي الذاتي. ويمثل نقص التوجيه الأبوي، خاصة بالنسبة للمتعلمين الصغار، تحديًا آخر، حيث يعمل كلا الوالدين. وهناك قضايا عملية حول مساحات العمل المادية تفضي إلى طرق مختلفة للتعلم.

لا يتأثر المتعلمون ذوو **الدافعية الداخلية** نسبيًا بتعلمهم لأنهم يحتاجون إلى الحد الأدنى من الإشراف والتوجيه، بينما تواجه المجموعة الضعيفة المكونة من الطلاب الضعفاء في التعلم صعوبات. وبعض المتعلمين الأكفاء أكاديميًا من خلفيات محرومة اقتصاديًا غير قادرين على الوصول إلى التعلم عبر الإنترنت

وتحمله. ومن المرجح أن ينخفض مستوى الأداء الأكاديمي للطلاب في الفصول الدراسية التي يتم عقدها لكل من امتحان نهاية العام والامتحان الداخلي بسبب انخفاض ساعات الاتصال للمتعلمين وعدم التشاور مع المعلمين عند مواجهة صعوبات في التعلم والفهم (Sintema, 2020).

يتم إجراء تقييمات الطلاب عبر الإنترنت، مع الكثير من التجربة والخطأ وعدم اليقين والارتباك بين المعلمين والطلاب وأولياء الأمور. ويختلف النهج المعتمد لإجراء الفحص عبر الإنترنت حسب الراحة والخبرة بين المعلمين وتوافق المتعلمين. ولم يتم بعد اتخاذ تدابير مناسبة للتحقق من الغش في العديد من المدارس والمؤسسات، ويرجع ذلك أساسًا إلى العدد الكبير من الطلاب. ولم يؤثر إغلاق المدارس والكليات على التقييمات الداخلية والامتحانات للمؤهلات العامة الرئيسية مثل الشهادة العامة للتعليم الثانوي (GCSE)، ولكن تم أيضًا إلغاء المستويات A للفوج بأكمله في المملكة المتحدة. واعتمادًا على مدة الإغلاق، قد يكون تأجيل أو إلغاء التقييم الكامل للامتحان احتمالًا كئيبًا (United Nations, 2020). وتم تأجيل امتحانات مجلس الإدارة المختلفة على مستوى الولاية وامتحانات التوظيف وامتحانات المستوى الجامعي وامتحانات القبول في جميع أنحاء الهند بسبب تفشي COVID-19 والإغلاق الوطني. وتم أيضًا تأجيل أو إعادة جدولة امتحانات القبول المختلفة (مثل BITSAT 2020 وNATA 2020 وCLAT 2020 وMAT 2020 و ATMA 2020). وتأثر نظام التعليم في المدارس والكليات والجامعات في جميع أنحاء البلاد بشدة بسبب الوضع المستمر.

من الممكن أيضًا أن تستفيد بعض وظائف الطلاب من الانقطاعات. على سبيل المثال، في النرويج، تقرر منح جميع طلاب الصف العاشر درجة المدرسة الثانوية. وأظهرت دراسة أجريت في فرنسا أن التخلي عن إجراءات الامتحانات العادية في فرنسا عام 1968، عقب أعمال الشغب التي قام بها الطلاب، أدى إلى نتائج إيجابية طويلة الأجل في سوق العمل بالنسبة للصف المتأثر (Maurin & McNally, 2008).

كما أن وقت المدرسة يرفع من مستوى الوعي والمهارات الاجتماعية إلى جانب كونه ممتعًا للأطفال. وهناك تداعيات اقتصادية واجتماعية ونفسية على حياة الطلاب وهم بعيدون عن الجدول العادي للمدارس. وقد أخذ العديد من هؤلاء الطلاب دروسًا عبر الإنترنت، وقضوا وقتًا إضافيًا على منصات افتراضية، مما ترك الأطفال عرضة للاستغلال عبر الإنترنت. وقد أدى الوقت المتزايد وغير المنظم الذي يقضيه التعلم عبر الإنترنت إلى تعريض الأطفال لمحتوى قد يكون ضارًا وعنيفًا بالإضافة إلى زيادة مخاطر التنمر عبر الإنترنت. ويعني إغلاق المدارس وتدابير الاحتواء الصارمة أن المزيد من العائلات تعتمد على التكنولوجيا والحلول الرقمية لإبقاء الأطفال يشاركون في التعلم والترفيه والتواصل مع العالم الخارجي، ولكن ليس كل الأطفال لديهم المعرفة والمهارات والموارد اللازمة للحفاظ على سلامتهم عبر الإنترنت.

في حالة التعلم عبر الإنترنت في بوتان، فإن غالبية المتعلمين هم من القرى الريفية حيث يكون الآباء في الغالب مزارعين أميين. ويشارك الطلاب في مساعدة أولياء الأمور في الأنشطة الزراعية مثل الزراعة ورعاية الماشية والأعمال المنزلية. وحتى أن بعض الطلاب طلبوا تأجيل موعد الامتحان حتى فترة ما بعد الظهر لأنهم اضطروا للعمل في الحقول خلال ساعات الصباح. وأعرب بعض الطلاب عن ضرورة ملازمة والديهم وأجدادهم وأفراد أسرهم المرضى ونقلهم إلى المستشفيات. وبحلول المساء، عندما يعودون إلى المنزل، يصعب

عليهم مواكبة الدروس. ويشعر الآباء والأمهات الذين كان أطفالهم في الصفوف الدنيا أنه سيكون من الأفضل ترك أطفالهم يعيدون العام الدراسي المقبل. ولا يستطيع غالبية الطلاب الوصول إلى الهواتف الذكية أو التلفزيون في المنزل بالإضافة إلى ضعف الاتصال بالإنترنت. ولا يوجد دخل لعدد كبير من السكان بسبب إغلاق الأعمال والمكاتب. وتعد حزمة البيانات (التكاليف) مرتفعة نسبيًا مقابل متوسط الدخل المكتسب، ويعد الوصول المستمر إلى الإنترنت عملاً مكلفًا لمجتمع المزارعين. ويتم تشجيع الدروس المباشرة (فيديو) عبر الإنترنت من قبل معظم الناس؛ ومع ذلك، أعرب بعض الطلاب (المحرومون اقتصاديًا) عن أن الفصل عبر الإنترنت وجهاً لوجه يستهلك المزيد من حزم البيانات. والمعلمون في ورطة حول من يستمعون إليه والأدوات التي يجب تبنيها. ويعتقد البعض أن مقاطع الفيديو المسجلة مسبقًا يمكن أن تساعد؛ ومع ذلك، فإن هذا من شأنه تقييد التفاعلات. ومن الصعب تصميم نظام مناسب ليناسب احتياجات التعلم وراحة جميع الطلاب.

فرص التدريس والتعلم

على الرغم من وجود تحديات هائلة للمعلمين والمدارس والمعاهد والحكومة فيما يتعلق بالتعليم عبر الإنترنت من زاوية مختلفة، إلا أن هناك العديد من الفرص التي أوجدتها جائحة COVID-19 للخطط غير المستعدة والبعيدة لتنفيذ نظام التعلم الإلكتروني. فقد أقامت علاقة قوية بين المعلمين وأولياء الأمور أكثر من أي وقت مضى. إذ يتطلب التعليم المنزلي من الآباء دعم تعلم الطلاب أكاديميًا واقتصاديًا. ويحتاج الأطفال ذوو الإعاقة إلى دعم إضافي خاص خلال حالة الطوارئ المستمرة هذه.

يتم استكشاف استخدام المنصات عبر الإنترنت مثل Google Classroom وZoom وبيئة التعلم الافتراضية والوسائط الاجتماعية والعديد من المنتديات الجماعية مثل Telegram وMessenger وWhatsApp وWeChat للتدريس والتعلم لأول مرة على الإطلاق لمواصلة التعليم. ويمكن استكشاف هذا بشكل أكبر حتى بعد استئناف التدريس وجهاً لوجه، ويمكن أن توفر هذه المنصات موارد إضافية وتدريبًا للمتعلمين.

المعلمون ملزمون بتطوير مبادرات إبداعية تساعد في التغلب على قيود التدريس الافتراضي. ويتعاون المعلمون بنشاط مع بعضهم البعض على المستوى المحلي لتحسين طرق التدريس عبر الإنترنت. وهناك فرص لا تضاهى للتعاون والحلول الإبداعية والاستعداد للتعلم من الآخرين وتجربة أدوات جديدة حيث يتبادل المعلمون وأولياء الأمور والطلاب تجارب مماثلة (Doucet et al., 2020). وتقدم العديد من المؤسسات التعليمية أدواتها وحلولها مجانًا للمساعدة في التدريس والتعلم ودعمهما في بيئة أكثر تفاعلية وجاذبية. وقد أتاح التعلم عبر الإنترنت الفرصة للتدريس والتعلم بطرق مبتكرة على عكس خبرات التدريس والتعلم في بيئة الفصل الدراسي العادية.

مناقشة

اعتبارًا من يوليو 2020 ، تأثر 98.6 ٪ من المتعلمين في جميع أنحاء العالم بالوباء، وتمثل 1.725 مليار طفل وشاب، من التعليم قبل الابتدائي إلى التعليم العالي، في 200 دولة (United Nations, 2020). لذلك، كان جعل التعلم ممكنًا ومتاحًا من التعليم المنزلي هو حاجة ماسة.

علم أصول التدريس المتاحة والمستخدمة للتعلم وجها لوجه ليست مجدية للتعلم عبر الإنترنت. وعلى الرغم من تصميم مجموعة من طرق التدريس للتعلم عبر الإنترنت والتعلم عن بعد، فإن المدرسين المتخلفين تقنيًا يحتاجون إلى التطوير المهني المناسب والتدريب من أجل توجيه أنفسهم نحو طلابهم.

التقييمات الحقيقية وردود الفعل في الوقت المناسب هي مكونات أساسية للتعلم. وجزء مهم للغاية من التعلم عن بعد عبر الإنترنت هو توافر التقييمات التكوينية المفيدة وردود الفعل في الوقت المناسب للمتعلمين عبر الإنترنت (Doucet et al., 2020). ووجد أن هذا يمثل تحديًا للمعلمين ونظام التعليم. وهو أكثر تحديًا في السياق البوتاني بسبب قوة الفصل الأكبر، ونقص البنية التحتية للتدريس عبر الإنترنت والتطوير المهني، والطبيعة غير التشاركية للطلاب.

"**ماسلو قبل بلوم**" هي العبارة الشائعة المستخدمة في دوائر التعليم. ويجب أن تكون هذه مهمة التعلم عبر الإنترنت لمواصلة التعليم خلال الوباء الحالي. وتُستخدم العبارة عادةً للتأكد من أن طلابنا آمنون واحتياجاتهم الأساسية متحققة قبل بدء التعلم عبر الإنترنت. إذ يتزايد العنف المنزلي وإساءة معاملة الأطفال لأن الجناة يتواجدون كثيرًا في المنزل أو في الحي، وهو إلهاء ذهني وتهديد للمتعلمين (Ravichandran & Shah, 2020). ونظرًا لأن الطلاب يواجهون الآن التعليم المنزلي خلال جائحة COVID-19، فإن البيئة المواتية في المنزل لجميع المعايير والظروف الاجتماعية والاقتصادية ليست موحدة. ويجب إجراء دراسات لدعم الفئات الأشد تضرراً اقتصادياً. ففي بوتان، هناك تقارير عن الطلاب الذين يتركون الدراسة أو يختارون التوقف عن الدراسة. وحدث هذا بسبب الاستراحة الطويلة التي فرضها إغلاق المدرسة خلال جائحة COVID-19. وعلى الرغم من عدم إجراء دراسات لتقييم التأثير المباشر للوباء على معدل التسرب، فإن البحث في هذا المجال من شأنه أن يبرز التفاصيل الواقعية.

هناك أنواع مختلفة من البنية التحتية عبر الإنترنت التي تم إعدادها من قبل العديد من الشركات التعليمية وجعلها مجانية للتعلم خلال هذه الجائحة. ولا تزال القدرة على تحمل التكاليف وإمكانية الوصول إلى هذه البنى التحتية عبر الإنترنت لجميع المتعلمين من خلفيات اقتصادية متنوعة تمثل تحديًا.

يحتاج الطلاب ذوو الاحتياجات الخاصة الذين يعانون من صعوبات في التعلم، مثل ضعف السمع وضعف البصر وإعاقات الحركة، إلى تدريب إضافي مع الدعم والتوجيه. والعديد من مقدمي الرعاية وأولياء الأمور في المنزل غير قادرين على تلبية هذه الاحتياجات، مما يعيق تعلم هذه المجموعة من المتعلمين. لذلك، هناك حاجة لاستثمار الوقت والموارد لاستكشاف والبحث عن أفضل البدائل للاحتياجات التعليمية الخاصة (SEN) لهؤلاء المتعلمين.

نظرًا لأن جميع مهام الطلاب والاختبارات يتم إجراؤها من المنزل، فمن الصعب على المعلمين العثور على أصالة العمل والتعلم الفعلي الذي يحدث. علاوة على ذلك، يقوم العديد من الآباء بتوجيه ودعم أطفالهم أثناء عملية التعلم الخاصة بهم، ويختلف مدى ودرجة الدعم بشكل كبير. ويعتبر تصنيف الطلاب مجالًا آخر للدراسة حيث لا يتم تطوير معايير مناسبة واستخدامها بشكل فعال.

استنتاج

خلصت الدراسة حول تأثير جائحة COVID-19 على التدريس والتعلم في جميع أنحاء العالم إلى أنه على الرغم من إجراء دراسات مختلفة، في حالة البلدان النامية، فإن طرق التدريس المناسبة ومنصة تعليمية مناسبة لمستويات مختلفة من التعليم الثانوي والمتوسط والابتدائي التعليم بحاجة إلى مزيد من استكشاف.

سعة الإنترنت المنخفضة نسبيًا مع نقاط وصول أقل، وحزم البيانات مكلفة مقارنة بدخل الناس في العديد من البلدان النامية، يجعل إمكانية الوصول والقدرة على تحمل التكاليف غير كافية. ومطلوب تدخل على مستوى السياسة لتحسين هذا الوضع. ومزيد من الاستكشاف والتحقيق في علم أصول التدريس الفعال للتعليم والتعلم عبر الإنترنت هو مجال للبحث. وتم العثور على الحاجة إلى تطوير أدوات لإجراء تقييمات موثوقة وردود الفعل في الوقت المناسب كمجال آخر للدراسة. وتم تحديد القدرة على تحمل التكاليف وإمكانية الوصول لجميع المتعلمين من خلفيات اقتصادية متنوعة على أنه تحد، ويمكن لمطور الأدوات التعليمية التركيز على التخصيص من أجله. والتدخل على مستوى السياسة أمر حيوي أيضًا. ويحتاج نظام التعليم في جميع أنحاء العالم بما في ذلك بوتان إلى الاستثمار في التطوير المهني للمعلمين، وخاصة في مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات وطرق التدريس الفعالة، مع مراعاة السيناريو الحالي. إن جعل التدريس عبر الإنترنت إبداعيًا ومبتكرًا وتفاعليًا من خلال أدوات سهلة الاستخدام هو المجال الآخر للبحث والتطوير. وهذا من شأنه أن يساعد ويجهز نظام التعليم لمثل هذه التحديات في المستقبل.

الدرس المستفاد من جائحة COVID-19 هو أنه يجب توجيه المعلمين والطلاب المتعلمين لاستخدام أدوات تعليمية مختلفة عبر الإنترنت. وبعد جائحة COVID-19 عندما تستأنف الفصول العادية، يجب تشجيع المعلمين والمتعلمين على الاستمرار في استخدام هذه الأدوات عبر الإنترنت لتعزيز التدريس والتعلم.

المراجع

Basilaia, G., & Kvavadze, D. (2020). Transition to online education in schools during a SARS-CoV-2 coronavirus (COVID-19) pandemic in Georgia. *Pedagogical Research*, 5(4), 10. https://doi.org/10.29333/pr/7937.

Dhawan, S. (2020). Online learning: A panacea in the time of COVID-19 crises. *Journal of Educational Technology*, 49(1), 5–22. https://doi.org/10.1177/0047239520934018.

Doucet, A., Netolicky, D., Timmers, K., & Tuscano, F. J. (2020). *Thinking about pedagogy in an unfolding pandemic* (An Independent Report on Approaches to Distance Learning during COVID-19 School Closure). Work of Education International and UNESCO. https://issuu.com/educationinternational/docs/2020_research_covid-19_eng

Guidance Note on Education Systems' Response to COVID19. (2020, March). p. 6.

Kuensel. (2020, March 6). *First confirmed coronavirus case in Bhutan*. Kuensel. https:// kuenselonline.com/first-confirmed-coronavirus-case-in-bhutan/

Maurin, E., & McNally, S. (2008). Vive la révolution! Long-term educational returns of 1968 to the angry students. *Journal of Labor Economics*, 26(1). https://doi.org/10.1086/522071

Murgatrotd, S. (2020, March). *COVID-19 and Online learning, Alberta, Canada*. doi:10.13140/RG.2.2.31132.85120

Palden, T. (2020, August 12). Women test COVID-19 positive after five tests locking down entire country. *Kuensel*, pp. 1–2.

Petrie, C. (2020). *Spotlight: Quality education for all during COVID-19 crisis* (hundred Research Report #01). United Nations. https://hundred.org/en/collections/qualityeducation-for-all-during-coronavirus

Ravichandran, P., & Shah, A. K. (2020, July). Shadow pandemic: Domestic violence and child abuse during the COVID-19 lockdown in India. *International Journal of Research in Medical Sciences*, 08(08), 3118. https://doi.org/10.18203/2320-6012.ijrms20203477

Sintema, E. J. (2020, April 7). Effect of COVID-19 on the performance of grade 12 students: Implications for STEM education. *EURASIA Journal of Mathematics, Science and Technology Education*, 16(7). https://doi.org /10.29333/ejmste/7893

Subedi, S., Nayaju, S., Subedi, S., Shah, S. K., & Shah, J. M. (2020). Impact of e-learning during COVID-19 pandemic among nurshing students and teachers of Nepal. International *Journal of Science and Healthcare Research*, 5(3), 9.

United Nations. (2020). *Policy brief: Education during COVID-19 and beyond. United Nations*. https://www.un.org/development/desa/dspd/wpcontent/uploads/sites/22/2020/08/sg_policy_brief_covid-19_and_education_august_2020.pdf.

علماء مؤسسون منسيون

بارتليت وويتمر وهولزكامب

أبطال مجهولون في الذاكرة الأكاديمية النفسية

مؤسس علم النفس الأنثروبولوجي: فريدريك **بارتليت**، ومؤسس علم النفس الإكلينيكي: لايتنر **ويتمر**، ومؤسس علم النفس النقدي: كلاوس **هولزكامب**، مجهولون! لا نجدُ إشارة لهم في الكتب التاريخية والمنهجية المرجعيَّة، أو – في حالة أحدهم: بارتليت – إشارة إجمالية إختزالية في حقلٍ لم يُشكل ميدان اهتمامه الأساس! هذه حالة غريبة للوهلة الأولى، إلا أنها ليست كذلك ضمن ديناميات **الذاكرة التاريخية**، فالذاكرة التاريخية العلمية التخصصية لا تختلف عن الاجتماعية في ديناميات التذكر والنسيان. ولذلك، وفاءً لهذهِ الشخصيات الرائِدَة، ودرساً في الذاكرة التاريخية، فتحت المجلة العراقية لعلم النفس الاجتماعي والسياسي هذا الملف، لتسليط الضوء على **أبطالٍ مجهولين** من علماء النفس.

فريدريك بارتليت
(969-1886)

لايتنرويتمر
(1959-1867)

كلاوس هولزكامب
(1995-1927)

فريدريك بارتليت (1886-1969)

مؤسس علم النفس الأنثروبولوجي

ولد فريدريك تشارلز **بارتليت** Frederic Charles Bartlett، الابن الثاني لعائلة من الطبقة المتوسطة، في 20 أكتوبر 1886 في ستو أون ذا وولد (جلوسيسترشاير). التحق بالمدرسة الابتدائية في مسقط رأسه، وعندما كان في سن الرشد لبدء التعليم الثانوي، كان لا بد من التخلي عن خطط عائلته لإرساله إلى مدرسة عامة (لم تكن هناك مدرسة قواعد محلية في المدينة) بسبب نوبة التهاب رئوي تعرض له في سن الرابعة عشرة، مما أجبره على البقاء في المنزل لفترة طويلة من الزمن. نتيجة لهذا النقاهة، تلقى تعليمه الذاتي في قراءاته

الأولى، وساعده والده ووزير المدينة، الذي كان لديه مكتبة خاصة كبيرة إلى حد ما. وأيضًا، في هذه المرحلة بدأ في تطوير أحد شغفه مدى الحياة: لعبة الكريكيت (Oldfield, 1972).

عندما حان الوقت لبدء تعليمه الجامعي، قرر متابعة دورة بالمراسلة من خلال كلية المراسلة بالجامعة التي كانت تقع في كامبريدج، بينما كان يعتمد على جامعة لندن. وكما قال Bartlett نفسه (Bartlett, 1936)، كانت قراءاته الأولى في علم النفس هي أعمال ستاوت (Stout (1896,1899, 1903، والمقال الشهير الذي كتبه وارد في الموسوعة البريطانية (1886). وقرأ أيضًا دليل علم النفس التجريبي لـ (Myers (1909، وذهب إلى حد إجراء بعض التجارب الموصوفة هناك مع المواد التي أعدها بنفسه في منزله. وفي الوقت نفسه، طور أيضًا اهتمامًا شديدًا بالسياسة.

حصل على بكالوريوس في الفلسفة عام 1909 مع مرتبة الشرف الأولى، مما منحه دعوة كمدرس في جميع مجالات الفلسفة في كلية المراسلات الجامعية (Oldfield, 1972). وعمله كمدرس لم يمنعه من الحصول على درجة الماجستير في الآداب عام 1911 من جامعة لندن بامتياز في علم الاجتماع والأخلاق. وعلى الرغم من ذلك، كان اهتمامه الرئيسي في ذلك الوقت ينصب على المنطق، وتركزت منشوراته الأولى على هذا الموضوع (Bartlett, 1913, 1914).

قرر Bartlett فيما بعد البدء في الدراسة مرة أخرى كطالب جامعي في كامبريدج. كان إعجابه بعمل William Halse Rivers واهتمامه بالأنثروبولوجية هما سبب دخوله كلية سانت جونز لقراءة العلوم الأخلاقية. نصحه Rivers، الذي ترك دراساته في علم وظائف الأعضاء وعلم نفس الأحاسيس جانبًا من أجل البحث الأنثروبولوجي، بالعمل في علم النفس كوسيلة لإعداد نفسه بشكل منهجي للعمل في الأنثروبولوجية. هناك أيضًا حظي بامتياز تعيين James Ward كأستاذ في الدورة الدراسية الأخيرة التي قدمها قبل تقاعده في سن 71. كان على الطلاب الذين يحضرون هذه الدورة أن ينفذوا أربع ساعات في الأسبوع من العمل المخبري التجريبي. هذه هي الطريقة التي التقى بها Bartlett مع Charles Samuel Myers، الذي أدار في ذلك الوقت مختبر كامبريدج لعلم النفس، وأيضًا Cyril Burt، الذي عمل كمساعد مختبر. وتولى Bartlett هذا المنصب الأخير عندما استقال Burt في عام 1914. وبحلول ذلك الوقت كان قد تخرج بالفعل في العلوم الأخلاقية بامتياز. قال Bartlett نفسه (1957)، عند استعراض ملاحظاته عن تلك الأيام، أن عمله يشير إلى Helmholtz وHering وWundt, Blix وGoldshleider وVon Frey وG.E. Müller وKraepelin ومدرسة ويرزبيرغ وWilhelm Stern، و"القليل، القليل جدًا، من علم النفس الجديد للاختبارات العقلية، وشكل ترابط الكلمات لـ Jung. لقد كان الألمان والألمان طوال الطريق، وإذا كنا كذلك سوف نلتزم بعلم النفس، ثم إلى ألمانيا عاجلاً أم آجلاً يجب أن نذهب جميعًا بالتأكيد" (1956, p.83).

من أجل الاعتراف الكامل بالتدريب الفكري لBartlett واهتماماته المبكرة، سيكون من الحكمة إلقاء نظرة على بيئته في هذه السنوات. يبدو أن المشهد في كامبريدج في ذلك الوقت كان ممتعًا بشكل خاص. كان ذلك عندما عمل Russell و Whitehead معًا في كلية ترينيتي لإعداد "مبادئ الرياضيات"، وعندما بدأ Wittgenstein الشاب دراسته مع Russell. وكان هناك أيضًا JM Keynes الذي بدأ العمل في الجامعة، حيث أصبح لاحقًا أستاذًا حتى وفاته في عام 1946. في ذلك الوقت، ولدت مدرسة كامبردج للنقد الأدبي والتي

كانت بلا شك متأثرة بكل هؤلاء المفكرين. باختصار، كانت بيئة ليبرالية حيث يمكنك أن تجد تبادلًا مستمرًا وطليقًا للمعرفة والأفكار بين أشخاص من مجالات متنوعة للغاية. وليس هناك ما يشير إلى وجود علاقة بين Bartlett و"مجموعة كلية ترينيتي". ومع ذلك، يبدو أن دائرة أصدقائه ومعارفه وزملائه من مجموعة واسعة من المجالات المختلفة (علماء الرياضيات، والمؤرخون، وعلماء اللغة، ودارسوا الأدب) ساعدوه في الحفاظ على رؤية منفتحة لعمله في علم النفس. تشكلت صداقة Bartlett مع Norbert Weiner، من بين آخرين، في هذا الوقت. كان Weiner هو الذي قدم الاقتراح الذي ظهرت من أجله فكرة طريقة إعادة الانتاج التسلسلي. وقد استخدم هذه الطريقة لاحقًا بصرامة وعلى نطاق واسع (Bartlett,1957, Oldfield, 1972).

كان لبداية الحرب العالمية الأولى تأثير قوي على مشهد كامبريدج. انضم Rivers وMyers، بصفتهما أطباء ، إلى القوات المسلحة. ولم يتم أخذBartlett للتجنيد بسبب مرضه السابق، لذلك ظل نائب رئيس المختبر أثناء غياب Myers. وفي العام نفسه، 1914، بدأ تجاربه في الإدراك والتخيل. خلال هذه التجارب، تم لفت انتباهه إلى الطريقة التي يستخدم بها المشاركون ذكرياتهم. وأثناء مناقشة هذه المسألة مع Ward - الذي التقى به بانتظام للتعليق على تحقيقه - اكتشف تجارب Jean Philippe (1897) التي تم فيها تقديم المواد المصورة إلى الأشخاص الذين اضطروا إلى إعادة إنتاجها مرارًا وتكرارًا بعد فترات زمنية معينة. وستكون هذه الطريقة هي الطريقة التي يتبعهاBartlett ، حيث تقوم بتغيير المواد وإعطاء فترات زمنية أطول بين كل إعادة انتاج مطلوبة (Bartlett, 1932, 1957).

شكلت هذه التجارب أساسًا لأطروحته، التي قدمت في عام 1916 من أجل قبوله كزميل، والتي حصل عليها عام 1917. كانت أطروحته نتيجة التقاء بين نهج أنثروبولوجي ونهج نفسي يمكن للمرء أن يرى فيه قدرًا كبيرًا التأثير من Rivers (خاصة من عمل Rivers على التقعيد، 1912) وأيضًا من Haddon (1894). كان هدفه هو استكشاف الآليات النفسية التي تتغير فيها أشكال ثقافية معينة - رمزية وسردية - عند الانتقال من شكل ثقافي إلى آخر، حتى تتوافق مع أعراف المجموعة التي تستوردها. خلال هذه العملية، قد تفقد المادة المستوردة شكلها التمثيلي الأولي، وينتهي بها الأمر في حالة رمزية اعتباطية أو تقليدية. كان نيته في هذه التجارب على وجه التحديد هو تتبع هذه العملية وإيجاد المحددات النفسية من خلال التجريب مع المشاركين الأفراد، وبعد ذلك، مع المجموعات. وتم نشر بعض أجزاء هذه التجارب على الفور (Bartlett,1916b)، في حين أن بعض الأجزاء الأخرى ستتبع في السنوات اللاحقة (Bartlett, 1920a, 1921)، واستخدمت في تأملات لاحقة حول نفس المشكلات (1925, 1927a). ويحدد في هذه المنشورات اللاحقة عملية تطوير المواد التي تم جمعها خلال الحرب العالمية الأولى، والتي كان من المقرر استخدامها لاحقًا في التذكر. خلال هذه الفترة نفسها، استمر Bartlett في اهتماماته الفلسفية. وانضم إلى جمعية أرسطو في عام 1915، في الوقت نفسه الذي انضم فيه A.N. Whitehead، وساهم في بعض الأوراق بعد فترة وجيزة (Bartlett, 1916c, 1917, 1918). وعندما انتهت الحرب، عاد Myers لمواصلة عمله كرئيس للمختبر وتم ترقيته إلى ريدر في علم النفس التجريبي، وركز بشكل أساسي على الكتابة، والابتعاد عن الأنشطة التعليمية والتجريبية. وبحلول ذلك الوقت، نجحا معًا في إنشاء دبلوم في علم النفس الطبي بتمويل من صندوق المنح الطبية.

كان عام 1922 عام الأحداث الهامة في حياة Bartlett. يتعلق أولهما بعلاقته مع Myers والمختبر. وفي ذلك العام، تخلى Myers عن حياته الأكاديمية واستقال من منصبه كرئيس للمختبر وأسس المعهد الوطني لعلم النفس الصناعي. وعند مغادرته قدم تبرعًا ماليًا شخصيًا وحصل أيضًا على دعم مجلس أبحاث الصحة الصناعية ومجلس البحوث الطبية. مكنت هذه الموارد من زيادة عدد أعضاء القسم إلى ثلاث محاضرات: علم الأمراض النفسية، وعلم النفس التجريبي، وسلوك الحيوان. ثم تولى Bartlett إدارة المختبر والمحاضرة في علم النفس التجريبي. خلال هذه الفترة كان عليه أن يكرس نفسه لتوحيد وتوسيع الأنشطة في المختبر، ولاستكشاف واحدة من اهتماماته المبكرة: الأنثروبولوجية الاجتماعية. وحدث مهم آخر في عام 1922 كان الوفاة غير المتوقعة لـ W.H. Rivers . وكما يشير Broadbent (1970)، من هذا العام فصاعدًا قاد Bartlett علم النفس في كامبريدج بصفته كبير المحاضرين. وخلال الفترة المتبقية من عشرينيات القرن الماضي، كرس Bartlett جزءً مهمًا جدًا من جهوده لبناء قسمه حتى يتولى دورًا مهمًا في الجامعة. وتضمنت أنشطته التعليمية خلال هذه الفترة منطقيًا علم النفس التجريبي، ولذا نشر دليلًا حول هذا الموضوع، بالتعاون مع Myers (Myers & Bartlett, 1925). كما قام بتدريس مقرر بعنوان علم النفس والثقافة البدائية الذي شكل أساس كتاب يحمل نفس العنوان (Bartlett, 1923). وكان ذلك الوقت تقريبًا عندما حاضر في دورة في تطبيق علم النفس على المشكلات العسكرية، مما نتج عنه كتاب آخر بعنوان علم النفس والجندي (1927b).

كما ذكر Bartlett نفسه (Bartlett, 1957)، ظل التقعيد مصدر اهتمامه الرئيسي في ذلك الوقت. وتم تجميع المواد التي أنتجها (Bartlett, 1920a, 1920b, 1921, 1924, 1925) في وقت لاحق وإعادة تفسيرها في التذكر. ثم كتب أيضًا مقالًا بعنوان "مساهمة في الدراسة التجريبية لعمليات التقعيد" والذي سيتم تضمينه لاحقًا في التذكر. وذهب إلى حد توقيع عقد مع مطبعة جامعة كامبريدج لطباعة كتاب حول الموضوع نفسه، كتب منه حتى بضعة فصول (على الرغم من أنه مزقها لاحقًا بسبب عدم رضاه عنها).

في عامي 1920 و 1923 على التوالي، تم عقد مؤتمر الفلسفة والمؤتمر السابع لعلم النفس. سمح هذا لBartlett بالالتقاء شخصيًا مع Boring وKoffka وKöhler وMichotte، من بين آخرين، لتكوين صداقة طويلة الأمد مع الأخير. وJohn Watson، الذي كان ينوي الحضور، لم يتمكن في النهاية من الذهاب إلى هذه المؤتمرات بسبب الظروف التي أدت إلى طلاقه واستقالته من جامعة جون هوبكنز. وفي عام 1924، أصبح Bartlett محررًا في "المجلة البريطانية لعلم النفس"، واستمر في هذه المهمة حتى عام 1948. وخلال عشرينيات القرن العشرين، تكثفت علاقته بـ Henry Head، حيث تعارفا من خلال Myers وRivers. وكانا يجتمعان بانتظام في لندن، حيث ناقشا أجزاء من مخطوطة فقدان القدرة على الكلام والاضطرابات العينية في الكلام (Head, 1926)، والتي كان Head يكتبها في ذلك الوقت نتيجة لتجربته مع الجنود المصابين خلال الحرب العالمية الأولى. وناقش عمل Bartlett في هذه الفترة، والذي، كما ذكر من قبل، يتألف من سلسلة وعمليات التقعيد المتكررة. وستؤثر هذه المناقشات بشدة على التطور اللاحق لأفكار Bartlett حول مفهوم المخطط الذي تم تقديمه بالفعل في دليل علم النفس التجريبي لـ Myers (1911) (راجع Oldfield and Zangwill, 1942a, p.283). وتمثل مراجعتي Bartlett لهذا الكتاب (1926a & b)، بحسب Oldfield

and Zangwill (1942b)، إعادة صياغة أولية لهذا المفهوم، والتي كانت تتعلق في الأصل بـ Head. ويشير Bartlett نفسه إلى أن الكتاب في رأيه مهم للغاية للتطور المستقبلي لعلم النفس.

في عام 1929 سافر إلى جنوب إفريقيا حيث ألقى محاضرة بصفته رئيس قسم علم النفس في الجمعية البريطانية لتقدم العلوم. يُظهر هذا الحديث وجهة نظر Bartlett حول المدارس المختلفة لعلم النفس الموجودة في ذلك الوقت، مثل النظريات السلوكية، والجشطالت، ونظريات Spearman وJaensch؛ ويعزز نقده السابق للسلوكية (Bartlett, 1927c; Bartlett & Smith, 1920). ومستفيدًا من إقامته في جنوب إفريقيا، قرر السفر إلى داخل القارة الأفريقية لجمع بعض المواد متعددة الثقافات التي سيستخدمها لاحقًا في التذكر والعديد من الأعمال الأخرى.

في عام 1931، أنشأت جامعة كامبريدج كرسيًا لعلم النفس التجريبي تم منحه إلى Bartlett. في العام التالي نشر كتاب "التذكر" (1932)، بلا شك أهم أعماله المطبوعة. إنه تجميع وتوليف لعمله السابق الذي أضاف إليه مفهوم المخطط لـ Henry Head، والذي سمح له بإعادة تفسير بعض بياناته السابقة.

في هذه المرحلة، بدأ Bartlett في الحصول على قدر كبير من التقدير والتكريم لعمله. ففي عام 1930 أصبح عضوًا مشاركًا في الجمعية الفرنسية لعلم النفس. وفي عام 1932 تم ترشيحه كزميل في الجمعية الملكية، وفي عام 1937 حصل على درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة أثينا. ولبقية هذا العقد، ركز Bartlett على محاولة تحقيق توليفة بين علم النفس والأنثروبولوجية تسمح بإعادة تأسيس علم النفس الاجتماعي على أساس جديد وصلب. لهذا الغرض، مع زملائه من التخصصات الأخرى، عُقد سلسلة من الاجتماعات مرتين في السنة من عام 1935 إلى عام 1938، والتي جمعت معًا علماء النفس وعلماء الاجتماع وعلماء الأنثروبولوجية، بهدف إنشاء أساس منهجي، وليس أساسًا مذهبياً. وكان نتيجة هذه الأنشطة مجلد ساهم فيه Bartlett بعنوان: "دراسة المجتمع: المناهج والمشاكل (Bartlett, Ginsberg, Lindgren & Thouless, 1939a).

كان ذلك خلال هذه السنوات عندما انخرط Bartlett بشكل متزايد في البحث في علم النفس التجريبي التطبيقي. وفي عام 1935، قرر مجلس البحوث الطبية إنشاء محاضرة في مختبر كامبريدج لعلم النفس الصناعي. كان هذا العمل موجها بشكل أساسي بشكل وثيق نحو القوات المسلحة. وفي نفس الفترة تقريبًا بدأ العمل كمستشار لسلاح الجو الملكي، كعضو في لجنة أبحاث الموظفين الجويين بوزارة الطيران. ودفع اندلاع الأعمال العدائية في الحرب العالمية الثانية مختبر كامبريدج لتوجيه أنشطته نحو المجهود الحربي. كان ذلك عندما انضم Kenneth Craik إلى المختبر، في البداية كباحث مساعد، ثم كأول مدير لوحدة علم النفس التطبيقي (التي تأسست عام 1944)، والتي رعاها أيضًا مجلس البحوث الطبية، ومخصصة للبحث النفسي المطبق على مشاكل عسكرية. وبفضل مساعدة Craik، تقدم Bartlett بعمله في اتجاهات جديدة لم يتم تطويرها إلا نادراً حتى ذلك الحين، مثل المهارات الجسدية - وهي مسألة طالما كانت مهتماً بها بسبب حبه للكريكيت والتنس الذي تطور في شبابه (Oldfield, 1972). ومع ذلك، لم يأت Bartlett أبدًا إلى كتابة دراسة تشرح أفكاره النظرية حول هذه الأمور، ومحاضرة فيرير في الجمعية الملكية (Bartlett, 1943) هي أحد الملخصات التي تناسب هذا الغرض على أفضل وجه. ومساهمة Bartlett في هذا المجال خلال الحرب

والسنوات التالية لها أهمية كبيرة، نتيجة لمطالب من كل من المؤسسات البريطانية والأمريكية. وخلال الحرب حصل على العديد من الأوسمة الهامة. في عام 1941 أصبح كوماندور، وفي عام 1943 حصل على ميداليتي بالي وهكسلي من الجمعية الملكية. وفي عام 1948 حصل على لقب فارس. وحصل على الدكتوراه الفخرية من عدة جامعات، وهي برينستون (1947) ولوفان (1949) ولندن (1949)، وزار الولايات المتحدة حيث أظهر مهارته كناقد في علم النفس، وعلق على مسار علم النفس الذي كان يأخذها هناك في ذلك الوقت (Bartlett, 1947).

يرى Broadbent (1970) أن السنوات التي تلت الحرب كانت الأبرز في سيرة Bartlett. كان يبلغ من العمر 60 عامًا بالفعل، لكنه وجد طاقة كافية بداخله لتطوير سلسلة من الاستقصاءات حول القدرات البشرية المعقدة التي تنتج في كل موقف جديد تسلسلًا جديدًا ومتكيفًا تمامًا من الحركات. وعلى هذا المنوال اختلطت اهتماماته السابقة بالتطورات السابقة لـ Kenneth Craik. كانت إحدى نقاط عمله في هذا الوقت هي إعداد كتابه عن التفكير (1958). يشير Oldfield (1972) إلى أن Bartlett فكر لفترة طويلة في إمكانية تكييف الأساليب التي استخدمها في التذكر مع أنواع معينة من عمليات التفكير. يصبح هذا واضحًا إذا نظر المرء إلى ببليوغرافية Bartlett في أواخر عشرينيات القرن العشرين وخاصة في ثلاثينيات القرن العشرين (Bartlett, 1925,1927a, 1937, 1938, 1939b). كحالة المهام حيث تم تقديم القصص المفتوحة للمشاركين الذين كان عليهم إكمال القصة بأكثر الطرق المعقولة. تظهر ظاهرة "الإكمال" هذه حتى دون وعي، وتلقي الضوء على كيف أن المخططات، كطريقة لتنظيم التجربة السابقة، تقود المرء نحو العمليات البناءة والتنبؤية (1938). وتم دمج شغفه بالقدرات الرياضية والبدنية أيضًا في تجربة التفكير البناء كنشاط عملي. وكانت النتيجة مجموعة من الدراسات التجريبية عن التفكير.

في عام 1952 تقاعد من كرسيه وحصل على الميدالية الملكية وكذلك جائزة لونغاسر من جمعية الطب الجوي. وبعد تقاعده حصل على تقدير من مجتمع البحث. وزادت مجموعته من درجات الدكتوراه الفخرية مع مجموعات جديدة من جامعات إدنبرة (1961) وأكسفورد (1962) وبادوا (1965). وتم انتخابه أيضًا عضوًا مشاركًا أجنبيًا في الأكاديمية الوطنية الأمريكية الشمالية للعلوم، وأكاديمية أمريكا الشمالية للفنون (1959)، والجمعية الفلسفية الأمريكية، وعُين عضوًا فخريًا في الجمعيات النفسية الوطنية في السويد (1952)، وإسبانيا (1955)، وسويسرا (1956)، وتركيا (1957)، وإيطاليا (1963)، وكذلك عضواً في الجمعية الدولية لعلم النفس التجريبي (1958)، ورئيس الجمعية البريطانية لعلم النفس (1950). وتوفي في 30 سبتمبر (1969) عن عمر يناهز 82 عامًا بعد مرض قصير.

لايتنر ويتمر (1867-1959)

مؤسس علم النفس الإكلينيكي

افتتح لايتنر **ويتمر** Lightner Witmer أول عيادة نفسية في عام 1896، واتخذ أيضًا عددًا من الخطوات الحاسمة الأخرى في إنشاء وتعريف مجال علم النفس الإكلينيكي. كان Witmer واحدًا من أوائل الأمريكيين الذين حصلوا على درجة الدكتوراه عند Wilhelm Wundt. وكان عضوًا أساسياً في الجمعية النفسية الأمريكية وآخر من مات. ومن الواضح أنه شخصية مهمة في تاريخ علم النفس، ومع ذلك لم يتوفر سوى

القليل من المعلومات عن سيرته الذاتية، حياته ومهنته، يبرز بدايات عيادته، ويقيم أهمية إسهاماته. وفي أواخر صيف عام 1892، عاد Lightner Witmer، الذي كان آنذاك شابًا يبلغ من العمر 25 عامًا، على متن سفينة بخارية من أوروبا، حيث حصل على درجة الدكتوراه في علم النفس تحت إشراف Wilhelm Wundt. وفي طريقه إلى المنزل توقف في لندن لتقديم ورقة بحثية عن أطروحته في المؤتمر الدولي لعلم النفس التجريبي. كان يعود إلى جامعة بنسلفانيا، حيث كان مساعدًا لـ James McKeen Cattell قبل الذهاب إلى لايبزيغ. وعندما قبل Cattell منصبًا في كولومبيا في عام 1891، تم الاتفاق على أن يذهب Witmer إلى لايبزيغ للعمل على درجة الدكتوراه، وإذا نجح، فسيعود بعد ذلك لتولي إدارة مختبرات بنسلفانيا. وهكذا، في خريف عام 1892، بدأ فترة في كلية بنسلفانيا استمرت 45 عامًا. وتبعت إقامة Witmer في لايبزيغ إقامة Frank Angellوتداخلت مع إقامة Edward B. Titchener . وفي نفس الوقت الذي تولى فيه Witmer المختبر في جامعة بنسلفانيا، افتتح Angell علم النفس السابق في جامعة ستانفورد التي تأسست حديثًا، وحل Titchener محل Angell في كورنيل. في ذلك الخريف نفسه، بدأ Miinsterberg فترة عمله في جامعة هارفارد. وكان علم النفس الأمريكي يأخذ شكلاً سيظل قائماً لسنوات عديدة قادمة. تأسست الجمعية النفسية الأمريكية (APA) أيضًا في عام 1892، وكان Witmer، إلى جانب شخصيات أخرى مبكرة مثل G. Stanley Hall و William James و George Ladd وCattell، أحد أعضاء ميثاقها. وعُقد أول اجتماع سنوي لها في جامعة بنسلفانيا في ديسمبر من ذلك العام، وقرأ ورقتين (Witmer, 1894b)، أحدهما عن جماليات الشكل البصري، وموضوع أطروحته، والآخر عن الفروق الفردية في زمن رد الفعل.

كانت هذه، إذن، بداية مسيرة Witmer المهنية. ينبع موقعه المتميز في تاريخ علم النفس، بالطبع، من دوره المركزي في إنشاء وتطوير علم النفس الإكلينيكي. فكما هو معروف، أسس Witmer أول عيادة نفسية في العالم في جامعة بنسلفانيا في عام 1896. وتبع هذا الحدث المهم عدد من المساهمات الرائدة الأخرى في المجال السريري. تتضمن هذه الدعوة الصريحة لإنشاء مجال جديد في علم النفس يكون مكرسًا لمساعدة الناس ويعرف باسم علم النفس الإكلينيكي، وتطوير المنهج الأول في علم النفس الإكلينيكي، وتأسيس المجلة الأولى المكرسة حصريا لهذه المهنة الجديدة. ومع ذلك، لم تكن أهم إجراءات Witmer حدثًا محددًا، بل الفكرة، البصيرة القائلة بأن علم النفس الجديد، الذي كان في ذلك الوقت في أول تدفق للإثارة كعلم تجريبي، قد يكون أيضًا مفيدًا بشكل مباشر للاشخاص. وعلى الرغم من أهمية مساهمات Witmer، بالنسبة لمعظم علماء النفس، حتى أولئك المهتمين بالتاريخ، إلا أنه لا يزال شخصية غامضة إلى حد ما وغير معروفة. ومعظم النصوص القياسية في تاريخ علم النفس إما لا تتضمن حتى اسمه أو تشير إليه بطريقة روتينية فقط. هناك، بالتأكيد، عدد من المعالجات الموجزة لـ Witmer، والتي قدمها(1931) Collins و(1984) French و(1965) Garfield و(1966) Misiak & Sexton و(1979) O'Donnell و & Popplestone (1965) Sexton, (1984) McPherson و(1976) Reisman، ومع ذلك، يصعب إنكار غيابه النسبي.

كيف يتم تفسير هذه الحقيقة؟ يمكن ذكر ثلاثة أسباب محتملة. أولاً، ركزت تواريخ علم النفس، وفقًا لنموذج (1950) Boring في "تاريخ علم النفس التجريبي"، بشكل كبير على علم النفس التجريبي. وبالتالي، فإن معظم نصوص التاريخ لا تخصص مساحة تذكر لتاريخ علم النفس الإكلينيكي، على الرغم من حقيقة

أنه أكبر مجال في علم النفس وأن عيادة Witmer تأسست بعد 17 عامًا فقط من مختبر Wundt والآن سيصل المئوية. وثانيًا، كان التوجه السريري لـ Witmer هو الذي غالبًا ما كانت وجهات النظر السريرية السائدة متباينة معه، وهو وضع من غير المرجح أن يثير اهتمامًا قويًا به. وهكذا، في الجزء الأول من هذا القرن، عندما كان اختبار الذكاء يشكل حجر الزاوية في معظم الأعمال السريرية، شجب Witmer الإفراط في الاختبار؛ وبالمثل، لم يكن متعاطفًا مع النموذج الديناميكي الفرويدي، والذي أثر لاحقًا بشكل كبير على علم النفس، وأخيرًا، عمل بشكل أساسي مع الأطفال، في حين أن المراحل السريرية السائدة منذ الحرب العالمية الثانية، على الأقل حتى وقت قريب، كانت على العلاج النفسي للبالغين. وثالثًا، يبدو Witmer وكأنه شيء غير معروف لأنه شيء غير معروف. من المحتمل أن يكون Witmer هو الأقل توثيقًا بين جميع مؤسسي علم النفس الأمريكي. ولا توجد أوراق Witmer، بمعنى مستودع من الرسائل والمخطوطات والتذكارات من النوع الذي يراكمه الأساتذة عادةً على مدار حياتهم المهنية، وسيرة ذاتية مفصلة عنه، من النوع المتاح في حالة James وHall وCattell، وغيرهم من المعاصرين، غير موجود.

ولد في 28 يونيو 1867 في فيلادلفيا. كان الابن الأكبر بين ثلاثة أطفال، وتبعه Albert Ferree و Evelyn في العائلة. كان والده، David Lightner Witmer، صيدليًا ناجحًا للغاية في جيرمانتاون وتخرج من كلية فيلادلفيا للصيدلة في عام 1862. ووالدته Katherine Huchel، لا يُعرف عنها سوى القليل. جاء اسمه، بالطبع، من والده، وبشكل غير مباشر من جدته الكبرى، Jane Lightner. ينحدر Witmers من Benjamin Weitmer، الذي جاء إلى أمريكا من سويسرا في عام 1716 كجزء من هجرة ما أصبح يسمى بنسلفانيا الهولنديين إلى منطقة لانكستر. كانت عائلة Witmer موجهة بقوة نحو التعليم. تخرج وشقيقه Ferree من أكاديمية الأسقفية، وهي مدرسة إعدادية متميزة في فيلادلفيا، كما تم إرسال Evelyn إلى مدارس خاصة. زخلال عام واحد، تم ربط جميع أطفال Witmer الثلاثة بجامعة بنسلفانيا في نفس الوقت، Lightner كعضو هيئة تدريس، و Ferree كطالب في الطب، و Evelyn كطالب جامعي في علم الأحياء. وحصل الثلاثة على درجات الدكتوراه بشكل متساوٍ، Lightner على درجة الدكتوراه في لايبزيغ، وFerree طبيب في بنسلفانيا، و Evelyn من كلية الطب النسائية في فيلادلفيا.

التحق Lightner بجامعة بنسلفانيا عام 1884 وتخرج منها عام 1888. وقد حقق سجلاً بارزًا كطالب جامعي وكان نشطًا في الأنشطة الأدبية والخطابية. وبعد حصوله على درجة البكالوريوس، تولى Witmer منصبًا في تدريس التاريخ واللغة الإنجليزية في مدرسة ريغبي الثانوية في فيلادلفيا. ومكث هناك لمدة عامين، وخلال أولهما أخذ أيضًا بعض دروس القانون في جامعة بنسلفانيا، معتقدًا أنه قد يدخل هذه المهنة. زخلال السنة الثانية لـ Witmer في مدرسة الريغبي، أخذ دروسًا في العلوم السياسية في الجامعة. وفي وقت ما خلال تلك السنة انتقل إلى علم النفس. كان هذا يرجع جزئيًا، بلا شك، إلى حقيقة أنه في هذا العام انضم رجل تدرب على علم النفس التجريبي الجديد، James McKeen Cattell، إلى هيئة التدريس في بنسلفانيا. وتولى Witmerالعمل مع Cattell، وعندما عرضت عليه المساعدة في العام التالي، استقال من منصبه في الريغبي ودخل كلية الدراسات العليا بدوام كامل. Cattell وضع Witmer للعمل على جمع البيانات حول الفروق الفردية في أوقات رد الفعل. في هذه المرحلة، توقع أن يحصل على الدكتوراه تحت إشراف Cattell. ومع ذلك،

تم تغيير هذه الخطط، كما لوحظ بالفعل، من خلال تحول Cattell فجأة إلى كولومبيا، وذهب Witmer إلى لايبزيغ للحصول على الدكتوراه. وفي لايبزيغ، لم يأخذ دورات تدريبية مع Wundt فحسب، بل درس أيضًا مع Oswald Kulpe، الذي حقق لاحقًا شهرة كبيرة في حد ذاته، ومع العديد من الآخرين، بما في ذلك Ludwig Strumpel، الذي كان معلمًا تعليميًا بارزًا وأتباعًا لHerbart. وكانت أطروحة Witmer، حول القيم الجمالية بنسب متفاوتة، انطلاقاً من عمل سابق لـ Fechner (1876)، بدلاً من Wundt، على الرغم من أن Wundt أشرف على الرسالة. وعلى الرغم من أنه قيل في كثير من الأحيان أن Wundt يثبط، بل ويحظر، دراسة الفروق الفردية في مختبره، يجب أن يكون هذا التعميم مؤهلًا، لأن تحليل Witmer (1894a) ، على الرغم من أنه ركز على القضية النظرية للعلاقة من إرضاء نسب أجزاء مختلفة من الأشكال، كثيرًا في تقليد مفهوم الوسط الذهبي، أعطى أيضًا اهتمامًا كبيرًا للفروق الفردية وقدم بعض التكهنات حول رادع هذه الاختلافات.

عندما عاد Witmer من أوروبا، كان محكومًا، ولا شك أنه كان ينظر إلى نفسه، على أنه عالم نفسي سابق في القالب الجديد، على الرغم من توافقه مع ذكريات لاحقة حتى أثناء وجوده في أوروبا، فقد كان لديه بعض الأفكار حول إمكانية ما تم تعيينه لاحقًا على أنه علم النفس الإكلينيكي. خلال سنواته القليلة الأولى في كلية بنسلفانيا، قام بتدريس دورات وأجرى أبحاثًا وقدم أوراقًا في علم النفس التجريبي. وفي الواقع، بحثه الأخير من نوع تجريبي صارم، عن علم النفس الفيزيائي، تم تأجيله حتى عام 1905. ولعدة سنوات بعد انضمامه إلى هيئة التدريس في بنسلفانيا، أجرى Witmer بحثًا عن الفروق الفردية في المتغيرات الحسية الإدراكية. وكان الأمر الأكثر إثارة للاهتمام بالنسبة له في هذه الفترة هو الجوانب النفسية للألم. وموضوع آخر للبحث كان رد الفعل الرضفي. وظهر كلا الموضوعين في أطروحات الطلاب المبكرة، كما سنلاحظ.

في عام 1894 نظمت الجامعة سلسلة خاصة من الدورات لمعلمي المدارس الحكومية. وأصبح Witmer مشاركًا في هذه الدورات، وفي مارس 1896 ناقش أحد الطلاب في فصله معه مشكلة أحد طلابه، وهو صبي يبلغ من العمر 14 عامًا كان يواجه صعوبة بالغة في تعلم التهجئة، على الرغم من ذلك. وبدا قادرًا تمامًا في بعض الموضوعات. شكلت مشكلة هذا الصبي تحديًا لوجهة نظر Witmer النامية القائلة بأن علم النفس النفسي يجب أن يكون ذا فائدة عملية، وقام بعمل علاجي مع الشباب. هذه الحالة، التي سيتم تفصيلها قريبًا، كانت بداية عمل Witmerالسريري. وفي يوليو قدم دورة خاصة حول أساليب العمل مع الأطفال المصابين بأمراض عقلية والمكفوفين والمضطربين عقليًا. كانت هذه مقدمة لدورة سريرية أكثر رسمية تم تقديمها في الصيف التالي ويمكن اعتبارها بمثابة علامة على افتتاح الدورة التدريبية في علم النفس الإكلينيكي، على الرغم من عدم استخدام هذا المصطلح. وفي وقت لاحق من العام نفسه، في نوفمبر، نشر Witmer (1896)مقالاً بعنوان "العمل العملي في علم النفس" في مجلة طب الأطفال. ثم، في ديسمبر، في اجتماعات بوسطن للجمعية البرلمانية الآسيوية، قدم ورقة منفصلة (Witmer, 1897)، حول نفس الموضوع. وفي هذا الحديث، استخدم Witmer لأول مرة مصطلح العيادة النفسية في الأماكن العامة.

بحلول تسعينيات القرن التاسع عشر، كان يشرف على طلاب الدراسات العليا من تلقاء نفسه، وسيتم ذكر اثنين منهم هنا. واحدة، Anna J. McKeag،كتبت أطروحتها حول إدراك الألم (McKeag,

(1902، كانت واحدة من أوائل النساء اللائي حصلن على درجة الدكتوراه في علم النفس في أمريكا. وفي وقت لاحق شغلت منصب رئيس كلية ويلسون. ودرس الطالب الآخر، Edwin B. Twitmyer، المنعكس الرضفي لأطروحته (Twitmyer, 1902)، واكتشف في هذه العملية، بشكل مستقل عن Pavlov، ما أصبح يُعرف لاحقًا باسم رد الفعل الشرطي. لم يدرك أحد، بما في ذلك Witmer على الأرجح، وكذلك William James، الذي سبق له المشاركة في جلسة APA التي أرسل فيها(1905) Twitmyer مسبقًا هذا الجزء من بحثه، الأهمية الكاملة لاكتشافاته. انضم Twitmyer إلى أعضاء هيئة التدريس والعيادة في بنسلفانيا وقضى حياته المهنية بالكامل هناك. كان رائداً في الدراسة السريرية وعلاج اضطرابات النطق وفي عام 1914 أسس أول عيادة تخاطب رسمية.

في عام 1904، تزوج من Emma Repplier، وهي فتاة فيلدلفيانية شابة بارزة اجتماعياً وتخرجت من مدرسة أغنيس إيروين الحصرية والمحترمة. كانت ابنة أخت كاتبة المقالات الشهيرة، Agnes Repplier، وكانت هي نفسها كاتبة ذات مهارة جديرة بالاهتمام. وكانت في طاقم مكتبة الجمعية الفلسفية الأمريكية ونشرت ورقتين عن بحثها هناك. وتم انتخاب Witmer نفسه لعضوية الجمعية الفلسفية الأمريكية، ومن المتصور (على الرغم من أن هذا مجرد تكهنات) أنه من خلال هذا الاتصال التقى بها. وشارك الزوجان في تأليف مقال تقني واحد على الأقل(E. Witmer & L. Witmer, 1928) .

الحدث الهام التالي كان تأسيس Witmer، في عام 1907، لمجلة بعنوان The Psychological Clinic . لعدة عقود (حتى توقفت عن الصدور في عام 1935)، كانت هذه المجلة هي المجلة الرائدة، بل والوحيدة، في مجلات علم النفس الإكلينيكي، وكانت مفيدة، لا سيما في سنواتها الأولى، في تعزيز وتعريف مهنة علم النفس الإكلينيكي. تضمنت المجلة مقالات بحثية ومقالات نظرية ودراسات حالة ومراجعات كتب ومذكرات وأخبار متنوعة. على الرغم من أن المجلات الأخرى، ولا سيما The Journal of Abnormal Psychology، التي تأسست عام 1906، قامت أيضًا بدراسات حالة، فإن تلك الموجودة في The Psychological Clinic، والتي كتب العديد منها بواسطة Witmer وغيره من أعضاء طاقم العيادة، كانت تركز بشكل مباشر على التشخيص والعلاج النفسي.

خلال العقد الذي سبق تأسيس المجلة، ظهرت مهنة جديدة تدريجيًا، على الرغم من أنها لا تزال تفتقر إلى الاسم. ما كان مطلوبًا، أولاً، دعوة رسمية، اقتراح لمهنة كهذه، وثانيًا، اسم لها. تم ملء هذين الشرطين من خلال مقالة Witmer الافتتاحية في العدد الأول من كتابه الجديدةالمجلة (Witmer, 1907a)، والذي دعا إلى مهنة جديدة واقترح أن يطلق عليها علم النفس الإكلينيكي. وتوفر الاختيارات التالية من هذه المقالة صورة موجزة لهذه المهنة الجديدة كما تصورها Witmer: "على الرغم من أن علم النفس الإكلينيكي مرتبط بشكل واضح بالطب، إلا أنه يرتبط ارتباطًا وثيقًا بعلم الاجتماع وعلم التربية .... وفرة من المواد للدراسة العلمية يفشل في الاستفادة منه، لأن اهتمام علماء النفس منصب في مكان آخر، وأولئك الذين هم على اتصال دائم بالظواهر الفعلية لا يمتلكون التدريب اللازم لجعل الخبرة والملاحظة ذات قيمة علمية ... وبينما مجال علم النفس الإكلينيكي يشغل الطبيب إلى حد ما، خاصة الطبيب النفسي، وبينما أتوقع الاعتماد على المعلم والأخصائي الاجتماعي فيما يتعلق بالمساهمات الأكثر أهمية في هذا الفرع من علم النفس، فمن

الصحيح مع ذلك أن أيا من هؤلاء لا يتمتع بالتدريب اللازم لهذا النوع من العمل. في هذا الصدد، لم يقم الطبيب النفسي أيضًا، ما لم يكن قد حصل على هذا التدريب من مصادر أخرى غير المسار المعتاد للتعليم في علم النفس. من المصطلحات المتعلقة بموضوعات متباينة تمامًا .... لقد استعرت كلمة "إكلينيكي" من الطب، لأنه أفضل مصطلح يمكن أن أجده للإشارة إلى طبيعة الطريقة التي أراها ضرورية لهذا العمل ... طرق علم النفس الإكلينيكي متضمنة بالضرورة حيثما يتم تحديد حالة العقل الفردي من خلال الملاحظة والتجربة، ويتم تطبيق العلاج التربوي لإحداث تغيير، أي تطوير هذا العقل الفردي. سواء كان الموضوع طفلاً أو شخصًا بالغًا ، يمكن إجراء الفحص والعلاج وعرض نتائجهم من حيث الطريقة السريرية (p.1-9).

في عام 1908، أنشأ مدرسة سكنية بالقرب من والينجفورد بولاية بنسلفانيا لرعاية وعلاج الأطفال المتخلفين والمضطربين. تشير هذه الحقيقة إلى أنه بحلول هذا الوقت كان Witmer يطور ممارسة خاصة، ربما تكون الأولى من قبل طبيب نفسي إكلينيكي، بالإضافة إلى واجباته الجامعية. كانت هذه المدرسة، التي عادت الفكرة من أجلها إلى مقال Witmer لعام 1896، هي سلف مدرسة Witmer الأكبر بكثير في ديفون، والتي نظمها في عام 1921 واستمرت في الأربعينيات. وفي العام نفسه نشر Witmer (1908) نقدًا شديد اللهجة لما يعتقد أنه تحركات معينة في الصحة العقلية احتيالية وغير علمية. وفي سياق مناقشته، وجه عدة ملاحظات غير دبلوماسية، بل مريرة بالفعل، ضد William James، الذي رأى أنه يدعم الحركات غير العلمية من خلال الاهتمام بالتصوف والذي وصفه بأنه "الطفل المدلل لعلم النفس الأمريكي" (p.295). وعلى الرغم من أن الطبيعة غير الحكيمة والعصبية لتعليقات Witmer لم تكن خالية تمامًا من الجدارة، فقد كانت بداية ابتعاده التدريجي والجزئي عن المؤسسة النفسية السائدة. وأشارت الحلقة أيضًا إلى تنامي اهتمام Witmer فيما يتعلق بالأسباب التي اعتبرها حيوية.

بعد بضع سنوات، ظهرت مشكلة في جامعة بنسلفانيا كشفت عن هذا الجانب من شخصية Witmer . في يونيو 1915، تم فصل Scott Nearing، عضو هيئة التدريس الشاب في ولاية بنسلفانيا، من قبل أمناء الجامعة بسبب آرائه السياسية المتطرفة. ألغى Witmer خططه الأخرى وخصص الصيف للقلاع، بما في ذلك إعداد كتاب (Witmer, 1915a)، للاحتجاج على عمل الأمناء. وعلى الرغم من أن Witmer كان فقط واحدًا من العديد من الأشخاص الذين اعتنقوا قضية Nearing، إلا أن جهوده كانت مؤثرة للغاية. وكما اتضح فيما بعد ، توقفت إقالة Nearing، لكن القضية كان لها تداعيات وطنية واسعة النطاق بحيث تعتبر مساهماً رئيسياً في زيادة تطوير المفهوم الحديث للحرية الأكاديمية. وخلال هذه الفترة، استمرت العيادة وبرنامج التدريب السريري في التطور. والمختارات التالية من مذكرات Frances Holsopple (لاحقًا Parsons ؛ Parsons, 1977)، التي كانت طالبة دراسات عليا في عهده قبل وأثناء الحرب العالمية الأولى، تقدم لمحة موجزة ولكن مباشرة عن شكل البرنامج. "أمضيت الصيف الأول في العمل مع دورات المعلم، وأتصفح كتابًا جديدًا من تأليف Lewis Terman؛ في الشتاء التالي كنا نغرق في بداية اندلاع الحرب، وعملت مع طلاب دراسات عليا آخرين للتحضير والمساعدة والإبلاغ عن الحالات التي شوهدت في عيادة Witmer... قرأنا الأوراق الجامعية ... وأخذ دروسه وأعد المواد لعيادات السبت وجلسوا كمعالجين بديلين حيث انطلقت هيئة التدريس واحدة تلو الأخرى للعمل العسكري ... تم إحضار مواضيع العيادة من المدارس والأطباء

الخاصين وعيادات المستشفى الجامعي و آباء من جميع الفصول الدراسية ... كانت الدورة التدريبية المطلوبة التي اشتهر بها هي الدورة نصف السنوية لتشريح الدماغ ... بالنسبة للطلاب الجامعيين، كان التشريح والتجارب الانعكاسية كافية، ولكن كان علينا العمل مع مجموعة معقدة في دماغ الإنسان، بدءًا من الأعصاب القحفية، واستمرارًا في كل ما تم تحديده في المخططات والدفاتر ... كل هذا، جنبًا إلى جنب مع بعض الخبرة في المساعدة في اختبارات البكالوريوس، وتصحيح أوراق الطالب التعليمية، وكان من المفترض أن يحضرنا سقف العيادة النفسية للمساعدة في دورة العيادة صباح السبت. أقيم هذا على مسرح مدرج يضم 250 مقعدًا مع مجموعة صغيرة من أثاث الصغار أو الأقارب، وشاشات منخفضة وبعض الألعاب المختارة بعناية ... في بعض الأحيان، طلب Witmer من أحد المساعدين إجراء الاختبار أثناء مشاركته، ولكن كان من المحتمل أن يقول فجأة، "لماذا لا تأخذ بيلي للخارج لتناول الفشار الآن؟" عندما يريد مناقشة نقاط التشخيص الدقيقة. كان حريصًا دائمًا على عدم التحدث أبدًا عن رأس الموضوع، وأجرى مقابلات جيدة جدًا مع أولياء الأمور. كان هذا مقلقًا بعض الشيء لمساعد كان يحاول إظهار إجراءات اختبار مثالية، لكن الجميع كانوا سعداء ومرتاحين".

في عام 1920، قام Morris Viteles (1974)، وهو خريجWitmer ، بتوسيع نطاق تغطية العيادة من خلال إنشاء مرفق خاص - الأول من نوعه - للإرشاد المهني. قاده عمل Viteles في التوجيه المهني، في أوائل العشرينات من القرن الماضي، إلى الاهتمام بعلم النفس الصناعي، وهو المجال الذي اشتهر به والذي قدم فيه عددًا من المساهمات الرائدة. تحولت أجندة Witmer الخاصة في عشرينيات القرن الماضي، إلى حد كبير، إلى علم النفس للأطفال المتفوقين فكريا وإلى تطوير مؤسسته السكنية في ديفون. وفي عام 1931، حرر Brotemarkle مجلدًا تذكاريًا، مع 29 مساهمة من شركاء Witmer والطلاب السابقين، للاحتفال بالذكرى السنوية الخامسة والثلاثين لتأسيس عيادة علم النفس. وفي 1934-1935، ومرة أخرى في 1935-1936، كان Witmer رئيسًا لجمعية بنسلفانيا لأخصائيي علم النفس السريريين. وعند تقاعده من الجامعة في عام 1937، عن عمر يناهز 70 عامًا، حصل على درجة الدكتوراه الفخرية في سينتيا. وفي عام 1946، عُقدت ندوة APA في جامعة بنسلفانيا، وضمت ندوة خاصة (Shaffer, 1947) وندوة (American Psychological Association, 1946) للاحتفال بمرور 50 عامًا على علم النفس الإكلينيكي. وتوفي Witmer عام 1956 عن عمر يناهز 89 عامًا؛ وكان آخر عضو على قيد الحياة في الجمعية النفسية الأمريكية. وتم الاحتفال بالذكرى الخامسة والسبعين للعيادة النفسية من قبل افتتاحية (Garfield, 1982) في مجلة علم النفس الإكلينيكي والإرشاردي.

كما هو مذكور أعلاه، وكما أشير في كثير من الأحيان في مكان آخر، بدأ تطوير العيادة النفسية بإحالة صبي يبلغ من العمر 14 عامًا إلى Witmer، في مارس 1896، يعاني من مشكلة إملائية غريبة. سيشار إلى هذا الشاب باسم Charles Gilman، وهو الاسم المستعار الذي استخدمه(1907b) Witmer نفسه. كانت معلمة Gilman هي Margaret Maguire، وهي امرأة متفانية ومهتمة كانت أيضًا طالبة علم نفس في الجامعة، ومن المفترض أنها في أحد فصول Witmer الخاصة للمعلمين. وعلى حد تعبير (1907a) Witmer، كانت "مشبعة بفكرة أن اختصاصي علم النفس يجب أن يكون قادرًا، من خلال الاختبارات، على التأكد من

أسباب النقص في التهجئة والتوصية بالعلاج التربوي المناسب لتحسينه أو علاجه" (p.4). كان هذا الموقف متوافقًا تمامًا مع وجهة نظر Witmerالخاصة. لقد استنتج أن "هنا كان عيبًا تطوريًا بسيطًا في الذاكرة؛ والذاكرة هي عملية عقلية من المفترض أن يقدم علم النفس المعرفة الموثوقة الوحيدة عنها. وبدا لي أنه إذا كان علم النفس يستحق أي شيء بالنسبة لي أو الآخرين يجب أن يكون قادراً على المساعدة في حالة متخلفين من هذا النوع" (Witmer, 1907a, p.4).

قام بفحصه مطولاً ووضع برنامجًا منهجيًا له. وسيتم وصف هذه الحالة بمزيد من التفصيل، ولكن سيكون من المفيد أولاً وصف الجوانب الأخرى للأشهر الأولى للعيادة. خلال ربيع عام 1896، قام Witmer بفحص العديد من الأطفال الآخرين الذين تمت إحالتهم إليه. وكان أحد هؤلاء يعاني من عيب حاد في الكلام، وهو مجال أدرك فيه Witmer عدم كفاءته، وقام بإشراك Mary Marvin، وهي معلمة محلية عملت مع الأطفال الصم والمتخلفين عقليًا، لمساعدته. وكان يحمل احتراماً كبيراً لـ Marvin، وقد اشتملت ورقته البحثية عام 1896 في طب الأطفال على دراسة حالة من قبل Marvin لصبي تم تحديده بالحرف ب. وعلى الرغم من أنه ليس من المؤكد أن Witmer نفسه رأى هذا الطفل، فمن المحتمل أنه فعل ذلك. على أي حال، يبدو أن القضية كانت ذات أهمية خاصة في الفكر التكويني المبكر لـ Witmer وسيتم تفصيلها بشكل أكبر. ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ أن Marvin تزوجت لاحقًا من Twitmyer، وكان تأثيرها فعالًا في توجيه اهتمامه إلى عيوب الكلام.

ليس من الواضح على وجه التحديد عدد الحالات التي أجرى Witmer أمينًا عليها سابقًا خلال عام 1896، لأن سجلات العيادة الحالية لهذه الفترة متناثرة للغاية وفي معظمها غير مؤرخة. ومع ذلك، فإن تاريخ الاستشارة للقضية رقم 0023 هو 26 نوفمبر 1896، ويتم تسجيل تاريخ فحص القضية رقم 0027 في 14 يناير 1897. ومن هذه البيانات يمكن للمرء أن يستنتج أن ما بين 23 و 26 حالة تم التعامل معها من قبل Witmer خلال 1896. ومع ذلك، قد يكون هذا الاستنتاج مشكلة إلى حد ما، بسبب القيود التي لوحظت للتو في السجلات الباقية. وعلى وجه الخصوص، يبدو أن حالتين من أصل 26 حالة مرقمة قد بدأت بالفعل بعد عام 1896، مما يشير إلى أن الحد الأقصى المحتمل هو 24 حالة لعام 1896. ويمكن القول بثقة أنه تم البدء في 15 حالة جديدة على الأقل في عام 1897. وعلى أي حال، تشير هذه الإحصائيات إلى أن قضية Gilman في مارس 1896 لم تكن حدثاً منعزلاً، ولكن تبعه نشاط سريري كبير. ومن بين 24 حالة مبكرة مشار إليها أعلاه، كانت إحداها استشارة تتعلق بشخص بالغ (لم يراها Witmer بنفسه)، والبيانات غائبة تمامًا عن ثلاث حالات. وشملت الحالات العشرين المتبقية 14 فتى و 6 فتيات. وكانت معظم الإحالات من المدارس، لكن إحالة واحدة على الأقل، وربما أكثر، كانت من بيئة طبية. وهناك سبب لافتراض أن الوالدين متورطان أيضًا. كان السبب الأكثر عمومية للإحالة هو القلق بشأن تقدم نمو الطفل، إما بمعنى معين - تطور الكلام أو التطور الحركي أو مشكلة التعلم - أو فيما يتعلق بإمكانية إعادة التأخر بشكل عام. ووُصف أحد الأطفال بأنه "حالة رقص مزمن"، ومن المحتمل أن يوصف طفل آخر في مصطلحات اليوم بأنه "مفرط النشاط". وقد تم تصنيف آخر سابقًا على أنه "استسقاء الرأس"، على الرغم من أن Witmer كان متشككًا في هذا التشخيص.

تحتل قضية Gilman مكانة في تاريخ علم النفس الإكلينيكي تشبه إلى حد ما حالة Anna O في تاريخ التحليل النفسي. على الرغم من أن حالة Witmer الأولى لا يمكن القول إنها تمتلك الدراما العالية لقضية Anna O، إلا أنها مع ذلك حالة غير منظمة ومثيرة للاهتمام، ولا يتم تلخيصها بأي حال من الأحوال بشكل متكافئ من خلال الإشارة إليها ببساطة كحالة صعوبة في تعلم التهجئة. وفي تحقيقاته الأولية، خلص Witmer (1907b) إلى أن الصبي كان يتمتع بذكاء أعلى من المتوسط ، وأظهر قوى جيدة في التفكير، وعبر عن نفسه جيدًا في اللغة المنطوقة. ومع ذلك، كانت قدرته على القراءة ضعيفة مثل الإملاء. على سبيل المثال، كان يقرأ كما يرى. كانت الكلمات الوحيدة التي تمكن من التعرف عليها عند رؤيته هي بعض المقاطع أحادية المقطع، وكل الكلمات الأخرى كان عليه أن يفحص حرفًا بحرف، ويحاول الجمع بين أصوات الحروف، قبل أن يتمكن من نطقها. ومع ذلك، لم يكن لديه صعوبة في تذكر أصوات الحروف المختلفة. كانت لديه ذاكرة بصرية ممتازة للأشكال الهندسية، وحتى للأحرف المنفصلة، ولكن ليس للكلمات. كان ماهرًا في الرسم وكان جيدًا في التاريخ والعلوم. وفي خريف عام 1896 ، أجرى Witmer برنامج علاج منهجي معه، بحثًا عن التقنيات المناسبة أثناء تقدمه. يبدو أن مشكلته الأساسية هي عدم القدرة على إصلاح شكل الكلمات في ذاكرته، وهي حالة وصفها Witmerبفقدان الذاكرة اللفظي البصري. واستمر العمل العلاجي المكثف من خلال الزيارات الأسبوعية إلى العيادة والزيارات شبه اليومية لمعلم الصبي. كان الهدف هو تعليمه من خلال الممارسة المستمرة للتعرف على الكلمات دون الحاجة إلى تهجئتها أولاً. وأظهرت جهود العلاج تدريجياً بعض النجاح. تم إنهاء العمل العلاجي المنهجي في أبريل 1897، لكنه واصل التدريبات الموجهة في المنزل. وعلى الرغم من أنه لم يتعلم أبدًا القراءة بالطريقة العادية، إلا أن إتقانه وصل إلى النقطة التي يستطيع فيها، مع بعض الصعوبة، قراءة المواد العادية. رآه Witmer آخر مرة في 9 يوليو 1903. في هذا الوقت، كان مريضًا جسديًا من مرض السل واضطر إلى الانسحاب من المدرسة الفنية التي كان يدرس فيها. وتوفي تشارلز بمرض السل في يناير 1907. وفي مناقشة هذه الحالة، علق Witmer (1907b) أن فقدان القدرة على القراءة يعرف باسم أليكسيا، لكنه "لم يفقد أيًا من ذكرياته عن الكلمات، ولم يكتسبها أبدًا، وبدا غير قادر على اكتسابها في مقياس كبير وكاف ... لقد أظهر ما أعتقد أنه من حقنا أن نسميه الحبسة البصرية، اعتمادًا على توقف في تطوير الذاكرة البصرية للكلمات، أي أنه أظهر فقدان الذاكرة اللفظي البصري" (p.63). كان الاضطراب بسبب "توقف نمو ما بعد الولادة، نتيجة خلل في العملية البصرية الحسية" (p.64). واليوم، سيتم تصنيف الحالة، بناءً على إلغاء حالة Witmer، على أنها إعاقة في التعلم، وسيتم تشخيصه على أنه عسر القراءة، أو اضطراب القراءة العقلية (American Psychiatric Association, 1980). ويرجع المؤرخون السريريون بشكل عام إلى Pringle Morgan ، في عام 1896، مع تحديد عسر القراءة، والذي أطلق عليه "عمى الكلمات الخلقي". ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ أنه في نفس العام الذي بدأ فيه Witmer العمل مع الحالة. ومع ذلك، لم يبلغ عن القضية حتى عام 1907، على الرغم من أن مقالته، عندما ظهرت، كانت أكثر تفصيلاً من مقال Morgan. أما حالة الطفل ب، على الرغم من أن هذا الصبي الصغير (الذي كان يبلغ من العمر سبع سنوات عندما رأته Marvin في عام 1892) تم وصفه بأنه طفل ضعيف الذهن، انطباعي، من المادة المقدمة (Witmer, 1896)، أن الصبي كان في الواقع مثالاً لما

سيتم تشخيصه اليوم بالتوحد الطفولي. ولد لأبوين متعلمين جيدًا، لكن لم يتعلم الكلام إلا بطريقة غير واضحة للغاية. وكانت فترة انتباهه قصيرة جدًا، لكنه كان يضغط على الأزرار ويلعب بالكرات في كل ساعة. وكان لديه حاسة شم حادة وكان ينجذب بشكل خاص إلى الموسيقى. وفي الواقع، كان بإمكانه الهمهمة من الذاكرة معظم الألحان التي سمعها من قبل. وخارج منزله، كان من الصعب السيطرة عليه وكان يميل إلى إزعاج كل ما هو في متناول يده. وتم تفصيل الحالتين، نظرًا لأهميتها التاريخية في بداية مسيرة Witmer السريرية. ومع ذلك، سيكون من الخطأ الفادح الافتراض - كما يفعل مؤلفو بعض الروايات - أن تطوير Witmerلعلم النفس السريري يمكن أن يُعزى فقط إلى حقيقة أن Maguire طلبت مساعدته في حالة صعبة. وبالتالي أثار اهتمامه بالعمل العلاجي مع الأطفال. على العكس من ذلك، يتضح من السجل أن اهتمام Witmerبهذا المجال كان ينمو منذ عدة سنوات، وبسبب هذا الاهتمام الحالي بالفعل، انجذب إلى الحالتين.

نظرًا لأن Witmer كان أول شخص حاول تطبيق مبادئ علم النفس العلمي على العمل التشخيصي والعلاجي مع الأطفال، فمن الواضح أنه لم يكن لديه خطوط محددة بوضوح ليتبعها في العمل مع الحالات المبكرة الأخرى. وكما كتب لاحقًا، "إن عدم وجود أي مبادئ ترشدني جعل من الضروري تطبيق نفسي مباشرة على دراسة هؤلاء الأطفال، والعمل على أساليبي أثناء تقدمي". كانت هذه الأساليب عملية للغاية وتطرح مشكلة. وكتب "لقد رأينا دائمًا الضرورة الأساسية لفعل شيء ما للطفل، ولأولئك المسؤولين عن سلامته ... أعتقد أن الطبيب النفسي السريري في إجراء فحصه يجب أن ينتقل مباشرة إلى العمل الذي يقوم به. . أريد أن أعرف من الذي يحضر أو يرسل الطفل إلى العيادة. لماذا أحضر؟ وماذا يشكو والديه أو أساتذته؟". بعد ذلك، سيأخذ Witmer التاريخ ويتعلم قدر الإمكان عن المشكلة. كتب كذلك، "الآن، سؤال واحد، سؤال آخر، سوف يساعد في توضيح الموقف، ويعطيني مادة للتنبؤ بالعلاج والتوصية بالعلاج. في كثير من الأحيان عندما أجد سببًا مباشرًا لا أبحث بجدية كبيرة عن سبب بعيد". في هذا المعنى الأخير، كان نهجه مثل نهج معالجي السلوك المعاصر. وبصفته ممارسًا، تولى Witmer دور الخبير النفسي، وقدم المشورة المباشرة فيما يتعلق بالجداول السلوكية المختلفة، وترتيبات المعيشة، والجوانب الأخرى من حياة الأطفال والقائمين على رعايتهم. وغالبًا ما كانت هذه المشورة، خاصة في الفترة المبكرة، ساذجة تمامًا وفقًا للمعايير اللاحقة، ولكن مع إطالة الخبرة السريرية لـ Witmer ونضج العيادة، أصبح التخطيط للحالة أكثر تعقيدًا. وبعد الفترة التكوينية المبكرة، تضمن طاقم العيادة علماء نفس، وأخصائيين اجتماعيين، ومعلمين متخصصين، ومستشارين طبيين، وطلاب خريجين، وكانت عملية احترافية عالية (Fernberger, 1931; Levine & Wishner, 1977). ومع ذلك، لم تكن مرحلة جمع البيانات موحدة بشكل صارم. وهكذا كتب Witmer (1915b)، "كشفت تجربتي المبكرة للغاية عن ضرورة إبقاء الفحص في حالة سلسة. لقد اكتسبت خوفًا من شكليات الفراغ، خاصةً الفراغ الذي يملأه بعض المساعدين المدربين تدريباً كافياً إلى حد ما. قادتني التجربة أيضًا إلى الاعتقاد بعدم فعالية النتيجة الكمية للاختبار، كاختبار بينيه. إذا أبلغني أحدهم أن طفلًا يبلغ من العمر 15 عامًا يبلغ من العمر العقلي 12 عامًا، لا أعتبر هذه الحقيقة ذات قيمة

تشخيصية في حد ذاتها. إنه بيان مثير للاهتمام، ولكنني لن أخاطر بصنع أي شيء منه، حتى أقوم بفحص الطفل مرة أخرى".

على الرغم من أن Witmer قلل من الاعتماد الإكلينيكي على الاختبارات، إلا أنه شعر أنها يمكن أن توفر بيانات مفيدة ، وكان له دور فعال في تطوير اختبارين، التي كانت تستخدم على نطاق واسع آنذاك، خاصة - وإن لم يكن حصريًا - في عيادة بنسلفانيا. وفي كل من الاختبار والمقابلات، امتلك Witmer ما تم وصفه لي، من قبل العديد من المخبرين الذين عملوا معه عن كثب، كقوة ذكية للمراقبة السريرية، ووضع طورًا كبيرًا في تطوير هذه القدرة في عمله مع الطلاب. وفي كل من ممارسته ومنشوراته، سلط Witmer الضوء على مفهوم الفرد. وبسبب هذا الموقف، اتخذ وجهة نظر نقدية للغاية تجاه العديد من التحليلات الإحصائية في عصره، والتي شعر أنها فقدت واقع الفرد في القياسات الفعالة للمجموعات.

في وقت مبكر من حياته المهنية، وتماشيا مع الآراء العامة في ذلك الوقت، افترض Witmer أن القيود في القدرات العقلية والانحرافات في السلوك ترجع إلى حد كبير إلى عوامل وراثية. ولكن مع مرور الوقت، وكشف الخبرة السريرية المتراكمة له عن التأثيرات القوية لظروف المعيشة، انتقل إلى موقف بيئي بشكل عام. واختلف مع Goddard حول تعميمات الأخير من عائلة كال ليكاك (Goddard, 1912)، وقبل فترة طويلة من قبول برنامج هيد ستارت، شدد بقوة على أهمية التطور العقلي اللاحق لتقديم تجارب متنوعة خلال أول سنوات طفولة. وبصفته طبيبًا نفسيًا إكلينيكيًا، جمع Witmer بين العديد من الأدوار التي تميز أيضًا العديد من الأطباء السريريين المعاصرين: توفير الخدمات المباشرة، سواء في بيئة العيادة أو في الممارسة الخاصة، وتعليم وإشراف، وإرشاد المجتمعي، والادارة، والبحث. كما كان مسؤولاً عن عدد من المفاهيم النظرية، بشكل رئيسي في مجالات الذكاء والشخصية. وبالنسبة للجزء الأكبر، كانت هذه الصيغ ذات طابع برنامجي للغاية ومفصلة بشكل فضفاض، وكما هو الحال بالفعل في معظم النظريات في تلك الفترة، وكان لها تأثير ضئيل على المهنة بشكل عام. ومع ذلك، فإن العديد من تصوراته كانت ثاقبة للغاية وتمتلك اهتمامًا تاريخيًا كبيرًا. وكان أحد هذه التفسيرات هو تفسيره للذكاء (Witmer, 1922)، والذي كانت النقطة الأساسية منه أن الذكاء هو القدرة على حل المشكلات الجديدة. وكان الموضوع الرئيسي الآخر هو ما أشار إليه Witmer باسم "التفوق". رأى هذا الرأي أن الأفراد لديهم ميل وقدرة على "التفوق" على أنفسهم، أي لتطوير قدراتهم وإمكاناتهم إلى أقصى حد. وعلى الرغم من عدم تطويره بشكل منهجي، يبدو أن فكرة التفوق كانت واحدة من السوابق للمفهوم اللاحق لتحقيق الذات.

من المفترض، أن Witmer يعتبر بشكل صحيح مؤسس علم النفس الإكلينيكي، وقد تم قبول هذا أو بعض الإسناد المشابه على نطاق واسع من قبل مؤرخي علم النفس الآخرين (Brotemarkle, 1947; Cattell, 1954; Garfield, 1965, 1982; Korchin, 1983; Louttit, 1949; Misiak & Sexton, 1966; Reuchlin, 1967; Sexton, 1965; Shaffer & Lazarus, 1952). والسؤال، مع ذلك، يستحق بعض المناقشة. في البداية، تجدر الإشارة إلى أن هناك فرقًا بين انتقاد شخص ما كمؤسس لحركة، وباعتباره أهم مساهم في تلك الحركة. يشير مفهوم "المؤسس" إلى الفرد الذي، إلى حد كبير، أنشأ وأطلق الحركة، بينما يشير مفهوم "المساهم الأكثر أهمية" إلى الشخص الذي كان تأثيره على شكل الحركة أعظم. من هذا المنظور ، يبدو

واضحًا أنه ينبغي اعتبار Witmer مؤسسًا - أو بعبارة أكثر عاطفية: "الأب" - لعلم النفس الإكلينيكي، ولكن قد يجادل البعض بأن Freud وBinet وRogers وSkinner أو كان لشخص آخر تأثير أكبر في هذا المجال. إن دور Witmer في تكوين علم النفس الإكلينيكي مشابه إلى حد ما لدور Wundt في علم النفس التجريبي، ففي كل حالة، حدد الفرد بشكل متعمد وواعي وجود منطقة جديدة وعزز تطوره المبكر، ولكن غير ذلك، كان العمال فيما بعد مسؤولين عن إعطاء المنطقة عمقًا أكبر واتجاهات جديدة. في حالة Witmer، يعتمد تعيين المؤسس بشكل أساسي على الإنجازات الستة الرائدة التالية: (1) كان أول من أعلن فكرة أن علم النفس العلمي الناشئ يمكن أن يكون أساسًا لمهنة مساعدة جديدة، و(2) أسس وطور المرفق الأول لتنفيذ هذه الفكرة: "عيادة نفسية"، يرأسها طبيب نفسي ويعمل بها في المقام الأول علماء نفس، و(3) اقترح مصطلح علم النفس الإكلينيكي للمهنة الجديدة وحدد جدول أعمالها الأصلي، و(4) قام بوضع تصور وتنظيم وتنفيذ أول برنامج لتدريب علماء النفس الإكلينيكي بالمعنى الذي حدده، و(5) من خلال تأسيسه وتحريره لمجلة (العيادة النفسية) لفترة طويلة كان يميل على وجه التحديد إلى أن يكون عضو المهنة الجديدة، قام بتعريف المنطقة ونشرها وجذب الشباب إليها، و(6) من خلال أنشطته الخاصة في أداء أنواع الأنشطة المهنية التي تصورها لعلماء النفس الإكلينيكيين، كان بمثابة نموذج يحتذى به للأعضاء الأوائل.

على الرغم من أن المقال الحالي يهتم بالدرجة الأولى بدور Witmer في وضع المفاهيم وتطوير علم النفس الإكلينيكي، إلا أن أهميته في المجالات وثيقة الصلة بعلم النفس المدرسي والتعليم الخاص ليست مركزية (French, 1984; Fagan, 1986). وكان له دور فعال في تطوير فصول لعلاج المتخلفين عقليًا (Witmer, 1909)، وصاغ عبارة "التدريس التشخيصي" (Witmer, 1919)، وهو مصطلح بارز حاليًا في التربية الخاصة. علاوة على ذلك، أخذ العديد من خريجي Witmerوظائف كممتحنين أو علماء نفس، لا سيما في ولاية بنسلفانيا. ومع ذلك، فإن مكانه في حركة علم النفس المدرسي لا ينتقص من دوره في تعزيز تطوير التخصص الأوسع لعلم النفس الإكلينيكي. في الواقع، سيكون من الخطأ محاولة تمييز صارم للغاية بين هذين التركيزين المهنيين كما كانا موجودين في الفترات المبكرة.

كيف كان Witmer كشخص؟ لقد شاهدت بعض الذكريات المكتوبة أو حصلت عليها من عدد كبير من الأشخاص، بما في ذلك الطلاب السابقون، والمساعدون الطبيون، والزملاء المهنيون الذين عرفوه. الصورة التي تظهر هي صورة معقدة. تعود معظم ذكرياته المتبقية إلى عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي، عندما كان في المراحل الأخيرة من حياته المهنية، ولكن هناك سبب وجيه للاعتقاد بأنه كان يتمتع دائمًا بثقة عميقة بالنفس وشخصية يمكن وصفها بـ قوية وحازمة أو متسلطة وعقائدية. كان مقاتلًا قويًا لأسباب كان يؤمن بها. ومع ذلك، في الوقت نفسه، رآه بعض الذين عرفوه جيدًا على أنه حساس وجذاب وقادر على السخرية من نفسه. كان شخصًا مثقفًا للغاية وقراءاته واسعة النطاق، وكان معجبًا شغوفًا بـ Walt Whitman. كان الذين عملوا مع Witmer في العيادة أو في ديفون يحترمونه بشدة، وقد أعجبوا كثيرًا بمهاراته السريرية (التي اعتبروها رائعة)، وفي كثير من الحالات شعروا بعمق تجاهه وولاء شديد له. يبدو أن معظم طلابه كانوا في حالة من الرهبة منه إلى حد ما. لقد كان، بعد كل شيء، حازماً تمامًا، بل كان قديرًا، كثيرًا على غرار الأساتذة الألمان في لايبزيغ. لكنه يمكن أن يكون أيضًا دافئًا ومتفهمًا، ومن الواضح أن العديد

من طلاب الطب السريري قد أحبوه. علاوة على ذلك، يتذكر العديد من الطلاب السابقين باعتزاز Witmer لبعض الخصوصيات. على سبيل المثال، أصر دائمًا على أن تكون درجة الحرارة في غرفة محاضرته 68 درجة بالضبط. وكان موقف Witmer تجاه الأشخاص الذين اختبرهم وعالجهم (معظمهم من الأطفال)، من بين كل ما أستطيع أن أجمعه، هو الاهتمام الحقيقي والاحترام والاهتمام. وفي بعض التناقض مع الملاحظات المذكورة أعلاه، فإن انطباعي هو أن العديد من أقران Witmer في المجتمع النفسي الأكاديمي الأوسع (أتحدث الآن بشكل أساسي عن علماء النفس التجريبي السائد ومع إعادة الطيف إلى المراحل الأخيرة من مهنة Witmer) إما يتجاهله أو يميل إلى تقليل إنجازاته. إلى حد كبير، يبدو أن هذه المواقف، بقدر ما كانت موجودة، قد عكست الحكم القائل بأن Witmer، كعالم، كان فضفاضًا للغاية ومضاربًا، على الرغم من أنها قد تكون أيضًا قد مثلت إلى حد ما بدايات عدم الانسجام بين التجريبين والأطباء. تقديري الخاص هو أن جودة كتاباته، مقارنة بعمله السابق، قد رفضت عدم الجدولة في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى. ومن الصحيح أيضًا أن نقول إن تأثيره على الحركة السريرية انخفض بشكل ملحوظ خلال المرحلة الأخيرة من قدرته؛ كان هذا بلا شك يرجع في جزء كبير منه إلى حقيقة أن توجهه كان خارج نطاق روح العصر السائد، والذي أكد على اختبار الذكاء ونظرية التحليل النفسي. في المقابل، استمرت حماسته ومهاراته وإحساسه بالوفاء من التطبيق السريري المباشر بلا هوادة في الثلاثينيات. وتتفق جميع التقارير على أن Witmer كان شخصًا خاصًا للغاية، وهناك سبب للاعتقاد بأن هذه الشخصية أصبحت بارزة مع تقدمه في السن. وبعد الانقلاب الأولي في سياسة APA، انسحب إلى حد كبير من شؤون التأسيس، وبعد مشاجرته مع James لم يكن أبدًا جزءً من المجموعة الداخلية في علم النفس الأمريكي. على الرغم من ذلك، فقد ظل تأثيره على علم النفس الإكلينيكي عميقًا لسنوات عديدة بعد ذلك. تم تصميم العيادات المبكرة الأخرى إلى حد كبير على غرار عيادة بنسلفانيا، وانتقل طلاب بنسلفانيا، مع تخرجهم، إلى مناصب رئيسية في علم النفس الإكلينيكي والمجالات المعاد تحديدها. ومن المحتمل أنه لو لم يفتتح Witmer علم النفس الإكلينيكي، لكان شخص آخر قد فعل ذلك، ولكن إذا كان الأمر كذلك، فقد يكون المجال الآن مختلفًا كثيرًا عما هو عليه حاليًا، وربما حتى بالاسم. ومن المحتمل أن يكون أكثر تحالفًا مع الطب النفسي وأكثر توجهاً نحو علم النفس المرضي من النموذج السائد. ومن المحتمل تقريبًا أن تكون أقل ارتباطًا بعلم النفس العلمي والتجريبي حيث يتم تمثيل ذلك في أقسام علم النفس بالجامعة. يختلف علم النفس الإكلينيكي اليوم اختلافًا كبيرًا عما كان عليه في زمن Witmer. الاستخدام المكثف للعلاج النفسي، والعمل المكثف مع البالغين، والأزواج، والعائلات، والاهتمام بمجموعة متنوعة من المشاكل البشرية التي تتراوح من الفصام إلى الشره المرضي الذي لم يكن مألوفًا لـ WitMer (إن لم يكن مفاجئًا). كما يجب التأكيد على أن التطور المبكر لعلم النفس الإكلينيكي لم يكن بأي حال جهدًا لشخص واحد؛ بل مجموعة، بما في ذلك Henry Goddard وJ. E. W. Wallin و Lewis Terman، شاركوا أيضًا (Re ism an , 1976). ومع ذلك، لا يمكن المبالغة في أهمية خطوات Witmer المبتكرة الأولى. هناك، على وجه الخصوص، ثلاثة جوانب لهيكلة Witmer الأصلية للمجال والتي يبدو أنها تشكل إرثًا دائمًا. هذه هي (1) فكرة أن علم النفس العلمي، بمعناه التجريبي الدقيق، يمكن، إذا تم استخدامه بشكل مناسب، أن يكون مفيدًا في مساعدة الناس؛ و(2) التصور القائل بأن هذه المساعدة

يمكن تقديمها على أفضل وجه من خلال أداة مهنة خاصة (علم النفس الإكلينيكي) تكون مستقلة عن الطب والتعليم؛ و(3) توافق مع الرأي القائل بأن علم النفس الإكلينيكي يجب أن يكون في حد ذاته موجهًا بشكل كبير للبحث ويجب أن يكون متحالفًا بشكل وثيق مع علم النفس الأساسي.

كلاوس هولزكامب (1927-1995)

مؤسس علم النفس النقدي

كلاوس **هولزكامب** Klaus Holzkamp عالِم النفس الألماني، مؤسس رائد لعلم النفس النقدي، قدّم انتقادات عميقة لعلم النفس السائد، وطرح بدائل منتجة ذات صلة وثيقة بتطور النظرية في علم النفس المعاصر (Teo,2000, p.141). نال الدكتوراه سنة (1963)، واشتغل في جامعة برلين الحرة (1967)، وبالتزامن مع ذلك بدأت حركة الطلبة، فدعا لبحث أكاديمي مسؤول اجتماعياً، ولم يتردد في التعلم من الطلبة الماركسيين، وكانت النتيجة مشروع "مدرسة الحرية الحمراء" Red Freedom School ، التي افتتحت سنة (1969) استجابة لمطالب الطلبة وتحت سيطرته، وانتهت سنة (1970)، إلا أن تجربة الفشل هذه أثبتت أن الإرادة الخيرة لوحدها غير كافية ولابد من أسس نظرية أخرى، وأدَّى به إدراك علم النفس كحقل مرتبط بالتجديد والمجتمع الديمقراطي والأكثر إنسانية إلى رفض علم النفس التقليدي وفتح الطريق لعلم الشخص Subject-Science (Grotlüschen, 2005 , p19). فالحركات الاجتماعية والمشاكل الداخلية لعلم النفس التقليدي شكَّلَت عوامل انبثاق منظوره، بينما يعود تراجع ذلك المنظور في الثمانينات والتسعينات إلى التطورات الاجتماعية ومحدوديات الهيكل النسقي التأسيسي وانبثاق مقاربات نقدية بديلة، إلا أنَّهُ لا يزال عالِم النفس النظري الباسق الذي قدَّم إسهامات عظيمة للمعرفة النفسيَّة (Teo, 1998, p.235). وفي هذه الدراسة النظرية التاريخية سنعمل على تسليط الضوء – لأوَّل مرة باللغة العربية – على رائِد كبير ، أسهَم في تأسيس منظور كبير، كان له امتداداته الهائِلة في المشهد النفسي ، تنظيراً وبحثاً وممارسةً .

الفترة ما قبل النقدية Precritical Period **(حتى 1968)**

انتقد Holzkamp – في كتاباته الأولى – المنهجية التقليدية، وحاول حل مشاكل علم النفس التقليدي ضمن منطق الانعكاس reflection والتغيير ضمن البحث النفسي التقليدي ، ورأى أن الضعف الأساس في علم النفس يكمن في فلسفة العلم الخاطئة ، فحاول تطوير فلسفة علم جديدة: البنائية Constructivism. ففي دراسته النظرية الأولى (1964): **النظرية والتجربة في علم النفس** Theory and Experiment in Psychology، حلل العلاقة بين التجارب والنظريات، وأثبت بشكل مقنع أن تفسير النتائج التجريبية غير مُلزمة binding، وأن علم النفس يقدم النظريات التي يمكن للشخص تصميم تجارب تحقق أو تدحض النظرية بحسب حاجاته في الغالب. وآنذاك لم يتحدَّ القيمة الأساسية للتجارب، وقدَّم محكات عدة لتوجيه الباحثين لتحقيق تجارب ممثِّلَة لنظرياتهم، ولم يمايز نفسه عن هذا التوجه إلا في الفترة النقدية المفاهيمية. وبعد أربع سنوات (1968)، صدر كتابه **العلم كفعل** Science as Action الذي طرح في المجتمع العلمي كبديل لفلسفات العلم التقليدية، ففيه سعى لإثبات عدم إمكانية الدفاع عن فلسفة العلم الإمبيريقية الاستقرائية، وحاول تطوير فلسفة علم تُنصِف النشاطات العلمية الأصيلة للباحثين، ولا زالت

توكيداته البنائيَّة – الواقِع مبني constructed ومخلوق created في التجارب النفسية- رائدة ومعاصرة (Teo,1998, p.238; 2000, p.141).

الفترة النقدية التحرّرية Critical-emancipatory Period **(1968-1972)**

يجب فهم انبثاق علم النفس النقدي في ألمانيا ضمن سياق الحركات الاجتماعية الواسعة في المجتمعات الصناعية الحديثة في الستينات، إضافة للحركات الاجتماعية المتحدية للمكانات عبر نقد البنيات والإجراءات التقليدية في المجتمع والثقافة والسياسة والأكاديمية، كما يجب أن يفهم في سياق ألمانيا الغربية ما بعد الحرب والمشكلات الثقافية الاجتماعية الخاصة بهذا المجتمع. فالحرب الباردة، والبنيات التسلطية في كل ميادين الحياة، ولاسيما في الجامعات، والفشل المُدرَك لأغلبية المجتمع في التعامل مع الماضي الألماني، حفَّز الكثير من الطلبة لتحدي الافتراضات الغامرة والسلوكيات المستقرة داخل المجتمع، وأصبحت جامعة برلين الحرة مركز الأجندات البديلة. وقد أثرت حركة الطلبة بشكل مباشر في تفكير Holzkamp ، الذي عُرِفَ كعالم النفس الألماني الرائِد لتلك الحركة. والحاجة لتحدي علم النفس التقليدي لم تكن مدفوعة – فقط – بالنظريات المحدودة لعلم النفس، وإنما كذلك بالخبرة الفعلية بكون علم النفس – ومنهجيته بشكل خاص – لا تخاطِب القضايا الساخنة الحاضرة. وهنا حاول Holzkamp صياغة حلول للمشاكل في علم النفس عبر إيجاد تسوية بين التأمل النقدي النظري وعلم النفس التقليدي، أرض متوسطة مصممة لتقود إلى علم نفس تحرري. وبعد استدماج موضوعات حركة الطلبة والنظرية النقدية، نشر Holzkamp سنة (1972) كتابه: **علم النفس النقدي : أعمال تمهيدية** Critical Psychology : Preparatory Works، الذي جمع فيه كل المقالات المكتوبة من كل الحركات النفسية النقدية في ألمانيا وتحديد القضايا الأساسية لعلم النفس التحرري. وخلال هذه الفترة، أن تكون نقدياً عند Holzkamp يعني: (1) أن تسائِل صلة علم النفس بالممارسة، و(2) تحديد مشاكل المنهجية النفسية التقليدية، و(3) فضح الافتراضات الإيديولوجية المضمرة في علم النفس. فأكد أن **التعقيد المتكلِّف للمنهجية التجريبية والإحصاء الاستدلالي** تقود إلى تعيين وإختزال الواقع في البحث النفسي، مما يجعل العالَم لعالِم النفس الممارِس يتألف من مشاكل الأفراد في السياق الاجتماعي. وفي أوضاع الحياة الواقعية نجد أن كل المتغيرات المضبوطة أو المستبعدة في المختبر ذات تأثيرات، فعلم النفس لا يستطيع تحقيق الوثاقة التقنية، بل أن تلك الوثاقة لوحدها ستدل ضمناً على العمل من أجل القوة في المجتمع إن لم تربط بالوثاقة التحررية التي تتحقق عندما يساعد البحث الأفراد على الوصول للاستنارة الذاتية بخصوص تبعياتهم المجتمعية والاجتماعية. كما أكد في الوقت ذاته على **الفروق الأساسية الموجودة بين موضوع الماديات وعلم النفس**، فالبحث في الماديات يتصف بعلاقة الشخص – الموضوع، بينما في علم النفس يتصف بعلاقة الشخص – الشخص. فالتجارب تعتمد على قبول الأدوار مُسبقة الترتيب والقابلة للانعكاس: المجرِّب يفترِض – بشكل ضمني – أن الشخص المبحوث دور الشخص في التجربة وبالتالي يعرض سلوك محدود فقط، وإذا اعتمدت التجربة على شخص متعاون فإن الصياغة المفاهيمية لعلم النفس كعلم طبيعي وكعلم ناموسي ستكون مضلِّلَة. ولم يعتقد Holzkamp أن **مشاكل علم النفس** التقليدي اعتباطية ، وإنما **تتضمن مؤثرات إيديولوجية** على علم النفس، وتعكس السياق الاجتماعي التاريخي الذي يتواجد فيه . فعلم النفس التقليدي ينظر للفرد كمتعيّن، بينما يعد

المفاهيم من قبيل المجتمع تجريدات، وذلك مشتق من الإيديولوجية البورجوازية، بخلاف المنظور الماركسي. وباختصار، بعد تأثره بحركة الطلبة الألمان في أواخر الستينيات ، تأمل بالقضايا النقدية النظرية والتحررية في علم النفس، فتحدّى ارتباط علم النفس التقليدي بالتطبيق العملي، ووصفه بالافتقار للصلة العملية بمنطق البحث المختبري. وجادل في وجود فرق انطولوجي بين موضوع علم النفس وموضوع العلوم الطبيعية التقليدية، واقترح أن علم النفس يتطلب منهجية مختلفة. فحدد الافتراضات الكامنة لعالِم النفس، وعدّ مفهمة الفرد ككينونة عيانية مجرّدة من السياقات الاجتماعية نتيجة للإيديولوجية البورجوازية. وطرح – كبديل – برنامجاً يتميز بربط النظرية بالممارسة، والحوار المتساوق في البحث، وتطور الحقل المسؤول اجتماعياً، وعلم النفس الذي ينوّر الأفراد بخصوص تبعياتهم المجتمعية (Ijzendoorn & Veer, 1983, p.5-26 ; Teo , 1998 , p.238-242 ; 2000 , p.141).

الفترة النقدية المفاهيمية Critical-Conceptual Period **(1973-1983)**

في هذه الفترة توصل Holzkamp إلى أن مشاكل علم النفس التقليدي لا يمكن أن تحل داخل إطار علم النفس التقليدي أو عبر تسوية بين التفكير النقدي والسائد، وإنما تتطلب رؤية مختلفة جذرياً. فكان كتابه: **المعرفة الحسية** Sensory Knowledge، سنة (1973)، إعادة بناء لموضوع الإدراك، أشار لكون الفهم الحقيقي للإدراك في علم النفس العام ممكن فقط عبر تضمين التاريخ الطبيعي وما قبل التاريخ والتاريخ الإنساني، واقترح ثلاث خطوات لتحليل المفاهيم النفسية كالإدراك: (1) استدماج التاريخ الطبيعي للإدراك، وتحديد الخصائص التطورية البيولوجية العامة له، و(2) تحليل المعالم الأساسية للإدراك مع اعتبار الخصائص الاجتماعية التاريخية العامة عبر التركيز على التحول من الأشكال ما قبل الإنسانية إلى الأشكال الإنسانية للحياة، و(3) تعرف الإدراك تحت واقع تاريخي اقتصادي معطى كالمجتمع البورجوازي . ولتحقيق هذه الأهداف يجب أن يستمد علم النفس النقدي معطيات من البيولوجي والفسيولوجي والإيثولوجي والأنثروبولوجي والأركيولوجي. وأجمَل Holzkamp سنة (1983) نتائِج مقاربته في كتابه : **أساس علم النفس** Foundation of Psychology، الذي لم يسع فيه لمجرد إعادة بناء الموضوعات النفسية، وإنما النفس كذلك، وباستعمال تحليل الفئات Analysis of Categories قدَّم أساساً نسقياً بردغايمياً لعلم النفس، بموضوعه ومنهجيته. برادغايم موحد يتجاوز لاحتمية indeterminacy علم النفس، ويتحدى التعريفات الإجرائية، ويرى السببية اعتباطية مبنية من المجرِّب، فأي صياغة مفاهيمية تقود إلى نتائج داخل تلك الصيغة، بينما لا يمكن اختبار الصياغة بذاتها إمبيريقياً، ولذلك يقدم علم النفس نظريات متناقضة عن الموضوع ذاته، وكل النظريات مختبرة ومثبتة إمبيريقياً، وبالتالي يتطلب علم النفس تحديد مفاهيمه الأساسية التي يمكن أن يتحقق عبر أساس علم النفس. فالأزمات الراسخة لعلم النفس السائد لا ترجع لمشكلة النظرية – الممارسة أو للإيديولوجية البسيطة، وإنما للحالات اللاحتمية للمفاهيم الأساسية (الفئات)، ولذلك يجب تطوير فئات مؤهلة علمياً تستوعب بشكل كفء موضوع علم النفس، ففقط بعد أن يفهم علم النفس موضوعه يمكنه التحدث عن منهجيات كفوءة. وبناءً على ذلك طرح Holzkamp منطقاً بديلاً، إنموذجاً نسقياً لعلم النفس، يفترض أن الإنسان نتاج عملية تطورية طويلة، ويعتمد تحليل الفئات المستند للمنهج التاريخي الإمبيريقي، فباستعمال ما قبل المفاهيم وتتبع التطور التاريخي للبنية

النفسية وتمايزاتها وتحققاتها على مستويات مختلفة، يتطور نسق الفئات (المفاهيم الأساسية) عبر تزاوج العمليات والفئات، فالعمليات الواقعية والفئات متناغمة. وقد حدد Holzkamp – مثلاً – التحولات النوعية qualitative transitions في تطور البنية النفسية: التحول من الكائنات ما قبل النفسية إلى النفسية ، وتمايز الوظائف والأبعاد الخاصة، وتطور القدرة على التعلم والتطور الفردي، وانبثاق الطبيعة المجتمعية للكينونات الإنسانية. وكان الفرق بين Holzkamp والدارونية التقليدية في هذه الرؤية يتمثل باعتماد الفهم الماركسي الذي يرى أنه في نقطة معينة من التطور يتفتح – لا يبطل - التاريخ الطبيعي التطوري عبر التطور المجتمعي التاريخي الذي يسمح بنوعية جديدة من التطور. وقد أتاح له تطبيق هذه الأفكار اشتقاق تعريفات عامة للذاتية الإنسانية ومعناها ضمن المجتمعات البورجوازية، ولذلك – مثلاً – طور **فئة قوة الفعل المعمم مقابل قوة الفعل المقيد**، إذ تشير الأخيرة إلى الأداتية في العلاقات الإنسانية والتناغم مع القوة والأفعال المولدة للاغتراب، فالتفكير ضمن هذه الفئة ستاتيكي وانعزالي، والانفعال متصف بالقلق والاندفاعات الداخلية، بينما تتسم الأولى بالأفعال المحررة. فبعد فترة النقد الذاتي الراديكالي، دخل Holzkamp المرحلة النقدية المفاهيمية التي أكد خلالها مبادئ المدرسة الثقافية التاريخية (ليونتيف Leontyev) والأدبيات الماركسة الكلاسيكية (ماركس Marx وانجلز Ehgels). وركّز - خلال هذا الزمن – على نقد وتنقية الأسس المفاهيمية لعلم النفس. ففي إعادة بنائه للإدراك، ناقش Holzkamp – كما ذكرنا – أن فهم المفاهيم النفسية ممكن فقط عبر استدخال التاريخ الطبيعي وما قبل التاريخ والتاريخ الإنساني. وعدّ نظرية التطور لدارون Darwin إطاراً ملائماً للتحليلات الطبيعية التاريخية ، والمادية التاريخية لماركس Marx حاسمة للتحليلات التاريخية . وحدد جملة خصائص للإدراك في المجتمعات البورجوازية. وقد ألهمت دراسته جماعة بحثية في المعهد النفسي بجامعة برلين الحرّة لتحليل تشكيلة من المفاهيم النفسية الأخرى . وأجمل وأحكم Holzkamp نتائج جماعته البحثية في أسس علم النفس . وباستعمال تحليل الفئات الأساسية، طوّر الأساس النسقي البردغايمي لموضوع ومنهجيّة علم النفس. وبتطبيق المنهج التاريخي الامبيريقي، ومتابعة التقدم التطوري للنفس حتى مستواها الإنساني، طرح نسقاً جديداً من الفئات واشتق تعريفات عامّة للذاتية الإنسانية داخل المجتمعات المعاصرة (Ijzendoorn & Veer, 1983, p.5-26 ; Teo , 1998 , p.242-247 ; 2000 , p.141) .

الفترة الشخصية العلمية Subject-Scientific Period **(1984-1995)**

أثبت Holzkamp دلالة تحليلاته عبر ترصين علم الشخص Science of the Subject، الذي هو علم النفس من وجهة نظر الشخص . وعلم النفس النقدي كبرنامج بحث موجّه بالشخص شجع البحث الذي يكون فيه الأشخاص مبحوثين ومساعدي باحث في آن واحد. وعلم النفس بهذه الرؤية فُهِم على أنه إجراء بحث للناس وليس عنهم. وفي كتابه الأخير، طرح Holzkamp (1993) **نظرية التعلّم الشخصية العلمية** Subject-Scientific Learning Theory (Teo , 1998 , p.247-248 ; 2000 , p.141)، التي أكدت أن التعلم المقصود والمخطط يحدث – فقط – عندما يمتلك الشخص المتعلم نفسه مبررات للتعلم، فمفتاح التعلم لا يكمُن في التعليم Teaching، ولا يتحسن بتحسنه. وحتى أفضل المعلمين يواجهون متعلمين غير قابلين للتطويع، ولا يستطيعون تعميم وتخطيط التعلم، فذلك يعتمد على المتعلمين أنفسهم، ومدى تغييرهم

لأفكارهم والسعي لتعلم ما يطلبونه، ويحدث ذلك عندما يواجهون عقبات ومقاومات لنشاطاتهم المعيارية. وطرحت النظرية مفهومي التعلّم **التوسعي** Expansive Learning والتعلم **الدفاعي** Defensive Learning، إذ يشير الأول إلى التعلم المرتكز على مشكلة الفعل، والرغبة بتعلم ما يحقق نشاطات الشخص وتوسيع خيارات فعله، بينما يشير الثاني إلى التعلم المنطلق من إدراك التهديد لعالم الشخص وعدم رؤية طريقة غير التعلم لتفادي ذلك التهديد. هنا يحدث تغير في النظر للتعلم عما دأبت تأكيده المنظورات السلوكية والمعرفية، وتخطّي النمط المقيد بعلاقة السبب – النتيجة من البحوث، وانتقالاً من منطق الشروط Conditions إلى منطق المبررات Reasons. ويمكن استنباط خطين جوهرين: (1) التعلم التوسعي والتعلم الدفاعي وجَّها الانتباه لمشكلة الفعل والاهتمام بالتعلم لدى المتعلم والتعامل مع الدائرة الناقصة للتعليم والتعلم، و(2) منطق الشروط ومنطق المبررات أشارا إلى موضوع التعلم الذي هو الشخص الذي يتعلم بغموض وسرية ، بشعورية ولاشعورية، بمبررات نبيلة وطموحة، وآمال ومخاوف، وعدم قابلية التطويع. وقد بُنيت هذه النظرية - إضافة إلى مجادلات حركة الطلبة - على النظريات ما بعد البنيوية لعلم الاجتماع الفرنسي (ميشيل فوكو Michel Foucault) (Grotlüschen, 2005 , p.16-17,19).

المراجع

American Psychiatric Association. (1980). *Diagnostic and statistical manual of mental disorders* (3rd ed.). Washington, DC: Author.

American Psychological Association. (1946). Program of the fifty-fourth annual meeting. *American Psychologist, 1,* 273.

Bartlett, F.; Ginsberg, E.G.; Lingren, E.J. & Thouless (eds.) (1939). *The Study of Society: Methods and Problems*. London: Routledge & Kegan Paul.

Bartlett, F.C. & Smith, E.M. (1920) 'Is thinking merely the action of language mechanisms? Part I', *British Journal of Psychology* 11: 55-62.

Bartlett, F.C. (1913). *Exercises in Logic*. Londres: W.B: Clive, University Tutorial Press.

Bartlett, F.C. (1914). *Key to Exercises in Logic*. Londres: W.B: Clive, University Tutorial Press.

Bartlett, F.C. (1916a). Transformations arising from repeated representations: a contribution towards an experimental study of the process of conventionalisation. *Fellowship Thesis. St. John's Colleg*e, Cambridge University.

Bartlett, F.C. (1916b). An experimental study of some problems of perceiving and imaging. *British Journal of Psychology*, 8, 222-266.

Bartlett, F.C. (1916c). The implications of recognition. Part II. *Proceedings of the Aristotelian Society*, 16, 189-201.

Bartlett, F.C. (1917). Valuation and Existence. *Proceedings of the Aristotelian Society*, 17, 117-138.

Bartlett, F.C. (1918). The development of Criticism. *Proceedings of the Aristotelian Society*, 18, 75-100.

Bartlett, F.C. (1920a). Some Experiments on the reproduction of Folk-Stories. *Folk-Lore* 31, 264-293.

Bartlett, F.C. (1920b). Psychology in Relation to the Popular Story. *Folk-Lore* 31, 264-293.

Bartlett, F.C. (1921). The functions of images. *British Journal of Psychology*, 11 (3), 320-327.

Bartlett, F.C. (1923). *Psychology and Primitive Culture*. New York: MacMillan.

Bartlett, F.C. (1924). Symbolism in Folk Lore. *Proceedings of the VIIth International Congress of Psychology*. Cambridge: Cambridge University Press.

Bartlett, F.C. (1925). Feeling, imaging and thinking. *British Journal of Psychology*, 16, 16-28.

Bartlett, F.C. (1926a). Critical Notice of Head's Aphasia. *British Journal of Psychology*, 17, 154-161.

Bartlett, F.C. (1926b). Critical Review of Head's Aphasia. *Brain*, 49, 581-587.

Bartlett, F.C. (1926c). The Social Psychology of Leadership. *Journal of the National Institute of Industrial Psychology*, 3, 188-193.

Bartlett, F.C. (1927a). The relevance of visual imagery to the process of thinking. III. *British Journal of Psychology*, 18, 23-29.

Bartlett, F.C. (1927b). *Psychology and the Soldier*. Cambridge: Cambridge University Press.

Bartlett, F.C. (1927c). Critical Notice of Watson's Behaviorism. *Mind*, 36, 77-83.

Bartlett, F.C. (1927d). Temperament and Social Status. *Journal of the National Institute of Industrial Psychology*, 3, 401-404.

Bartlett, F.C. (1928a). Social constructiveness I. *British Journal of Psychology*, 18, 388-391.

Bartlett, F.C. (1928b). Temperament and Social Class. *Eugenics Review*, 20, 25-28.

Bartlett, F.C. (1930). Experimental method in Psychology. *Journal of General Psychology*, 4, 49-66

Bartlett, F.C. (1932/1961). *Remembering. A Study in Experimental and Social Psychology*. Cambridge: Cambridge University Press.

Bartlett, F.C. (1936). Frederick Charles Bartlett. En C. Murchison (ed.): *A History of Psychology in Autobiography*. Vol. III. New York: Russell & Russell.

Bartlett, F.C. (1937). Psychological methods and anthropological problems. *Africa*, 10, 401-420.

Bartlett, F.C. (1938). The Co-operation of Social Groups. A Preliminary Report and Suggestions. Occupational Psychology, 12, 30-42.

Bartlett, F.C. (1939a). Suggestions for Research in Social Psychology. In F. Bartlett, M. Ginsberg, E.J. Lindgren y R.H. Thouless (eds.): *The Study of Society. Methods and Problems.* London: Routledge y Kegan Paul.

Bartlett, F.C. (1939b). Thinking. In *Centenaire de Th. Ribot. Jubilé de la Psychologie Sciéntifique Française 1839-1889-1939*. Paris: Agen. pp. 281-285.

Bartlett, F.C. (1943). Fatigue following highly skilled work. *Proceedings of the Royal Society* B. 131, 247-257.

Bartlett, F.C. (1946). Obituary Notice. Kenneth J.W. Craik, 1914-1945. *British Journal of Psychology*, 36, 108-116.

Bartlett, F.C. (1947). Visitor to America. *American Psychologist*, 2, 372-374.

Bartlett, F.C. (1955). Fifty years of Psychology. *Occupational Psychology* 19, 443-451.

Bartlett, F.C. (1956). Changing Scene. British Psychological Society Presidential Address, March 1951. *British Journal of Psychology* 47, 81-87.

Bartlett, F.C. (1957). *Thinking: An Experimental and Social Study*. London: Allen & Unwin. Versión española de la edición norteamericana de 1958 (New York: Basic Books) titulada *Pensamiento: un estudio de Psicología Experimental y Social*. Madrid: Debate (1988).

Bartlett, H.F. (2000). The papers of Frederick Charles Bartlett. In A. Saito (ed.). *Bartlett, Culture & Cognition*. London: Psychology Press (pp. 217-250).

Boring, E. G. (1950). *A history of experimental psychology* (2nd ed.). New York: Appleton-Century-Crofts.

Broadbent, D.E. (1970). Frederick Charles Bartlett. 1886-1969. *Biographical Memories of Fellows of The Royal Society*, 16, 1-13.

Brotemarkle, R. A. (1931). *Clinical psychology: Studies in honor of Lightner Witmer.* Philadelphia: University of PennsylvaniaPress.

Brotemarkle, R. A. (1947). Clinical psychology 1896-1946. *Journal of Consulting Psychology, 11, 1-4.*

Butler, R. A. (1983, August).*French contributions to the origin of clinical psychology.* Paper presented at the meeting of the American Psychological Association, Los Angeles, CA.

Buzzard, R.B. (1971). Sir Frederick Bartlett, C.B.E., M.A., LL.D., D.Sc., D.Psych., F.R.S. (1886-1969). *Occupational Psychology* 45(1), 1-11.

Cattell, R. B. (1954). The meaning of clinical psychology. In L. A. Pennington & I. A. Berg (Eds.), *An introduction to clinical psychology* (pp. 3-25). New York: Ronald.

Collins, J. (1931). Lightner Witmer: A biographical sketch. In R. A. Brotemarkle (Ed.), *Clinical psychology: Studies in honor of Lightner Witmer* (pp. 3-9). Philadelphia: University of PennsylvaniaPress.

Fagan, T. K. (1986). School psychologist's dilemma: Reappraising solutions and directing attention to the future. *American Psychologist, 41,* 851-861.

Fechnet; G. T. (1876). *VorschulederAesthetik* [Introductionto esthetics]. Leipzig: Breithof & Hartel.

Fernberger, S. W. (1931). The history of the Psychological Clinic. In R. A. Brotemarkle (Ed.), *Clinical psychology." Studies in honor of Lightner Witmer* (pp. 10-36). Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

French, J. L. (1984). On the conception, birth, and early development of school psychology: With special reference to Pennsylvania. *American Psychologist, 39,* 976-987.

Garfield, S. L. (1965). Historical introduction. In B. B. Wolman (Ed.), *Handbook of clinical psychology (pp.* 125-140). New York:McGrawHill.

Garfield, S. L. (1982). The 75th anniversary of the first issue of *The Psychological Clinic. Journal of Consulting and Clinical Psychology 50,* 167.

Goddard, H. H. (1912). *The Kallikakfamily.* New York: Macmillan.

Grotlüschen, A. (2005) Expansive learning: benefits and limitations of subject-scientific learning theory . *European Journal*, V.32 , pp.15-20 .

Gruber, H.E. (1989). Networks of enterprise in creative scientific work. En D: Gholson, W.R. Shadish, R.A. Niemeyer y A.C. Houts (comp.): *Psychology of Science. Contributions to metascience*. Cambridge: Cambridge University Press.

Haddon, A.C. (1894). *Decorative Art in British New Guinea*. Cunningham Memoirs, nº 10. Royal Irish Academy.

Harris, A.D. and Zangwill, O.L. (1973). The writings of Sir Frederick Bartlett, C.B.E., F.R.S.: An annotated handlist. *British Journal of Psychology*, 64, 493-510.

Head, H. (1926). *Aphasia and Kindred Disorders of Speech*. Cambridge: Cambridge University Press.

Ijzendoorn, M. H. & Veer, R. (1983) Holzkamp's Critical Psychology and The Functional-Historical Method : A Critical Appraisal . *Storia Critica Della Psicologia*, V.IV, pp.5-26 .

Kent, G. H. (1950). *Mental tests in clinicsfor children.* New York: Van Nostrand.

Korchin, S. J. (1983). The history of clinical psychology: Some personal views. In M. Hersen, A. E. Kazdin, & A. S. Bellack (Eds.), *The clinical psychology handbook* (pp. 5-19). New York: Pergamon Press.

Levine, M., & Wishner, J. (1977). The case records of the Psychological Clinic at the University of Pennsylvania(1896-1961). *Journal of the History of the Behavioral Sciences, 13.* 59-66.

Louttit, C. M. (1949). The nature of clinical psychology.In R. I. Watson (Ed.), *Readings in the clinical method in psychology* (pp. 3-28). New York: Harper & Brothers.

McKeag, A. J. (1902). *The sensation ofpain and the theory of the specific sense energies.* Boston, MA: Ginn & Co.

Misiak, H., & Sexton, V. S. (1966). *History of psychology. An overview* New York: Grune & Stratton.

Morgan, P. (1896). A case of congenital word-blindness. *British Medical Journal, 2,* 1378.

Myers, C.S. (1909). *A text-book of Experimental Psychology*. London, Edward Arnold.

Myers, C.S. (1911). *A text-book of Experimental Psychology.* London, Edward Arnold.

O'Donnell, J. M. (1979). The clinical psychology of Lightner Witmer: A case study of institutionalinnovationand intellectualchange. *Journal of the History of the Behavioral Sciences, 15,* 3-17.

Oldfield R.C. and Zangwill, O.L. (1942a). Head's Concept of the Schema and its Application in Contemporary British Psychology. Part I. Head's Concept of Schema. *British Journal of Psychology*, 32, 267-286.

Oldfield R.C. and Zangwill, O.L. (1942b). Head's Concept of the Schema and its Application in Contemporary British Psychology. Part II. Critical Analysis of Head's Theory. *British Journal of Psychology*, 33, 58-64.

Oldfield R.C. and Zangwill, O.L. (1943-44). Head's Concept of the Schema and its Application in Contemporary British Psychology. Part III. Bartlett's Theory of Memory. *British Journal of Psychology*, 33, 113-129.

Oldfield, R.C. (1972). Frederick Charles Bartlett: 1886-1969. *American Journal of Psychology*, 132-140.

Parsons, E H. (1977). [Untitled and unpublished private memoir]. (Made available by and quoted by permission of Catherine Parsons Smith, Department of Music, University of Nevada, Reno, NV)

Paschal, E C. (1918). *The Witmer Cylinder Test.* Hershey, PA: Hershey Press.

Philippe, J. (1897). Sur les transformations de nos images mentales. *Revue Philosophique*, 43, 54-68.

Popplestone, J. A., & McPherson, M. W. (1984). Pioneer psychology laboratories in clinical settings. In J. Bro2ek (Ed), *Explorations in the history ofpsychology in the United States* (pp. 169-272). Lewisburg, PA: Bucknell University Press.

Pr6vost, C. (1969). Apropos des origines de la psychologie clinique [On the origins of clinical psychology]. *Bulletin De Psychologie, 23,* 119-124.

Pr6vost, C. (1973). *Janet, Freud et la psychologie clinique* [Janet, Freud and clinical psychology]. Paris: Petite Bibliotheque.

Reisman, J. M. (1976). *A history of clinical psychology.* New York: Irvington.

Reuchlin, M. (1967). *Historie de lapsychologie* [History of psychology]. Paris: Presses Universitaires de France.

Rivers, W.H. (1912). Conventionalism in primitive art. *Reports of British Association for the Advancement of Science* (Sección H), 599.

Sexton, V. S. (1965). Clinical psychology: An historical survey. *Genetic Psychology Monographs, 72,* 401-434.

Shaffer, L. E (Ed.). (1947). Fifty years of clinical psychology [Special issue], *Journal of Consulting Psychology 11,* 1-54.

Shaffer,G. W., & Lazarus, R. S. (1952). *Fundamental conceptsin clinical psychology* New York: McGraw-Hill.

Smith, M. and Bartlett, F.C. (1919). On listening to sounds of weak intensity: Part I. *British Journal of Psychology* 10, 101-129.

Smith, M. and Bartlett, F.C. (1920). On listening to sounds of weak intensity: Part II. *British Journal of Psychology* 10, 133-168.

Stout, G.F.(1896). *Analytic Psychology*. London: Allen & Unwin.

Stout, G.F.(1899). *Manual of Psychology*. London: University Tutorial Press. Stout, G.F.(1903). Groundwork on Psychology. London.

Teo, T. (1998) Klaus Holzkamp and The Rise and Decline of German Critical Psychology . *History of Psychology*, V.1, pp.235-253 .

Teo, T. (2000) Klaus Holzkamp . In A. E. Kazdin (Ed.). *Encyclopedia of Psychology*. Vol. 4 (pp. 141–142). New York: Oxford University Press.

Twitmyer, E. B. (1902). *A study of the knee-jerk.* Privately printed. (Reprinted, with two pages omitted, in the *Journal of Experimental Psychology,* 1974, *103,* 1047-1066).

Twitmyer, E. B. (1905). Knee-jerks without stimulation of the patellar tendon (Abstract of paper presented at the meeting of American Psychological Association, Philadelphia, December 28-30, 1904). *Psychological Bulletin, 2,* 43-44.

Viteles, M. S. (1974). Industrial psychology: Reminiscences of an academic moonlighter. In T. S. Krawiec (Ed.), *The psychologists* (Vol. 2 pp. 440-500). New York: Oxford Press.

Ward, J. (1886). "Psychology". *Encyclopaedia Britannica*, 9th Edition. pp. 37-85.

Welford, A. (2000). The life and work of Frederic C. Bartlett. I In A. Saito (ed.). *Bartlett, Culture & Cognition*. London: Psychology Press (pp. 14-18).

Witmer, E. R., & Witmer, L. (1928). Orthogenic cases; XVI George: Mentally restored to normal but intellectually deficient. *Psychological Clinic, 17,* 153-169.

Witmer, L. (1894a). Zur experimentellen Aesthetik einfacher rumlicher Formverhiltnisse [On the experimental aesthetics of simple spatial relations of form]. *Philosophische Studien, 9,* 96-144, 209-263.

Witmer, L. (1894b). Some experiments upon the aesthetics of simple visual forms (Abstract); The chronoscopic measurement of simple reactions on all classes of persons (Abstract). In *Proceedings of the American PsychologicalAssociation* (pp. 6-7). New York:Macmillan. (Reprinted in *American Psychologist.* 1973, *28,* 277-292, with introduction by M. M. Sokal, p. 277)

Witmer, L. (1896). Practical work in psychology. *Pediatrics, 2,* 462-47I.

Witmer, L. (1897). The organization of practical work in psychology (Abstract of paper presented at the meeting of the American Psychological Association, Boston, Dec. 29-30, 1896). *PsychologicalReview,* 4, 116-117.

Witmer, L. (1905). Some experiments on lifted weights looking toward a restatement of the psychophysical problem (Abstract of paper presented at the meeting of the American Psychological Association, Philadelphia, December 28-30, 1904). *Psychological Bulletin. 2,* 45-46.

Witmer, L. (1907a). Clinical psychology. *Psychological Clinic. 1. 1-9.*

Witmer, L. (1907b). A case of chronic bad spelling--Amnesia visualis verbalis, due to arrest of post-natal development. *PsychologicalClinic,* 1, 53-64.

Witmer, L. (1908). Mental health 'and the Emmanuel movement. *Psychological Clinic, 2,* 212-223, 239-250, 282-300.

Witmer, L. (1909). Orthogenics in the public schools. *Psychological Clinic, 3,* 29-33.

Witmer, L. (1915a). *The Nearing case.* New York: Huebsch.

Witmer, L. (1915b). Clinical records. *Psychological Clinic, 9,* 1-17.

Witmer, L. (1919). Performance and success: An outline of psychology for diagnostic testing and teaching. *Psychological Clinic, 12,* 145- 170.

Witmer, L. (1922). What is intelligence and who has it? *The Scientific Monthly, 15,* 57-67.

Young, H. H. (1916). The Witmer form board. *Psychological Clinic, 10,* 93-111.

حوارات

العِراق – عبر تاريخِهِ – لم يحكمه أهله!

حوار مع البروفيسور الدكتور مصطفى حجازي

البروفيسور الدكتور مصطفى سعد حجازي، عالِم النفس الإكلينيكي اللبناني، أحد أهم أعلام علم النفس في العالَم العربي، لم يقتصر على الاهتمامات التقليديَّة، بل انخرط في اهتمامات نقديَّة وتنويريَّة واسِعَة، توغَّلَت في سيكولوجية الإنسان العربي، ومشاكله وهمومه وأزماته، وحاولت اقتراح مخارج لمآزقه. ولِدَ في لبنان (1936)، وحصل على الدكتوراه في علم النفس من جامعة ليون الفرنسية (1967)، ودرَّس في جامِعات عِدَّة (1972-2007)، وخلال ذلك أنجز عشرات البحوث، وصمم عشرات البرامج، وشارَك في عشرات المؤتمرات، وعمل كخبير – ومُدرب – نفسي في عشرات المؤسسات الرسميَّة وغير الرسميَّة، الأكاديمية وغير الأكاديمية، وتقاعَد (2008) وتفرَّغ للأبحاث والاستشارات العلميَّة. وهو عضو الجمعية النفسية الأمريكية والجمعية اللبنانية للعلاج النفسي. ومِن أهم مؤلفاتِهِ: التخلف الاجتماعي: مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور (1976)، وحصار الثقافة: بين القنوات الفضائية والدعوة الأصولية (1998)، والصحة النفسية: منظور دينامي تكاملي (2000)، وعلم النفس والعولمة: رؤى مستقبلية في التربية والتنمية (2001)، والإنسان المهدور: دراسة تحليلية نفسية اجتماعية (2005)، وإطلاق الطاقات الحية: قراءات في علم النفس الإيجابي (2012)، وترجماتِهِ عن الفرنسية والانكليزية: معجم مصطلحات التحليل النفسي (1985)، والكلام أو الموت (2008)، وعلم النفس التطوري (2009)، والتحليل النفسي (2016). ولذلك ارتأت المجلة العراقية لعلم النفس الاجتماعي والسياسي محاورته، للاستنارة بأفكارِهِ حول جملة من الموضوعات الأكاديميَّة والاجتماعيَّة المُهِمَّة.

المجلَّة: أستاذنا الكبير، ممتنون بعمق لقبولِك إجراء هذا الحوار، ونتشرَّف بهِ، فأنت أحد الروافِد الفكريَّة الأصيلة لتكويننا المعرفي والثقافي. ونبدأ مع حضرتك بمقارَبةٍ شخصيَّة، فنعودُ بك إلى سنوات التكوين المُبكرة، الطفولة والمراهقة وبدايات الرُشد، ما أهم التجارب والأحداث والشخصيات التي أثَّرَت في تكوين شخصيَّة الدكتور مصطفى حجازي، سماته واهتماماته الأكاديميَّة والثقافية والاجتماعية والسياسيَّة؟

الدكتور مصطفى حجازي: هناك محطات مؤثرة في تكوين شخصيتي ومسيرتي الحياتية والأكاديمية والسياسية، يتمثل أولها في نشأتي الزراعية خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها. هذه النشأة تميزت بالتعود على الجهد في العمل والحياة، حيث كانت الظروف أبعد ما تكون عن الرخاء والبحبوحة. وهكذا تمرست في العمل الجاد بمثابة الوسيلة الوحيدة لمواجهة تحديات الحياة. وانعكس ذلك مباشرة على دراستي منذ المرحلة الابتدائية وحتى الحصول على الدكتوراه حيث كنت على الدوام من المبرزين من خلال الجهد الذي لا يعرف للتراخي سبيلاً. وخلال الدراسة الاعدادية تفتح وعيي على الهزيمة العربية الأولى في فلسطين عام (1948)، وتهجير الفلسطينيين من ديارهم، حيث لجأ الشطر الأكبر منهم الى صيدا مسقط رأسي. وتلا ذلك حركات التحرير العربية في البلاد العربية مصر والجزائر والعراق وسوريا. من كل ذلك ترسخت قناعاتي بالالتزام بقضايا الأمة والوطن وجماهير الشعب؛ حيث عايشتها وشاركت فيها مع سواي من الطلاب. شكل هذا الالتزام بقضايا الناس وخصوصاً الشرائح الشعبية المقهورة ركيزة أساسية في اهتماماتي الأكاديمية البحثية اللاحقة. وتمثلت الركيزة الثانية في اهتماماتي بقضايا الانسان خلال دراستي الجامعية في كل من مصر وفرنسا، إذ أتيحت لي فرصة نادرة، خصوصاً خلال إعداد الدكتوراه، للعمل الميداني مع الناس وخصوصاً الشرائح الشعبية المهمشة، حيث كانت أطروحة الدكتوراه قائمة على الممارسة النفسية العلاجية الميدانية مع أبناء هذه الشرائح. ومن ذلك تَكوَّن توجهي العلمي الأساسي في ضرورة الاهتمام بقضايا إنساننا، ومحاولة فهم خصائصه وشرطه الوجودي بمثابة الأساس للعمل النفساني؛ ممارسة وتنظيراً، وليس مجرد البقاء على مستوى النظريات المستوردة وإعادة إنتاجها، كما انجرفت إليه دراستنا النفسية والاجتماعية الشائعة. على علم النفس أن يكون ميدانياً يعايش قضايا إنساننا فيدرسها ويتفهمها وصولاً الى معرفة من نحن وما هي الديناميات المحركة لأنماط حياتنا، وتوجهاتنا وخصائصنا. ويمكن الرجوع، لمعرفة المزيد عن هذا المنحى، الى كتابي بعنوان: العصبيات وآفاتها: هدر الأوطان واستلاب الإنسان. نشر المركز الثقافي العربي (2019).

المجلَّة: "التخلف الاجتماعي" شكَّل الشاغِل الأساس للدكتور مصطفى حجازي، إذ ركَّز على البُعد النفسي للتخلُّف، بوصفه البنية المقاومة للتغيير فيهِ، بما تتضمنه من قيم وفلسفة تكرَّست نتيجة القهر (التسلط الفوقي) والهدر (النفي الوجودي). هل يُمكن أن يُجمِل الدكتور مصطفى حجازي رؤيته عن "مأزق الإنسان" في "المجتمع المُتخلِّف"، لتشكل نقطة تأسيسيَّة نظريَّة للتفصيلات في الأسئلة اللاحقة؟

الدكتور مصطفى حجازي: شكل كتاب التخلف الاجتماعي التجسيد الفعلي لتوجهي الأكاديمي والميداني. فهو نتائج عملي العلاجي والتأهيلي والإنمائي مع أبناء الشرائح الاجتماعية المهمشة وعائلاتهم، إضافة الى توسل المقاربة العيادية في فهم الناس في هذه الأوساط المهمشة وتوجهاتهم ونظرتهم الى ذواتهم والى الدنيا. ونتيجة الغوص اليومي في معاش هؤلاء الناس ومحاولة فهم ديناميات سلوكياتهم وكيفية التعامل مع ظروف التخلف والقهر وإفلات السيطرة على المصير من أيديهم. وبالطبع فإن آليات الدفاع ضد القهر والهدر وأبرزها التماهي بالمتسلط والاحتماء في الانتماء العصبيات، وكذلك ترسخ نوع من اللاوعي الثقافي الجمعي في العلاقة سواء مع المتسلطين على رزقهم وحياتهم، أو الحكام المستبدين هي نتاج الممارسة العيادية الميدانية. وكلها ترسخ علاقات فوقية تبعية تشكل إعاقة جدية للتحرر الحقيقي، ليس من التخلص من حكم الاستبداد وإنما التحرر الذاتي الجواني، والذي يشكل معيار التحرر الحقيقي. والا فسيظل التحرر البراني من الاستبداد السلطوي مجرد عملية تغيير وجوه وأشخاص. تلك هي الاطروحة التي ذهبت فيها الى القول بالتخلف الاجتماعي بينما تنزع كل دراسات التخلف الى التركيز على الجوانب الاقتصادية والتقنية والعلمية.

المجلَّة: الاستبداد السياسي والديني والاجتماعي مثلَّث يؤكد الدكتور مصطفى حجازي مرجعيَّته للتخلف الاجتماعي العربي من ناحية، وتفاعليَّته وتداخليَّته وتخادميَّته من ناحية ثانية. وفي هذه النقطة، والنقطتين التاليتين نود التوقف لتفكيك هذهِ الإشكاليَّة المجتمعيَّة. الاستبداد السياسي ظاهرة مُطبِقَة في العالم العربي، حيث الدولة والإيديولوجية التسلطية الضارية، ولا تجد القيم والمؤسسات الديمقراطيَّة مساحة للتحقق في الواقِع، ويشير بعض الباحثين إلى استحالة الديمقراطيَّة بسبب الثقافة السياسية التسلطية السائِدة. فكيف يفسر الدكتور مصطفى حجازي هيمنة التسلطية السياسيَّة في العالَم العربي، ومدى إمكانيَّة الديمقراطيَّة؟ وكيف ينظر الدكتور مصطفى حجازي للحركات الاحتجاجية التي عمَّت العالَم العربي ضمن ما عُرِف بـ"الربيع العربي" من حيث المحركات والمُعطيات؟

الدكتور مصطفى حجازي: ألخص الاجابة على هذا السؤال فيما ذهبت إليه من تلخيص لمعادلة التخلف والقهر والهدر، في كتابي العصبيات وآفاتها، في مثلث تحالف العصبيات والفقه الأصولي والاستبداد السياسي. فالاستبداد السياسي في عالمنا العربي هو وليد العصبيات ويستند في توطيد أركان استبداده على الانتماء الى عصبية غالبة ينتمي إليها. كما أنه يتحالف مع الفقه الأصولي الذي يخدم ترسيخ سلطة السلطان المستبد وتبرير استبداده من خلال الترويج لمقولة "سلطان ظلوم خير من فتنة تدوم..."، إضافة الى ترويج الجبرية بين جماهير الشعب المقهور باعتبارها قدر مفروض بإرادة إلهية، وذلك منذ بداية الخلافة الأموية في الحكم الاسلامي والى الآن. وفي مقابل خدمات الفقه الأصولي للمستبد وتبرير استبداده يحظى الفقهاء الأصوليون بالنعم والمغانم وترسيخ نفوذهم على الجماهير المقهورة. ثلاثية العصبيات، الفقه الأصولي، الاستبداد، تشكل في تقديري أكبر معوق أمام التحرير والتنمية والديموقراطية والمواطنة. فالعصبيات، كما الفقه الأصولي، لا تعترف بكيان وطني جامع، بل تنظر الى الوطن بمثابة أرض لجني المغانم، أو نشر الرسالة. أما الاستبداد فهو يهدر

الأوطان من خلال التهام الكيان الوطني فيجعله كيانا شخصياً (من قبيل عراق صدام، وليبيا القذافي، وسواهما...). وأما الجماهير فهي مجرد أدوات لرفعة شأن المستبد أو معوقات يجب إزالتها. ومن هنا فلا مجال لحديث عن حرية وديموقراطية وتنمية إلا بمثابة تنظيرات تتحول الى مجرد تغطية على مكامن العلة والسكوت عنها. وأما الحركات الاحتجاجية التي أطلق عليها تسمية الربيع العربي، فلم تكن مجرد انتفاضات بلا غد كما يذهب إليه المشككون. وإنما هي في تقديري تعبير عن طاقات الحياة التي لا تموت لدى شعوبنا. هذه الطاقات تُحارَبْ وتُقْمَعْ من قبل المثلث المذكور أعلاه، إلا أنها لا تموت، بل تنتظر الفرصة المناسبة للانبثاق. وهي ذاتها الطاقات التي يُعَوَّل عليها في إقامة أي مشروع إنمائي وطني جامع يحرر الإنسان ويُثَمِّر طاقاته الحية.

المجلَّة: الخطاب الديني التقليدي، بمقولاتِهِ وشخصياتهِ، يُهيمن على العالَم العربي، وقد تعرَّضت الاتجاهات التجديديَّة أو التحديثيَّة النقديَّة إلى مواجهات عنيفة، والمُفارَقة أنَّهُ بعد قرابة القرن مما يُمكِن أن ندعوه بـ"النهضة العربية"، نشهد عودة عاصفة للأصوليات المُتطرفة، والصراعات الدينية والطائفية. بماذا يفسر الدكتور مصطفى حجازي إخفاق النهضة العربية، وديمومة وتصاعد الخطاب الديني التقليدي والتطرفي، وبشكلٍ خاص الإرهاب القاعدي والداعشي، وكثافة الصراعات الدينية والطائفية، وما السبيل الذي يراه إلى "التنوير الديني"؟

الدكتور مصطفى حجازي: لابد ذي بدء من التفريق بين الدين بمبادئه وتعاليمه ومرتكزاته الايمانية، وبين الفقه الأصولي الذي يحتكر تفسير النصوص ويدعي حصرية فهمها فيما يقدمه من تفسيرات تُغَلِّب جوانب التحريم والتأثيم والمنع والخضوع والتبعية، طامسة تعاليم العمل والسعي والاتقان والحرية والمسؤولية، وخلاص الانسان ورفاهه. وتدل الدراسات أن كبار الفقهاء الذين احتكروا تفسير النصوص الدينية ركزوا على جوانب التحريم والمنع والردع تحديداً، وذلك لخدمة السلاطين قديماً والحكام حديثاً، واصدار الفتاوى التي تخدم السيطرة على النفوس. إذ من خلال سيطرتهم على النصوص هم يسيطرون على النفوس ويتحكمون بالنفوس، ويهيئون السبيل للاستبداد كي يبرر تسلطه من خلال فتاويهم في النصوص. وقد خاض الفكر التجديدي معركة طاحنة منذ بدايات القرن العشرين تلازمت مع بدايات النهضة العربية والمناداة بالحرية والاستقلال والتنمية ولكن هذه المشاريع أجهضت بفعل عاملين متلازمين يكملان بعضهما البعض الاخر. الأول هو احباط الاستعمار لمشاريع النهضة هذه طمعاً بالسيطرة على ثروات المنطقة من خلال اخضاعها واتباعها. وثانيها يتمثل في طوباوية الدعوات الى التحرير والاستقلال والتنمية وبشكل فوقي، لم ينبع من القاعدة وتنميتها، وكذلك تتالي الانقلابات العسكرية التي كرست الاستبداد. بعد فشل مشاريع التحرير والوحدة والتنمية وتتالي الهزائم، وخصوصاً في الحروب ضد إسرائيل، تراجعت هذه المشاريع لبناء كيانات وطنية جامعة. وعندها خلت الساحة للدعوات الأصولية ولبروز العصبيات من جديد. وهو ما شجع عليه الاستعمار والتسلط بل حرَّكه وغذَّاه، انطلاقاً من معرفته لبنانا الاجتماعية أكثر مما نعرفه عنها نحن أنفسنا، وخصوصاً علماء الاجتماع والنفس عندنا. وهكذا حرَّك الاستعمار حركات التطرف الديني ومن أبرزها داعش التي لقيت التمويل والتسلح والدعم المعلوماتي والاعلامي من

الغرب لزيادة تفتيت بنانا المجتمعية من خلال الصراعات المدمرة. كما أن بعض الأنظمة التسلطية العربية سهلت لداعش وقياداتها الظهور والتمكن في حربها على تطلع شعوبنا للتحرر من الاستبداد، وتولي زمام أمور مصيرها بيديها. وكانت النتيجة تدمير البنى الوطنية لخدمة استغلال المستعمر للثروات الوطنية من ناحية، وقمع حركات التحرر الشعبي وترسيخ سلطات الاستبداد، من الناحية الثانية. وأما التنوير الديني فلا يقوم، في تقديرنا، بمثابة مسألة مستقلة عن مشروع وطني تنموي شامل تقوم به جميع شرائح الشعب ولمصلحتها. وأول خطوات هذا المشروع تتمثل في مشروع وطني عام في التعليم وإعداد الكفاءات العلمية والتقنية وتطبيقاتها الأكثر تقدماً، بمثابة الركيزة الأساس لأي مشروع تنموي فعلي، كما فعلته النمور الجدد في جنوب شرق آسيا.

المجلَّة: القبليَّة نسق اجتماعي ما قبل دولَتي، ولكنَّه لا يزال أساس في العالَم العربي، بل أنَّهُ في تصاعد بقيمه وممارساته، في إجهاض واضح للقيم المدنيَّة الدولتيَّة، التي أخذت – إلى حد ما – تتأسس مع تشكيل الدول الوطنيَّة. وقد تطرَّق الدكتور مصطفى حجازي للعصبيَّات في مواضِع عِدَّة، فكيف ينظر الدكتور مصطفى حجازي لديناميَّات القبليَّة، وتصاعد القبليَّة، وما مدى إمكانيَّة تجاوز هذه العصبيَّات والانتقال إلى "المدنيَّات" و/أو "الإنسانيَّات"؟

الدكتور مصطفى حجازي: سبق لنا القول أعلاه بمثلث تحالف العصبيات والفقه الأصولي والاستبداد بمثابة الآفة الكبرى التي تحول دون قيام الدولة الوطنية الجامعة. كما سبقت الاشارة الى أن هذا المثلث لا يعترف بكيان وطني وسلطة وطنية تخدم هذا الكيان بالأساس، في الواقع إن بنى العصبيات على اختلاف مسمياتها هي البنى المجتمعية الفاعلة قبل قيام الدول الوطنية. والمشكلة في هذه الدول الوطنية عندنا أنها أسقطت بشكل فوقي خلال منح دول الوصاية الأجنبية (انجليزية وفرنسية في العالم العربي) للاستقلال بعد تقسيمه الى دول وكيانات قائمة بذاتها إثر انهيار السلطنة العثمانية. لم تقم دول كيانات وطنية جامعة انطلاقاً من القاعدة ولخدمة مصالحها ولذلك ظلت كيانات هشة مفصولة عن الجماهير. وبالتالي أصبح من السهل تصديعها، كما فعل بول بريمر في العراق حين فكك مؤسسات دولة العراق بعد الغزو. وحين تتصدع الدولة تبرز العصبيات وانتماءاتها من جديد. وهو ما يتجلى في العديد من البلاد العربية، وبدون الحاجة الى التسميات. الانتماءات العصبية هي الأساس حين لا تقوم دول كيانات وطنية جامعة وعادلة تحتضن الجميع وترعى الجميع وتعمل لمصلحة الكيان وأبنائه الذين يشكلون قوته الحامية الفعلية. لا انتقال ممكن للمدنيات والانسانيات، ولا فرصة لنجاح الدعوات الفوقية للمواطنة والديموقراطية إلا من خلال بناء مشروع انتاجي وطني جامع يقوم به الجميع ولمصلحة الجميع ومن خلال اعداد الكفاءات العلمية والتقنية التي توفر أسس قيامه. تلك كانت حالة ماليزيا التي تحولت الى دولة نامية منتجة تجاوزت صراعات العصبية التي لا حصر لها من خلال: الكل يتعلم، الكل يعمل، والكل يبني حياة، ومن خلال هذا الكل تبنى كيانات وطنية. ذلك هو كذلك الدرس الذي يعلمنا إياه النمور الجدد في جنوب شرق آسيا، والتي كانت كيانات تنخرها العصبيات والفساد.

المجلَّة: في كتابات وترجمات الدكتور مصطفى حجازي يحضر "التحليل النفسي" بقوَّة. والتحليل النفسي دخل العالَم العربي مع بدايات القرن العشرين، واتسع بشدة، لكن يُلاحَظ إشكاليتين في حضوره: الأولى حضوره التقليدي التبسيطي، إذ لم ينفتح الباحثون والمثقفون على تطوراته المتلاحقة، والثانية قدرته التفسيريَّة للمجتمعات العربيَّة، مقايَسَة بالمنظورات النفسيَّة المغايرة، كالسلوكيَّة والمعرفيَّة والإنسانيَّة والثقافيَّة الاجتماعيَّة. فهل يُمكن للدكتور مصطفى حجازي أن يُجمِل لنا ثيماته الأساسيَّة، وتطوراته النظريَّة، وقدرته التفسيريَّة في المجتمع العربي؟

الدكتور مصطفى حجازي: شكل ظهور التحليل النفسي وتطويره على يد العالم النمساوي فرويد وتابعيه ثورة في فهم النفس البشرية، بحيث لم تعد النظرة الى الانسان معه وبعده كما كانت قبله. أبرز ما قدمه هو اكتشافه للاوعي (اللاشعور) ولغته ومنطقه المتعارضين كليا مع المنطق العقلاني. ابتدأ التحليل النفسي في مجال العلاج لحالات العصاب وأبرزها الهستيريا، ولكنه سرعان ما قدم اسهامات جلى في مجالات الأدب والمجتمع والفن وسواها. وظل التحليل النفسي هامشياً الى حد بعيد في العالم العربي، ما عدا قلة قليلة من المحللين النفسيين، ويعود ذلك في رأينا الى سببين رئيسين. أولهما عمق النظرية والتطبيق بحيث يتطلب استيعابه وتطبيقه سنين طويلة من الدرس والاعداد. بينما أن المدارس السلوكية والمعرفية الشائعة عربياً سهلة الاستيعاب على مستوى النظرية والتطبيق، ولذلك هي التي انتشرت عربياً. أما السبب الآخر فهو ميل الثقافة العربية وانسانها الى التحفظ حول البوح بمكنونات نفسه ومجابهتها والتبصر فيها، تبعاً لمبدأ السترة والتستر على دواخل النفوس. ولذلك ظل تطبيق التحليل النفسي العلاجي جد محدود يقتصر على القلة من ذوي التعليم العالي، إضافة الى طول مدة التحليل، بينما إن إنساننا يريد وصفات برانية على غرار الوصفات الطبية في التعامل مع اضطراباته النفسية. وتذهب المذاهب السلوكية والمعرفية المذهب ذاته في الممارسة حيث تقتصر على التعامل مع السلوكيات الظاهرة والأعراض البرانية. يوفر التحليل النفسي أداة فكرية فائقة العمق والغنى في تحليل النفس البشرية والظواهر الاجتماعية. ولقد استفدت من إعدادي العلمي في هذا المجال لدراسة شخصية الانسان المقهور، حيث طبقت المفاهيم التحليلية النفسية في فهم سيكولوجية الانسان المقهور وهو من العوامل الرئيسة التي جعلته يلقى هذا الصدى الطيب والانتشار الواسع، حيث يجد القارئ فيه مرآة لبعض الظواهر النفسية والعلائقية لدى إنساننا العربي.

المجلَّة: في مقابِل الأزمات العميقة في العالَم العربي، التي كُشِفَت وحُللت في كتابات الدكتور مصطفى حجازي، هناك نزعة تفاؤلية عميقة في كتاباتِه، إذ لا يكتفي بتبيان المُعضِلات، ولا يقدم تلك المُعضلات كحتميَّات دائِمَة ومستحيلَة المواجهة، بل كإشكاليَّات عميقة ممكنة المُعالَجة، فنجد مقولات "علم النفس الإيجابي" و"طاقات الحياة" حاضرة لديه بقوَّة، مع تركيزِهِ على الشباب. ويرى البعض أن هذهِ تفاؤلية مُفرطة وليست واقعيَّة، فكيفَ يُثبت الدكتور مصطفى حجازي عكس ذلك، وما هي السُبل الواقعيَّة لـ"إطلاق طاقات الحياة"؟

الدكتور مصطفى حجازي: كتاب اطلاق طاقات الحياة المنشور لأول مرة في العام (2012) تم وضعه تحديداً بمثابة ملامح أولية للجواب على قضيتي القهر والهدر اللتين تمت معالجتهما في الكتابين بهذا العنوان. فالقهر والهدر والاستبداد ليس قدراً مفروضاً لا راد له. والشعوب لا تموت ولو رضخت طويلاً تحت قوى التسلط المحلي والخارجي. طاقات الحياة تظل كامنة تنتظر الظروف المناسبة كي تنبثق وتتجلى بشكل يذهل سلطات القمع والمثقفين في آن معاً. وهو ما تمت تسميته بمرحلة التمرد عند الانسان المقهور. الشعوب قد تستكين إلا أن طاقات الحياة قابلة دوماً للتحرك حين تتوفر الفرص المناسبة. وشكل الربيع العربي الذي عم العديد من البلدان العربية أبرز الأمثلة على ذلك، ولو أنه تعرض لانتكاسات كبرى، وحروبٍ شرسة من قبل أنظمة الاستبداد. وللمناسبة فلقد انطلقت ثورة الياسمين في تونس خلال كتابتي للفصل بعنوان طاقات الحياة. هذا الكتاب الموجه الى الشباب تحديداً يشكل دعوة الى عدم اليأس والموت الكياني. فالحياة تظفر على الموت ولو بعد حين. وأما ما يأخذه البعض على هذه الأطروحة من فرط تفاؤل وعدم واقعية، فما هو سوى أحكام قائمة على استفحال التشاؤم. فالتفكير الايجابي الذي يمثل أطروحة مركزية في هذا الكتاب لا يعني البتة رؤية العالم ومآسيه بمنظار وردي. وإنما يُقْصَد به أن نرى أين هي الايجابيات فنعززها، وأين هي السلبيات فنحاول تدبر وسائل التعامل معها. وهي وسائل موجودة وإن لم تكن ظاهرة على الدوام، بل يجب التنقيب عنها وإبرازها. ولا فلا بديل سوى الموت. تاريخ الشعوب حافل بالأمثلة على اطلاق طاقات الحياة وتوظيف الفاعلية الذاتية والجمعية في ظروف تشير كلها الى اختلال صارخ لموازين القوة (ثورة الجزائر، ثورة فيتنام، وسواها الكثير، ما كانت لتقوم لو استسلمت هذه الشعوب لاختلال ميزان القوى). اطلاق طاقات الحياة ممكن في كل حين فردياً ومجتمعياً، وعلينا تدبر الوسائل لذلك. أوليس ذلك هو أحد مفاتيح فهم نجاحات النمور الجدد واحتلالهم لمكانتهم المتقدمة على ساحة العولمة اقتصادياً وانمائياً؟ أختم فأقول إن اليأس في حالة القهر والهدر لا يعدو كونه حكم بالموت على الذات والأوطان، وهو ما يشكل أمنية قوى التسلط والاستبداد داخلياً وخارجياً. والايمان بطاقات الحياة والتفكير الايجابي يشكل الموقف الوحيد الذي يضمن الحياة والاستمرار.

المجلَّة: البحث النفسي الاجتماعي في العالَم العربي يعيش أزمات متراكِبة، من نوعيَّة سطحيَّة روتينيَّة، منقطعة الصِلَة عن الإشكاليَّات المجتمعيَّة، ومفتقرة للديناميَّة الجدليَّة، إلى منهجيَّة ضعيفة، تفتقر للقدرات البحثيَّة الحِرَفيَّة، كل ذلك في سياقٍ مُشبع بالإيديولوجيات والأصوليات التسلطيَّة. وقد ناقش الدكتور مصطفى حجازي ذلك – مراراً – في سياق حديثه عن العقليَّة المُتخلفة والفكريَّة المهدورَة، فهل يمكن لحضرتك أن توجِز لنا رؤيتك – الوصفيَّة والتفسيريَّة – لواقِع الدرس والبحث النفسي في الجامعات والمجتمعات العربيَّة، والسُبل الكفيلة بتأسيس درسٍ وبحث نفسي رصين؟

الدكتور مصطفى حجازي: السؤال محق تماماً ويصب في صلب أزمة بل مأزق علم النفس عربياً على صعيدي التعليم والبحث. فعلى صعيد التعليم وإعداد علماء النفس نشهد تقهقراً متزايداً عما كان عليه عطاء علماء النفس العرب المؤسسين الذين درسوا في كبريات الجامعات الغربية، وقدموا عطاء مميزاً، تأليفاً وتعليماً. أما راهناً، وتبعاً لخبرتنا الطويلة، فهناك إشكالية الكتاب والمادة التي

توضع بين يدي الطلاب. فهذه المادة متقادمة جداً ولم تساير التقدم المتحقق في هذا العلم في بلاد المنشأ. إنها تكرار لآراء عمرها لا يقل عن خمسين سنة، وأصبحت لا تلبي احتياجات الاعداد العلمي المتين والمواكب لتقدم العلم. ويضاف إليها ركاكة في الاسلوب، وركاكة فادحة في ترجمة المصطلحات النفسية الى العربية. كما أن عرض النظريات يتسم بدوره بالركاكة والافتقار الى الدقة. وبالتالي فالطالب يتعلم مادة هزيلة لا تُكَوِّن فكراً علمياً في الموضوع. يضاف الى ذلك الركاكة العلمية لدى الأساتذة، وخصوصاً أن الكثير منهم لم ينهل العلم من مصادره الفعلية. ولذلك فالعطاء يظل هزيلاً ولا يلبي متطلبات الاعداد العلمي المتين والمواكب للتقدم الكبير لعلم النفس في الغرب على صعيد النظرية والبحث والتطبيق. أما البحث الشائع لدى علماء النفس والذي أصبح منمطاً ويتصف بالجمود، فإنه ضل طريقه حقاً في دراسة ظواهر مجتمعاتنا وأفرادنا. لقد تحول البحث الى مجرد لعبة بحثية نمطية تنحو في غالبيتها الساحقة المنحى المسحي التحليلي الاحصائي. وهو المنحى السائد في أطروحات الدكتوراه وفي الأبحاث المنشورة في المجلات المدعوة محكمة. وإذا حاد عن هذا المنحى فإنه لا ينشر ولا تقبل رسالة الدكتوراه. هذه الأبحاث المدعوة محكمة تَحَوَّلَ هدفها الوحيد الى الحصول على الترقيات الأكاديمية على اختلاف مراتبها. إذ لا يختلف بحث مقدم من قبل معيد عن بحث مقدم للترقية الى الاستاذية: بنية بحثية جامدة تتكرر في كل الأبحاث، وفرضيات لا تطرح قضايا اشكالية فعلية، من قبيل الفرضيات الديموغرافية الشهيرة التي لا تمس الواقع ولا تطرح قضاياه، وتطبق على كل موضوعات البحث ويضاف إليها شيوع الاستمارات والاختبارات المدعوة محكمة بدورها وهي مترجمة في غالبيتها. كما أنها قد لا تنطبق على موضوع البحث فعلاً. تأتي بعدها المعالجة الاحصائية من خلال برنامج SPSS المعتمد في الأبحاث النفسية. إنما يفوت الباحث أن المعالجة الاحصائية هي عملية علمية مغلقة ولا صلة لها بالواقع. فأنت تحصل على النتائج التي وضعتها في المدخلات. ولكن هل المدخلات تعبر فعلاً عن الواقع الحي المدروس؟ تلك مسألة مشكوك فيها تبعاً لخبرتنا. فالمشكلة ليست في الاحصاء وإنما في البيانات التي تطرح للمعالجة الإحصائية. وهكذا أصبح لدينا أكداس من الأبحاث النفسية لا تقدم في المحصلة أي جديد، ولا تساعد على سبر أغوار الواقع وقضاياه وفهمها. خلاصة القول نحن أبعد ما يكون في أبحاثنا عما يسمى علم النفس وقضاياه الجادة والحاكمة التي تحتاج الى بحث وفهم بمثابة مدخل للعلاج والتغيير. علم النفس هو علم الانسان. وبالتالي فلكي نفهم إنساننا العربي، الذي لا يزال خارج متناول الأبحاث النفسية الشائعة، لابد من النزول الفعلي الى الميدان، ومعايشة هذه القضايا مع أصحابها، وتلمس رؤاهم وتجاربهم الوجودية. ذلك ما توسلناه في ممارستنا لعلم النفس تعليماً ودرساً. وذلك هو سبب الأصداء الطيبة التي لقيتها الأعمال التي نشرناها. لابد إذاً من تغيير جذري للمنظور في الدرس والبحث كي نتلمس خصوصيات قضايانا. ولا تُلْبَسْ إنساننا اللباس المفصل للإنسان الغربي بدون توطينه، فعلم النفس ليس علماً كونياً كما يحاول الغرب أن يروج له. وعلم النفس المطور في الغرب قائم أساساً على دراسة إنسان الغرب الصناعي الذي يتصف بالفردية. أما إنسان مجتمعاتنا فلا زال منغرساً في "النحن" العصبية على اختلاف ألوانها، ما عدا القلة المثقفة.

المجلَّة: العراق – بالتأكيد – يقع ضمن اهتمامات الدكتور مصطفى حجازي. ولكن قبل الدخول في موضوعات اجتماعية وسياسية تخص العراق، نود أن نسأل عن قضية شخصية تاريخية، هل زار الدكتور مصطفى حجازي العراق، ومتى وكم دامت الزيارة، وما طبيعة تلك الزيارة، وما انطباعاته وذكرياته عن المجتمع العراقي؟

الدكتور مصطفى حجازي: العراق هو من الدول العربية المركزية صاحبة الثقل النوعي، منذ حضارات ما بين النهرين والى يومنا هذا نظراً لموقعة الجيوسياسي وثرواته الطبيعية والبشرية فائقة الغنى. وهو يقع في موقع القلب من اهتماماتي الوطنية والفكرية والعلمية. ولقد أتيحت لي فرصتان فريدتان للتعرف على العراق ميدانياً. كانت الأولى في أوائل الستينات من القرن العشرين حيث عملت مدرساً لعلم النفس في دار المعلمين الابتدائية في أربيل لمدة عامين. تسنى لي خلال هذه الفترة التي احتفظ بذكريات مميزة منها التعرف على شمال العراق ما بين أربيل والموصل وكركوك والسليمانية، إضافة الى العاصمة بغداد بالطبع. وكانت لي صداقات وزمالات أعتز بها. غادرت العراق بعدها حيث حصلت على البعثة من وزارة التربية في لبنان لدراسة الدكتوراه في العام (1962). ولازلت أذكر الى الآن غنى الطبيعة في الشمال العراقي والأطعمة العراقية الشهية وخصوصاً الشواء في أربيل، والسمك المسكوف في مقاهي شارع أبو النواس على ضفاف دجلة في بغداد. أما الفرصة الثانية فكانت عبارة عن زيارات متكررة ما بين الأعوام (1978-1980)، لمدة تتراوح ما بين الأسبوع والأيام العشرة، حيث كنت أعمل مع المركز العربي للتطوير الإداري كخبير ومدير برامج تدريب في المهارات السلوكية والقيادة لمدراء المؤسسات الرسمية العراقية. سنحت لي خلال هذه الفترة الفرصة للتعرف على الادارة العراقية في قضاياها وتوجهاتها وانجازاتها، وعلى المدير العراقي والإنسان العراقي بما يتميز به من أصالة وصلابة وإقدام.

المجلَّة: العراق مجتمع قديم، وتشكلت دولته الحديثة في بدايات القرن، وشهد خلال القرن اضطرابات كثيرة وصراعات دامية وحروب طويلة وحصارات اقتصادية. كيف ينظر الدكتور مصطفى حجازي إلى المجتمع العراقي، بطبيعته النفسية الاجتماعية الخاصة، والعوامِل المؤثرة في تشكيل تلك الطبيعة، والقوى المُديمة للاضطرابات في حياتِهِ الاجتماعية والسياسية في القرن العشرين، وكيف انعكس ذلك على البنية النفسيَّة للإنسان العراقي، وما هي إمكانيات وسُبل إحداث تغييرات إيجابية حقيقية في بنية النظام السياسي والاجتماعي العراقي؟

الدكتور مصطفى حجازي: أعتقد أنكم في هذه المجلة الموقرة من يحمل الجواب الصحيح على هذه الأسئلة. وأنكم الأجدر بفهم واقع العراق وما مر ويمر به من محن هي كلها نتيجة المطامع المتكاثرة لوضع اليد على ثرواته الطبيعية والبشرية وتميز موقعه الجيوسياسي. كان العراق مستهدفاً منذ حضارات ما بين النهرين والى الآن. وهو تاريخياً لم يحكم من قبل أهله، إلا خلال فترات محدودة. وأقصد بذلك أنه لم يحكم من قبل أنظمة حكم وسلطة منبثقة من الشعب العراقي ذاته وتديره لصالحه ولخير ناسه. والعراق ليس فريداً من نوعه عربياً على هذا الصعيد. ومن هنا تأصُّلْ الثورات وحركات التمرد في تاريخه، وكذلك ثقافة المعاناة المميزة له والتي تنعكس بشفافية كبرى في تراثه الغنائي والروائي

والشعري. ومن هنا حالة التباعد والانفصام ما بين السلطات الحاكمة وبين القواعد الشعبية المحكومة بالعسف والاخضاع في الأعم الأغلب. ومن انكفاء الجماهير المقهورة الى ولاءاتها العصبية حيث تجد الحماية والرعاية. وحيث أنه لم يقم كيان حكم منبثق من قوى المجتمع المنتجة والممثلة للجماهير، فإن الانتماءات العصبية ظلت هي الأقوى، وهي الفاعلة. وتجلى ذلك بعد الاحتلال الأميركي للعراق وتفكيك الدولة، بحيث خلت الساحة للعصبيات المتصارعة على النفوذ والموارد والتجأت كل منها الى قوى خارجية لشد شوكتها في صراعها مع العصبيات الأخرى. وتحول الكيان الوطني العراقي الجامع الى مجرد حلم مستقبلي منشود. وكان ذلك هو الهدف الرئيس من تفكيك الدولة العراقية ومؤسساتها على يد بول بريمر، وبحيث تستنزف قوى العراق وموارده ويتم تناتشها وتسهل السيطرة عليها. وتُلغى إمكانات مواجهة السلطة الغازية التي وضعت اليد على مقدرات الثروة النفطية. تلك أفكار أولية لا تدعي اليقين بحال من الأحوال. وإذا كان لي من رأي فهو التالي: أقترح على علماء النفس والاجتماع العراقيين أن يخرجوا من قواقع الدراسات النظرية التقليدية وأبحاثها العقيمة. وأن ينزلوا الى الميدان فرادى أو ضمن فرق عمل متعددة الاختصاصات لدراسة المجتمع العراقي وديناميات واشكالاته والإنسان العراقي وخصائصه واضطراباته، كما فعل عالم الاجتماع العراقي علي الوردي، وخصوصاً تفعيل قواه الحية الكامنة منها والمعطلة. وأقترح تحديداً أمرين اثنين: يتمثل أولهما بدراسة البنى العصبية للمجتمع العراقي في خصائصها وآليات اشتغالها وكيفية تعطيلها لقيام مجتمع المواطنة، وصولاً الى الوعي بها وتدبر آليات الخروج منها. ويتمثل ثانيها في دراسة صدمات الحرب التي ألمت بالإنسان العراقي ولا تزال بدءً من الحرب العراقية – الايرانية ووصولاً الى الاحتلال الأميركي وانتهاء بداعش وأخواتها، وما أنزلته بالإنسان العراقي من فواجع، وذلك بغية وضع برامج وطنية للصحة النفسية للإنسان العراقي. ويسعدني أن أقوم بدور استشاري على هذين الصعيدين للفرق البحثية العراقية. بذلك يكون علم النفس يقوم بوظيفته الحقة والفاعلة في خدمة مجتمعة وإنسانه.

تغيير النظام التعليمي الحل الوحيد لأزمة الأكاديميَّة العر اقيَّة

حوار مع البروفيسور الدكتور خليل إبراهيم رسول

البروفيسور الدكتور خليل إبراهيم رسول، أستاذ القياس والإحصاء النفسي، أحد أهم أركان الأكاديميَّة العراقيَّة، تتلمذ على يديه مئات الطلبة في الدراسات الأوليَّة والعُليا، وأشرَف على – وناقش – عشرات رسائِل الماجستير وأطاريح الدكتوراه، على امتداد نصف قرن، وكان مِثال العلميَّة الدقيقة والنزاهَة الأخلاقيَّة. والمجلة العراقية لعلم النفس الاجتماعي والسياسي إذ تجري معه هذا الحوار، فبعض من العرفان لعطاءاته الغنيَّة، وصيانة للذات والذاكرة الأكاديميَّة العراقيَّة.

المجلَّة: أستاذنا الكبير، ممتنون بعمق لقبولِك إجراء هذا الحوار، ونتشرَّف بهِ، فأنت أحد أعمدة الأكاديمية العراقيَّة. فننطلق مع حضرتك من البدايات، هل يمكنك أن تحدثنا عن المولِد ومدينته، ودراستك ما قبل الجامعيَّة، وبدايات عملك، والشخصيات – العامة والعائلية - التي تأثرت بها ثقافيَّاً أو دراسيَّاً في تلك المرحلة؟

الدكتور خليل إبراهيم رسول: ولدت في (27-4-1944) في مدينة النجف الاشرف. واكملت الدراسة الابتدائية في مدرسة الرشيد الابتدائية في مدينة الرمادي، والدراسة المتوسطة في متوسطة الخورنق في النجف الاشرف، ومن ثم الدراسة الاعدادية في اعدادية النجف للبنين عام (1963). وهناك اكثر من شخصية تأثرت بها. فعلى المستوى الاسري كانت شخصية جدي الحاج رسول الحاج علي الحلاوي الخفاجي. اذ كنت حفيدا مميزا في الرعاية والحب من بين الاحفاد الاخرين، كوني الحفيد

الاول لكلا الجدين (من الاب ومن الام) وقد تأثرت بسلوكه المنظم داخل البيت وخارجه، وكان يصحبني عند سفره خارج العراق وانا صغير في الصف الخامس الابتدائي، ويضع بعض نقوده عندي لأتعامل بها مع البائعين، واحطت برعاية كبيرة من افراد اسرتي المركبة، كل هؤلاء صقلوا شخصيتي، وكثيرا ما كانوا يبرزونني في المناسبات الاجتماعية والدينية. كما تأثرت كثيرا بشخصيات اجتماعية ودينية في النجف الاشرف وانا طالب في المرحلة الاعدادية منهم آل سلمان الخاقاني وخاصة اخي و صديقي صادق الخاقاني وكان بيتهم ملتقى لبعض الادباء و الشعراء منهم الشاعر السيد مصطفى جمال الدين و الشاعر محمد الهجري والشاعر صالح الظالمي، وكنت احضر معهم المهرجانات الشعرية لميلاد الامام الحسين (ع) في النجف في الجامع الهندي، واستمع الى القصائد التي كان بعضها لا ينال رضى مجموعتي من الشعراء فكانوا يقفون عليها بأبيات تهكمية مثيرة للضحك، وهذه عادة لدى شعراء النجف. وهناك مجموعة من الاساتذة الافاضل الذين درسوا في اعدادية النجف وكانوا مثالا للأستاذ الاب منهم الاساتذة عدنان زوين ، ومحمد علي الحلو ، وعبدالاله الفلوجي ، وموسى العادلي (مدرس الرياضة)، وكنت لاعبا في فريق كرة السلة في اعدادية النجف، ومن ثم منتخب لواء كربلاء وحتى نهاية الدراسة الإعدادية. وعينت معلما في الناصرية وفي مدرسة قروية على قرب اطراف هور الحمار، تلك هي مدرسة الرفعة الابتدائية عند آل جويبر العشيرة العراقية الاصيلة، وذلك بعد ان اكملت الدورة التربوية ذات التسعة اشهر في كربلاء، وكنت ضمن الوجبة الاولى ذات المعدلات الاعلى في الدورة، ولحاجة لواء الناصرية الى المعلمين فقد تم تعييني هناك، وبقيت في مدرسة الرفعة لمدة اربع سنوات، وفي عام (1968) انتقلت الى مدينة النجف، وعينت معاونا في مدرسة التهذيب الابتدائية، ومنها انتقلت الى بغداد وعينت معلما في مدرسة حراء الابتدائية في البياع.

المجلَّة: متى و أين شرعت بدراستك الجامعيَّة الأوليَّة، ولماذا اخترت تخصص علم النفس، ومتى و أين أكملت دراساتك العُليا، ومن هم أبرز الأساتذة الذين تتلمذت على يديهم، وهل هناك مواقف حدثت معهم ظلت عالقة في ذاكرتك؟

الدكتور خليل إبراهيم رسول: قدمت الى الجامعة المستنصرية لإكمال دراستي الجامعية وقبلت فيها عام (1970) في قسم علم النفس للدراسات المسائية، فكنت اداوم صباحا في مدرسة حراء ومساء في الجامعة المستنصرية، ومع ان رغبتي كانت في اللغة العربية الا ان القبول للمعلمين كان في قسم علم النفس في القسم المسائي وعلى نفقتي الخاصة، وكانت الدراسة فيه خمس سنوات الا انني عندما نجحت في الصف الثالث خيرونا بين الاستمرار في السنوات الخمسة او اختبار اربع سنوات مع اضافة مواد دراسية اخرى، فاخترت الاربع سنوات. وبعد حصولي على البكالوريوس وكنت الثاني على مجموعتي قدمت على دراسة الماجستير وقبلت فيها، وكان مشرفي في مرحلة الماجستير استاذي الفاضل الدكتور رؤوف عبد الرزاق العاني وكان عنوان رسالتي "تقييم كتب العلوم و التربية الصحية في المرحلة الابتدائية في ضوء تنميتها للاتجاهات العلمية"، وهي رسالة في تحليل المحتوى انجزت في (1978)، وفيها بنيت تصنيفا للاتجاهات العلمية، وبعد ذلك عينت في قسم علم النفس

مدرسا مساعدا، وتم نقل خدماتي من التعليم الابتدائي الى التعليم الجامعي. ومن ثم اكملت دراسة الدكتوراه في قسم العلوم التربوية والنفسية في كلية التربية، اذ لم تكن هناك دراسات عليا في كلية الآداب، رغم انني حصلت على قبول للدراسة في جامعة "نورث كولورادو" في اميركا الا ان ظروفي الاسرية حالت دون ذلك، وكان مشرفي الاول الاستاذ الدكتور حمد دلي الكربولي رحمه الله، وقد اخترت تخصص القياس النفسي وكانت اطروحتي هي "قياس مستوى الطموح لدى طلبة المرحلة الاعدادية"، أنجزت عام (1984). ومن ابرز الاساتذة الذين تتلمذت على ايديهم استاذي الفاضل الجليل العالم الدكتور عبد الجليل الزوبعي واستاذي الدكتور حمد دلي الكربولي واستاذي الدكتور رؤوف عبدالرزاق العاني، كما تتلمذت على يد اساتذة علماء كبار علما و خلقا في الدراسات العليا منهم عالم الاجتماع الاستاذ حاتم الكعبي والاستاذ العالم الدكتور فؤاد البهي السيد والاستاذ الدكتور رشدي فام منصور، اذ كانا (الدكتور فؤاد والدكتور رشدي) ضمن من استعانت بهم جامعة بغداد اساتذة زائرين للتدريس في الدراسات العليا في التربية وعلم النفس . هذا فضلا عن اخرين اكن لهم كل الحب و الاحترام منهم الاستاذ الدكتور عبدالجبار توفيق البياتي و الاستاذ الدكتور زكريا زكي اثناسيوس والاستاذ الدكتورة باني الناصر استاذة الاحصاء الرائعة والاستاذ الدكتور عبدالرحمن القيسي واخرين ممن طبعوا بصماتهم على شخصيتي العلمية والاجتماعية. ومن المواقف التي لا زالت عالقة في ذهني بل صارت اسلوبا في حياتي العلمية هي صفة التواضع العلمي. اذ كان استاذي الكبير الدكتور عبدالجليل الزوبعي رحمه الله عندما يحدث اشكالا ما في النقاش بيني و بينه يصحبني الى لجنة من الاساتذة الافاضل لطرح الموضوع في حلقة نقاشية علمية حتى يستقر الراي العلمي . وكان هذا ديدن استاذي الجليل حمد دلي الكربولي ايضا الذي كان يحترم طروحاتي وعندما تتعارض مع آرائه كان يقول انت ستدافع عن ذلك في المناقشة، وكنت اقبل ذلك. وكذلك من المواقف التي لا زالت عالقة في الذاكرة، موقف استاذي الجليل الدكتور موفق الحمداني عندما طلب مني ان ادخل ضمن لجنة السمنار للصف الرابع انا وزميلي الاستاذ الدكتور احمد عبداللطيف التي كانت تحت اشرافه، وامتنعت اول الامر كوني لا زلت حديث العهد على مثل هذه الامور، الا انه اصر على ذلك وكان يسمح لي المجال للتحدث قبل الاخرين وهذا ما عزز الثقة بالنفس والاستفادة من العلم والمعرفة و بقيت علاقتي بأساتذتي الافاضل حتى بعد حصولي على الاستاذية انظر اليهم نظرة التلميذ لأستاذه لذلك نلت احترامهم و تقديرهم حتى ان استاذي الجليل الدكتور موفق الحمداني طلب مني ان اقرا مسودة كتابه الذي ترجمه والمعنون "بالشخصية السليمة" وان ابدي عليه بعض الملاحظات. الا انني امتنعت عن ذلك اول الامر احتراما لمنزلة استاذي الا انه اصر على ذلك وفعلا دونت بعض الملاحظات التي نالت اعجابه، وقد شكرني في مقدمة الشكر لكتابه.

المجلَّة: ما تاريخ تعينك في الجامعة، وما أهم المواد الدراسية التي درّستها، وما الدافع وراء تخصصك بالقياس والإحصاء النفسي؟

الدكتور خليل إبراهيم رسول: تعييني في كلية الآداب كان (1978-1979)، اما التخصص في القياس والاحصاء فقد تم بعد اجتماع اساتذة القسم، وكل توجه الى تخصص يلائمه ويغطي حاجة القسم.

وهناك مواد عدة قد درستها في قسم علم النفس منها: علم النفس الصناعي والاختبارات والمقاييس، وعلم النفس العام ، والاحصاء و غيرها، الا انني بعد ان توجهت الى القياس والاحصاء في الدراسات العليا، لم ادرس بعد ذلك غيرهما ولحد الان. والدافع وراء تخصص القياس والاحصاء هو بعد ان غادر الدكتور خلف نصار العراق، وكان يدرس الإحصاء، وعمل استاذا زائرا في اليمن اول مرة، اقترحت عليه ان ادرس الاحصاء فشجعني على ذلك، اما القياس فكانت اطروحتي للدكتوراه في القياس .

المجلَّة: ما أهم الأبحاث والمؤلفات التي قمت بتأليفها، إلى أي مدرسة نفسية تنتمي، وما أهم مشاركاتك في المؤتمرات والندوات والمحافل الثقافية؟

الدكتور خليل إبراهيم رسول: هناك الكثير من الابحاث والدراسات تصل الى اكثر من 100، اما المؤلفات فهي تتجاوز العشرة، منها ما يتعلق بالكتب المنهجية لوزارة التربية كعلم النفس والفلسفة وطرائق البحث والتقويم والقياس وعلم النفس الاجتماعي، ومنها ما يتعلق بالمؤسسات الامنية كالشائعات والراي العام وغيرها . وكتابي الاخير هو الاحصاء في العلوم الانسانية، طرائق معلمية وغير معلمية وقد تفضل بيت الحكمة لطبع الكتاب ولا زال ينتظر الطبع . ورغم قوة النظريات النفسية الا انني اجد نفسي مقتربا من المدرسة المعرفية . ومشاركاتي في المؤتمرات و الندوات والمحافل الثقافية هي الاخرى كثيرة ومتنوعة بين العراق و لبنان وعمان وايران. هذا فضلا عن المشاركة في المجالس البغدادية، خاصة في مجلس الشعر باف في الكرادة الشرقية، والمنتدى الثقافي لنادي الصيد في المنصور.

المجلَّة: ما عدد الرسائل والأطاريح التي أشرفت عليها، وما أهم التجارب الإشرافية، وما عدد الرسائل والأطاريح التي ناقشتها، وما رأيك في واقع المناقشات الحالية؟

الدكتور خليل إبراهيم رسول: اشرفت على اكثر من 50 اطروحة دكتوراه ورسالة ماجستير، وفي موضوعات مختلفة في مجالات القياس. واهم التجارب الإشرافية كانت كثيرة، وعلى سبيل المثال لا الحصر الاشراف الاول لرسالة بناء اختبار الذات للأطفال للطالب جمال حميد قاسم، ورسالة انعام لفتة موسى في الاستقلال على المجال الادراكي والاعتماد عليه، واطروحة اريج جميل حنا عن مقياس العوامل الخمسة الكبار في الشخصية الذي جلب لأول مرة في العراق سنة (1999)، الذي اعتمدت ترجمته العربية للمقياس كما اقرها مؤلفو المقياس كوستا و ماكرا، ومن ثم كان فارس كمال عمر نظمي في رسالته للماجستير عن الاعتقاد بعدالة العالم واطروحته للدكتوراه عن الحرمان النسبي والهوية الاجتماعية، واطروحة عمار عبد علي عن التشوهات المعرفية، ولؤي خزعل جبر مع اطروحته للدكتوراه عن الذاكرة التاريخية والثقافية السياسية، وغير هذا من رسائل وأطاريح لا يتسع المجال لذكرها لان كل رسالة او اطروحة اشرفت عليها كانت تجربة حية ورائعة لذا اعتذر عن ذكر طلبتي الأعزاء. وهناك اكثر من 130 رسالة ماجستير واطروحة دكتوراه ناقشتها، مرة رئيس للجنة واخرى عضوا في لجنة المناقشة، واهم ما أركز عليه فصل الاجراءات واختيار العينة والاداة المستخدمة ومواصفاتها والطرائق الاحصائية المساعدة لمعالجة البيانات والنتائج. وأما واقع

المناقشات الحالية فليس على اتساق واحد، بل يختلف تبعا لتشكيلة لجان المناقشة، الا ان الملفت للنظر ان الرسالة او الاطروحة اذا لم تنل درجة الامتياز ينظر اليها بدرجة اقل، بينما كانت رسائل واطاريح الامتياز تعد بعدد الأصابع، فيما كانت درجة الجيد جدا شائعة وينظر اليها بالتقدير، بل وحتى درجة جيد، وهي رسائل واطاريح جديرة بالإفادة منها .

المجلَّة: ما أهم المناصب واللجان التي توليتها في السياق الأكاديمي؟

الدكتور خليل إبراهيم رسول: لم اتسلم اي موقع اداري علمي في السياق الاكاديمي عدا رئاسة لجنة الترقيات العلمية في كلية الآداب، كي لا اختلف مع اي من زملائي في القسم، وقد نجحت في ذلك طيلة بقائي في قسم علم النفس. اما اللجان الاخرى فكانت كثيرة منها داخل الكلية و خارجها، وكانت في وزارة التربية اربع لجان رئيسية هي لجنة الموهوبين ولجنة المتميزين ولجنة المسرعين ولجنة التربية الخاصة، ولجنة تقويم اداء الجامعات في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ولجنة العلوم الانسانية في جامعة بغداد .

المجلَّة: ما تقييمك لمستوى الدرس والبحث النفسي – الأولي والعالي – الحالي في الجامعات العراقية، وما تفسيرك لذلك المستوى، وهل هناك مقترحات لتطويره؟

الدكتور خليل إبراهيم رسول: كانت الدراسة في بداية السبعينات وحتى التسعينات من القرن العشرين متفاوتة الضبط، وكلما ابتعدنا عن التاريخ كلما ازددنا هبوطا. كان الطالب الجامعي متميزا بين الطلبة خلال الزي الموحد والالتزام العالي بالعلم و المعرفة و الالتزام بالقوانين والدوام ولا تساهل في ذلك. وكنت ولم ازل لا اسمح لطالب بدخول الصف بعد دخولي اليه ولو بدقيقة واحدة، اما في الدراسات العليا فالطالب الذي يتغيب عن محاضرة مادة يوجه اليه انذارا ويعد راسبا في الغياب اذا تكرر غيابه مرة ثانية، وكان الطالب مطالبا بالمواد التي يدرسها والمصادر والمراجع الاخرى المتعلقة بها ويتطلب نجاحه فيها بامتحانين "دور اول و دور ثاني" للمرحلة الواحدة، ولا امتحان ثالث ولا ارجاع للمرقنة قيودهم. وكانت سلطة الاستاذ والقسم سلطة محترمة و مقدرة لا يتدخل فيها حتى وزير التعليم العالي والبحث العلمي، فليس هناك من هو اقوى من الاستاذ في صفه، لا يدخل عليه اي كان الا بأشعار مسبق وبموافقته . ولتطوير واقع المستوى العلمي يتطلب ذلك اصلاح لطبيعة القبول في الكليات وخاصة الدراسات العليا . فليس هناك معيار الا درجة الطالب التي حصل عليها في البكالوريوس او الماجستير للولوج الى الدراسات العليا. و هذا يتطلب اصلاحا شاملا في كل ما يخص التعليم العالي. وهناك ورقة لذلك الاصلاح صدرت في كتاب عندما كان الاستاذ الدكتور منذر الشاوي وزيرا للتعليم العالي والبحث العلمي، ولا اريد ان اطيل كثيرا فالشمس لا تحجب بغربال. وكانت الرسائل و الاطاريح العلمية على درجة كبيرة من اهتمام جامعة بغداد ووزارة التعليم، فعلى سبيل المثال كانت اطروحة الدكتوراه عندما يقر العنوان يعين لها ثلاثة اساتذة مشرفين يقرأون ما يكتبه الباحث واحدا بعد الاخر ويثبتون ملاحظاتهم العلمية، والطالب يناقش تلك المقترحات، ويثبت ما يقتنع بها، وكانت اجور الاشراف تدفع للمشرف الاول اما المشرفان الاخران فلا تدفع لهم أجور. وقد اشرف على اطروحتي للدكتوراه كل من الاساتذة الافاضل الدكتور حمد دلي الكربولي

والدكتور عبدالجليل الزوبعي والدكتور عبد الامير الوكيل رحمهم الله. وكانت ملاحظات الدكتور عبدالجليل الزوبعي هي الاعمق فضلا عن شخصيته العلمية الراقية وتواضعه العلمي وهو في اعلى مراحل الدرجات العلمية. وقد تأثرت بشخصيته المتميزة كثيرا في حياتي الدراسية. الاكاديمية العراقية مرت بأزمات من واحدة لأخرى، الا انها لم تصل الى ما وصلت اليه اليوم. وكما قلت في البداية ان ذلك يحتاج الى اعادة تقويم لكل مراحل الدراسة الجامعية. ولا اعتقد ان هناك حل لذلك الا بتغيير النظام التعليمي، ووضعه على اسس رصينة. فالشهادة اليوم لم تعد للعلم والمعرفة والتقدم العلمي كما كانت بل اصبحت للمنافع الشخصية.

المجلَّة: ما أبرز سمات الفرد والمجتمع العراقي، وما تصوراتك وتفسيراتك لما يعانيه الآن، وكيف تقرأ المستقبل العراقي؟

الدكتور خليل إبراهيم رسول: قد اختلف مع كثير من الآراء حول سمات الفرد والمجتمع العراقي، لست متشائما بل متفائلا، لان مسيرة العراق عبر مراحل الزمن كانت اخفاق وصعود، والمجتمع العراقي مجتمع له خصائص متميزة، وقد لا تجدها عند كثير من الشعوب حتى العربية منها. ورغم المعاناة القاسية لأفراد هذا الشعب في كل متطلبات الحياة، الا انه صابر مكافح حليم، واتقي شر الحليم اذا غضب ، ورغم تشتت الهوية الوطنية الى هويات ثانوية متشعبة الا ان هناك شيء كبير عند اغلبية افراد المجتمع العراقي. وذلك هو العراق. ولذا تعمل كل الجهات المعادية للعراق في الداخل و الخارج على تفتيت هذا الشعب، الا انه سيبقى شامخا كما اراه وكما يقول الشاعر محمد مهدي الجواهري : كأن القيود على معصميه مفاتيح مستقبل زاهر. هذه الأسئلة تثير الشجون، وليس كل ما يعرف يقال، اكتفي بهذا الحد حفاضا على صحتي و صحة المجتمع.

قراءات

نظام التفاهة

آلان دونو

كتاب في غايه الأهمية للفيلسوف والأكاديمي الكندي "آلآن دونو" الكتابُ يُقدمُ قراءةً نقديةً لواقعنا الحالي بحيث يجعلك تُعيدُ النظرَ في تفسيركَ للأشياء. وهو كتاب جديد نسبيا صَدرَ عام 2015 وترجمتهُ الدكتورةُ الكويتية وأستاذة القانون مشاعل عبد العزيز الهاجري عام 2020 ويقع في (365) صفحه ونشرتهُ دار سؤال للنشرِ في بيروت. فإضافةٌ للمقدمة يضمُ هذا الكتاب اربعه فصول وخاتمة: فكرتهُ المحورية: نحنُ نعيش في مرحلةٍ تاريخية غير مسبوقةٍ، تتعلق بسيادةِ نظامٍ ادى تدريجياً الى سيادة التافهين على جميع مفاصل نموذج الدولة الحديثة. ويبدأ "آلآن دونو" كتابهُ بسؤالٍ استفهامي. مَنْ يتحكم اليوم في العلوم والثقافة والتجارة والسياسة؟ ربما نعتقدُ الأفراد الأعلى كفاءةً هُمُ مَنْ يتحكمون، إلاَّ إنَّ "آلآن دونو" لا يتفقُ معك لأنه يعتقد إنَّ العالمَ قدْ سقطَ بيدِ التافهين!! بدون الحاجةِ لاقتحامِ سجن الباستيل او حرق البرلمان الألماني ودون الحاجةِ لإطلاق رصاصةٍ واحدةٍ باتجاه اليابان كما فعلت روسيا! والسؤال كيف يفعلون ذلك؟ هذا هو موضوع الكتاب. والمُترجمةُ قدمتْ في مُقدمةٍ طويلة أشبه ما تكون بملخصٍ للكتابِ امتدت الى 53 صفحه، في مقدمه الكتاب ينصحنا "آلآن دونو" على لسان التافهين الذين تحكموا بالعالم نصيحةُ طريفةً فيها نقدٌ لاذعٌ وساخر لواقعنا اليوم ونصُ هذه النصيحة: ضعْ كُتبك المُعقدةُ جانباً، فكتب المُحاسبة صارت أكثرُ فائدةً؛ لا تكن فخوراً او روحانياً او حتى مُرتاحاً لأنَّ هذا سيظهرك بمظهرِ المغرور، خَفف من شغفك لأنَّهُ مُخيف، وقبل كُل شيءٍ لا تُقدم لنا فكرةً جيدة من فضلك فآلة إتلاف الورق ممتلئةٌ بها سلفاً، وهذه النظرةُ الثاقبةُ في عينيك مُقلقة، وَسْعْ حدقةَ عينيك وأرخي شفتيك، ينبغي ان تكون لك افكارٌ رخوةٌ وينبغي ان يظهر ذلك للآخرين، عندما تتحدث عن نفسك قلل من إحساسك بذاتك، الى شيءٍ لا معنى لهُ، يجب أنْ نكونَ قادرين على تصنيفك. ويستمرُ الكاتبُ بسخريته: لقد تمتْ المهمة بنجاح لقدْ تبوأَ التافهون موقع السلطة!! في المقدمة دائماً يُنبهنا الكاتب الى حقيقة مهمة، يقول "آلان دونو" أنْ يعتقدَ الإنسان نفسهُ حُراً في هذا النظام لا يعني في حقيقته إلا فاعليته كالإنسان فقط، بمعنى إنَّ هذا النظام العالمي الجديد نَجَحَ أنْ يوهمنا إنَّنا

نتصرفُ بحرية وهو بالعكس من ذلك غالباً. في نظام التفاهة ذوي الكفاءة المتوسطة والعادية بفضل العمليات الروتينية التي تفتقرُ لتفكير عال، سرعان ما يجدون أنفسهم يتسنموا ويشغلوا مواقع السلطة مُزيحين بذلك غير الأكفاء وذوي الكفاءة العالية، غير الأكفاء أمرٌ مفروغ منه لأنَّهم غير أكفاء، لكن الغريب كيف يُزيحوا ذوي الكفاءة العاليه؟ الجواب بسيط لانَّ ذوي الكفاءة العالية يُفكرون، والفردُ الذي يُفكرُ من الطبيعي أنهُ ينتقدَ ويرفضَ ويثورَ ويحتجُ أحياناً، وفي أيان أخرى يسعى الى الأبداع بإنتاج الأشياء وهذا لا يرتضيه رؤساء الأعمال عادةً..... فهمُ قلما يحبون الإبداع الابتكار وهم نمطيون في الغالب. ويقولون لنا بشكل مُستتَر واحيانا صريح: أرحْ نفسكَ من التفكير، فنحن نفكر بدلا عنك!!

في الفصل الأول للكتاب والذي حَملَ عنوان المعرفة والخبرة، يتحدثُ "آلان دونو" عن مسالة غاية في الخطورة وهي من المسائل المسكوت عنها او المُعتم عليها او التي يتواطأ فيها الكثيرون... وهي قضيه استعمال الشركات الكبرى للجامعات لأغراض ربحية فهذه الجامعات أصبحت أداةً لما يُسمى بشركاتٌ الضغط السياسي. فهذه الجامعات لمْ تعدْ صانعةً للمعرفة بل تُنتجُ صُناعً مهرةً او خُبراء لشركات مُعينة . وهذه الشركات هي التي تمولُ جزئياً هذه الجامعات وتبعاً لذلك ولعيون الشركات المانحة تفتحُ ماجستير متخصص لإعداد خُبراء في صناعة ثقوب الابر او تصنيع عُلب الكاتشب!! كما تقوم هذه الشركات مثلاً بتمويل أبحاثٍ من قبيل إظهار إنَّ مشروباً غازياً لا يتسببُ بالسمنة! او كثرة التدخين لا يضر بالصحة! وتفسير هذه الجامعات لهاتين المشكلتين الصحيتين تكمنُ في عدم ممارسة الرياضة! وتعلنُ هذه الأبحاث أيضاً بعدم وجود ضرر من استخدام المُبيدات! وهذا كُلهُ كنتاج لدراسات علميه التي أنجزتها تلك الجامعات المرموقة والتي وجدتْ في أنَّهُ لا ضررَ من استخدام المُبيدات!! وهكذا يتمُ إنجاز أبحاث على المقاس معروفة النتائج سلفاً. فالمُهم هو أنْ تبقى جهة التمويل سعيدة. فعندما تُساهم الجامعة بإنتاج طماطم مربعة فهل تُساهم مثلاً بالتعليم والمعرفة؟ هنا لا يتم خدمة التعليم والمعرفة بل هي تُساهم في تطوير الأبحاث لخدمة أرباح تلك الشركات وبالتالي اصبح الطلبة والجامعة نفسها سلعةٌ من السلع تُباعُ وتشترى في سوق المال والاعمال واصبح التكوين المهني واعداد أيدي عاملة جاهزة خياراً استراتيجيا لهذه الشركات العابرة للقارات. فهذه الشركات تحتاجُ لذلك وهنا تنتفي وظيفة الحكومات وترهق ميزانياتها بإنتاج علماء رياضيات وذرة وفضاء وحتى فلاسفة وعلماء اجتماع. واذا أحتج أحدهم او نبه على خطورة هذا الوضع وعلى هذه الوظيفة المشوهة للجامعة يقول "آلان دونو" ينبري الأكاديميون المهذبون ليمارسوا سيطرةً تلاعبية على أيةِ شخصيةِ احتجاجيةٍ رافضةٍ لهذا الفعل من قبل الجامعات.. فتجدهم يخرجون بتحليلاتهم العبقريه التي يُبررون من خلالها لكلِ ما يحدث فيقولون...إنَّ الشخصَ الذي يحتجْ لا يفهم وهو سطحي او عدمي وهو مريض بالانتقاد وليس عنده بُعد نظر!!. فيمارسون عُنفاً رمزياً على المُحتج حتى يبدو في ثياب الغبي او المتخلف؛ وهؤلاء الأكاديميون المهذبون يحاولون إظهار عمقهم الفكري من خلال كتابات معقدة هي أقرب الى الطلاسمِ حتى لا نفهمها ليقولوا للمحتجين: إنَّكم لا تفهمون، ونحن نفهم بدلاً عنكم ولدينا باعُ طويل بالتنظير. هذه الكتابات غير المفهومة يصفها أُستاذ علم النفس بجامعة هارفارد "ستيفن بينكر" بالكتابات المُتعفنة، وهؤلاء الأكاديميون ابتعدوا عن وظيفتهم الأصلية بالتفكير والتعليم والتحفيز المعرفي وأتخرط في لعبة السوق.

وفي الفصل الثاني الذي حَملَ عنوان التجارةَ والتمويل يتحدث "آلان دونو" عن قضية أخرى خطيرة وهي إنَّ السوقَ يتحرك دون الاعتماد على العقل البشري، إنَّهُ يتحرك تبعاً لخوارزمياتٍ تقوم بعملياتها خلال نانو في الثانية. فاصبح السوق أكبر من المُحاسبين البشريين يتحرك دون الاعتماد على العقل البشري والسوق هُنا طَوَرَ آلياتِه والتي جعلتْ رجال الأعمال والخُبراء والمُحاسبين غير قادرين على ضبط او التنبؤ الدقيق بما سيحدث قريباً. لكن اللاعب الأبرز هو الذي يمتلكُ الخوارزميات الأسرع التي تستطيع انتهاز أقل فرصةٍ بلمح البصر لحسم الصراع لصالحها وهكذا اصبحنا نعيشُ في فوضى لا أحد يعرفُ كيف يخرج منها، ثم يذكر "آلان دونو" أمرٌ آخر وهو التقليل من شأن المثقفين والاعلاء من دور الخبراء فالخبير عموماً ولاءهُ ليسَ للفكرةِ لكن لمن يدفع لهُ أكثر، وهؤلاء الخُبراء يُسميهم "آلان دونو" بالملمعين فعندما تتراجع مكانة الفئةُ القليلة المُتحكمة بسبب شُبهات الفساد والاحتيال او التفاهة يُسارع الخُبراء الملمعون الذين يتقاضون رواتبهم من هذه الفئة لتلميع صورتها. وهناء نلحظُ تراجع دور الحكومات امام هذه الشركات العابرة للقارات.

في الفصل الثالث والذي حمل عنوان الثقافة والحضارة يتحدث "آلان دونو" في بدايته عن ضرورة احتواء ما يسميها بالاعتداءات الروحية والتي تبدو لابدَّ منها. إذْ إنَّها مفروضةٌ اجتماعياً. كمثالٍ لها تهنئه زميل فازَ بجائزةٍ غير مهمة او تحية رئيس او مرؤوس تكرههُ او شكلٍ من أشكال المُجاملات التي تجعل الإنسان يعيشها وفق بروتوكولات فارغة من كل مضمون.. فهي لعبةٌ يجب ان نلعبها. ثم يتحدث "آلان دونو" عن الكبت هذا الكبت الذي يُسببُ عدم الراحة. والمالُ يمولُ صنفاً هائلاً منه فالناس يجدُوا انفسهم مُرغمين على البقاءِ صامتين في اوقات هم في أمس الحاجة الى أنْ يصرخوا بسبب ظلمٍ يُشاهدوه أمام اعينهم او أذيٍ يُصيبهم شخصيا فهم مُضطرين للبقاءِ صامتين ويجب أنْ يحرصوا على صمتهم رُغمَ عذابهم النفسي.. لانَّ صاحبَ العمل يُريدهم أنْ يبقوا صامتين. حتى وأنْ لم يُقال لهم ذلك بشكلٍ صريح، فهذه اللعبة نمطيه وتافهة. ويقول "آلان دونو" أذا أردت الحصول على رأيٍ او نصيحةٍ او مشورةٍ فلا تتردد أنْ تسأل رياضياً او فناناً او اي شخصٍ آخر في أي مجالٍ من الذرةِ الى المجرةِ . فقط أحرص على ان يكون هذا الشخص مشهورا !! فلا اشكال ان تسال لاعباً مشهوراً لديه شهادةً ابتدائية فقط يكون مشهور.. ولا تتردد في أن تسألي فنانةٍ مشهورةٍ في حل المشاكل الأُسرية التي قد تتسبب في الطلاق لكنها تمتلكُ حلولا سحريةٍ رُغم انها تطلقت سبع مرات في الطريق لكن هي مشهورة!!! في نظام التفاهة يُصبح التافه ذا شأنٍ وفي القمة.

اما الفصل الرابع والذي حمل عنوان الثورة وإنهاء ما يضرُ بالصالح العام، يخلص في هذا الفصل "آلان دونو" الى وجوب إحداثِ قطيعةٍ مع هذا النظام العالمي الجديد لنُعتقُ أنفسنا وذلك باختلاق ديناميكياتٍ ضارة ومُفتتة لهذا النظام الخرائبي، إنَّها قطيعة جمعية. وقد تظهر في مناطقِ العالمِ حركات نشيطةٌ للمحافظة على البيئة ومحاربة هذا النظام العالمي الذي يؤدي الى التلوث وما يتبعهُ من ظواهرٍ فتاكةٍ تجاه الإنسان والطبيعة او حركات مقاطعة بعض المنتجات التي تسبب امراض قاتلة وحركات مُقاطعة الأدوية وما الى ذلك. وقد نرى هذه الحركات مُضحكة وهي تُذكرنا بمشاهد نضالات الفارس الابله في رواية دون كيشوت وهو يُحارب طواحين الهواء!! لكن مَنْ يدري؟ قدْ يكونوا على حقٍ. ويبقى مُقدمة كل حلٍ هو الوعي بالمشكلةِ والتي كانت محاولة المؤلف وهي الوعي والتشخيص لهذه المشكلة.

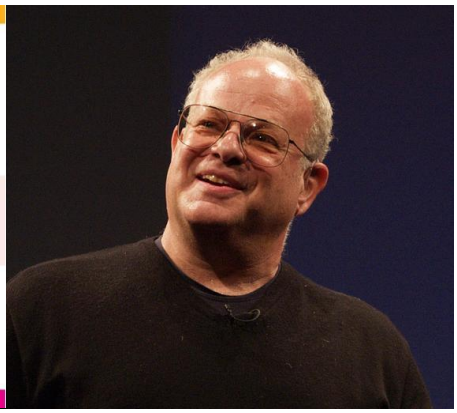

التفاؤل المُكتَسَب

مارتن سيلغمان

كتابٌ مُهمٌ لعالمِ النفسِ الأمريكي والرائدُ لعلم النفس الإيجابي **"مارتن سيلغمان"**. الكتابُ هو الجزء الثالث من لوحةٍ بثلاثةِ أجزاء لـ**"سيلغمان"**؛ الكتابُ الأول حَملَ عنوان **الطفل المُتفائل** والذي صَدرَ عام **1996** والكتاب الثاني هو السعادة الحقيقية والذي صَدَرَ عام **2002**...**والتفاؤلُ المُتعلم** صَدرَ عام **2016** وترجمتهُ ونشرتهُ **مكتبةُ جرير**، ويقع في (320) صفحة.. إضافةٌ للمقدمة بقلمِ المؤلف فالكتاب يضمُ ثلاثة أجزاء...**الجزء الأول** حَمَلَ عنوان **السعي** وفيه أربعة فصول بعناوينِ (اكتسابُ العجز، تفسيرُ المحن، التشاؤمُ المُطلق، كيفَ تُفكر وكيف تشعر) اما **الجزء الثاني** والذي حَمَلَ عنوان **مجالات الحياة** ففيه ستةُ فصولٍ وعناوينها (النجاحُ في العمل، الأطفال والآباء وأصول التفاؤل، المدرسة، الرياضة، الصحة، السياسة والدين والثقافة) أما **الجزء الثالث** والمُعنون **بالتغيرِ من التشاؤمِ الى التفاؤل** فكانتْ عناوين فصولهِ هي (الحياةُ المليئةُ بالتفاؤل، مُساعدة طفلك للهروبِ من التشاؤم، المؤسسة المُتفائلة، التفاؤل المرن) وخُتِمَ الكتاب بمجموعةِ مُلاحظات للكاتب، **وكان سؤال الكتاب المحوري هو: لماذا الأمةَ الأمريكية والأمم المُتقدمة تُعاني من وباء اكتئاب غير مسبوقٍ خاصةً بين الشباب؟ لماذا في أمةٍ لديها مالٌ أكثر وقوة أكثر وكُتبٍ أكثر وتعليم أكثر...الاكتئاب أكثر انتشارا بكثيرٍ مما هو عليه عندما كانت أمة أقل ازدهارا و أقل قوة؟** ويستندُ **"مارتن سيلغمان"** الى أكثر من عشرين عامٍ من البحث الإكلينيكي لتوضيح كيف يُحَسْنُ التفاؤلُ من جودةِ الحياة.. وكيف يُمكْن لأي فردٍ أنْ يتعلمَ ممارسته؟ ويشرحُ في كتابهِ أساليبَ بسيطةً عديدة لكيفية كسر عادة الاستسلام والعجز، ويطورُ التفاؤلُ أسلوبا تفسيرياً بناءً أكثر لترجمة سلوكك والاستفادة من حديثٍ ذاتي أكثر إيجابية ويُمكن لهذه المهارات كسر حلقة الاكتئاب وتعزيز الجهاز المناعي للأفراد وتطوير المهارات للأفضل وإشعارهم بسعادةٍ أكبر...فهو يرى إنَّ البعضَ يعيشُ حياةً سهلةً وسعيدةً وأكثر نجاحاً ويتمتعون بصحةً أفضلُ من الاخرين؛ من المؤكد إنَّنا قد فسرنا ذلك الامر بأنَّهمُ مُجرد اشخاصٍ محظوظين ولكن أذا نظرتَ الى الموضوعِ بشكلٍ مُختلف فإنَّ هذا الحظ الجيد من الممكن أنْ يكون نابعاً من نظرتهم المتفائلةِ والإيجابية للحياة، وهذا بالضبط ما يتناولهُ **"مارتن سيلغمان"** في كتابهِ هذا فهو يُعْدُ الاب الشرعي لحركةِ علم النفس الايجابي تلك الحركة التي بدأتْ بدراسات **"سيلغمان"** والتي أطلقَ عليها **العجز**

المُكتسب ففي واحدةٍ من أشهرِ تجاربهِ في دراسة هذه الظاهرة قامَ **"مارتن سيلغمان"** بتعريضِ مجموعةٍ من الكلابِ لصدماتٍ كهربائيةٍ حيث وَجَدَ بعض من تلك الكلاب اكتسبتْ القدرة على إنهاءِ تلك الصدماتِ من خلالِ الضغطِ على زرٍ مُعينٍ بأنوفهم؛ بينما البعض الاخر من الكلاب لا يستطيعون إيقاف الصدمات الكهربائية مهما حاولوا، الامر الذي زادَ من حَيرةِ **"مارتن سيلغمان"** هو إنَّ تلكَ الكلابَ التي لمْ تتمكنْ من إيقافِ تلك الصدمات الكهربائية في هذه التجربة لمْ تحاولْ ايضاً فيما بعد أنْ تفعلَ اي شيءٍ حتى لو كانت الصدماتِ الاخيرة يسهلُ الفَرارُ منها. بلْ على العكس فضلوا الاستلقاءِ في وضعٍ عاجزٍ، لقد اكتسبتْ الكلاب عجزاً عن التصرف في الخروجِ بنجاحٍ من تلك الوضعية المؤلمة، وباستمرار الابحاث التي استغرقت 30 عاما اكتشفَ إنَّ الافرادَ الذين يُظهرونَ عجزاً بسببِ مشاكلٍ لا حلَ لها يُصبحوا بمرورِ الوقتِ أكثر سلبيةٍ وبطأً في التعلمِ وأكثرُ حُزناً وقلقاً من باقي الاشخاص، من الطبيعي جداً انْ يشعرَ الفرد أحيانا بالعجزِ في حالةِ الهزيمةِ ولكن هناك شيءٌ ما يجعلنا إما انْ نستمرَ في إحساسنا بالعجزِ او نختار المُضيَ قُدماً وهذا الشيء ما يطلق عليه **الاسلوب التفسيري. ما هو الأسلوب التفسيري؟** هناك طريقتان للتفكير وتفسيرِ الاشياءِ من حولنا وهذا يؤثرُ كثيراً على مشاعرنا وعلى حياتنا وسلوكنا بشكل؛ فحياتنا وكلها تتوقف على ما يدور في رؤوسنا لأنَّ أفكارنا هي التي تُحددُ قراراتنا واختياراتنا في الحياة، وحتى على مشاعرنا والطريقة التي نتعاملُ بها مع المواقفِ التي تواجهنا فنحنُ إذا ما واجهنا موقفاً سلبياً في حياتنا نميلُ لتفسيرهِ بطريقتين.. إمْا انْ ننظرَ الى الامرِ بنظرةٍ متفائلةٍ أو بنظرةٍ مُتشائمةٍ. والشيء الذي يُميزُ الاسلوب التفسيري هنا هو **اولاً:** يُعدُ الأفرادَ المتفائلون إنَّ مشاكلَهم مؤقتةٌ بينما يرى المُتشائمون إنَّها دائميةٌ. على سبيل المثال اذا فقدت زبوناً مُهماً تقول لنفسك.. انا دائماً ما افقدُ اهم الزبائن.. استخدامكَ لكلمةِ دائماً هُنا يجعلُ من تفسيرِ كلمةِ دائماً وابداً يجعل من تفسيرك للموقفِ دائمٌ وأبدي وبما إنَّكَ دائماً سوف تفقدهمُ للابدِ ومن ثَمَ فلا داعي لتضييع الوقت في محاولتكَ القادمة؛ في المُقابل اذا ما اعْتَمَدَتَ اسلوبٍ تفسيريٍ تفاؤلي فستنظرُ الى هذا الحدثَ السلبي بأنَّهُ مؤقتٌ و ما هو إلاَّ أمرٌ عابر وستقولُ لنفسكَ...قدْ اكونُ فقدتُ زبوناً واحداً مُهماً.. ولكني سأُحسنُ التصرفَ مع باقي الزبائنِ الاخرين. **ثانياً:** يميلُ الأفرادَ المتفائلون للنظرِ الى المُشكلاتِ باعتبارِها مُحددةٌ بموقفٍ مُعينٍ بينما يتجهُ المتشائمون الى التعميمِ.. فمثلاً اذا ما حَصَلَ طالبٌ ذو تفكيرٍ تشاؤمي على درجةٍ ضعيفةٍ في احدى الموادِ الدراسية...فسيرى إنَّهُ ظُلمٌ.. وسيستمرُ في التفكير بأنَّ هذه الدرجات ظالمةٌ بشكلٍ عام، وبالتالي سيواجهُ صعوبةً شديدةً في الدراسةِ والاستعداد للامتحان التالي؛ في حين أنَّهُ لو فَكَرَ في هذه المشكلة على إنَّها مُحددةٌ بموقفٍ وظروفٍ معينة... فيستطيعُ ان يُركزَ على ذلك الموقف بعينه فمثلاً قدْ يقولُ لنفسهِ.. ربما كانَ هذا الاستاذُ غيرُ عادلٍ في درجاتهِ ولكن باقي الاساتذةِ سيُقدرونَ مجهودي بشكلٍ أفضل، **ثالثاً:** يميلُ المتفائلون للنظرِ الى الأحداثِ السلبية على إنَّها شيءٌ حَدَثَ لأسباب خارجيةٍ اما الاحداث الإيجابية فهي نابعةٌ من أسبابٍ داخليةٍ، في المقابل نجدُ المتشائمين غالباً ما يُفكرونَ بالعكس.. فمثلاً إذا ما قامَ شريكُ حياتكَ بالتخلي عنكَ فقدْ تقولُ لنفسكَ لقدْ هجرني.. لأنني لست كُفءٌ لهُ **او** لأنني لمْ أضحكَ على نِكاتهِ . على الصعيدِ الآخر اذا ما فَكرتَ في هذا الحدثِ السلبي على إنَّهُ قدْ حدثَ لأسبابٍ خارجةٌ عن إرادتكَ فإنَّها ستغيرُ نَظْرَتَكَ تماماً وستقولُ لنَفْسِكَ. إنَّ هذا الشخصَ ببساطةٍ لمْ يكن مُستعداً للارتباطِ الجدي ومن ثَمَ فهذه العلاقةَ كانتْ مضيعةٌ للوقتِ. التفاؤلُ والتشاؤمُ من عاداتِ التفكير ويمكنُ تَعلمها. إنَّ

الاسلوبَ التفسيريَ الخاصَ بكلِ فردٍ فينا مُستَمدٌ من خُلاصةِ تجاربنا في هذه الحياة واعتماداً على الاحداثِ التي اختبرناها والمواقف التي مررنا بها في حياتنا؛ نُصبحُ إمّا أشخاصاً مُتفائلين لدينا إحساسٌ بقدرةِ السيطرةِ على مصائرنا او اشخاصٍ مُتشائمين نشعرُ بعجزِ السيطرةِ على أقدارنا... ومُصداقُ ما تَقدمَ نراهُ بالتجربةِ التي أجراها **"سيلغمان"** فريق من الكلاب حول العجز المكتسب، فعندما خضعتْ مجموعةٌ من الكلابِ لنفسِ الموقفِ السيءِ لأكثر من مرةٍ. هُمْ هُنا تدربوا ليُصبحوا سلبيين ومُتشائمين. .وبالمثلِ ايضاً عِندَ الانسان فعاداتُ التفكير لدينا يتم تعلمِ مِعظَمِها منذ الطفولةِ وبشكلٍ رئيسيٍ من الاباءِ والمُعلمين اذا يميلُ الأطفالِ عادةً لتقليدِ تصرفات الوالدين؛ فانْ كان الوالدين يميلان لتفسيرِ الامور بتشاؤميةٍ فغالباً ما ينشأُ الطفلُ **بالأسلوب التفسيري** نفسه، المعلمون كذلك لهم أكبرُ الأثرِ في حياةِ الاطفال، فمثلاً يقومُ بعض المعلمين بتفسيرِ درجاتِ الصبيانِ والبناتِ بشكلٍ مُختلفٍ فيرجعونَ انخفاضِ درجاتِ الصبيانِ الى عَدم انتباههم في الفصل بشكلٍ كافٍ.. ام البنات فيُخبْرهُنَ بالضعفِ فيما يخصُ الارقام، ونتاجٍ لذلك ينشأُ لدى البنات **أسلوبٌ تفسيري** من الداخل يُشْعرُهنَّ بلَومِ الذات بسببه؛ بعكسِ الصبيان الذينَ ينشأ لديهم **أسلوبٌ تفسيري** من الخارج ولأنَّ **الاسلوبَ التفسيري** الداخلي من شأنهِ انْ يؤدي الى الاكتئاب فربما كان ذلك سبباً بارتفاعِ مُعدلاتِ الاكتئاب لدى الاناث أكثر منهُ لدى الذكور.. ايضاً الازمات التي نواجهها في الحياه لها اثرٌ كبيرٌ في تعلم **الاسلوب التفسيري** فلو تعلمَ الاطفال من اولياءِ أمورِهم والقائمين على رعايتهم إنَّ المشاكل لا تستمر.. وانما كُل شيءٍ سيمر.. وإنَّهمُ سيستطيعون التغلبَ عليها فهذا سيزيدُ من إمكانيةِ تطويرهم **للأسلوب التفسيري التفاؤلي** وهذا يعني إنَّهُ حتى وانْ نشأ الفردُ في أسرةٍ يسودُ فيها **الاسلوب التفسيري التشاؤمي** تبقى أمامهُ الفرصةُ ليُغيرَ من أسلوبه ويكتسبُ أسلوباً تفاؤلياً وذلك من خلال تغييرِ الطريقةِ التي نتحدثُ بها مع أنفسنا، فالتفاؤل يؤسسُ لصحةٍ نفسيةٍ افضل، وللتفاؤلِ آثارٌ إيجابيةٌ اكثر مما نتصور فعلى سبيل المثال يتمتعُ الاشخاص المتفائلون بصحةٍ افضل ومناعةٍ اقوى من الاشخاص المتشائمين....**لماذا؟**

اولاً: مناعةٌ أقوى فعلى سبيلِ المثالِ هُناكَ دراساتٌ أُجريتْ على الفئرانِ أثبتتْ إنَّ المجموعةَ التي يُسيطرُ عليها الشعورُ بالعجزِ تُنتجُ أجهزتها المناعية عدداً اقل من خلايا **T** وهي خلايا شديدة الاهمية للجهاز المناعي؛ ودراساتٌ أخرى أثبتتْ انَّ تغيير الفردِ **لأسلوبهِ التفسيري** واكتسابهِ اسلوباً تفاؤلياً يُحررهُ من الشعورِ بالعجز ومن شأنهِ أنْ يرفعَ من كفاءةِ الجهاز المناعي لدى مرضى السرطان. **ثانياً: نظام صحي أفضل،** نظراً الى إنَّ الاشخاصَ المتفائلين يَغلبُ عليهم النشاطَ واكثر مُقارنةً من المتشائمين لذلك فهم أقدرُ بانْ يلتزموا بنظامٍ صحيٍ أفضل للعنايةِ بأنفسهم ورعايتها لانهم ببساطةٍ يؤمنونَ بأنَّ افعالهم لها تأثيرٌ ايجابي في حياتهم فستجدُ انَّهم يهتمون بالالتزامِ بنظامٍ غذائيا صحيٍ مثلا. من ناحية أخرى يرى الأفراد المُتشائمون.. ألاَّ شيءٍ يفعلوه لهُ أهمية في حياتِهم!! اذن فلماذا يحاولون من البداية اضفْ الى ذلكَ إنَّ المتفائلون يواجهون حوادث سلبيةٍ بشكل أقل من المتشائمين وهي ظاهره عَزاها الباحثون الى سلبيةَ الفرد التشاؤمي فهو يؤمنُ بعدمِ إمكانيته تغيير اي شيء... ولهذا فإنَّ استقبالهُ للمشاكلِ والاحداثِ السيئةِ يُسببُ لهُ ضغطاً عصبياً كبيراً في معانيه جسمه من التوتر المستمر وهذا يؤدي بدوره الى المرض.

ثالثاً: صداقاتٌ دائمةٌ. وهي نقطةٌ قدْ تغيبُ عن الكثيرين.. فالصداقاتُ مفيدةٌ لصحتنا لأنَّ وجودَ صديقٍ يُمكنكَ الوثوقُ به والحديث معه في كل شيءٍ وعن اي شيءٍ.. من شأنهِ مُساعدتكَ في تقليلِ نسبِ

التوترِ والضغطِ النفسي والعصبي والتي تُسببُها الاحداث والمواقف السلبية التي تواجهها، إنَّ المتفائلين اقدرُ من الأفرادِ ذوي الطابعِ التشاؤمي ليس فقط في تكوينِ صداقاتٍ بلْ والاحتفاظ بها، **والتشاؤمُ يُصيبكَ بالاكتئابِ**؛ والاكتئابُ هو مرضُ العصر حيث يُعاني منهُ ما يقرب من **25 %** من تعداد السكان في العالم الغربي او قد يكونوا تعرضوا لشكلٍ من أشكاله.. ولكن لماذا؟؟ **ما هي الاسباب التي تؤدي الى الاكتئاب**؟ من الواضح إنَّ هُناكَ بعض العوامل البيولوجية او الوراثية والمواقفِ السلبية التي نمرُ بها والتي تلعبُ دوراً كبيراً في ذلك ولكن ليست تلك الاسباب وحدها قادرةٌ على تفسيرِ ظاهرةِ الاكتئاب... مثلاً اذا كان أحدُ أشقائكَ مُصاباً بالاكتئابِ فإنَّ ذلكَ يجعلُك أكثرُ عُرضةً للإصابة به ايضاً.. اذن العوامل الجينية لا تكونُ عاملاً قويا وكذلك لا يمكن للأحداث والمواقفِ الحياتيةِ السلبيةِ التي نمرُ بها انْ تكونَ سبباً رئيسياً للتعرضِ للاكتئاب! مع إنَّنا من الطبيعي جداً انْ نواجهُ ذلك ببعض الاعراض البسيطة مثل تغير في الحالة المزاجيةِ لدينا او حتى نصبح مصابين بالخمولِ لبعض الوقت، والكثير من الأفراد لا يستجيبون لمثلِ هذه الاعراض او حتى يصابون بأعراض الاكتئاب الحاد. **الان** اذا لمْ تكنْ العوامل الجينيةَ او الاحداث السلبية هي التي تُنتجُ الاكتئاب... **فما هو السبب؟**

الجواب باختصارٍ يكمنُ في **اسلوبنا التفسيري** للحياةِ.. كيفَ نفكرُ في تلك الاحداث؟ وهذا يُعدُ العاملُ الحاسم فيما اذا كُنا سنكتئبُ امْ لا؟ فعندما نُلقي نظرةً على هذه التجربةِ التي أُجريتْ على بعضِ الأفرادِ الذين وضعوا في غرفةٍ وأُعطيَّ كُلٌ منهم لوحةً مليئةً بالأزرار ثُمَ أثيرتْ ضوضاءٌ شديدةٌ في الغرفةِ وطُلبَ من كُلِ فردٍ أنْ يُحاولَ إيقاف تلكَ الضوضاء بالضغطِ على أي زرٍ من اللوحةِ التي يحملها ولأنَّ كُل الازرارِ التي ضغطوها فشلتْ في إيقافِ تلكَ الضوضاء! فإنَّ بعض اولئك الأفراد أكتَسَبَ شعوراً بالعجزِ في هذا الموقف، بالإضافة الى ظهورِ اعراضِ اكتئاب على بعضهم بعد انتهاء التجربة. في هذه التجربةِ ما يؤيدُ نموذج" **سيلغمان**" في الاكتئاب والذي عَبَرَ عنهُ بقولهِ "إنَّ الاكتئاب هو الاعتقاد بأنَّ جهودكَ كُلها ستذهب أدراج الريح، وقد يكون للفقدِ او الهزيمةِ او للفشل في اصابةِ الفردِ بالاكتئابِ، ولكنْ هذا مرهونٌ باعتقاده بعدم جدوى ما يفعل بمعنى إنَّ مَنْ أعتقدَ من داخلهِ بلا فائدة من اي محاولةٍ للتغيير قدْ يقومُ بها.. أقتربَ بنفسهِ اكثر نحو السقوط في هاويه الاكتئاب. **وأعتمد سيلغمان الأسلوب التفسيري في تجاربهِ وتفسيراته للنجاحات والإخفاقات بالمجال الرياضي وفي تجاربه على الأطفال وعلى الطلبة وعلى الموظفين وكان المتفائلون هم الاكثرُنجاحاً من المتشائمين**.

كيف تصبح متفائلا؟ أحدى الطرق الفعالةِ بشكلٍ خاص للتعاملِ مع الحديثِ السلبي هي ما يسمى بتقنيةِ (ABC) التي طورها عالمُ النفس **"آلبرت آليس"** وتتضمنُ هذه التقنيةُ ثلاثة عناصرٍ **المشكلةُ والمعتقداتُ والعو اقب**. **أولاً:** من المهمِ جداً انْ تُراقبَ نفسك جيدا من اجلِ انْ تُلاحظَ العلاقةَ بين تلك العناصر الثلاثة.. ولنفهم ما العلاقة بينهم؟ وكمثالٍ قدْ يُصادفنا جميعاً في حياتنا.. **المشكلة** حبيبك لا يردُ على مُكالمتك الهاتفية، **الاعتقاد هو** او **هي** لا تحبني. ربما نُكاتهُ ليستْ مُضحكة بالنسبة لهُ او لها... انا قبيح او قبيحةٌ، **العو اقب** انْ تشعرَ بالاكتئابِ طوال اليوم! من المُهمِ مبدئياً.. أنْ تُراقبَ نفسكَ جيداً حتى تتبينَ هذه العناصرَ الثلاثة لتلكَ المُشكلات التي تواجُهكَ في حياتكَ وهذا ليس بالأمرِ السهل، لأنَّ أغلبَ حديثنا الذاتي هو في اللاوعي ومع ذلك فعليك انْ تحاولَ الاستماع الى حديثكَ الذاتي وانْ تجدَ على الاقل خمسَ

مُشكلاتٍ من هذا النوع وتحللَ العناصر الثلاثة في كل مرةٍ حتى تُلاحظَ آثارها السلبية على حياتك...ولكي تفعل ذلك حاول تسجيلَ العناصر الثلاثة وانت تتصفح حديثك مع نفسك. ويبدأ **"سيلغمان"** شرحاً أوسع لهذه العناصر الثلاثة، **المشكلة** وهي التي تصفُ تحدي او الصعوبةَ التي تواجهكَ أياً ما كانت.. **الاعتقاد** يتعلقُ بكيفية ترجمة كل تلك المواقف، وهنا من المهم التمييز بين الافكار والمشاعر تُعدُ من العواقب. كيفَ كانَ عليك أنْ تُفكرَ نتيجةٍ للمشكلةِ والاعتقاد؟ وكيف كان شعورك؟ عندما تستطيع تسجيل هذه العناصر في حياتك فسيكون بإمكانكَ تغييرُها.. ان حياتنا مليئةٌ بهذه الامثلةِ الحاملةِ لهذه العناصر الثلاث، يَخْلُصُ **"سيلغمان"** في نهايةِ كتابه الى إنَّ التفاؤلَ والتشاؤمَ هُما ردودَ أفعالٍ مُكتسبةِ تُجاه المواقف الحياتيةِ الصعبةِ إلاَّ إنَّ التفاؤلَ في حدِ ذاتهِ يكون أفضل لصحتنا العقليةِ والجسديةِ والأفراد المُتفائلون يعيشون حياةً أسعد وأكثرُها نجاحاً. ويرى **"سيلغمان"** إنَّ هذه أسباباً كافيةً لأنْ يسعى الفرد ليكونَ مُتفائلاً.. فعندما تواجهُ موقفاً صعباً فَكْرْ في تلك العناصر الثلاثة.. **المُشكلة والاعتقاد والعو اقب..** فاذا ما أفسدتْ في يومٍ ما النظام الغذائي الذي تتبعهُ بأكلكَ قطعةِ حلوى لا تقلْ لنفسكَ... انا لنْ انجحَ ابداً في انقاصِ وزني.. بلْ قُلْ.. لقد ضعفتْ عزيمتي اليوم ولكن سأبدأ ثانيةً من الغد وسأحققُ نتائجَ أفضل.

Iraqi Journal of Social and Political Psychology

A scientific journal issued by **Iraqi Association for Political Psychology**

نحو ثقافة سياسية إنسانية تحقق كرامة المجتمع وعقلانية الدولة

الجمعية العراقية لعلم النفس السياسي، جمعية مدنية عراقية غير حكومية، ذات شخصية قانونية مستقلة، تهدُف إلى: (1) **دراسة وتحليل** المشكلات والظواهر النفسية الناتجة عن تبادل التأثير بين السياسة والمجتمع، و(2) **تقديم المشورة** العلمية للمؤسسات الرسمية وغير الرسمية، و(3) **نشر ثقافة** سياسية مجتمعية إنسانية، و(4) **تبصير الإنسان** بمشكلاته الانفعالية والادراكية ذات الأساس السياسي والاجتماعي، و(5) إقامة **أواصر تنسيقية** وتفاعلية مع مراكز الأبحاث وأقسام العلوم الاجتماعية في الجامعات، و(6) تنشيط **العمل الأكاديمي** المشترك في اختصاصات علوم النفس والاجتماع والسياسة والتأريخ، لاجتراح تصورات فكرية أكثر عمقاً عن مجمل التأريخ السياسي والاجتماعي للعراق.

ISBN 978-9922-9627-7-1